التدبر والبيان

في

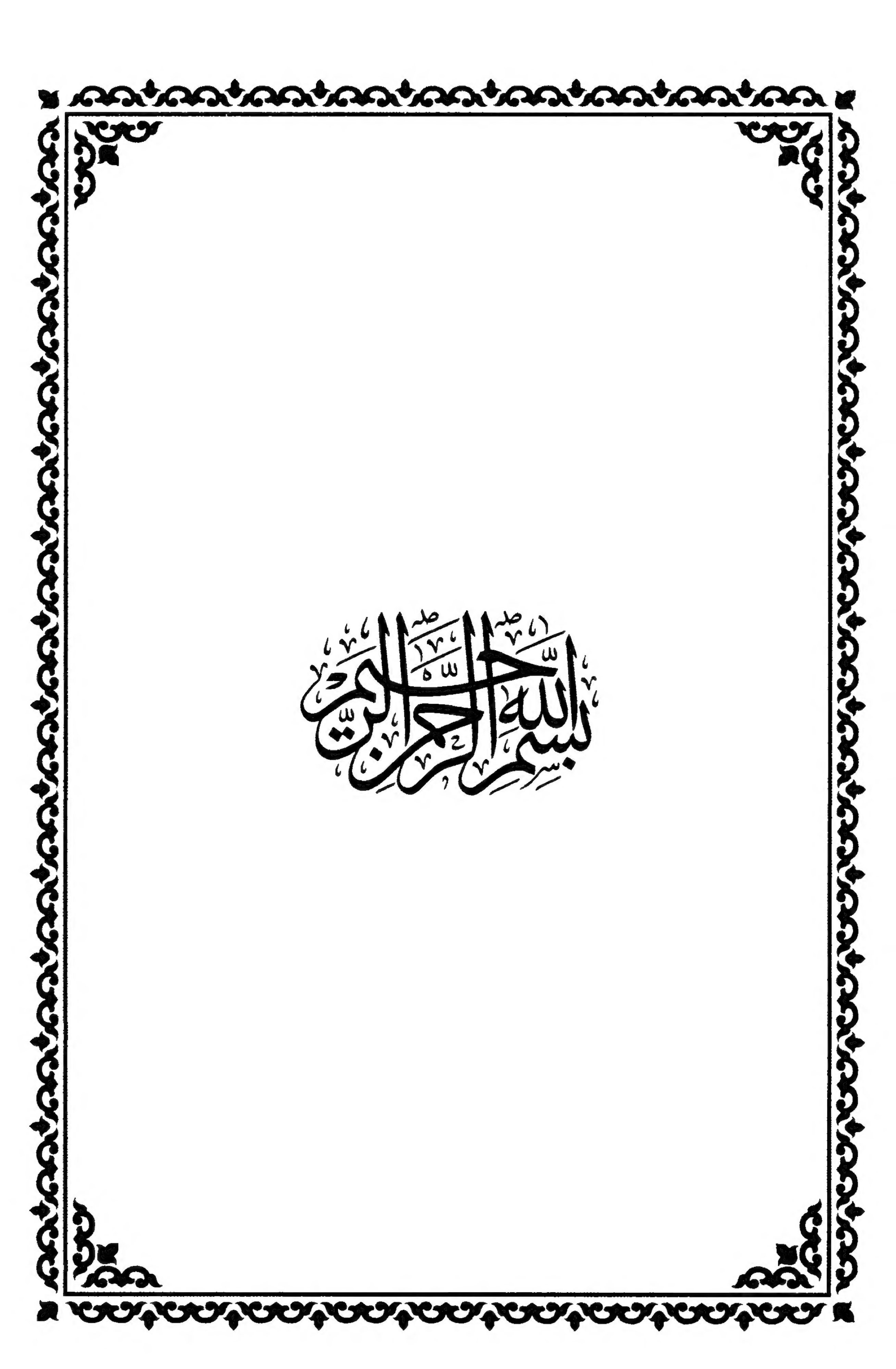
تفسير القرآن بصحيح السنن

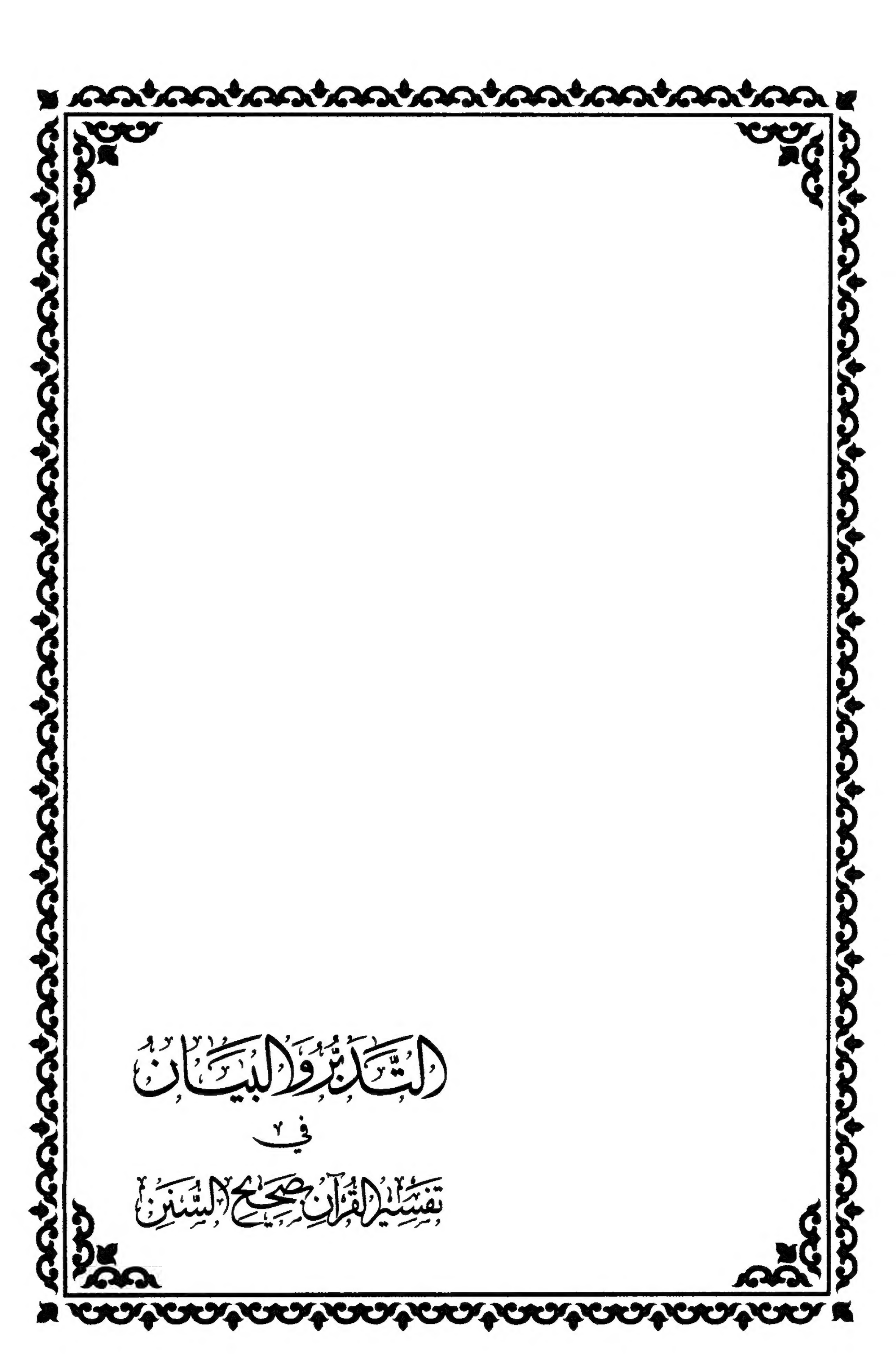
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد التاسع والعشرون

الزمر - غافر


بسم الله الرحمن الرحيم


التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن



الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ ـ ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 عدد الصفحات (40 مجلداً)

Size 17x24 cm قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنـــان

Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ ـ ١٤٧ ـ ٣٣ ـ ٩٩٥٤ ـ ٩٧٨



سورة الزمر

قال القاسمي: «سميت بها لاشتمالها على الآية التي ذكر فيها زمر الفريقين، المشيرة إلى تفصيل الجزاء، وإلزام الحجة، وبطلان المعذرة، وهذا من أعظم مقاصد القرآن، قاله المهايميّ»[1].

قال البقاعي: «ومقصودها الدلالة على أنه سبحانه صادق الوعد، وأنه غالب لكل شيء، فلا يعجل؛ لأنه لا يفوته شيء، ويضع الأشياء في أوفق محالها، يعرف ذلك أولوا الألباب المميزون بين القشر واللباب، وعلى ذلك دلت تسميتها (الزمر)؛ لأنها إشارة إلى أنه أنزل كلا من المحشورين داره المعدة له بعد الإعذار في الإنذار، والحكم بينهم بما استحقته أعمالهم عدلا منه سبحانه في أهل النار، وفضلا على المتقين الأبرار، وكذا تسميتها (تنزيل) لمن تأمل آياتها، وحقق عبارتها وإشارتها، وكذا (الغرف) لأنها إشارة إلى حكمه سبحانه في الفريقين أهل الظلل النارية، والغرف النورية، تسمية للشيء بأشرف جزئيه، فالقول فيها كالقول في الزمر سواء، ويزيد أهل الغرف ختام آيتهم، وعد اللَّه لا يخلف اللَّه الميعاد»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل سورة (الزمر)

* عن عائشة ﵂ قالت: «كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ (الزمر) و(بني إسرائيل)»[3].

---

(١) محاسن التأويل (١٤/ ١٩٤).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٤٣٦).

(٣) أخرجه: الترمذي (٥/ ٤٤٣/ ٣٤٠٥) و(٥/ ١٦٦/ ٢٩٢٠) وقال: «هذا حديث حسن غريب» واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٤/ ١١٤٤٤)، وصححه ابن خزيمة (٢/ ١٩١/ ١١٦٣)، والحاكم (٢/ ٤٣٤)، وسكت عنه الذهبي.

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث استحباب قراءة بني إسرائيل والزمر كل ليلة استنانًا بالنبي ﷺ . . »[١].

ومحل قراءتها هو قبل النوم يقول المباركفوري: «« **لا ينام حتى . .** » الحديث؛ أي: لم يكن من عادته النوم قبل قراءتها»[٢].

* عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «**أعطيت مكان التوراة السبع، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل**»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

والغرض من إيراد هذا الحديث هو أن سورة الزمر من السور المثاني التي أوتيها النبي ﷺ مكان الإنجيل **قال ابن جرير**: «والسبع الطُّوَل: البقرةُ، وآل عِمْران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، في قول سعيد بن جبير . . وإنما سميت هذه السور السبعَ الطُّوَل، لطولها على سائر سُوَر القرآن.

وأما «المئون: فهي ما كان من سور القرآن عددُ آيه مئة آية، أو تزيد عليها شيئًا أو تنقص منها شيئًا يسيرًا.

وأما «المثاني: فإنها ما ثَنَّى المئين فتلاها، وكان المئون لها أوائلَ، وكان المثاني لها ثواني. وقد قيل: إن المثاني سميت مثاني، لتثنية اللَّه -جل ذكره- فيها الأمثالَ والخبرَ والعبرَ . . ورُوي عن سعيد بن جبير أنه كان يقول: إنما سميت مثاني لأنها ثنيت فيها الفرائض والحدود . . وقد قال جماعة يكثر تعدادهم: القرآن كله مَثانٍ.

---

(١) أفاده ابن خزيمة في صحيحه.

(٢) تحفة الأحوذي (٩/ ٢٤٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٠٧)، وأبو داود الطيالسي (١/ ١٣٦/ ١٠١٢)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٧٥-٧٦/ ١٨٦-١٨٧)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٤٥٦/ ٢٤١٥) وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٦) وقال: رواه أحمد وفيه عمران القطان وثقه ابن حبان وغيره وضعفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات. قال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٤٨٠): «فالحديث بمجموع طرقه صحيح».

وقال جماعة أخرى: بل المثاني فاتحة الكتاب، لأنها تُثْنَى قراءتُها في كل صلاة. . وبمثل ما جاءتْ به الرواية عن رسول اللَّه ﷺ في أسماء سور القرآن التي ذُكرَتْ؛ جاء شعرُ الشعراء. فقال بعضهم:

حَلفتُ بالسَّبع اللّواتي طُوِّلتْ وبِمِئينَ بعدَها قد أُمْئِيَت
وبمَثانٍ ثُنِّيتْ فكُرِّرتْ وبالطَّواسِينِ التي قد ثُلِّثَتْ
وبالحَوامِيم اللَّوَاتِي سُبِّعتْ وبالمفصَّلِ اللَّواتِي فُصِّلتْ

قال أبو جعفر -رحمة اللَّه عليه-: وهذه الأبيات تدل على صحّة التأويل الذي تأوَّلناه في هذه الأسماء.

وأما «المفصَّل»: فإنها سميت مفصَّلا لكثرة الفصول التي بين سورَها بـ«بسم اللَّه الرحمن الرحيم»[1].

* * *

(١) جامع البيان (١/ ٤٥-٤٦).

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد دل استقراء القرآن العظيم، على أن اللَّه -جل وعلا- إذا ذكر تنزيله لكتابه، أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى، المتضمنة صفاته العليا.

ففي أول هذه السورة الكريمة، لما ذكر تنزيله كتابه، بين أنَّ مبدأ تنزيله كائن منه -جل وعلا-، وذكر اسمه اللَّه، واسمه العزيز، والحكيم، وذكر مثل ذلك في أول سورة الجاثية، في قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[١] وفي أول سورة الأحقاف في قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[٢] الآية.

وقد تكرر كثيرًا في القرآن، ذكره بعض أسمائه وصفاته، بعد ذكر تنزيل القرآن العظيم، كقوله في أول سورة غافر: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾[٣] وقوله تعالى في أول فصلت: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾[٤]. وقوله تعالى في أول هود: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾[٥] وقوله في فصلت: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٦] وقوله تعالى في صدر يس: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾[٧] وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤﴾[٨] الآية.

---

(١) الجاثية: الآيات (١-٣).
(٢) الأحقاف: الآيات (١-٣).
(٣) غافر: الآيات (١-٣).
(٤) فصلت: الآيتان (١و٢).
(٥) هود: الآية (١).
(٦) فصلت: الآيتان (٤١و٤٢).
(٧) يس: الآيتان (٥و٦).
(٨) الحاقة: الآيتان (٤٣و٤٤).

ولا يخفى أن ذكره -جل وعلا- هذه الأسماء الحسنى العظيمة، بعد ذكره تنزيل هذا القرآن العظيم، يدل بإيضاح على عظمة القرآن العظيم، وجلالة شأنه وأهمية نزوله، والعلم عند اللَّه تعالى»[١].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن عظمة القرآن، وجلالة من تكلم به ونزل منه، وأنه نزل من اللَّه العزيز الحكيم؛ أي: الذي وصفه الألوهية للخلق، وذلك لعظمته وكماله، والعزة التي قهر بها كل مخلوق، وذل له كل شيء، والحكمة في خلقه وأمره.

فالقرآن نازل ممن هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف، فكما أن اللَّه تعالى هو الكامل من كل وجه، الذي لا مثيل له، فكذلك كلامه كامل من كل وجه لا مثيل له، فهذا وحده كاف في وصف القرآن، دال على مرتبته»[٢].

قال ابن عاشور: «والتعريف في الكتاب للعهد، وهو القرآن المعهود بينهم عند كل تذكير وكل مجادلة. وأجرى على اسم الجلالة الوصف بـ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ للإيماء إلى أن ما ينزل منه يأتي على ما يناسب الصفتين، فيكون عزيزًا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾؛ أي: القرآن عزيز غالب بالحجة لمن كذّب به، وغالب بالفضل لما سواه من الكتب من حيث إن الغلبة تستلزم التفضل والتفوق، وغالب لبلغاء العرب إذ أعجزهم عن معارضة سورة منه، ويكون حكيمًا مثل صفة منزّله.

والحكيم: إمّا بمعنى الحاكم، فالقرآن أيضًا حاكم عن معارضيه بالحجة، وحاكم على غيره من الكتب السماوية بما فيه من التفصيل والبيان، قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[٣].

وإمّا بمعنى: المحكم المتقن، فالقرآن مشتمل على البيان الذي لا يحتمل الخطأ، وإما بمعنى الموصوف بالحكمة، فالقرآن مشتمل على الحكمة كاتصاف منزّله بها. وهذه معان مرادة من الآية فيما نرى، على أن في هذين الوصفين إيماء

---

(١) أضواء البيان (٦/ ٣٥١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٤٣).

(٣) المائدة: الآية (٤٨).

إلى أن القرآن معجز ببلاغة لفظه، وبإعجازه العلمي، إذ اشتمل على علوم لم يكن للناس علم بها.

وفي وصف ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ إيماء إلى أنه أنزله بالحكمة وهي الشريعة ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾(١). وفي هذا إرشاد إلى وجوب التدبر في معاني هذا الكتاب؛ ليتوصل بذلك التدبر إلى العلم بأنه حق من عند الله، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(٢)»(٣).

* * *

---

(١) البقرة: الآية (٢٦٩).

(٢) فصلت: الآية (٥٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣١٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ إنا أنزلنا إليك يا محمد الكتاب، يعني بالكتاب: القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يعني بالعدل، يقول: أنزلنا إليك هذا القرآن يأمر بالحقّ والعدل، ومن ذلك الحق والعدل أن تعبد اللّٰه مخلصا له الدين، لأن الدين له لا للأوثان التي لا تملك ضرا ولا نفعا»[1].

قال السعدي: «فنزل بالحق الذي لا مرية فيه، لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور، ونزل مشتملا على الحق في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة، فكل ما دل عليه فهو أعظم أنواع الحق، من جميع المطالب العلمية، وما بعد الحق إلا الضلال.

ولما كان نازلا من الحق، مشتملا على الحق لهداية الخلق، على أشرف الخلق، عظمت فيه النعمة وجلّت، ووجب القيام بشكرها، وذلك بإخلاص الدين لله»[2].

قال الشنقيطي: «والإخلاص، إفراد المعبود بالقصد في كل ما أمر بالتقرب به إليه، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون الإخلاص في العبادة لله وحده لا بد منه، جاء في آيات متعددة، وقد بين -جل وعلا- أنه ما أمر بعبادة إلا عبادة يخلص له العابد فيها.

أما غير المخلص فكل ما أتى به من ذلك، جاء به من تلقاء نفسه، لا بأمر ربه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[3] الآية، وقال -جل وعلا-: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢﴾[4] إلى قوله

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٩٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٤٤).

(٣) البينة: الآية (٥).

(٤) الزمر: الآيتان (١١و١٢).

تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾[١]»[٢].

قال ابن عاشور: «وهذا إيماء إلى أن إنزال الكتاب عليه نعمة كبرى تقتضي أن يقابلها الرسول ﷺ بالشكر بإفراده بالعبادة، وإيماء إلى أن إشراك المشركين باللّه غيره في العبادة كفر لِنِعَمِه التي أنعم بها، فإن الشكر صرف العبد جميع ما أنعم اللّه به عليه فيما خلق لأجله، وفي العبادة تحقيق هذا المعنى قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[٣]»[٤].

قلت: لا شك أن ما قاله هذا المفسر في هذا التوجيه هو عين الصواب والعدل؛ فإن الذي أنعم هو الذي يستحق الشكر، والذي لا ينعم لا حاجة لنا به، فالأوثان كيفما كان نوعها وشكلها ليست لها نعمة على عابديها فلا هي خالقة ولا رازقة، ولا تحيي ولا تميت، فعبادتها عبث واضح، والعبادة كلها لمن يملك النفع والضر والموت والحياة والنصر. اللهم وفقنا لإخلاص العبادة لك.

قال الشوكاني: «وفي الآية دليل على وجوب النية وإخلاصها عن الشوائب؛ لأن الإخلاص من الأمور القلبية التي لا تكون إلا بأعمال القلب»[٥].

* * *

(١) الزمر: الآيتان (١٤و١٥).
(٢) أضواء البيان (٦/ ٣٥٢).
(٣) الذاريات: الآية (٥٦).
(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣١٦).
(٥) فتح القدير (٤/ ٦٣٠).

قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾

★غريب الآية:

زلفى: المنزلة والحظوة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «وجملة: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإخلاص؛ أي: إن الدين الخالص من شوائب الشرك وغيره هو لله، وما سواه من الأديان، فليس بدين الله الخالص الذي أمر به. قال قتادة: الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله»[1].

وفي هذه الآية يقول السعدي: «بيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه، وأمرهم به؛ لأنه متضمن للتأله لله في حبه وخوفه ورجائه، والإنابة إليه في عبوديته، والإنابة إليه في تحصيل مطالب عباده.

وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها، دون الشرك به في شيء من العبادة. فإن الله بريء منه، وليس لله فيه شيء، فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مُشْقٍ للنفوس غاية الشقاء، فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص، نهى عن الشرك به»[2].

قال البقاعي: «فكما تفرد بأن خلقك وخلق كل ما لك من شيء، فكذلك ينبغي

---

(١) فتح القدير (٤/ ٦٣٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٤٤-٤٤٥).

أن تفرده بالطاعة، ولأنه إذا عبده أحد مخلصًا كفاه كل شيء، وأما غيره فلو أخلص له أحد لم يمكن أن يكفيه شيئًا من الأشياء، فضلًا عن كل شيء، والدين الذي هو أهل للإخلاص هو الإسلام الذي كان في كل ملة، المنبني على القواعد الخمس، المثبتة بالإخلاص المحض، الناشئ من المراقبة في الأوامر والنواهي، وجميع ما يرضي الشارع للدين أو يسخطه، فتكون جملته لله من غير شهوة ظاهرة أو باطنة في شهرة ولا غيرها، وإنما استحقه سبحانه دون غيره؛ لأنه هو الذي شرعه، ولا أمر لأحد معه، فكيف يشركه من لا أمر له بوجه من الوجوه، وأما ما كان فيه أدنى شرك فهو رد على عامله، واللَّه غني حميد، وهذه كما ترى مناداة لعمري تخضع لها الأعناق، فتنكس الرؤوس، ولا يوجد لها جواب إلا بنعم وعزته وكبريائه وعظمته، قال القشيري: وما للعبد فيه نصيب فهو عن الإخلاص بعيد، اللهم إلا أن يكون بأمره، فإنه إذا أمر العبد أن يحتسب الأجر على طاعته فأطاعه لا يخرج عن الاحتساب باحتسابه أمره فيه، ولولا هذا لما صح أن يكون في العالم مخلص»[1].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾:

يقول ابن كثير: «ثم أخبر تعالى عن عُبّاد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ أي: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند اللَّه في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به.

قال قتادة والسدي، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ أي: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة.

ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك. وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين، بردها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن اللَّه فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٤١-٤٤٢).

عـــــه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[١] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[٢].

وأخبر أن الملائكة التي في السموات من المقربين وغيرهم، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾[٣] تعالى الله عن ذلك»[٤].

قال السعدي: «فهؤلاء قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص، وتجرأوا على أعاظم المحرمات، وهو الشرك، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء، الملك العظيم، بالملوك، وزعموا بعقولهم الفاسدة، ورأيهم السقيم، أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء وشفعاء، ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم، ويستعطفونهم عليهم، ويمهدون لهم الأمر في ذلك، أن الله تعالى كذلك.

وهذا القياس من أفسد الأقيسة، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق، مع ثبوت الفرق العظيم، عقلا ونقلا وفطرة، فإن الملوك إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم، لأنهم لا يعلمون أحوالهم. فيحتاجون إلى من يعلمهم بأحوالهم، وربما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة، فيحتاج من يعطفهم عليه ويسترحمه لهم، ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقضون حوائج من توسطوا لهم، مراعاة لهم، ومداراة لخواطرهم، وهم أيضًا فقراء، قد يمنعون لما يخشون من الفقر.

وأما الرب تعالى، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاج من يخبره بأحوال رعيته وعباده، وهو تعالى أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاج إلى أحد من خلقه يجعله راحما لعباده، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، وهو الذي يحثهم ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم، وهو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد واحد فسألوه،

---

(١) النحل: الآية (٣٦).
(٢) الأنبياء: الآية (٢٥).
(٣) النحل: الآية (٧٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٨٤-٨٥).

فأعطى كلا منهم ما سأل وتمنى، لم ينقصوا من غناه شيئًا، ولم ينقصوا مما عنده، إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط. وجميع الشفعاء يخافونه، فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه، وله الشفاعة كلها.

فبهذه الفروق يعلم جهل المشركين به، وسفههم العظيم، وشدة جراءتهم عليه. ويعلم أيضًا الحكمة في كون الشرك لا يغفره اللَّه تعالى، لأنه يتضمن القدح في اللَّه تعالى»[١].

وفي هذه الآية وجوب تجريد العبادة لله تعالى يقول **شيخ الإسلام** في معرض كلامه على من خالف هذا الأصل: «وقسم ثان غلوا في الأنبياء والصالحين، وفي الملائكة أيضًا، فجعلوهم وسائط في العبادة، فعبدوهم ليقربوهم إلى اللَّه زلفى، وصوروا تماثيلهم، وعكفوا على قبورهم، وهذا كثير في النصارى ومن ضاهاهم من ضلال أهل القبلة، ولهذا ذكر اللَّه هذا الصنف في القرآن في (آل عمران)، وفي (براءة)، في ضمن الكلام على النصارى، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[٤] وهذا الذي أمره اللَّه أن يقوله لهم هو الذي كتب إلى هرقل ملك الروم.

وهؤلاء قد يظنون أنهم إذا استشفعوا بهم شفعوا لهم، وأن من قصد معظما من الملائكة والأنبياء فاستشفع به شفع له عند اللَّه، كما يشفع خواص الملوك عندهم، وقد أبطل اللَّه هذه الشفاعة في غير موضع من القرآن، وبين الفرق بينه وبين خلقه،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٤٥-٤٤٧).

(٢) آل عمران: الآيتان (٧٩و٨٠).

(٣) التوبة: الآية (٣١).

(٤) آل عمران: الآية (٦٤).

فإن المخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه، ويقبل الشفاعة لرغبة أو رهبة، أو محبة أو نحو ذلك، فيكون الشفيع شريكا للمشفوع إليه، وهذه الشفاعة منتفية في حق الله، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[2].

وهؤلاء يحجون إلى قبورهم ويدعونهم، وقد يسجدون لهم، وينذرون لهم، وغير ذلك من أنواع العبادات، وهؤلاء أيضًا مشركون، وأكثر المشركين يجمعون بين التكذيب ببعض ما جاؤوا به وبين الشرك، فيكون فيهم نوع من الشرك بالخالق، وتكذيب رسله، ومنهم من يجمع بين الشرك والتعطيل، فيعطل الخالق، أو بعض ما يستحقه من أسمائه وصفاته.

فأصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة، ليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء، بل يثبتون أنهم وسائط في التبليغ عن الله، ويؤمنون بهم، ويحبونهم، ولا يحجون إلى قبورهم، ولا يتخذون قبورهم مساجد، وذلك تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإظهار ذكرهم وما جاؤوا به هو من الإيمان بهم، وإخفاء قبورهم لئلا يفتن بها الناس، هو من تمام التوحيد، وعبادة الله وحده»[3].

وليس في تحريم التوجه بالعبادة للأنبياء والصالحين والملائكة حط من قدرهم، ولا إنزال لهم عن مراتبهم، كما يدعيه المشركون وعباد القبور، إذ هناك فرق بين تجريد التوحيد، وهضم أهل المراتب مراتبهم، وفي بيان ذلك يقول **شيخ الإسلام ابن القيم** رحمه الله: «الفرق بين تجريد التوحيد وبين هضم أرباب المراتب أن تجريد التوحيد أن لا يعطى المخلوق شيئًا من حق الخالق وخصائصه، فلا يعبد ولا يصلى له، ولا يسجد ولا يحلف باسمه، ولا ينذر له، ولا يتوكل عليه، ولا يؤله، ولا يقسم به على الله، ولا يعبد ليقرب إلى الله زلفى، ولا يساوى برب العالمين في قول القائل: ما شاء الله وشئت، وهذا منك ومن الله، وأنا بالله وبك، وأنا متوكل على الله وعليك، والله لي في السماء وأنت في الأرض، وهذا من صدقاتك

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٢) الأنبياء: الآية (٢٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٢٨٣-٢٨٤).

وصدقات اللَّه، وأنا تائب إلى اللَّه وإليك، وأنا في حسب اللَّه وحسبك، فيسجد للمخلوق كما يسجد المشركون لشيوخهم، يحلق رأسه له، ويحلف باسمه، وينذر له، ويسجد لقبره بعد موته، ويستغيث به في حوائجه ومهماته، ويرضيه بسخط اللَّه، ولا يسخطه في رضا اللَّه، ويتقرب إليه أعظم مما يتقرب إلى اللَّه، ويحبه ويخافه ويرجوه أكثر مما يحب اللَّه ويخافه ويرجوه أو يساويه، فإذا هضم المخلوق خصائص الربوبية، وأنزله منزلة العبد المحض الذي لا يملك لنفسه -فضلًا عن غيره- ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، لم يكن هذا تنقصًا له، ولا حطًّا من مرتبته، ولو رغم المشركون، وقد صح عن سيد ولد آدم -صلوات اللَّه وسلامه عليه- أنه قال: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد اللَّه ورسوله»**[(١)]. وقال: **«أيها الناس! ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي»**[(٢)]. وقال: **«لا تتخذوا قبري عيدا»**[(٣)]. وقال: **«اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد»**[(٤)]. وقال: **«لا تقولوا: ما شاء اللَّه وشاء محمد»**[(٥)] وقال له رجل: ما شاء اللَّه وشئت، فقال: **«أجعلتني لله ندا؟»**[(٦)] وقال له رجل قد أذنب: **«اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد، فقال عرف الحق لأهله»**[(٧)]. وقد قال اللَّه له: ﴿لَيْسَ لَكَ

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣)، والبخاري (٦/ ٥٩١/ ٣٤٤٥)، والترمذي في الشمائل رقم (٢٨٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٥٣و٢٤١و٢٤٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٧٠-٧١/ ١٠٠٧٧و١٠٠٧٨)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٤/ ١٣٣/ ٦٢٤٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٧)، وأبو داود (٢/ ٥٣٤/ ٢٠٤٢)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود رقم (١٧٩٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٦)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٤١-٢٤٢)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣١٧)، وأبو يعلى (١٢/ ٣٣-٣٤/ ٦٦٨١)، وأورده الهيثمي في المجمع (٤/ ٢-٣) وقال: «رواه أبو يعلى وفيه إسحق بن أبي إسرائيل وفيه كلام لوقفه في القرآن وبقية رجاله ثقات». وصحح إسناده الشيخ الألباني في تحذير الساجد ص (٢٤-٢٥).

(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٨٤)، أبو داود (٥/ ٢٥٩/ ٤٩٨٠) وأخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٤/ ١٠٨٢٠)، وابن ماجه (١/ ٦٨٥/ ٢١١٨) بنحوه، وصححه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٣/ ١٦١) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٦) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٨٨)، وابن ماجه (١/ ٦٨٤/ ٢١١٧)، وحسنه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٣/ ١٦٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٣٥)، والطبراني في الكبير (١/ ٢٨٦/ ٨٣٩)، والبيهقي في الشعب (٤/ ١٠٣/ ٤٤٢٥)، والحاكم (٤/ ٢٥٥)، وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: ابن مصعب ضعيف وأورده الهيثمي في=

مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾[(١)] وقال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾[(٢)] وقال: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾[(٣)] وقال: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾[(٤)] أي: لن أجد من دونه من ألتجئ إليه، وأعتمد عليه، وقال لابنته فاطمة، وعمه العباس، وعمته صفية: «**لا أملك لكم من الله شيئًا**»[(٥)] وفي لفظ في الصحيح: «**لا أغني عنكم من الله شيئًا**» فعظم ذلك على المشركين بشيوخهم وآلهتهم، وأبوا ذلك كله، وادعوا لشيوخهم ومعبوديهم خلاف هذا كله، وزعموا أن من سلبهم ذلك فقد هضمهم مراتبهم، وتنقصهم، وقد هضموا جانب الإلهية غاية الهضم وتنقصوه، فلهم نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾[(٦)]»[(٧)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾ **يقول ابن جرير**: «يقول -تعالى ذكره-: إن الله يفصل بين هؤلاء الأحزاب الذين اتخذوا في الدنيا من دون الله أولياء يوم القيامة، فيما هم فيه يختلفون في الدنيا، من عبادتهم ما كانوا يعبدون فيها، بأن يصليهم جميعًا جهنم، إلا من أخلص الدين لله فوحده ولم يشرك به شيئًا»[(٨)].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ **يقول ابن جرير**: «يقول -تعالى ذكره-: إن الله لا يهدي إلى الحق ودينه الإسلام والإقرار بوحدانيته فيوفقه له

= المجمع (١٠/ ١٩٩) وقال: «رواه أحمد والطبراني وفيه محمد بن مصعب وثقه أحمد وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح»، قلت: وزيادة على ضعف ابن مصعب فإنه منقطع بين الحسن والأسود بن سريع فإنه لم يسمع منه، ثم إن الحسن معروف بالتدليس وقد عنعن عند الجميع في جميع طرق الحديث، ولهذا أورده الشيخ الألباني في الضعيفة رقم (٣٨٦٢).

(١) آل عمران: الآية (١٢٨).

(٢) آل عمران: الآية (١٥٤).

(٣) يونس: الآية (٤٩).

(٤) الجن: الآيتان (٢١و٢٢).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٣و٣٦٠-٣٦١)، والبخاري (٥/ ٤٨٠/ ٢٧٥٣)، ومسلم (١/ ١٩٢/ ٢٠٤)، والترمذي (٥/ ٣١٦-٣١٧/ ٣١٨٥)، والنسائي (٦/ ٥٥٨-٥٥٩/ ٣٦٤٦)

(٦) الزمر: الآية (٤٥).

(٧) الروح (٢٦٣-٢٦٤).

(٨) جامع البيان (٢٣/ ١٩٢).

من هو كاذب مفتر على اللَّه يتقول عليه الباطل، ويضيف إليه ما ليس من صفته، ويزعم أن له ولدا افتراء عليه، كفار لنعمه، وجحود لربوبيته»[1].

قال البقاعي: «قال القشيري: والإشارة إلى تهديد من يتعرض لغير مقامه، ويدعي شيئًا ليس بصادق فيه، فاللَّه لا يهديه قط إلى ما فيه سداده ورشده، وعقوبته أن يحرمه ذلك الشيء الذي تصدى له بدعواه، قبل تحققه بوجوده وذوقه»[2].

قال الرازي: «والمراد بهذا الكذب وصفهم لهذه الأصنام بأنها آلهة مستحقة للعبادة، مع علمهم بأنها جمادات خسيسة، وهم نحتوها وتصرفوا فيها، والعلم الضروري حاصل بأن وصف هذه الأشياء بالإلهية كذب محض، وأما الكفر فيحتمل أن يكون المراد منه الكفر الراجع إلى الاعتقاد، والأمر ههنا كذلك فإن وصفهم لها بالإلهية كذب، واعتقادهم فيها بالإلهية جهل وكفر. ويحتمل أن يكون المراد كفران النعمة، والسبب فيه أن العبادة نهاية التعظيم، ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الإنعام، وذلك المنعم هو اللَّه ﷻ، وهذه الأوثان لا مدخل لها في ذلك الإنعام، فالاشتغال بعبادة هذه الأوثان يوجب كفران نعمة المنعم الحق»[3].

قلت: حقيقة العبادة هي الجمع بين صدق العبودية والموافقة لمراد المعبود الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب، فمن أتى بعمل وهو غير صادق فيه أو مخالف للنبي ﷺ؛ فإن عبادته باطلة. ولهذا كان شرط العبادة الإخلاص والمتابعة. وهكذا كل عمل إذا كان صاحبه يظهر خلاف ما يبطن؛ فإن عمله لا صحة له ولا أثر له، وإن تم من عمله شيء؛ فإنه لا بقاء له كأعمال الكفار التي يجعلها اللَّه كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف. فنرجو اللَّه أن يجمع لنا بين الصدق والمتابعة.

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٩٢).
(٢) نظم الدرر (١٦/ ٤٤٩).
(٣) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٤٣).

قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «هذا مقرر لما سبق من إبطال قول المشركين: بأن الملائكة بنات الله؛ لتضمنه استحالة الولد في حقه سبحانه على الإطلاق، فلو أراد أن يتخذ ولدًا لامتنع اتخاذ الولد حقيقة، ولم يتأتّ ذلك إلا بأن يصطفي ﴿مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: يختار من جملة خلقه ما يشاء أن يصطفيه، إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوق له، ولا يصح أن يكون المخلوق ولدًا للخالق لعدم المجانسة بينهما، فلم يبق إلا أن يصطفيه عبدًا كما يفيده التعبير بالاصطفاء مكان الاتخاذ؛ فمعنى الآية: لو أراد أن يتخذ ولدًا لوقع منه شيء ليس هو من اتخاذ الولد، بل إنما هو من الاصطفاء لبعض مخلوقاته»[1].

قال ابن كثير: «وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه؛ بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، كما قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾[2] ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[3] كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم»[4].

قال الشوكاني: «ولهذا نزّه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد على الإطلاق، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيهًا له عن ذلك، وجملة ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ مبينة لتنزّهه بحسب الصفات بعد تنزّهه بحسب الذات؛ أي: هو المستجمع لصفات الكمال المتوحد في ذاته، فلا مماثل له، القهّار لكل مخلوقاته، ومن كان متصفًا بهذه الصفات استحال وجود الولد في حقه؛ لأن الولد مماثل لوالده، ولا مماثل له

---

(١) فتح القدير (٤/ ٦٣١).

(٢) الأنبياء: الآية (١٧).

(٣) الزخرف: الآية (٨١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٨٥).

سبحانه، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾»[١].

قال السعدي مبينًا معنى كونه سبحانه واحدًا قهارًا: «أي: الواحد في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أفعاله، فلا شبيه له في شيء من ذلك، ولا مماثل، فلو كان له ولد، لاقتضى أن يكون شبيها له في وحدته، لأنه بعضه، وجزء منه.

القهار لجميع العالم العلوي والسفلي، فلو كان له ولد لم يكن مقهورا، ولكان له إدلال على أبيه ومناسبة منه.

ووحدته تعالى وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا قهارا، والقهار لا يكون إلا واحدا، وذلك ينفي الشركة له من كل وجه»[٢].

* * *

(١) فتح القدير (٤/ ٦٣١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٤٨).

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾

★ غريب الآية:

يكور: التكوير طرح الشيء بعضه على بعض، يقال: كور المتاع إذا ألقى بعضه على بعض، والتكوير: اللف واللي، يقال: كار العمامة على رأسه وكورها.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن عاشور: «هذه الجملة بيان لجملة ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ فإن خلق هذه العوالم والتصرف فيها على شدتها وعظمتها يبين معنى الوحدانية ومعنى القهّارية، فتكون جملة ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ ذات اتصالين: اتصالٍ بجملة: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كاتصال التذييل، واتصالٍ بجملة ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ اتصالَ التمهيد.

وقد انتقل من الاستدلال باقتضاء حقيقة الإلهية نفي الشريك إلى الاستدلال بخلق السموات والأرض على أنه المنفرد بالخلق، إذ لا يستطيع شركاؤهم خلق العوالم.

والباء في: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للملابسة، أي خلقها خلقًا ملابسًا للحق وهو هنا ضد العبث، أي خلقهما خلقًا ملابسًا للحكمة والصواب والنفع، لا يشوب خلقهما عبث ولا اختلال، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1]»[2].

وقوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ **يقول القرطبي**: «قال

---

(١) الدخان: الآيتان (٣٨و٣٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٢٨).

الضحاك: أي: يلقي هذا على هذا وهذا على هذا. وهذا على معنى التكوير في اللغة، وهو طرح الشيء بعضه على بعض، يقال كور المتاع؛ أي: ألقى بعضه على بعض، ومنه كور العمامة.

وقد روي عن ابن عباس هذا في معنى الآية، قال: ما نقص من الليل دخل في النهار، وما نقص من النهار دخل في الليل. وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾[1] وقيل: تكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه، ويُغشي النهار على الليل فيذهب ظلمته، وهذا قول قتادة.

وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾[2].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي بالطلوع والغروب لمنافع العباد»[3].

وقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ **قال ابن عطية**: «الأجل المسمى يحتمل أن يكون يوم القيامة حين تنفسد البنية، ويزول جري هذه الكواكب، ويحتمل أن يريد وقت مغيبها كل يوم وليلة، ويحتمل أن يريد أوقات رجوعها إلى قوانينها كل شهر في القمر وسنة في الشمس»[4].

وقوله: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ **يقول ابن جرير**: «يقول -تعالى ذكره-: ألا إن اللّه الذي فعل هذه الأفعال، وأنعم على خلقه هذه النعم، هو العزيز في انتقامه ممن عاداه، الغفار لذنوب عباده التائبين إليه منها بعفوه لهم عنها»[5].

قال الرازي: «والمعنى: أن خلق هذه الأجرام العظيمة وإن دل على كونه عزيزًا أي كامل القدرة إلا أنه غفار عظيم الرحمة والفضل والإحسان، فإنه لما كان الإخبار عن كونه عظيم القدرة يوجب الخوف والرهبة، فكونه غفارًا يوجب كثرة الرحمة، وكثرة الرحمة توجب الرجاء والرغبة»[6].

* * *

(١) فاطر: الآية (١٣).
(٢) الأعراف: الآية (٥٤).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٢٣٤-٢٣٥).
(٤) المحرر الوجيز (٤/ ٥١٩).
(٥) جامع البيان (٢٣/ ١٩٣).
(٦) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٤٥).

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم، وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة، وهو آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وهي حواء، عليها السلام، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[1]»[2].

قال ابن عطية: «ظاهر اللفظ يقتضي أن جعل الزوجة من النفس هو بعد أن خلق الخلق منها، وليس الأمر كذلك.

واختلف الناس في تأويل هذا الظاهر، فقالت فرقة: قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هو أخذ الذرية من ظهر آدم، وذلك شيء كان قبل خلق حواء، وقالت فرقة: إنما هي لترتيب الأخبار لا لترتيب المعاني. كأنه قال: ثم كان من أمره قبل ذلك أن جعل منها زوجها، وفي نحو هذا المعنى ينشد هذا البيت:

قل من ساد ثم ساد أبوه ... ثم قد ساد قبل ذلك جده

وقالت فرقة: قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ عبارة عن سبق ذلك في علم الله تعالى، فلما كان ذلك أمرًا حتمًا واقعًا ولا بد، حسن أن يخبر عن تلك الحال التي كانت وثيقة، ثم عطف عليها حالة جعل الزوجة منها، فجاءت معان مترتبة، وإن كان خروج خلق العالم من آدم إلى الوجود إنما يجيء بعد ذلك، وزوج آدم حواء عليها السلام، وخلقت من ضلعه القصيري فيما روي، ويؤيد هذا الحديث الذي فيه أن

(١) النساء: الآية (١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٨٦)

المرأة خلقت من ضلع، فإن ذهبت تقيمه كسرته[١]. وقالت فرقة: خلقت حواء من بقية طين آدم، والأول أصح»[٢].

قال الألوسي: «وقد تضمنت الآية ثلاث آيات: خلق آدم عليه السلام بلا أب وأم، وخلق حواء من قصيراه، وخلق ذريته التي لا يحصي عددها إلا الله عز وجل»[٣].

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ **قال ابن جرير**: «يقول -تعالى ذكره-: وجعل لكم من الأنعام ثمانية أزواج من الإبل زوجين، ومن البقر زوجين، ومن الضأن اثنين، ومن المعْز اثنين، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾[٤]»[٥].

قال السعدي: «وخصها بالذكر، مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم غيرها، لكثرة نفعها، وعموم مصالحها، ولشرفها، ولاختصاصها بأشياء لا يصلح لها غيرها، كالأضحية والهدي، والعقيقة، ووجوب الزكاة فيها، واختصاصها بالدية»[٦].

وفي بيان حقيقة هذا الإنزال **يقول شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: «وهذا مما أشكل أيضًا، فمنهم من قال: جعل، ومنهم من قال: خلق؛ لكونها تخلق من الماء، فإن به يكون النبات الذي ينزل أصله من السماء وهو الماء، وقال قطرب: جعلناه نزلا، ولا حاجة إلى إخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة، فإن الأنعام تنزل من بطون أمهاتها، ومن أصلاب آبائها تأتي بطون أمهاتها، ويقال للرجل: قد أنزل الماء، وإذا أنزل وجب عليه الغسل، مع أن الرجل غالب إنزاله وهو على جنب إما وقت الجماع، وإما بالاحتلام، فكيف بالأنعام التي غالب إنزالها مع قيامها على رجليها، وارتفاعها على ظهور الإناث.

ومما يبين هذا أنه لم يستعمل النزول فيما خلق من السفليات، فلم يقل أنزل النبات، ولا أنزل المرعى، وإنما استعمل فيما يخلق في محل عال وأنزله الله من ذلك المحل كالحديد والأنعام»[٧].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٩٧)، والبخاري (٦/ ٤٤٧/ ٣٣٣١)، ومسلم (٢/ ١٠٩١/ ١٤٦٨[٦٠])، والترمذي (٣/ ٤٩٣-٤٩٤/ ١١٨٨)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٦١/ ٩١٤٠).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٥١٩-٥٢٠).

(٣) روح المعاني (٢٣/ ٢٤٠).

(٤) الأنعام: الآية (١٤٣).

(٥) جامع البيان (٢٣/ ١٩٤).

(٦) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٥٠).

(٧) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٥٤).

وقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يبتدي خلقكم أيها الناس في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق، وذلك أنه يحدث فيها نطفة، ثم يجعلها علقة، ثم مضغة، ثم عظاما، ثم يكسو العظام لحما، ثم يُنْشئه خلقا آخر، تبارك اللَّه وتعالى، فذلك خلقه إياه خلقا بعد خلق.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: يخلقكم في بطون أمهاتكم من بعد خلقه إياكم في ظهر آدم، قالوا: فذلك هو الخلق من بعد الخلق.. وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي قاله عكرمة ومجاهد [وهو القول الأول] ومن قال في ذلك مثل قولهما، لأن اللَّه -جلّ وعزّ- أخبر أنه يخلقنا خلقا من بعد خلق في بطون أمهاتنا في ظلمات ثلاث، ولم يخبر أنه يخلقنا في بطون أمهاتنا من بعد خلقنا في ظهر آدم، وذلك نحو قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾[1] الآية.

وقوله: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ يعني: في ظلمة البطْن، وظلمة الرّحِم، وظُلْمة المَشِيمَة»[2].

وقال القرطبي: «﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، قاله ابن عباس، وعكرمة ومجاهد، وقتادة والضحاك. وقال ابن جبير: ظلمة المشيمة وظلمة الرحم وظلمة الليل. والقول الأول أصح. وقيل: ظلمة صلب الرجل وظلمة بطن المرأة وظلمة الرحم.

وهذا مذهب أبي عبيدة. أي لا تمنعه الظلمة كما تمنع المخلوقين»[3].

قال ابن عطية: «وهذه الآيات كلها هي معتبر وتنبيه لهم على الخالق الصانع الذي لا يستحق العبادة غيره، وهذا كله في رد أمر الأصنام والإفساد لها»[4].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ **يقول ابن جرير**: «يقول -تعالى ذكره-: لا ينبغي أن يكون معبود سواه، ولا تصلح العبادة إلا له ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾، يقوله -تعالى ذكره-: فأنى تصرفون أيها الناس فتذهبون عن عبادة ربكم الذي هذه الصفة صفته إلى عبادة من لا ضر عنده لكم ولا نفع»[5].

---

(١) المؤمنون: الآيات (١٢-١٤).
(٢) جامع البيان (٢٣/ ١٩٥-١٩٦).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٢٣٦).
(٤) المحرر الوجيز (٤/ ٥٢٠).
(٥) جامع البيان (٢٣/ ١٩٧).

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾

⋆ غريب الآية:

وزر: الوزر الذنب، سمي بذلك تشبيهًا بالحمل في ثقله، لأنه يثقل صاحبه، وأصل الوزر الحمل، يقال: وزر يزر أي: حمل دينًا أو شيئًا ثقيلًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: مخبرا عن نفسه تعالى بأنه الغني عما سواه من المخلوقات.. وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي: لا يحبه ولا يأمر به، وإن تشكروا يرضه لكم؛ أي: يحبه منكم ويزدكم من فضله»[1].

قال الشنقيطي: «قد بين -جل وعلا-، في هذه الآية الكريمة، أنه غني عن خلقه الغنى المطلق، وأنه لا يضره كفرهم به، والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾[2] وقوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾[6]»[7].

وفي هذه الآية دليل على أن اللَّه متصف بصفة الرضا، وأنها صفة ثابتة له سبحانه، كما هو متصف بضدها وهو البغض وعدم الرضا بالشيء

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٨٧).
(٢) إبراهيم: الآية (٨).
(٣) التغابن: الآية (٦).
(٤) يونس: الآية (٦٨).
(٥) فاطر: الآية (١٥).
(٦) محمد: الآية (٣٨).
(٧) أضواء البيان (٦/ ٣٥٤).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الذي عليه أهل الحديث والسنة قاطبة، والفقهاء كلهم، وجمهور المتكلمين والصوفية، أنه سبحانه يكره بعض الأعيان والأفعال والصفات، وإن كانت واقعة بمشيئته، فهو يبغضها ويمقتها كما يبغض ذات إبليس، وذوات جنوده، ويبغض أعمالهم، ولا يحب ذلك وإن وجد بمشيئته، قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[1] وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[3] وقال: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[4] وقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[5] وقال: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[6] فهذا إخبار عن عدم محبته لهذه الأمور ورضاه بها بعد وقوعها، فهذا صريح في إبطال قول من تأول النصوص على أنه لا يحبها ممن لم تقع منه، ويحبها إذا وقعت، فهو يحبها ممن وقعت منه، ولا يحبها ممن لم تقع منه، وهذا من أعظم الباطل والكذب على الله؛ بل هو سبحانه يكرهها ويبغضها قبل وقوعها، وحال وقوعها، وبعد وقوعها، فإنها قبائح وخبائث، واللَّه منزه عن محبة القبيح والخبيث، بل هو أكره شيء إليه»[7].

وفيها أيضًا دليل على أن الكفر مراد لله ﷻ وإن كان غير مرضي عنده سبحانه، إذ هناك فرق بين إرادة الشيء وبين محبته، **يقول الشيخ ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يلزم من إرادته الشيء أن يكون محبوبا له، ولا يلزم من كراهته للشيء أن لا يكون مرادا له بالإرادة الكونية، بل هو ﷻ يكره الشيء ويريده بالإرادة الكونية، ويوقع الشيء ولا يرضى عنه، ولا يريده بالإرادة الشرعية.

فإن قلت: كيف يوقع ما لا يرضاه، وما لا يحبه؟ وهل أحد يكرهه على أن يوقع ما لا يحبه ولا يرضاه؟! فالجواب: لا أحد يكرهه على أن يوقع ما لا يحبه ولا يرضاه، وهذا الذي يقع من فعله ﷻ وهو مكروه له، هو مكروه له من وجه، محبوب له من وجه آخر؛ لما يترتب عليه من المصالح العظيمة.

فمثلا: الإيمان محبوب لله، والكفر مكروه له، فأوقع الكفر وهو مكروه له،

---

(١) البقرة: الآية (٢٠٥).
(٢) آل عمران: الآية (٥٧).
(٣) لقمان: الآية (١٨).
(٤) النساء: الآية (١٤٨).
(٥) البقرة: الآية (١٩٠).
(٦) الزمر: الآية (٧).
(٧) شفاء العليل (١/ ٣٢٣).

لمصالح عظيمة؛ لأنه لولا وجود الكفر ما عرف الإيمان، ولولا وجود الكفر؛ ما عرف الإنسان قدر نعمة اللَّه عليه بالإيمان، ولولا وجود الكفر؛ ما قام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الناس كلهم يكونون على المعروف، ولولا وجود الكفر ما قام الجهاد، ولولا وجود الكفر؛ لكان خلق النار عبثا؛ لأن النار مثوى الكافرين، ولولا وجود الكفر؛ لكان الناس أمة واحدة، ولم يعرفوا معروفا ولم ينكروا منكرا؛ وهذا لا شك أنه مخل بالمجتمع الإنساني، ولولا وجود الكفر؛ ما عرفت ولاية الله؛ لأن من ولاية اللَّه أن تبغض أعداء اللَّه، وأن تحب أولياء اللَّه.

وكذلك يقال في الصحة والمرض؛ فالصحة محبوبة للإنسان وملائمة له، ورحمة اللَّه تعالى فيها ظاهرة، لكن المرض مكروه للإنسان، وقد يكون عقوبة من اللَّه له، ومع ذلك يوقعه؛ لما في ذلك من المصالح العظيمة.

كم من إنسان إذا أسبغ اللَّه عليه النعمة بالبدن والمال والولد والبيت والمركوب؛ ترفع ورأى أنه مستغن بما أنعم اللَّه به عليه عن طاعة اللَّه ﷻ؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[1] وهذه مفسدة عظيمة؛ فإذا أراد اللَّه أن يرد هذا الإنسان إلى مكانه؛ ابتلاه حتى يرجع إلى اللَّه، وشاهد هذا في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١﴾[2] وأنت أيها الإنسان إذا فكرت هذا التفكير الصحيح في تقديرات اللَّه ﷻ، عرفت ما له ﷻ من الحكمة فيما يقدره من خير أو شر، وأن اللَّه ﷻ يخلق ما يكرهه ويقدر ما يكرهه لمصالح عظيمة، قد تحيط بها، وقد لا تحيط بها ويحيط بها غيرك، وقد لا تحيط بها لا أنت ولا غيرك.

فإن قيل: كيف يكون الشيء مكروها لله ومرادا له؟ فالجواب: أنه لا غرابة في ذلك، فها هو الدواء المر طعما، الخبيث رائحة، يتناوله المريض وهو مرتاح؛ لما يترتب عليه من مصلحة الشفاء، وهاهو الأب يمسك بابنه المريض ليكويه الطبيب، وربما كواه هو بنفسه، مع أنه يكره أشد الكره أن يحرق ابنه بالنار»[3].

---

(١) العلق: الآيتان (٦و٧). (٢) الروم: الآية (٤١).

(٣) شرح الواسطية (٢/ ٢١٦-٢١٨).

وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ يقول ابن عاشور: «المعنى لا تحمل نفس وزر نفس أخرى، أي لا تغني نفس عن نفس شيئًا من إثمها، فلا تطمع نفس بإعانة ذويها وأقربائها، وكذلك لا تخشى نفس صالحة أن تؤاخذ بتبعة نفس أخرى من ذويها أو قرابتها.

وفي هذا تعريض بالمتاركة وقطع اللجاج مع المشركين، وأن قصارى المؤمنين أن يرشدوا الضُّلاَّل لا أن يلجئوهم إلى الإيمان»[1].

قال ابن عطية: «وهذا خبر مضمنه الحض على أن ينظر كل أحد في خاصة أمره وما ينوبه في ذاته»[2].

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ **يقول ابن جرير**: «يقوله -تعالى ذكره-: ثم بعد اجتراحكم في الدنيا ما اجترحتم من صالح وسيئ، وإيمان وكفر أيها الناس، إلى ربكم مصيركم من بعد وفاتكم، ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ يقول: فيخبركم بما كنتم في الدنيا تعملونه من خير وشر، فيجازيكم على كل ذلك جزاءكم، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بما يستحقه، يقول ﷻ لعباده: فاتقوا أن تلقوا ربكم وقد عملتم في الدنيا بما لا يرضاه منكم فتهلكوا، فإنه لا يخفى عليه عمل عامل منكم.

وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن اللَّه لا يخفى عليه ما أضمرته صدوركم أيها الناس مما لا تدركه أعينكم، فكيف بما أدركته العيون ورأته الأبصار. وإنما يعني -جلّ وعزّ- بذلك الخبر عن أنه لا يخفى عليه شيء، وأنه مُحْصٍ على عباده أعمالهم، ليجازيهم بها كي يتقوه في سرّ أمورهم وعلانيتها»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن اللَّه ﷻ غني عن خلقه غنى مطلقا

* عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن اللَّه -تبارك وتعالى- أنه قال:

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٤١).
(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٥٢١).
(٣) جامع البيان (٢٣/ ١٩٨).

«يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا. يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم. يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم. يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[1].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ ابن رجب: «قوله: **«يا عبادي! لو أن أولكم..»** هو إشارة إلى أن ملكه لا يزيد بطاعة الخلق، ولو كانوا كلهم بررة أتقياء، قلوبهم على قلب أتقى رجل منهم، ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين، ولو كان الجن والإنس كلهم عصاة فجرة، قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم، فإنه سبحانه الغني بذاته عمّن سواه، وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله، فملكه ملك كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أي وجه كان.. وفي هذا الحديث أن جميع الخلق لو كانوا على صفة أكمل خلقه من البر والتقوى، لم يزد ذلك ملكه شيئًا، ولا قدر جناح بعوضة، ولو كانوا على صفة أنقص خلقه من الفجور، لم ينقص ذلك من ملكه شيئًا، فدل على أن ملكه كامل على أي وجه كان، لا يزداد ولا يكمل بالطاعات، ولا ينقص بالمعاصي، ولا يؤثر فيه شيء»[2].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٤-١٦٠-١٧٧)، ومسلم (٤/ ١٩٩٤-١٩٩٥/ ٢٥٧٧)، الترمذي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧/ ٢٤٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٢/ ٤٢٥٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٦-٤٧) بتصرف.

وقال شيخ الإسلام: «ذكر أن برهم وفجورهم -الذي هو طاعتهم ومعصيتهم- لا يزيد في ملكه ولا ينقص، وأن إعطاءه إياهم غاية ما يسألونه نسبته إلى ما عنده أدنى نسبة، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم ممن يزداد ملكه بطاعة الرعية، وينقص ملكه بالمعصية. وإذا أعطى الناس ما يسألونه أنفد ما عنده ولم يغنهم، وهم في ذلك يبلغون مضرته ومنفعته، وهو يفعل ما يفعله من إحسان وعفو وأمر ونهي لرجاء المنفعة وخوف المضرة. فقال: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**»، إذ ملكه هو قدرته على التصرف. فلا تزداد بطاعتهم ولا تنقص بمعصيتهم، كما تزداد قدرة الملوك بكثرة المطيعين لهم، وتنقص بقلة المطيعين لهم، فإن ملكه متعلق بنفسه، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه، وهو الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء.

والملك قد يراد به القدرة على التصرف والتدبير، ويراد به نفس التدبير والتصرف، ويراد به المملوك نفسه الذي هو محل التدبير، ويراد به ذلك كله. وبكلّ حال، فليس بر الأبرار وفجور الفجار موجبًا لزيادة شيء من ذلك ولا نقصه، بل هو بمشيئته وقدرته يخلق ما يشاء، فلو شاء أن يخلق مع فجور الفجار ما شاء لم يمنعه من ذلك مانع، كما يمنع الملوك فجور رعاياهم التي تعارض أوامرهم عما يختارونه من ذلك، ولو شاء ألا يخلق مع بر الأبرار شيئًا مما خلقه لم يكن برهم محوجًا له إلى ذلك، ولا معينًا له كما يحتاج الملوك ويستعينون بكثرة الرعايا المطيعين»[(١)].

وقال أيضًا: «فالرب سبحانه غني بنفسه، وما يستحقه من صفات الكمال ثابت له بنفسه، واجب له من لوازم نفسه، لا يفتقر في شيء من ذلك إلى غيره، بل أفعاله من كماله: كمل ففعل، وإحسانه وجوده من كماله، لا يفعل شيئًا لحاجة إلى غيره بوجه من الوجوه، بل كل ما يريده فعله، فإنه فعال لما يريد، وهو سبحانه بالغ أمره، فكلما يطلب فهو يبلغه وينال ويصل إليه وحده لا يعينه أحد، ولا يعوقه أحد، لا يحتاج في شيء من أموره إلى معين، وما له من المخلوقين ظهير، وليس له ولي من الذل»[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٩٤-١٩٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٣٨).

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾

★ غريب الآية:

خوله: أعطاه وملكه، والخول: الحشم والخدم، وكل من أعطى إعطاء على غير جزاء يقال له خول. والتخويل في الأصل: إعطاء الخول، وقيل إعطاء ما يصير له خولًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن اللَّه تعالى لما بين فساد القول بالشرك، وبين أن اللَّه تعالى هو الذي يجب أن يعبد، بين في هذه الآية أن طريقة هؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام متناقضة، وذلك لأنهم إذا مسهم نوع من أنواع الضر لم يرجعوا في طلب دفعه إلا إلى اللَّه، وإذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا إلى عبادة الأصنام، ومعلوم أنهم إنما رجعوا إلى اللَّه تعالى عند حصول الضر؛ لأنه هو القادر على إيصال الخير ودفع الضر، وإذا عرفوا أن الأمر كذلك في بعض الأحوال، كان الواجب عليهم أن يعترفوا به في كل الأحوال، فثبت أن طريقتهم في هذا الباب متناقضة»[(١)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- وإذا مس الإنسان بلاء في جسده من مرض، أو عاهة، أو شدّة في معيشته، وجهد وضيق ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ يقول: استغاث بربه الذي خلقه من شدة ذلك، ورغب إليه في كشف ما نزل به من شدة ذلك. وقوله: ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ يقول: تائبا إليه مما كان من قبل ذلك عليه من الكفر به، وإشراك الآلهة

(١) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٤٩-٢٥٠).

والأوثان به في عبادته، راجعا إلى طاعته.. وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةً مِّنۡهُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ثم إذا منحه ربه نعمة منه يعني عافية فكشف عنه ضره، وأبدله بالسقم صحة، وبالشدة رخاء.. وقوله: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ﴾ يقول: ترك دعاءه الذي كان يدعو إلى اللَّه من قبل أن يكشف ما كان به من ضر»[١].

وفي الآية قول آخر يقول الرازي: «أي: نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل إليه، و(ما) بمعنى (من) كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[٤]. وقيل: نسي الضر الذي كان يدعو اللَّه إلى كشفه»[٥].

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ قال الرازي: «المراد أنه تعالى يعجب العقلاء من مناقضتهم عند هاتين الحالتين، فعند الضر يعتقدون أنه لا مفزع إلى ما سواه، وعند النعمة يعودون إلى اتخاذ آلهة معه. ومعلوم أنه تعالى إذا كان إنما يفزع إليه في حال الضر لأجل أنه هو القادر على الخير والشر، وهذا المعنى باق في حال الراحة والفراغ، كان في تقرير حالهم في هذين الوقتين ما يوجب المناقضة وقلة العقل»[٦].

قال شيخ الإسلام: وهذا المعنى قد ذكره اللَّه في غير موضع، يذم من يشرك به بعد كشف البلاء عنه، وإسباغ النعماء عليه، فيضيف العبد -بعد ذلك- الإنعام إلى غيره، ويعبد غيره تعالى، ويجعل المشكور غيره على النعم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٣٣ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣٤﴾[٧] وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ۝٦٤﴾[٨] وقال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾.

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٩٩-٢٠٠).
(٢) الليل (٣).
(٣) الكافرون: الآية (٣).
(٤) النساء: الآية (٣).
(٥) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٥٠).
(٦) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٥٠).
(٧) الروم: الآيتان (٣٣و٣٤).
(٨) الأنعام: الآيتان (٦٣و٦٤).

وقوله: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: نسي الضر الذي كان يدعو اللّه لدفعه عنه، كما قال في سورة (الأنعام): ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾[1]. فذم اللّه سبحانه حزبين: حزبا لا يدعونه في الضراء، ولا يتوبون إليه، وحزبا يدعونه ويتضرعون إليه ويتوبون إليه، فإذا كشف الضر عنهم أعرضوا عنه، وأشركوا به ما اتخذوهم من الأنداد من دونه، فهذا الحزب نوعان كالمعطلة والمشركة، حزب إذا نزل بهم الضر لم يدعوا اللّه ولم يتضرعوا إليه، ولم يتوبوا إليه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾[3] وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾[5].

وحزب يتضرعون إليه في حال الضراء، ويتوبون إليه، فإذا كشفها عنهم أعرضوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[6] وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[7] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[8] وقال في المشركين ما تقدم: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[9].

والممدوح هو القسم الثالث: وهم الذين يدعونه ويتوبون إليه، ويثبتون على عبادته والتوبة إليه في حال السراء، فيعبدونه ويطيعونه في السراء والضراء، وهم

---

(١) الأنعام: الآيتان (٤٠و٤١).
(٢) الأنعام: الآيتان (٤٢و٤٣).
(٣) المؤمنون: الآية (٧٦).
(٤) التوبة: الآية (١٢٦).
(٥) السجدة: الآية (٢١).
(٦) يونس: الآية (١٢).
(٧) فصلت: الآية (٥١).
(٨) الإسراء: الآية (٦٧).
(٩) النحل: الآيتان (٥٣و٥٤).

أهل الصبر والشكر، كما ذكر ذلك عن أنبيائه ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]»[2].

وقوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ يقول الشوكاني: «أي: ليضل الناس عن طريق اللَّه التي هي الإسلام، والتوحيد. وقال السدّي: يعني: أندادًا من الرجال يعتمد عليهم في جميع أموره. ثم أمر اللَّه سبحانه رسوله ﷺ أن يهدّد من كان متصفًا بتلك الصفة، فقال: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ﴾ أي: تمتعًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا، فمتاع الدنيا قليل، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: مصيرك إليها عن قريب، وفيه من التهديد أمر عظيم. قال الزجاج: لفظه لفظ الأمر، ومعناه: التهديد، والوعيد»[3].

وفي هذه الآية دليل على أن اللَّه منفرد بالتصرف، مستوجب للشكر، وعلى أن الكفر به قبيح، وتتضمن الاستدلال على وحدانية إلهيته بدليل من أحوال المشركين به[4].

* * *

---

(١) الأنبياء: الآيتان (٨٧و٨٨).

(٢) الفتاوى (١٤/ ٣٧٠-٣٧٢).

(٣) فتح القدير (٤/ ٦٣٥).

(٤) أفاده ابن عاشور في التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٤٢).

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «لما شرح اللَّه تعالى صفات المشركين والضالين، ثم تمسكهم بغير اللَّه تعالى، أردفه بشرح أحوال المحققين الذين لا رجوع لهم إلا إلى اللَّه، ولا اعتماد لهم إلا على فضل اللَّه، فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: أمن هذه صفته، كمن أشرك باللَّه، وجعل له أندادا؟ لا يستوون عند اللَّه، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[٢]، وقال هاهنا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ أي: في حال سجوده وفي حال قيامه»[٣].

قال ابن جرير: «إذا وجهت الألف إلى النداء كان معنى الكلام: قل تمتع أيها الكافر بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار، ويا من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما إنك من أهل الجنة، ويكون في النار عمى للفريق الكافر عند اللَّه من الجزاء في الآخرة، الكفاية عن بيان ما للفريق المؤمن، إذ كان معلوما اختلاف أحوالهما في الدنيا، ومعقولا أن أحدهما إذا كان من أصحاب النار لكفره بربه أن الآخر من أصحاب الجنة، فحذف الخبر عما له، اكتفاءً بفهم السامع المراد منه من ذكره، إذ كان قد دلّ على المحذوف بالمذكور.

والثاني: أن تكون الألف التي في قوله: ﴿ أَمَّنْ ﴾ ألف استفهام، فيكون معنى الكلام: أهذا كالذي جعل لله أندادا ليضلّ عن سبيله، ثم اكتفى بما قد سبق من خبر اللَّه عن فريق الكفر به من أعدائه، إذ كان مفهوما المراد بالكلام، كما قال الشاعر:

فَأُقْسِمُ لَوْ شَيْءٌ أَتَانَا رَسُولُهُ ... سِوَاكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعا

---

(١) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٥١).
(٢) آل عمران: الآية (١١٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٨٨).

فحذف لدفعناه وهو مراد في الكلام، إذ كان مفهوما عند السامع مراده. وقرأ ذلك بعض قرّاء المدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة: (أمَّن) بتشديد الميم، بمعنى: أم من هو؟ ويقولون: إنما هي (أمَّن) استفهام اعترض في الكلام بعد كلام قد مضى، فجاء بأم، فعلى هذا التأويل يجب أن يكون جواب الاستفهام متروكا من أجل أنه قد جرى الخبر عن فريق الكفر، وما أعدّ له في الآخرة، ثم أتبع الخبر عن فريق الإيمان، فعلم بذلك المراد، فاستغني بمعرفة السامع بمعناه من ذكره، إذ كان معقولا أن معناه: هذا أفضل أم هذا؟»[1].

وقال ابن عاشور: «وتخصيص الليل بقنوتهم؛ لأن العبادة بالليل أعون على تمحض القلب لذكر اللَّه، وأبعد عن مداخلة الرياء، وأدل على إيثار عبادة اللَّه على حظ النفس من الراحة والنوم، فإن الليل أدعى إلى طلب الراحة، فإذا آثر المرء العبادة فيه استنار قلبه بحب التقرب إلى اللَّه قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾[2]، فلا جرم كان تخصيص الليل بالذكر دالًا على أن هذا القانت لا يخلو من السجود والقيام آناءَ النهار بدلالة فحوى الخطاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾[3]، وبذلك يتم انطباق هذه الصلة على حال النبي ﷺ»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير القنوت

* عن جابر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أفضل الصلاة طول القنوت**»[5].

* عن تميم الداري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قنوت ليلة**»[6].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٠١).
(٢) المزمل: الآية (٦).
(٣) المزمل: الآية (٧).
(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٤٦)، وانظر التفسير الكبير (٢٦/ ٢٥١).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٣١٤)، ومسلم (١/ ٥٢٠/ ٧٥٦) والترمذي (٢/ ٢٢٩/ ٣٨٧)، وابن ماجه (١/ ٤٥٦/ ١٤٢١) من طرق عن جابر ﷺ.
(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ١٠٣) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٨٠/ ١٠٥٥٣)، والدارمي (٢/ ٤٦٤)، والطبراني في الكبير (٢/ ٥٠/ ١٢٥٢)، قال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٢٦٧): «رواه أحمد والطبراني في الكبير وفيه سليمان بن موسى الشامي وثقه ابن معين وأبو حاتم، وقال البخاري: عنده مناكير وهذا لا يقدح» اهـ. وهو في «السلسلة الصحيحة» (٦٤٤).

★ **فوائد الحديثين:**

قال المازري: «للقنوت سبعة معانٍ: الصلاة، والقيام، والخشوع، والعبادة، والسكوت، والدعاء، والطاعة. قال ابن أبي زمنين وغيره: أصل القنوت: الطاعة»[1].

وقال القاضي عياض: «قيل في قوله: ﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾[2] أي: اعبديه، وقيل: صلي، وقيل في قوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾[3] من يقيم على الطاعة، وفي قوله: ﴿قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ﴾[4] أي: قيمات بحقوق أزواجهن، وقيل: مصليات، وقيل: يقع على الإقرار والعبودية وعلى الإخلاص، والمراد به في هذا الحديث القيام، والمعاني كلها متداخلة فيه؛ لأنه قيام في صلاة، وإقامة على طاعة، وعبادة تشتمل على إخلاص ودعاء وخشوع وقيام بذلك، وسكوت عن الكلام، واعتراف بالعبودية، قولًا وفعلًا»[5].

قال النحاس بعدما ذكر حديث جابر: «فتأوله جماعة من أهل العلم على أنه طول القيام. وروى عبد اللَّه عن نافع عن ابن عمر سئل عن القنوت قال: ما أعرف القنوت إلا طول القيام وقراءة القرآن، وقال مجاهد: من القنوت طول الركوع، وغض البصر. وكان العلماء إذا وقفوا في الصلاة غضّوا أبصارهم وخضعوا، ولم يلتفتوا في صلاتهم، ولم يعبثوا، ولم يذكروا شيئًا من أمر الدنيا إلا ناسين. قال أبو جعفر: أصل هذا أن القنوت الطاعة، وكل ما قيل فيه فهو طاعة اللَّه جل وعز، وهذه الأشياء كلها داخلة في الطاعة وما هو أكثر منها»[6].

واختار هذا المعنى أيضًا ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال في تفسير قوله تعالى من سورة (البقرة): ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[7]: «وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل قوله: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ قول من قال: تأويله مطيعين، وذلك أن أصل القنوت: الطاعة، وقد تكون الطاعة لله في الصلاة بالسكوت عما نهى اللَّه من الكلام فيها،

---

(١) المعلم (١/ ٣٠٣).
(٢) آل عمران: الآية (٤٣).
(٣) الأحزاب: الآية (٣١).
(٤) التحريم: الآية (٥).
(٥) الإكمال (٣/ ١٠٧).
(٦) إعراب القرآن (٤/ ٦).
(٧) البقرة: الآية (٢٣٨).

ولذلك وجه من وجه تأويل القنوت في هذا الموضع إلى السكوت في الصلاة أحد المعاني التي فرضها اللَّه على عباده فيها، إلا عن قراءة قرآن، أو ذكر له بما هو أهله. ومما يدلّ على أنهم قالوا ذلك كما وصفنا، قول النخعي ومجاهد، الذي حدثنا به أحمد بن إسحق الأهوازي، قال: حدثنا أبو أحمد الزبيري، عن سفيان، عن منصور، عن إبراهيم ومجاهد قالا: كانوا يتكلمون في الصلاة، يأمر أحدهم أخاه بالحاجة فنزلت: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ قال: فقطعوا الكلام، والقنوت: السكوت، والقنوت: الطاعة.

فجعل إبراهيم ومجاهد القنوت سكوتًا في طاعة اللَّه على ما قلنا في ذلك من التأويل، وقد تكون الطاعة لله فيها بالخشوع وخفض الجناح، وإطالة القيام، وبالدعاء؛ لأن كلًّا غير خارج من أحد معنيين، من أن يكون مما أمر به المصلي، أو مما ندب إليه، والعبد بكل ذلك لله مطيع، وهو لربه فيه قانت، والقنوت: أصله الطاعة لله، ثم يستعمل في كل ما أطاع اللَّه به العبد»[١].

قال شيخ الإسلام: وقد تنازع الناس هل الأفضل طول القيام أم كثرة الركوع والسجود، أو كلاهما سواء، على ثلاثة أقوال: أصحها أن كليهما سواء، فإن القيام اختص بالقراءة، وهي أفضل من الذكر والدعاء، والسجود نفسه أفضل من القيام، فينبغي أنه إذا طول القيام أن يطيل الركوع والسجود، وهذا هو طول القنوت الذي أجاب به النبي ﷺ لما قيل له: «**أي الصلاة أفضل؟ فقال: طول القنوت**» فإن القنوت هو إدامة العبادة، سواء كان في حال القيام أو الركوع أو السجود، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ فسماه قانتا في حال سجوده، كما سماه قانتا في حال قيامه»[٢].

قال المناوي: «قوله: «**كتب له قنوت ليلة**» أي: عبادتها»[٣].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢/ ٥٧١-٥٧٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٧٣).

(٣) فيض القدير (٦/ ١٩٦).

قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: في حال عبادته خائف راجٍ، ولابد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب ولهذا قال: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه»[(١)].

قال ابن عاشور: «وللخوف مزيته من زجر النفس عما لا يرضي اللَّه، وللرجاء مزيته من حثها على ما يرضي اللَّه، وكلاهما أنيس السالكين. وإنما ينشأ الرجاء على وجود أسبابه؛ لأن المرء لا يرجو إلا ما يظنه حاصلًا، ولا يظن المرء أمرًا إلا إذا لاحت له دلائله ولوازمه، لأن الظن ليس بمغالطة، والمرء لا يغالط نفسه، فالرجاء يتبع السعي لتحصيل المرجو، قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾[(٢)] فإن ترقُّب المرء المنفعة من غير أسبابها فذلك الترقب يسمى غرورًا. وإنما يكون الرجاء أو الخوف ظنًّا مع تردد في المظنون، أما المقطوع به فهو اليقين واليأس، وكلاهما مذموم قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾[(٣)]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[(٤)]»[(٥)].

قلت: هذه الآية وأمثالها تبين أن المسلم يجمع في حياته بين الخوف والرجاء ولا ينفصل عنهما في عبوديته، فيغلب في مدة حياته الخوف، ويغلب في حال احتضاره الرجاء؛ لأنه مقام المغادرة من دار الدنيا والانتقال إلى دار الآخرة، يرجو مغفرة ذنبه ورحمة خالقه، وفي هذا رد على من يقول من الصوفية أن العبادة تجرد من الخوف والرجاء كما ذكر أبو حامد الغزالي في إحيائه، ولا شك في بطلان هذا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٨٨).

(٢) الإسراء: الآية (١٩).

(٣) الأعراف: الآية (٩٩).

(٤) يوسف: الآية (٨٧).

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٤٧).

القول وزيغه وأنه مناف لنصوص القرآن والسنة التي جعلت العبادة مقرونة بالجزاء كهذه الآيات وغيرها .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الجمع بين الخوف والرجاء وتغليب الرجاء عند الاحتضار

* عن أنس أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدك؟**» قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف**»[1] .

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «اعلم أن المختار للعبد في حال صحته أن يكون خائفًا راجيًا، ويكون خوفه ورجاؤه سواء، وفي حال المرض يتمحض الرجاء، وقواعد الشرع من نصوص الكتاب والسنة وغير ذلك متظاهرة على ذلك، قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾[6]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾[7]. والآيات في هذا المعنى كثيرة، فيجتمع الخوف والرجاء في آيتين مقرونتين أو آيات أو آية»[8] .

---

(١) أخرجه: الترمذي (٣/ ٣١١/ ٩٨٣) واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٦٢/ ١٠٩٠١)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٣/ ٤٢٦١)، قال الشيخ الألباني في تحقيقه للمشكاة تعليقا على الحديث رقم (١٦١٢): «رجاله ثقات، وفي سيار بن حاتم كلام لا يضر، فالسند حسن».

(٢) الأعراف: الآية (٩٩).

(٣) يوسف: الآية (٨٧).

(٤) آل عمران: الآية (١٠٦).

(٥) الأعراف: الآية (١٦٧).

(٦) الانفطار: الآيتان (١٣و١٤).

(٧) القارعة: الآيات (٦-١١).

(٨) دليل الفالحين (٢/ ٣٦٣-٣٦٥).

قال ابن العربي: «فيه فوائد.. السادسة: استواء الرجاء والخوف في القلب فتلك الحالة محمودة، وقد تأتي أحوال يغلب فيها الخوف، وأحوال يغلب فيها الرجاء»[١].

قال الطيبي: «وأيضًا راعى في نسبة الرجاء إلى اللَّه، والخوف إلى الذنب أدبًا حسنًا، وكذلك ينبغي للمؤمن أن يحسن الظن باللَّه، ويرجح جانب الرجاء على الخوف»[٢].

وللرجاء فوائد كثيرة عدد بعضها الإمام ابن القيم فقال: «منها: إظهار العبودية والفاقة، والحاجة إلى ما يرجوه من ربه. ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه، ويسألوه من فضله؛ لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأحب ما إلى الجواد: أن يُرجى، ويؤمل ويسأل. وفي الحديث: «**من لم يسأل اللَّه يغضب عليه**»[٣] والسائل راجٍ وطالب، فمن لم يرج اللَّه يغضب عليه.

فهذه فائدة أخرى من فوائد الرجاء، وهي التخلص به من غضب اللَّه.

ومنها: أن الرجاء حادٍ يحدو به في سيره إلى اللَّه، ويطيب له المسير، ويحثه عليه، ويبعثه على ملازمته، فلولا الرجاء لما سار أحد، فإن الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء.

ومنها: أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة، ويلقيه في دهليزها، فإنه كلما اشتد رجاؤه، وحصل له ما يرجوه ازداد حبًا لله تعالى، وشكرًا له، ورضىً به وعنه.

ومنها: أنه يبعثه على أعلى المقامات، وهو مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية، فإنه إذا حصل له مرجوّه كان أدعى لشكره.

ومنها: أنه يوجب له المزيد من معرفة اللَّه وأسمائه ومعانيها، والتعلق بها. فإن

---

(١) عارضة الأحوذي (٤/ ٢٠٣-٢٠٤).

(٢) شرح الطيبي (٤/ ١٣٦٩).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٤٤٢)، والترمذي (٥/ ٤٢٦-٤٢٧/ ٣٣٧٣)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٨/ ٣٨٢٧)، والحاكم (١/ ٤٩١)، وصححه، وحسنه الشيخ الألباني انظر الصحيحة (٢٦٥٤).

الراجي متعلق بأسمائه الحسنى، متعبد بها، داعٍ بها. قال اللّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾[1] فلا ينبغي أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنى التي هي أعظم ما يدعو به الداعي، فالقدح في مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الأسماء، وتعطيل للدعاء بها.

ومنها: أن المحبة لا تنفك عن الرجاء -كما تقدم- فكل واحد منهما يمد الآخر ويقويه.

ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف، فكل راجٍ خائف، وكل خائف راجٍ، ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف، قال اللّه تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾[2] قال كثير من المفسرين: المعنى: مالكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنى الخوف. والتحقيق أنه ملازم له. فكل راجٍ خائف من فوات مرجوّه. والخوف بلا رجاء يأس وقنوط. وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾[3] قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع اللّه بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

ومنها: أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه، فأعطاه ما رجاه: كان ذلك ألطف موقعًا، وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يرجه. وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار، فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مَخوفهم.

ومنها: أن اللّه ﷻ يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضى والإنابة وغيرها. ولهذا قدّر عليه الذنب وابتلاه به، لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن في الرجاء -من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله- ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته. وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة -كما تقدم بيانه- فإذا فنى عن

---

(١) الأعراف: الآية (١٨٠). (٢) نوح: الآية (١٣).
(٣) الجاثية: الآية (١٤).

ذلك وغاب عنه، فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات.

إلى فوائد أخرى كثيرة، يطالعها من أحسن تأمله وتفكره في استخراجها، وباللَّه التوفيق»[١].

وقال أيضًا: «والفرق بينه وبين التمني أن التمني يكون مع الكَسَلِ، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل. فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها. والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها، ويرجو طلوع الزرع. ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل. قال شاه الكرماني: علامة صحة الرجاء: حسن الطاعة.

والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان ونوع غرور مذموم.

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة اللَّه على نور من اللَّه، فهو راجٍ لثوابه، ورجل أذنب ذنوبًا ثم تاب منها، فهو راجٍ لمغفرة اللَّه تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجل متمادٍ في التفريط والخطايا، يرجو رحمة اللَّه بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.

وللسالك نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله، يفتح عليه باب الخوف إلى سعة فضل ربه وكرمه وبره، ونظر يفتح عليه باب الرجاء.

ولهذا قيل في حد الرجاء: هو النظر إلى سعة رحمة اللَّه.

وقال أبو علي الروذباري: الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتمّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

وسئل أحمد بن عاصم: ما علامة الرجاء في العبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر، راجيًا لتمام النعمة من اللَّه عليه في الدنيا والآخرة، وتمام عفوه عنه في الآخرة»[٢].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٥٠-٥٢).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٥-٣٦).

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «ثم أمر اللَّه سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم قولًا آخر يتبين به الحقّ من الباطل، فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الذين يعلمون أن ما وعد اللَّه به من البعث والثواب والعقاب حق، والذين لا يعلمون ذلك، أو الذين يعلمون ما أنزل اللَّه على رسله، والذين لا يعلمون ذلك، أو المراد: العلماء والجهال، ومعلوم عند كل من له عقل أنه لا استواء بين العلم والجهل، ولا بين العالم والجاهل. قال الزجاج: أي كما لا يستوي الذين يعلمون، والذين لا يعلمون، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي. وقيل: المراد بالذين يعلمون: هم العاملون بعلمهم، فإنهم المنتفعون به؛ لأن من لم يعمل بمنزلة من لم يعلم»[1].

قال الرازي: «وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم»[2].

قال القاسمي: «قال القاشاني: وإنما كان المطيع هو العالم؛ لأن العلم هو الذي رسخ في القلب وتأصل بعروقه في النفس، بحيث لا يمكن صاحبه مخالفته، بل سيط باللحم والدم، فظهر أثره في الأعضاء لا ينفك شيء منها عن مقتضاه، وأما المرتسم في حيز التخييل، بحيث يمكن ذهول النفس عنه وعن مقتضاه فليس بعلم، إنما هو أمر تصوري وتخيل عارض لا يلبث؛ بل يزول سريعا، لا يغذي القلب، ولا يسمن ولا يغني من جوع»[3].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ **يقول الرازي**: «يعني: هذا التفاوت العظيم الحاصل بين العلماء والجهال لا يعرفه أيضًا إلا أولوا الألباب، قيل لبعض

---

(١) فتح القدير (٤/ ٦٣٦-٦٣٧).

(٢) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٥٢).

(٣) محاسن التأويل (١٤/ ١٩٩).

العلماء: إنكم تقولون: العلم أفضل من المال، ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك، ولا نرى الملوك مجتمعين عند أبواب العلماء، فأجاب العالم بأن هذا أيضًا يدل على فضيلة العلم؛ لأن العلماء علموا ما في المال من المنافع فطلبوه، والجهال لم يعرفوا ما في العلم من المنافع فلا جرم تركوه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة العلم وأهله

* عن حميد بن عبد الرحمن سمعت معاوية خطيبًا يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «**من يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، واللَّه يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر اللَّه لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه فضيلة العلم والتفقه في الدين والحث عليه، وسببه أنه قائد إلى تقوى اللَّه تعالى»[٣].

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «**يفقهه**»: أي: يفهمه كما تقدم، وهي ساكنة الهاء؛ لأنها جواب الشرط.. ونكر «**خيرًا**» ليشمل القليل والكثير، والتنكير للتعظيم؛ لأن المقام يقتضيه. ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين -أي: يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع- فقد حرم الخير.. لأن من لم يعرف أمور دينه لا يكون فقيهًا ولا طالب فقه، فيصح أن يوصف بأنه ما أريد به الخير، وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم»[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولازم ذلك أن من لم يفقهه اللَّه في الدين لم يرد به خيرًا فيكون التفقه في الدين فرضًا. والتفقه في الدين: معرفة الأحكام الشرعية بأدلتها السمعية.

---

(١) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٥٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٩٣)، والبخاري (١/ ٢١٧/ ٧١)، ومسلم (٢/ ٧١٨/ ١٠٣٧) وابن ماجه (١/ ٨٠/ ٢٢١).

(٣) شرح مسلم (٧/ ١١٥).

(٤) فتح الباري (١/ ٢١٨).

فمن لم يعرف ذلك لم يكن متفقهًا في الدين لكن من الناس من قد يعجز عن معرفة الأدلة التفصيلية في جميع أموره، فيسقط عنه ما يعجز عن معرفته، لا كل ما يعجز عنه من التفقه، ويلزمه ما يقدر عليه»[١].

وقال أيضًا: «وطلب العلم الشرعي فرض على الكفاية إلا فيما يتعين، مثل طلب كل واحد علم ما أمره اللَّه به وما نهاه عنه، فإن هذا فرض على الأعيان كما أخرجاه في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**من يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين**» وكل من أراد اللَّه به خيرًا لا بد أن يفقهه في الدين، فمن لم يفقهه في الدين لم يرد اللَّه به خيرًا. والدين: ما بعث اللَّه به رسوله، وهو ما يجب على المرء التصديق به والعمل به، وعلى كل أحد أن يصدق محمدًا ﷺ فيما أخبر به، ويطيعه فيما أمر تصديقًا عامًا وطاعة عامة، ثم إذا ثبت عنه خبر كان عليه أن يصدق به مفصلًا، وإذا كان مأمورًا من جهة بأمر معين كان عليه أن يطيعه طاعة مفصلة»[٢].

وقد عقد ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فصلًا كبيرًا في كتابه الماتع «مفتاح دار السعادة» سماه: «الأصل الأول في العلم وفضله وشرفه..» ذكر فيه فضيلة العلم والعلماء من ثلاثة وخمسين ومائة وجه.

* عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن اللَّه لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ ابن حجر: «في هذا الحديث الحث على حفظ العلم، والتحذير من ترئيس الجهلة، وفيه أن الفتوى هي الرئاسة الحقيقية، وذم من يقدم عليها بغير علم»[٤].

قال الشيخ محمد الخضر الجكني الشنقيطي: «وفي الحديث الزجر عن ترئيس

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢١٢). (٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٨٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٢)، والبخاري (١/ ٢٥٨/ ١٠٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٨/ ٢٦٧٣)، والترمذي (٥/ ٣٠-٣١/ ٢٦٥٢)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٥٥-٤٥٦/ ٥٩٠٧)، وابن ماجه (١/ ٢٠/ ٥٢) من طرق عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص.

(٤) فتح الباري (١/ ٢٦٠).

الجاهل؛ لما يترتب عليه من المفسدة، وقد يتمسك به من لا يجوز تولية الجاهل بالحكم ولو كان عاقلًا عفيفًا»[(١)].

* عن كثير بن قيس قال: كنت جالسًا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فجاءه رجل فقال: يا أبا الدرداء! إني جئتك من مدينة رسول اللَّه ﷺ لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول اللَّه ﷺ ما جئت لحاجة، قال: فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك اللَّه به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر، على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»[(٢)].

⋆ غريب الحديث:

طريقًا: أي: حسية أو معنوية.

⋆ فوائد الحديث:

قال المباركفوري: «"**علمًا**": نكرة ليشمل كل نوع من أنواع علوم الدين قليلة أو كثيرة، إذا كان بنية القربة والنفع والانتفاع»[(٣)].

وقال أيضًا: «**طريقًا**» أي: موصلًا ومُنهيًا إلى الجنة مع قطع العقبات الشاقة دونها يوم القيامة»[(٤)].

قال الخطابي: «قوله: «**إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم**» يتأول على وجوه، أحدها: أن يكون وضعها الأجنحة بمعنى التواضع والخشوع تعظيمًا لحقه وتوقيرًا لعلمه، كقوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾[(٥)] وقيل: وضع

---

(١) كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري (٣/ ٣٩١).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود (٤/ ٥٧-٥٨/ ٣٦٤١) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٤٧/ ٢٦٨٢)، وابن ماجه (١/ ٨١/ ٢٢٣)، وصححه ابن حبان (الإحسان١/ ٢٨٩-٢٩٠/ ٨٨).

(٣) تحفة الأحوذي (٧/ ٣٣٩).

(٤) المصدر السابق.

(٥) الإسراء: الآية (٢٤).

الجناح معناه الكف عن الطيران للنزول عنده كقوله: **«ما من قوم يذكرون اللَّه إلا حفت بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة»**[١]. وقيل: معناه: بسط الجناح وفرشها لطالب العلم لتحمله عليها فتبلغه حيث يؤمه ويقصده من البقاع في طلبه، ومعناه المعونة وتيسير السعي له في طلب العلم، واللَّه أعلم.

وقيل في قوله: **«وتستغفر له الحيتان في جوف الماء»**: إن اللَّه قد قيض للحيتان وغيرها من أنواع الحيوان بالعلم على ألسنة العلماء أنواعًا من المنافع والمصالح والأرفاق، فهم الذين بينوا الحكم فيها فيما يحل ويحرم منها، وأرشدوا إلى المصلحة في بابها، وأوصوا بالإحسان إليها، ونفي الضرر عنها، فألهمها اللَّه الاستغفار للعلماء مجازاة على حسن صنيعهم بها، وشفقتهم عليها»[٢].

وستأتي فوائده إن شاء اللَّه مستوفاة في سورة (المجادلة) عند قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[٣].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٤٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٤/ ٢٧٠٠)، والترمذي (٥/ ٤٢٩/ ٣٣٧٨)، وابن ماجه (٢/ ١٢٤٥/ ٣٧٩١).

(٢) معالم السنن (٤/ ١٦٩-١٧٠).

(٣) المجادلة: الآية (١١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: قل مناديا لأشرف الخلق، وهم المؤمنون، آمرا لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكرا لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية اللَّه لهم وإنعامه عليهم، المقتضي ذلك منهم أن يتقوه، ومن ذلك ما مَنَّ اللَّه عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوى، كما تقول: أيها الكريم تصدق، وأيها الشجاع قاتل»[١].

قال الشوكاني: «والمعنى: يا أيها الذين صدقوا بتوحيد اللَّه اتقوا ربكم بطاعته واجتناب معاصيه، وإخلاص الإيمان له ونفي الشركاء عنه، والمراد قل لهم قولي هذا بعينه»[٢].

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ﴾ **يقول ابن عطية**: «يحتمل أن يكون قوله: ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾، متعلقًا بـ﴿أَحْسَنُوا۟﴾، فكأنه يريد أن الذين يحسنون في الدنيا لهم حسنة في الآخرة، وهي الجنة والنعيم، قاله مقاتل، ويحتمل أن يريد: أن الذين يحسنون لهم حسنة في الدنيا، وهي العاقبة والظهور وولاية اللَّه تعالى، قاله السدي. وكان قياس قوله أن يكون في هذه الدنيا متأخرًا ويجوز تقديمه، والأول أرجح أن الحسنة هي في الآخرة»[٣].

قال الرازي: «ويدل عليه وجوه: الأول: أن التنكير في قوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾ يدل على النهاية والجلالة والرفعة، وذلك لا يليق بأحوال الدنيا، فإنها خسيسة ومنقطعة، وإنما يليق بأحوال الآخرة، فإنها شريفة وآمنة من الانقضاء والانقراض.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٥٥).

(٢) فتح القدير (٤/ ٦٣٧).

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ٥٢٣).

والثاني: أن ثواب المحسن بالتوحيد والأعمال الصالحة إنما يحصل في الآخرة، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾(١) وأيضًا فنعمة الدنيا من الصحة والأمن والكفاية حاصلة للكفار، وأيضًا فحصولها للكافر أكثر وأتم من حصولها للمؤمن، كما قال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(٢) وقال تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾(٣)، الثالث: أن قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يفيد الحصر، بمعنى أنه يفيد أن حسنة هذه الدنيا لا تحصل إلا للذين أحسنوا، وهذا باطل. أما لو حملنا هذه الحسنة على حسنة الآخرة صح هذا الحصر، فكان حمله على حسنة الآخرة أولى»(٤).

وقوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ **يقول الرازي**: «فيه قولان: الأول أنه لا عذر البتة للمقصرين في الإحسان، حتى إنهم إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفرة على الإحسان وصرف الهمم إليه، قل لهم فإن أرض اللَّه واسعة وبلاده كثيرة، فتحولوا من هذه البلاد إلى بلاد تقدرون فيها على الاشتغال بالطاعات والعبادات، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم، ليزدادوا إحسانًا إلى إحسانهم، وطاعة إلى طاعتهم، والمقصود منه الترغيب في الهجرة من مكة إلى المدينة، والصبر على مفارقة الوطن، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾(٥). والقول الثاني: قال أبو مسلم: لا يمتنع أن يكون المراد من الأرض أرض الجنة، وذلك لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى وهي خشية اللَّه، ثم بين أن من اتقى فله في الآخرة الحسنة، وهي الخلود في الجنة، ثم بين أن أرض اللَّه، أي جنته واسعة، لقوله تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾(٦)، وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٧) والقول الأول عندي أولى؛ لأن قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا يليق إلا بالأول»(٨).

---

(١) غافر: الآية (١٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٨٥)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٢/ ٢٩٥٦)، والترمذي (٤/ ٤٨٦/ ٢٣٢٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٨/ ٤١١٣)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٢/ ٤٦٢-٤٦٣/ ٦٨٧).

(٣) الزخرف: الآية (٣٣).

(٤) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٥٣-٢٥٤).

(٥) النساء: الآية (٩٧).

(٦) الزمر: الآية (٧٤).

(٧) آل عمران: الآية (١٣٣).

(٨) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٥٤).

قال القرطبي بعد ما استظهر القول الأول نقلا عن الماوردي قوله: يحتمل أن يريد بسعة الأرض سعة الرزق، لأنه يرزقهم من الأرض، فيكون معناه: ورزق اللَّه واسع، وهو أشبه، لأنه أخرج سعتها مخرج الامتنان.

قلت: فتكون الآية دليلا على الانتقال من الأرض الغالية، إلى الأرض الراخية، كما قال سفيان الثوري: كن في موضع تملأ فيه جرابك خبزا بدرهم»[1].

قال السعدي: «وهنا بشارة نص عليها النبي ﷺ بقوله: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر اللَّه وهم على ذلك**»[2] تشير إليه هذه الآية، وترمي إليه من قريب، وهو أنه تعالى أخبر أن أرضه واسعة، فمهما منعتم من عبادته في موضع فهاجروا إلى غيرها، وهذا عام في كل زمان ومكان، فلا بد أن يكون لكل مهاجر ملجأ من المسلمين يلجأ إليه، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه»[3].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٢٤١).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٧٩)، ومسلم (٣/ ١٥٢٣/ ١٩٢٠)، والترمذي (٤/ ٤٣٧/ ٢٢٢٩)، وابن ماجه (١/ ٥-٦/ ١٠)، والحاكم مطولًا (٤/ ٤٤٩-٤٥٠)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، من حديث ثوبان ﷺ.

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٥٥-٤٥٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الألوسي: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ من تتمة الاعتراض فكأنه قيل: اتقوا ربكم فإن للمحسنين في هذه الدنيا الجنة في الأخرى، ولا عذر للمفرطين في الإحسان بعدم التمكن في الأوطان، فإن أرض اللَّه تعالى واسعة، وبلاده كثيرة، فليتحولوا إن لم يتمكنوا عنها، وليهاجروا إلى ربهم لنيل الرضوان، فإن لهم في جنب ذلك ما يتقاصر عنه الجنة، ويستلذ له كل محنة، وكأنه لما أزاح سبحانه علتهم بأن في أرض اللَّه تعالى سعة، وقع في خلدهم هل نكون نحن ومن يتمكن من الإحسان في بلدته فارغ البال رافع الحال سواء بسواء، فأجيبوا: إنما يوفى الصابرون الذين صبروا على الهجرة ومفارقة المحاب والاقتداء بالأنبياء والصالحين أجرهم بغير حساب، وأصله إنما توفون أجوركم بغير حساب على الخطاب، وعدل عنه إلى المنزل تنبيهًا على أن المقتضى لذلك صبرهم، فيفيد أنكم توفون أجوركم بصبركم، كما وفى أجر من قبلكم بصبرهم، وهو محمول على العموم، شامل للصبر على كل بلاء، غير مخصوص بالصبر على المهاجرة؛ لكنه إنما جيء به في الآية لذلك، وليشمل الصابرين على ألم المهاجرة شمولًا أوليا»[(١)].

قال ابن عطية: «وهذا يحتمل معنيين: أحدهما: أن الصابر يوفى أجره ثم لا يحاسب عن نعيم ولا يتابع بذنوب، فيقع ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ في هذه الآية على الجماعة التي ذكرها النبي ﷺ أنها تدخل الجنة دون حساب في قوله: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب، هم الذين لا يتطيرون ولا يكتوون، ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر**»[(٢)] الحديث على اختلاف

---

(١) روح المعاني (٢٣/ ٢٤٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣٦)، ومسلم (١/ ١٩٨/ ٢١٨) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، وليس في هذا الحديث على اختلاف رواياته -واللَّه أعلم- أن الشطر الأخير جزء منه؛ بل هو وصف لأول زمرة تلج=

ترتيباته. والمعنى الثاني: أن أجور الصابرين توفى بغير حصر ولا وعد، بل جزافًا، وهذه استعارة للكثرة التي لا تحصى، ومنه قول الشاعر:

ما تمنعي يقضى فقد تعطينه ... في النوم غير مسرد محسوب

وإلى هذا التأويل ذهب جمهور المفسرين حتى قال قتادة: ليس ثم واللَّه مكيال ولا ميزان»[1].

قال الشوكاني: «والحاصل: أن الآية تدلّ على أن ثواب الصابرين وأجرهم لا نهاية له، لأن كل شيء يدخل تحت الحساب، فهو: متناهٍ، وما كان لا يدخل تحت الحساب، فهو: غير متناه، وهذه فضيلة عظيمة، ومثوبة جليلة تقتضي أن على كل راغب في ثواب اللَّه، وطامع فيما عنده من الخير، أن يتوفر على الصبر، ويزمَّ نفسه بزمامه، ويقيدها بقيده، فإن الجزع لا يردّ قضاء قد نزل، ولا يجلب خيرًا قد سلب، ولا يدفع مكروهًا قد وقع، وإذا تصوّر العاقل هذا حقّ تصوره، وتعقله حقّ تعقله، علم أن الصابر على ما نزل به قد فاز بهذا الأجر العظيم، وظفر بهذا الجزاء الخطير، وغير الصابر قد نزل به القضاء شاء أم أبى، ومع ذلك فاته من الأجر ما لا يقادر قدره، ولا يبلغ مداه، فضمّ إلى مصيبته مصيبة أخرى، ولم يظفر بغير الجزع، وما أحسن قول من قال:

أرى الصبر محمودًا وعنه مذاهب ... فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب

هناك يحق الصبر والصبر واجب ... وما كان منه للضرورة أوجب»[2].

قال ابن العربي: «الصبر مقام عظيم من مقامات الدين، وهو حبس النفس عما تكرهه من تسريح الخواطر، وإرسال اللسان، وانبساط الجوارح على ما يخالف حال الصبر، ومن الذي يستطيعه؟، فما روي أن أحدا انتهى إلى منزلة أيوب عليه السلام

= الجنة كما صرحت بذلك الأحاديث الصحيحة، كما مر معنا في عدة مواضع كالبقرة ومريم والسجدة، إلا أن هذا المقطع قد جاء في رواية حديث سهل بن سعد ولكن ليس فيه أنهم لا يكتوون ولا يتطيرون، ولفظه: **«ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفًا -أو سبعمائة ألف، لا يدري أبو حازم أيهما قال- متماسكون آخذ بعضهم بعضًا لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»**، أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣٥)، والبخاري (٦/ ٣٩٢/ ٣٢٤٧)، ومسلم (١/ ١٩٨/ ٢١٩).

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٥٢٤).

(٢) فتح القدير (٤/ ٦٣٧-٦٣٨).

حتى صبر على عظيم البلاء عن سؤال كشفه بالدعاء، وإنما عرض حين خشي على دينه لضعف قلبه عن الإيمان، فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1]، ولهذا المعنى جعلوه في الآثار نصف الإيمان، فإن الإيمان على قسمين: مأمور ومزجور، فالمأمور يتوصل إليه بالفعل، والمزجور امتثاله بالكف والدعة عن الاسترسال إليه، وهو الصبر، فأعلمنا ربنا -تبارك وتعالى- أن ثواب الأعمال الصالحة مقدر من حسنة إلى سبعمائة ضعف، وخبأ قدر الصبر منها تحت علمه، فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ولما كان الصوم نوعا من الصبر حين كان كفا عن الشهوات قال تعالى: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي، وأنا أجزي به**»[2].

قال أهل العلم: كل أجر يوزن وزنا، ويكال كيلا إلا الصوم فإنه يحثى حثيا، ويغرف غرفا؛ ولذلك قال مالك: هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها؛ فلا شك أن كل من سلم فيما أصابه، وترك ما نهى عنه فلا مقدار لأجره، وأشار بالصوم إلى أنه من ذلك الباب، وإن لم يكن جميعه، والله أعلم»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة الصبر على الأذى قولًا أو فعلًا

* عن عبد الله قال: قسم النبي ﷺ قسمة -كبعض ما كان يقسم- فقال رجل من الأنصار: والله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله، قلت: أما لأقولن للنبي ﷺ فأتيته -وهو في أصحابه- فساررته، فشق ذلك على النبي ﷺ وتغير وجهه وغضب، حتى وددت أني لم أكن أخبرته، ثم قال: «**قد أوذي موسى بأكثر من ذلك فصبر**»[4].

⋆ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «وفيه أن أهل الفضل قد يغضبهم ما يقال فيهم مما ليس فيهم، ومع

---

(١) الأنبياء: الآية (٨٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٧)، والبخاري (٤/ ١٤٨/ ١٩٠٤)، ومسلم (٢/ ٨٠٦/ ١١٥١[١٦١])، والنسائي (٤/ ٤٧٢-٤٧٣/ ٢١١٥)، وابن ماجه (١/ ٥٢٥/ ١٦٣٨).

(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٦٥٦-١٦٥٧).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٤١١)، والبخاري (١٠/ ٦٢٧/ ٦١٠٠)، ومسلم (٢/ ٧٣٩/ ١٠٦٢[١٤١]).

ذلك فيتلقون ذلك بالصبر والحلم كما صنع النبي ﷺ اقتداءً بموسى عليه السلام»[١].

* عن أبي سعيد أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول اللَّه ﷺ فلم يسأله أحد منهم إلا أعطاه، حتى نفد ما عنده، فقال لهم حين نفد كل شيء أنفق بيديه: «**ما يكون عندي من خير لا أدخره عنكم، وإنه من يستعف يعفه اللَّه، ومن يتصبر يصبره اللَّه، ومن يستغن يغنه اللَّه، ولن تعطوا عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»[٢].

⋆ غريب الحديث:

الصبر: قال الحافظ: «وأحسن ما وصف به الصبر أنه حبس النفس عن المكروه، وعقد اللسان عن الشكوى، والمكابدة في تحمله وانتظار الفرج»[٣].

من يتصبر يصبره الله: قال القرطبي: «وقوله: «**ومن يتصبر**»: أي: يستعمل الصبر، و«**يصبره**»: يقوِّه ويمكنه من نفسه حتى تنقاد له، وتذعن لتحمّل الشدائد»[٤].

⋆ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «وفي الحديث الحض على الاستغناء عن الناس والتعفف عن سؤالهم بالصبر والتوكل على اللَّه وانتظار ما يرزقه اللَّه، وأن الصبر أفضل ما يعطاه المرء لكون الجزاء عليه غير مقدر ولا محدود»[٥].

وقال أيضًا نقلًا عن ابن الجوزي: «وإنما جعل الصبر خير العطاء؛ لأنه حبس النفس عن فعل ما تحبه، وإلزامها بفعل ما تكره في العاجل مما لو فعله أو تركه لتأذى به في الآجل»[٦].

قال النووي: «وفي هذا الحديث الحث على التعفف والقناعة والصبر على ضيق العيش وغيره من مكاره الدنيا»[٧].

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٦٢٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٩٣)، والبخاري (١١/ ٣٦٦/ ٦٤٧٠)، ومسلم (٢/ ٧٢٩/ ١٠٥٣)، وأبو داود (٢/ ٢٩٥/ ١٦٤٤)، والترمذي (٤/ ٣٢٨/ ٢٠٢٤)، والنسائي (٥/ ١٠٠/ ٢٥٨٧).

(٣) فتح الباري (١١/ ٣٦٦).

(٤) المفهم (٣/ ٩٩).

(٥) فتح الباري (١١/ ٣٦٨).

(٦) المصدر السابق.

(٧) شرح مسلم (٧/ ١٢٩-١٣٠).

* عن المغيرة بن شعبة قال: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم -أو تنتفخ- قدماه، فيقال له، فيقول: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[(١)].

★ غريب الحديث:

شكورًا: قال القرطبي: «الشكر: اعتراف بالنعمة وقيام بالخدمة، فمن كثر عنه ذلك وتكرر سمي الشكور، ولذلك قال الحليم الغفور: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[(٢)]»[(٣)].

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها واتصف بضدها، وهذا شأن أسمائه الحسنى أحب خلقه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها، ولهذا يبغض الكفور، والظالم، والجاهل، والقاسي القلب، والبخيل، والجبان، والمهين، واللئيم، وهو سبحانه جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، رحيم يحب الراحمين، محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، جواد يحب أهل الجود، ستّار يحب أهل الستر، قادر يلوم على العجز، والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، عفوّ يحب العفو، وتر يحب الوتر، وكل ما يحبه فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجبها، وكل ما يبغضه فهو مما يضادها وينافيها»[(٤)].

قال الحافظ -معلقًا على قوله ﷺ: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»: «ووجه مناسبته للترجمة أن الشكر واجب وترك الواجب حرام، وفي شغل النفس بفعل الواجب صبر عن فعل الحرام. والحاصل أن الشكر يتضمن الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، قال بعض الأئمة: الصبر يستلزم الشكر لا يتم إلا به، وبالعكس فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر، فمن كان في نعمة ففرضه الشكر والصبر، أما الشكر

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٥٥)، والبخاري (١١/ ٣٦٦/ ٦٤٧١)، ومسلم (٤/ ٢١٧١/ ٢٨١٩)، والترمذي (٢/ ٢٦٨-٢٦٩/ ٤١٢)، والنسائي (٣/ ٢٤٢/ ١٦٤٣)، وابن ماجه (١/ ٤٥٦/ ١٤١٩).

(٢) سبأ: الآية (١٣).

(٣) المفهم (٧/ ١٣٩).

(٤) عدة الصابرين (ص: ٤٢٨).

فواضح، وأما الصبر فعن المعصية، ومن كان في بلية ففرضه الصبر والشكر، وأما الصبر فواضح وأما الشكر فالقيام بحق اللَّه عليه في تلك البلية، فإن لله على العبد عبودية في البلاء كما له عليه عبودية في النعماء. ثم الصبر على ثلاثة أقسام: صبر عن المعصية فلا يرتكبها، وصبر على الطاعة حتى يؤديها، وصبر على البلية فلا يشكو ربه فيها. والمرء لا بد له من واحدة من هذه الثلاث، فالصبر لازم له أبدًا لا خروج له عنه، والصبر سبب في حصول كل كمال، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله في الحديث الأول: «**إن الصبر خير ما أعطيه العبد**»»[١].

ونقل ابن القيم عن بعضهم: «الشكر مراد لنفسه، والصبر مراد لغيره، والصبر إنما حُمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر؛ فهو خادم الشكر»[٢]. ثم ذكر حديث الباب.

* عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، أعظم أجرًا من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم**»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال الصنعاني: «فيه أفضلية من يخالط الناس مخالطة يأمرهم فيها بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحسن معاملتهم، فإنه أفضل من الذي يعتزلهم ولا يصبر على المخالطة، والأحوال تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان، ولكل حال مقال»[٤].

قال النووي: «باب فضل الاختلاط بالناس وحضور جمعهم وجماعاتهم ومشاهد الخير ومجالس الذكر معهم، وعيادة مريضهم وحضور جنائزهم، ومواساة محتاجهم، وإرشاد جاهلهم، وغير ذلك من مصالحهم لمن قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقمع نفسه عن الإيذاء وصبر على الأذى:

---

(١) فتح الباري (١١/ ٣٦٩). (٢) عدة الصابرين (ص: ١٩١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣)، والترمذي (٤/ ٥٧٢/ ٢٥٠٧) وابن ماجه (٢/ ١٣٣٨/ ٤٠٣٢)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٣٨٨)، وحسن الحافظ إسناده في الفتح (١٠/ ٦٢٧)، وانظر «السلسلة الصحيحة» (الحديث رقم: ٩٣٩).

(٤) سبل السلام (٤/ ٣٦٩).

اعلم أن الاختلاط بالناس على الوجه الذي ذكرته هو المختار الذي كان عليه رسول الله ﷺ، وسائر الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم-، وكذلك الخلفاء الراشدون، ومن بعدهم من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من علماء المسلمين وأخيارهم، وهو مذهب أكثر التابعين ومن بعدهم»[١].

وقال المناوي: «ومن ثم عدوا من أعظم أنواع الصبر: الصبر على مخالطة الناس وتحمل أذاهم»[٢].

* عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«ليس أحد -أو ليس شيء- أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولدًا، وإنه ليعافيهم ويرزقهم»**[٣].

★ **فوائد الحديث:**

في الحديث إثبات صفة الصبر لله ﷻ، ولو لم يكن للصبر من الفضيلة إلا ذلك لكفى به، وكذلك الشكر.

* * *

---

(١) رياض الصالحين (ص: ٢٧١).

(٢) فيض القدير (٦/ ٢٥٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠١)، والبخاري (١٠/ ٦٢٦/ ٦٠٩٩)، ومسلم (٤/ ٢١٦٠/ ٢٨٠٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٤-٤٤٥/ ١١٤٤٥).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: قل يامحمد لمشركي قومك: إن اللَّه أمرني أن أعبده مفردا له الطاعة، دون كلّ ما تدعون من دونه من الآلهة والأنداد ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾: يقول: وأمرني ربي -جل ثناؤه- بذلك، لأن أكون بفعل ذلك أوَّل من أسلم منكم، فخضع له بالتوحيد، وأخلص له العبادة، وبريء من كل ما دونه من الآلهة. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾: يقول -تعالى ذكره-: قل يا محمد لهم إني أخاف إن عصيت ربي فيما أمرني به من عبادته، مخلصا له الطاعة، ومفرده بالربوبية. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: يعني عذاب يوم القيامة، ذلك هو اليوم الذي يعظم هوله»(١).

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف عطف ﴿أُمِرْتُ﴾ على ﴿أُمِرْتُ﴾ وهما واحد؟ قلت: ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما، وذلك أنّ الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء، والأمر به ليحرز القائم به قصب السبق في الدين شيء، وإذا اختلف وجها الشيء وصفتاه ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين، ولك أن تجعل اللام مزيدة مثلها في أردت لأن أفعل، ولا تزاد إلا مع أن خاصة دون الاسم الصريح، كأنها زيدت عوضًا من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه، كما عوّض السين في اسطاع عوضًا من ترك الأصل الذي هو أطوع، والدليل على هذا الوجه مجيئه بغير لام في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٢)، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣)، و﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾(٤) وفي معناه أوجه: أن أكون أوّل من أسلم في زماني ومن قومي؛ لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها، وأن أكون أوّل الذين دعوتهم إلى

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٠٤).
(٢) يونس: الآية (٧٢).
(٣) يونس: الآية (١٠٤).
(٤) الأنعام: الآية (١٤).

الإسلام إسلامًا . وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره، لأكون مقتدى بي في قولي وفعلي جميعًا، ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون، وأن أفعل ما أستحق به الأوّلية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب يعني: أن اللَّه أمرني أن أخلص له الدين من الشرك والرياء وكلّ شوب، بدليل العقل والوحي. فإن عصيت ربي بمخالفة الدليلين، استوجبت عذابه فلا أعصيه ولا أتابع أمركم، وذلك حين دعوه إلى دين آبائه»[١].

وفي الآية من الفوائد تنبيه على أن النبي ﷺ رسول من عند اللَّه واجب الطاعة لأن أول المسلمين في شرائع اللَّه لا يمكن أن يكون إلا رسول الله؛ لأن أول من يعرف تلك الشرائع والتكاليف هو الرسول المبلغ[٢].

وفيها: أن اللَّه أمر محمدًا ﷺ أن يجري هذا الكلام على نفسه والمقصود منه المبالغة في زجر الغير عن المعاصي لأنه مع جلالة قدره وشرف نبوته إذا وجب أن يكون خائفا حذرا عن المعاصي فغيره بذلك أولى[٣].

قال الرازي: «دلت هذه الآية على أن ظاهر الأمر للوجوب، وذلك لأنه قال في أول الآية: ﴿إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾ ثم قال بعده: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ⁽١٣⁾﴾ فيكون معنى هذا العصيان ترك الأمر الذي تقدم ذكره، وذلك يقتضي أن يكون تارك الأمر عاصيًا، والعاصي يترتب عليه الخوف من العقاب، ولا معنى للوجوب إلا ذلك»[٤].

قال ابن عاشور: «واعلم أنه لما كان الإسلام هو دين الأنبياء في خاصتهم كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[٥] في سورة البقرة ونظائرها كثيرة، كانت في هذه الآية دلالةٌ على أن محمدًا ﷺ أفضل الرسل؛ لشمول لفظ المسلمين للرسل السابقين»[٦].

* * *

---

(١) الكشاف (٣/ ٣٩١-٣٩٢).

(٢) أفاده الرازي في التفسير الكبير (٢٦/ ٢٥٦).

(٣) أفاده الرازي في التفسير الكبير (٢٦/ ٢٥٦).

(٤) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٥٦).

(٥) البقرة: الآية (١٣٢).

(٦) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٥٨).

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك: اللَّه أعبد مخلصا، مفردا له طاعتي وعبادتي، لا أجعل له في ذلك شريكا، ولكني أفرده بالألوهة، وأبرأ مما سواه من الأنداد والآلهة، فاعبدوا أنتم أيها القوم ما شئتم من الأوثان والأصنام، وغير ذلك مما تعبدون من سائر خلقه، فستعلمون وبال عاقبة عبادتكم ذلك إذا لقيتم ربكم.

وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ يقول -تعالى ذكره-: قل يا محمد لهم: إن الهالكين الذين غَبنوا أنفسهم، وهلكت بعذاب اللَّه أهلوهم مع أنفسهم، فلم يكن لهم إذ دخلوا النار فيها أهل، وقد كان لهم في الدنيا أهلون وقوله: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ألا إن خسران هؤلاء المشركين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وذلك هلاكها هو الخسران المبين، يقول -تعالى ذكره-: هو الهلاك الذي يبين لمن عاينه وعلمه أنه الخسران»[1].

قال ابن عطية: «﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ قيل معناه: أنهم خسروا الأهل الذي كان يكون لهم لو كانوا من أهل الجنة، فهذا كما لو قال: خسروا أنفسهم ونعيمهم؛ أي: الذي كان يكون بهم، وقيل: أراد الأنفس والأهلين الذين كانوا في الدنيا؛ لأنهم صاروا في عذاب النار، ليس لهم نفوس مستقرة، ولا بدل من أهل الدنيا، ومن له في الجنة قد صار له إما أهله وإما غيرهم على الاختلاف فيما يؤثر في ذلك، فهو على كل حال لا خسران معه بتة»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٥٢٤-٥٢٥).

قال الشوكاني: «وتصديرها بحرف التنبيه؛ للإشعار بأن هذا الخسران الذي حلّ بهم قد بلغ من العظم إلى غاية ليس فوقها غاية، وكذلك تعريف الخسران، ووصفه بكونه مبينًا، فإنه يدلّ على أنه الفرد الكامل من أفراد الخسران؛ وأنه لا خسران يساويه، ولا عقوبة تدانيه»[1].

* * *

(١) فتح القدير (٤/ ٦٤٠).

قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لهؤلاء الخاسرين يوم القيامة في جهنم: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وذلك كهيئة الظلل المبنية من النار ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ يقول: ومن تحتهم من النار ما يعلوهم، حتى يصير ما يعلوهم منها من تحتهم ظللا، وذلك نظير قوله -جل ثناؤه- لهم: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[1] يغشاهم مما تحتهم فيها من المهاد.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي أخبرتكم أيها الناس به، مما للخاسرين يوم القيامة من العذاب، تخويف من ربكم لكم، يخوفكم به لتحذروه، فتجتنبوا معاصيه، وتنيبوا من كفركم إلى الإيمان به، وتصديق رسوله، واتباع أمره ونهيه، فتنجوا من عذابه في الآخرة ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ يقول: فاتقوني بأداء فرائضي عليكم، واجتناب معاصيّ، لتنجوا من عذابي وسخطي»[2].

قال شيخ الإسلام: «وقوله: ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ كقول النبي ﷺ في الشمس والقمر: «**إنهما آيتان من آيات اللّه يخوف اللّه بهما عباده**»[3]. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[4] والآيات التي خوف اللّه بها عباده تكون سببا في شر ينزل بالناس، فمن اتقى اللّه بفعل ما أمر به، وقي ذلك الشر، ولو كان مما لا حقيقة له أصلا لم يخف أحد إذا علم أنه لا شر في الباطن، وإنما يبقى التخويف للجاهل الفدم[5] كما يفزع الصبيان بالخيال. وقد قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ

---

(١) الأعراف: الآية (٤١).
(٢) جامع البيان (٢٣/ ٢٠٥).
(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٧)، والبخاري (٢/ ٦٨١/ ١٠٤٨)، والنسائي (٣/ ١٤١/ ١٤٥٨).
(٤) الإسراء: الآية (٥٩).
(٥) الفدم من الناس: العيي عن الحجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم.

﴿فَٱتَّقُونِ﴾ فخوف العباد مطلقا، وأمرهم بتقواه لئلا ينزل المخوف، وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين، والإنذار هو الإعلام بما يخاف منه، وقد وجدت المخوفات في الدنيا، وعاقب اللَّه على الذنوب أمما كثيرة كما قصه في كتابه، وكما شوهد من الآيات، وأخبر عن دخول أهل النار النار في غير موضع من القرآن، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1] ولو كان الأمر كما يتوهمه الجاهل، لكان إنما يخشاه من عباده الجهال الذين يتخيلون ما لا حقيقة له، وهذا كله مبسوط في موضعه، وإنما الغرض هنا التمثيل بأقوال المختلفين التي كلها باطلة»[2].

قال الشوكاني: «ووجه تخصيص العباد المؤمنين، أن الغالب في القرآن إطلاق لفظ العباد عليهم، وقيل: هو للكفار وأهل المعاصي، وقيل هو عام للمسلمين والكفار»[3].

قال السعدي: «فسبحان من رحم عباده في كل شيء، وسهل لهم الطرق الموصلة لله، وحثهم على سلوكها، ورغبهم بكل مرغب تشتاق له النفوس، وتطمئن له القلوب، وحذرهم من العمل لغير ذلك غاية التحذير، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه»[4].

* * *

(١) فاطر: الآية (٢٨).
(٢) منهاج السنة (٥/ ٢٩٨-٣٠٠).
(٣) فتح القدير (٤/ ٦٤٠).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الطاغوت: الطاغوت كل ما عبد من دون اللَّه، مأخوذ من الطغيان، وهو تجاوز الحد في كل شيء، ولما تقدم سمي الساحر والكاهن والمارد من الجن والصارف عن الخير طاغوتا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اختلفوا في أن المراد من الطاغوت ههنا الشيطان أم الأوثان، فقيل: إنه الشيطان، فإن قيل: إنهم ما عبدوا الشيطان وإنما عبدوا الصنم، قلنا: الداعي إلى عبادة الصنم لما كان هو الشيطان كان الإقدام على عبادة الصنم عبادة للشيطان، وقيل: المراد بالطاغوت: الصنم، وسميت طواغيت على سبيل المجاز لأنه لا فعل لها، والطغاة هم الذين يعبدونها، إلا أنه لما حصل الطغيان عند مشاهدتها والقرب منها، وصفت بهذه الصفة إطلاقًا لاسم المسبب على السبب بحسب الظاهر، وقيل: كل ما يعبد ويطاع من دون اللَّه فهو طاغوت، ويقال في التواريخ: إن الأصل في عبادة الأصنام، أن القوم كانوا مشبهة، اعتقدوا في الإله أنه نور عظيم، وفي الملائكة أنها أنوار مختلفة في الصغر والكبر، فوضعوا تماثيل وصورًا على وفق تلك الخيالات، فكانوا يعبدون تلك التماثيل على اعتقاد أنهم يعبدون اللَّه والملائكة، وأقول: حاصل الكلام في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي أعرضوا عن عبودية كل ما سوى الله»[١].

قال السعدي: «المراد بالطاغوت في هذا الموضع، عبادة غير اللَّه، فاجتنبوها

---

(١) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٥٩).

في عبادتها. وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم، لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها في عبادتها.

﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بعبادته وإخلاص الدين له، فانصرفت دواعيهم عن عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام، ومن الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات، ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ التي لا يقادر قدرها، ولا يعلم وصفها إلا من أكرمهم بها، وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الربانية من اللَّه، التي يرون في خلالها، أنه مريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم البشرى في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة البشرى ما يبشرهم به الرب الكريم، من دوام رضوانه وبره وإحسانه، وحلول أمانه في الجنة»[١].

قال ابن القيم: «الإنابة إنابتان: إنابة لربوبيته وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾[٢] فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر، كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام؛ بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾[٣] فهذا حالهم بعد إنابتهم، والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك، وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم. والمنيب إلى الله: المسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابه»[٤].

وقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ يقول الشنقيطي: «أظهر الأقوال في هذه الآية الكريمة أن المراد بالقول ما جاء به النبي ﷺ، من وحي الكتاب والسنة، ومن إطلاق القول على القرآن قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾[٥]

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٥٨-٤٥٩).
(٢) الروم: الآية (٣٣).
(٣) الروم: الآيتان (٣٣و٣٤).
(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٣٤).
(٥) المؤمنون: الآية (٦٨).

الآية. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٌ فَصۡلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤﴾[١]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ أي يقدمون الأحسن، الذي هو أشد حسنًا، على الأحسن الذي هو دونه في الحسن، ويقدمون الأحسن مطلقًا على الحسن. ويدل لهذا آيات من كتاب اللَّه.

أما الدليل على أن القول الأحسن المتبع. ما أنزل عليه ﷺ من الوحي، فهو في آيات من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾[٢] وقوله تعالى لموسى يأمره بالأخذ بأحسن ما في التوراة: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾[٣].

وأما كون القرآن فيه الأحسن والحسن، فقد دلت عليه آيات من كتابه. واعلم أولًا أنه لا شك في أن الواجب أحسن من المندوب، وأن المندوب أحسن من مطلق الحسن فإذا سمعوا مثلًا قوله تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٤] قدموا فعل الخير الواجب، على فعل الخير المندوب، وقدموا هذا الأخير، على مطلق الحسن الذي هو الجائز، ولذا كان الجزاء بخصوص الأحسن الذي هو الواجب والمندوب، لا على مطلق الحسن، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[٦] كما قدمنا إيضاحه في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٧﴾، وبينا هناك دلالة الآيات على أن المباح حسن، كما قال صاحب المراقي:

ما ربنا لم ينه عنه حسن   وغيره القبيح والمستهجن

ومن أمثلة الترغيب في الأخذ بالأحسن وأفضليته مع جواز الأخذ بالحسن قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[٧]

(١) الطارق: الآيتان (١٣و١٤).
(٢) الزمر: الآية (٥٥).
(٣) الأعراف: الآية (١٤٥).
(٤) الحج: الآية (٧٧).
(٥) النحل: الآية (٩٧).
(٦) الزمر: الآية (٣٥).
(٧) النحل: الآية (١٢٦).

فالأمر في قوله: ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ للجواز، والله لا يأمر إلا بحسن. فدل ذلك على أن الانتقام حسن، ولكن الله بين أن العفو والصبر، خير منه وأحسن في قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ وأمثال ذلك كثيرة في القرآن، كقوله تعالى في إباحة الانتقام: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾[1]، مع أنه بين أن الصبر والغفران خير منه، في قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[2]، وكقوله في جواز الانتقام: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[3] مع أنه أشار إلى أن العفو خير منه، وأنه من صفاته -جل وعلا- مع كمال قدرته، وذلك في قوله بعده: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾[4]. وكقوله -جل وعلا- مثنيًا على من تصدق، فأبدى صدقته: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾[5] ثم بين أن إخفاءها وإيتاءها الفقراء، خير من إبدائها الذي مدحه بالفعل الجامد، الذي هو لإنشاء المدح الذي هو نعم، في قوله: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

وكقوله في نصف الصداق اللازم للزوجة بالطلاق قبل الدخول: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾[6]، ولا شك أن أخذ كل واحد من الزوجين النصف حسن، لأن الله شرعه في كتابه في قوله: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ مع أنه رغب كل واحد منهما أن يعفو للآخر عن نصفه، وبين أن ذلك أقرب للتقوى وذلك في قوله بعده ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[7].

وقد قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[8] ثم أرشد إلى الأحسن بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[9] وقال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[10] ثم أرشد إلى الأحسن، في قوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾.

واعلم أن في هذه الآية الكريمة أقوالًا غير الذي اخترنا.

منها ما روي عن ابن عباس، في معنى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ قال: «هو الرجل

(١) الشورى: الآية (٤١).
(٢) الشورى: الآية (٤٣).
(٣) النساء: الآية (١٤٨).
(٤) النساء: الآية (١٤٩).
(٥) البقرة: الآية (٢٧١).
(٦) البقرة: الآية (٢٣٧).
(٧) البقرة: الآية (٢٣٧).
(٨) الشورى: الآية (٤٠).
(٩) الشورى: الآية (٤٠).
(١٠) المائدة: الآية (٤٥).

يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن، وينكف عن القبيح، فلا يتحدث به». وقيل: يستمعون القرآن وغيره، فيتبعون القرآن. وقيل: إن المراد بأحسن القول لا إله إلا اللَّه، وبعض من يقول بهذا يقول: إن الآية نزلت فيمن كان يؤمن باللَّه قبل بعث الرسول ﷺ، كزيد بن عمرو بن نفيل العدوي، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، إلى غير ذلك من الأقوال»[1].

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ يقول ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، الذين هداهم اللَّه، يقول: وفقهم اللَّه للرشاد وإصابة الصواب، لا الذين يعرضون عن سماع الحقّ، ويعبدون ما لا يضرّ، ولا ينفع. وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ يعني: أولو العقول والحجا»[2].

قال الألوسي: «وفي الآية دلالة على حط قدر التقليد المحض، ولذا قيل:

شمر وكن في أمور الدين مجتهدا ولا تكن مثل عَيْر قيد فانقادا»[3].

* * *

(١) أضواء البيان (٦/ ٣٥٦-٣٥٨).

(٢) جامع البيان (٢٣/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٣) روح المعاني (٢٣/ ٢٥٣).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: أفمن كتب اللَّه أنه شقي تقدر تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟؛ أي: لا يهديه أحد من بعد الله؛ لأنه من يضلل اللَّه فلا هادي له، ومن يهده فلا مضل له»[1].

قال الشوكاني: «والمراد بكلمة العذاب هنا هي قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾[2]، وقوله: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[3] ومعنى الآية: التسلية لرسول اللَّه ﷺ، لأنه كان حريصًا على إيمان قومه، فأعلمه اللَّه أن من سبق عليه القضاء، وحقت عليه كلمة اللَّه لا يقدر رسول اللَّه ﷺ أن ينقذه من النار بأن يجعله مؤمنًا»[4].

قال ابن عاشور: «وقد اشتملت هذه الآية على نكت بديعة من الإعجاز، إذ أفادت أن هذا الفريق من أهل الشرك الذين يكمن الكفر في قلوبهم حقت عليهم كلمة اللَّه بتعذيبهم فهم لا يؤمنون، وأن حالهم الآن كحال من وقع في النار فهو هالك لا محالة، وحال النبي ﷺ في حرصه على هديهم كحال من رأى ساقطًا في النار فاندفع بدافع الشفقة إلى محاولة إنقاذه، ولكنه لا يستطيع ذلك، فلذلك أنكرت شدة حرصه على تخليصهم، فكان إيداع هذا المعنى في جملتين نهاية في الإيجاز»[5].

وقال أيضًا: «لا متمسك للمعتزلة في الاستدلال بالآية على نفي الشفاعة المحمدية لأهل الكبائر؛ على أننا لو سلمنا أن الآية مسوقة في غرض الشفاعة، فإنما نفت الشفاعة لأهل الشرك؛ لأن مَن في النار يحتمل العهد، وهم المتحدث

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٩١).
(٢) ص: الآية (٨٥).
(٣) الأعراف: الآية (١٨).
(٤) فتح القدير (٤/ ٦٤١).
(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٧٢).

عنهم في هذه الآية. ولا خلاف في أن المشركين لا شفاعة فيهم، قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾[١]، على أن المنفي هو أن يكون النبي ﷺ منقذًا لمن أراد اللَّه عدمَ إنقاذه، فأما الشفاعة فهو سؤال اللَّه أن ينقذه»[٢].

* * *

(١) المدثر: الآية (٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٧٢).

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: لكن الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه واجتناب محارمه، لهم في الجنة غرف من فوقها غرف مبنية علاليّ بعضها فوق بعض ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ يقول -تعالى ذكره-: تجري من تحت أشجار جناتها الأنهار. وقوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾ يقول -جل ثناؤه-: وعدنا هذه الغرف التي من فوقها غرف مبنية في الجنة، هؤلاء المتقين ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: والله لا يخلفهم وعده، ولكنه يوفي بوعده»[(١)].

قال الشنقيطي: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة، من وعد أهل الجنة بالغرف المبنية، ذكره -جل وعلا- في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في سورة (سبإ): ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[(٢)]. وقوله تعالى في سورة (التوبة): ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾[(٣)] الآية. وقوله تعالى في سورة (الصف): ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾[(٤)]، لأن المساكن الطيبة المذكورة في التوبة والصف صادقة بالغرف المذكورة في (الزمر) و(سبإ)، وقد قدمنا طرفًا من هذا في سورة (الفرقان)، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾[(٥)] الآية»[(٦)].

قال الرازي: «فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾؟ قلنا: لأن المنزل إذا بُنِيَ على منزل آخر تحته كان الفوقاني أضعف بناء من التحتاني، فقوله: ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ معناه أنه وإن

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٠٨).

(٢) سبأ: الآية (٣٧).

(٣) التوبة: الآية (٧٢).

(٤) الصف: الآية (١٢).

(٥) الفرقان: الآية (٧٥).

(٦) أضواء البيان (٦/ ٣٥٩).

كان فوق غيره لكنه في القوة والشدة مساو للمنزل الأسفل، والحاصل أن المنزل الفوقاني والتحتاني حصل في كل واحد منهما فضيلة ومنقصة، أما الفوقاني ففضيلته العلو والارتفاع ونقصانه الرخاوة والسخافة، وأما التحتاني فبالضد منه، أما منازل الجنة فإنها تكون مستجمعة لكل الفضائل، وهي عالية مرتفعة، وتكون في غاية القوة والشدة»[١].

قال الألوسي: «وقال بعض الأجلة: الظاهر أن هذا الوصف تحقيق للحقيقة، وبيان أن الغرف ليست كالظلل، حيث أريد بها المعنى المجازي على الاستعارة التهكمية، وقال بعض فضلاء إخواننا المعاصرين: فائدة التوصيف بما ذكر الإشارة إلى رفعة شأن الغرف، حيث آذن أن اللَّه تعالى بانيها، وماذا عسى يقال في بناء بناه اللَّه -جل وعلا-.

وأقول واللَّه تعالى أعلم: وصفت الغرف بذلك للإشارة إلى أنها مهيأة معدة لهم قد فرغ من أمرها كما هو ظاهر الوصف، لا أنها تبنى يوم القيامة لهم، وفي ذلك من تعظيم شأن المتقين ما فيه، وفي الآية على هذا رد على المعتزلة، وكأن الزمخشري لذلك لم يحم حول هذا الوجه، واقتصر على ما حكيناه أولًا مع أن ما قلناه أقرب منه فليحفظ»[٢].

قال الرازي: «وفي الآية دقيقة شريفة، وهي أنه تعالى في كثير من آيات الوعد صرح بأن هذا وعد اللَّه وأنه لا يخلف وعده، ولم يذكر في آيات الوعيد البتة مثل هذا التأكيد والتقوية، وذلك يدل على أن جانب الوعد أرجح من جانب الوعيد، بخلاف ما يقوله المعتزلة، فإن قالوا: أليس أنه قال في جانب الوعيد: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾[٣] قلنا: قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ ليس تصريحًا بجانب الوعيد؛ بل هو كلام عام يتناول القسمين، أعني: الوعد والوعيد، فثبت أن الترجيح الذي ذكرناه حق، واللَّه أعلم»[٤].

---

(١) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٦٤).

(٢) روح المعاني (٢٣/ ٢٥٤-٢٥٥).

(٣) ق: الآية (٢٩).

(٤) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٦٤-٢٦٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الجنة وأسباب دخولها

* عن أبي سعيد الخدري أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم**». قالوا: يا رسول اللَّه تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا باللَّه وصدقوا المرسلين**»(١).

* عن سهل بن سعد أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة في الجنة كما تراءون الكوكب في السماء**»(٢).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون في الغرفة كما تتراءون الكوكب الشرقي أو الكوكب الغربي الغابر في الأفق والطالع في تفاضل الدرجات**»، فقالوا: يا رسول الله! أولئك النبيون؟ قال: «**بلى، والذي نفسي بيده، وأقوام آمنوا باللَّه ورسوله وصدقوا المرسلين**»(٣).

★ **غريب الحديث:**

الدُّرِّيّ: هو النجم الشديد الإضاءة. وقال الفراء: هو النجم العظيم المقدار، وهو بضم المهملة وكسر الراء المشددة بعدها تحتانية ثقيلة، وقد تسكن، وبعدها همزة ومد، وقد يكسر أوله على الحالين، فتلك أربع لغات، ثم قيل: إن المعنى مختلف، فبالتشديد: كأنه منسوب إلى الدُّرّ لبياضه وضيائه، وبالهمز: كأنه مأخوذ من درأ؛ أي: دفع؛ لاندفاعه عند طلوعه(٤).

الغابر: الذاهب.

الأفق: السماء.

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٦) مختصرًا بنحوه، والبخاري (٦/ ٣٩٤/ ٣٢٥٦)، ومسلم (٤/ ٢١٧٧/ ٢٨٣١)، وأبو داود (٤/ ٢٨٧/ ٣٩٨٧)، والترمذي (٥/ ٥٦٧/ ٣٦٥٨)، وابن ماجه (١/ ٣٧/ ٩٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٠)، والبخاري (١١/ ٥٠٧/ ٦٥٥٥)، ومسلم (٤/ ٢١٧٧/ ٢٨٣٠) واللفظ له.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٩)، والترمذي (٤/ ٥٩٥/ ٢٥٥٦) واللفظ له، وقال: «حسن صحيح».

(٤) فتح الباري (٦/ ٤٠٣).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «إن أهل الجنة تتفاوت منازلهم بحسب درجاتهم في الفضل، حتى إن أهل الدرجات العلا ليراهم من هو أسفل منهم كالنجوم. وقد بين ذلك في الحديث بقوله: «**لتفاضل ما بينهم**»»[١].

قوله: «**صدقوا المرسلين**»: **قال الحافظ**: «أي: حق تصديقهم، وإلا لكان كل من آمن باللَّه وصدق رسله وصل إلى تلك الدرجة، وليس كذلك، ويحتمل أن كون التنكير في قوله: «**رجال**» إلى أناس مخصوصين، موصوفين بالصفة المذكورة، ولا يلزم أن يكون كل من وصف بها كذلك؛ لاحتمال أن يكون لمن بلغ تلك المنازل صفة أخرى، وكأنه سكت عن الصفة التي اقتضت لهم ذلك، والسر فيه أنه قد يبلغها من له عمل مخصوص، ومن لا عمل له كان بلوغها إنما هو برحمة اللَّه تعالى.. ويحتمل أن يقال: إن الغرف المذكورة لهذه الأمة، وأما من دونهم فهم الموحدون من غيرهم، أو أصحاب الغرف الذين دخلوا الجنة من أول وهلة، ومن دونهم من دخل بالشفاعة. ويؤيد الذي قبله قوله في صفتهم: «**هم الذين آمنوا باللَّه وصدقوا المرسلين**» وتصديق جميع المرسلين إنما يتحقق لأمة محمد ﷺ، بخلاف من قبلهم من الأمم، فإنهم وإن كان فيهم من صدق بمن سيجيء من بعده من الرسل فهو بطريق التوقع لا بطريق الواقع، واللَّه أعلم»[٢].

قال القرطبي: «اعلم أن هذه الغرف مختلفة في العلوّ والصفة بحسب اختلاف أصحابها في الأعمال، فبعضها أعلى من بعض وأرفع.. وقوله: «**والذي نفسي بيده رجال آمنوا باللَّه وصدقوا المرسلين**» ولم يذكر عملًا ولا شيئًا سوى الإيمان والتصديق للمرسلين، ذلك ليعلم أنه عنى الإيمان البالغ، وتصديق المرسلين من غير سؤال آية ولا تلجلج، وإلا فكيف تنال الغرفات بالإيمان والتصديق الذي للعامة، ولو كان كذلك كان جميع الموحدين في أعالي الغرفات وأرفع الدرجات، وهذا محال، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾[٣]، والصبر بذل النفس والثبات له وقوفًا بين يديه بالقلوب عبودية، وهذه صفة

---

(١) فتح الباري (٦/ ٤٠٣). (٢) فتح الباري (٦/ ٤٠٤).

(٣) الفرقان: الآية (٧٥).

المقربين. وقال في آية أخرى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1] فذكر شأن الغرفة وأنها لا تنال بالأموال والأولاد، وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح، ثم بين لهم جزاء الضعف وأن محلهم الغرفات، يعلمك أن هذا إيمان طمأنينة وتعلق قلب به مطمئنًا به في كل ما نابه، وبجميع أموره وأحكامه؛ فإذا عمل عملًا صالحًا فلا يخلطه بضده وهو الفاسد، فلا يكون العمل الصالح الذي لا يشوبه فساد إلا مع إيمان بالغ مطمئن صاحبه بمن آمن، وبجميع أموره وأحكامه، والمخلط ليس إيمانه وعمله هكذا، فلهذا كانت منزلته دون غيره»[2].

* عن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، أعدها اللَّه لمن أطعم الطعام، وألان الكلام وتابع الصيام، وصلى والناس نيام**»[3].

★ غريب الحديث وفوائده:

سبق الكلام عنه في سورة (الفرقان) الآيتان (٧٥و٧٦) وسورة (العنكبوت) الآية (٥٨).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله! إنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا، وشممنا النساء والأولاد، فقال: «**لو تكونون على كل حال على الحال الذي أنتم عليه عندي لصافحتكم الملائكة بأكفكم، ولو أنكم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء اللَّه بقوم يذنبون كي يغفر لهم**». قال: قلنا: يا رسول الله! حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: «**لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ أو الياقوت، وترابها الزعفران،**

---

(١) سبأ: الآية (٣٧).

(٢) التذكرة (ص: ٤٦٣-٤٦٤).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١١/ ٤١٨-٤١٩/ ٢٠٨٨٣)، ومن طريقه أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٣) واللفظ له، والطبراني (٣/ ٣٤٢/ ٣٤٦٦)، قال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٩٢): «رواه أحمد ورجاله ثقات». وقال في (١٠/ ٤١٩-٤٢٠): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عبد اللَّه بن معانق ووثقه ابن حبان» اهـ. وقال في (٢/ ٢٥٤): «رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات»، وابن حبان (الإحسان ٢/ ٢٦٢/ ٥٠٩) وصححه، والحاكم (١/ ٣٢١) وصححه أيضًا على شرط مسلم ووافقه الذهبي، والبيهقي (٤/ ٣٠٠-٣٠١).

من يدخلها ينعم فلا يبؤس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حين يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام، وتفتح لها أبواب السموات، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»[١].

★ غريب الحديث:

لَبِنَة: اللبنة: التي يُبنى بها. والجمع: لَبِنٌ.

مِلاطها: المِلاط: الطين الذي يُجعل بين سافَيِ البناء يُمْلَط به الحائط؛ أي: يخلط.

أذفر: من ذفر: أي: طيب الريح، والذَّفَر -بالتحريك- يقع على الطيب والكريه ويفرق بينهما بما يضاف إليه ويوصف به.

حصباؤها: الحصباء: الحصى الصغار.

الزعفران: أي: الناعم الأصفر الطيب الريح.

★ فوائد الحديث:

جمع النبي ﷺ في وصفه للجنة بين ألوان الزينة، وهي البياض والحمرة والصفرة ويكتمل بالأشجار الملونة بالخضرة، ولما كان السواد مما يغم الفؤاد خص بأهل العناد من العباد[٢].

قال ابن القيم في منظومته في وصف الجنة:

وبناؤها اللبنات من ذهب ... وأخرى فضة نوعان مختلفان

وقصورها من لؤلؤ وزبرجد ... أو فضة أو خالص العقيان

وكذاك من در وياقوت به ... نظم البناء بغاية الإتقان

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٤)، والطيالسي (ح: ٢٥٨٣)، وابن حبان (الإحسان ١٦/ ٣٩٦/ ٧٣٨٧) واللفظ له، وصححه. وأخرجه مختصرًا: الترمذي (٥/ ٥٣٩/ ٣٥٩٨) وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه (١/ ٥٥٧/ ١٧٥٢)، وللحديث شاهد من حديث حنظلة التميمي الأسيدي عند: أحمد (٤/ ١٧٨)، ومسلم (٤/ ٢١٠٦/ ٢٧٥٠)، والترمذي (٤/ ٥٤٧/ ٢٤٥٢)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٦/ ٤٢٣٩).

(٢) أفاده القاري في «المرقاة» (٩/ ٥٩٧-٥٩٨).

والطين مسك خالص أو زعفرا ... ن جا بذا أثران مقبولان
ليسا بمختلفين لا تنكرهما ... فهما الملاط لذلك البنيان

قال هراس: «هكذا جاء في هذه الأحاديث أن ترابها الزعفران، وقد ورد في بعضها أن ترابها المسك، ولا تعارض بينها، إذ يجوز أن تكون تربتها متضمنة للنوعين. كما قال بعض السلف: ويجوز أن يكون التراب من زعفران، فإذا عجن بالماء صار مسكًا، والطين قد يسمى ترابًا، ويحتمل أن يكون زعفرانًا باعتبار اللون، ومسكًا باعتبار الرائحة، وهذا من أحسن شيء يكون البهجة والإشراق، لون الزعفران، والرائحة رائحة المسك. وكذلك ورد تشبيهها بالدرمكة، وهي الخبزة الصافية التي يضرب لونها إلى الصفرة مع لينها ونعومتها»[1].

قوله: «لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»: قال المناوي: «هذا إشارة إلى بقاء الجنة وجميع ما فيها ومن فيها، وأن صفات أهلها من الشباب ونحوه لا يتغير، وملابسهم لا تبلى، وقد نطق بذلك التنزيل في عدة آيات: ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[2] ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[3] وفي طيّ ذلك تعريض بذمّ الدنيا، فإن من فيها وإن نعم يبأس، ومن أقام فيها لم يخلد، بل يموت ويفنى شبابه، ويبلى جسده وثيابه»[4].

* * *

(١) شرح قصيدة ابن القيم (٢/ ٣٦١-٣٦٢).
(٢) التوبة: الآية (٢١).
(٣) الرعد: الآية (٣٥).
(٤) فيض القدير (٣/ ٣٦٤).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾

★ غريب الآية:

ينابيع: واحدها ينبوع، والينبوع العين التي يخرج منها الماء.

يهيج: ييبس ويصفر يقال: هاجت الأرض إذا أدبر نبتها وولى، ويقال: هاج البقل؛ أي: طال واصفر، وأصل الهيجان شدة الحركة.

حطاما: فتاتا مكسرا، من تحطم العود إذا تفتت من اليبس، والحطم كسر الشيء مثل الهشم ونحوه، ثم استعمل لكل كسر متناه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولي الألباب فيها، وصف الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها، وذلك أنه تعالى بين أنه أنزل من السماء ماء وهو المطر، وقيل: كل ما كان في الأرض فهو من السماء، ثم إنه تعالى ينزله إلى بعض المواضع، ثم يقسمه فيسلكه ينابيع في الأرض، أي فيدخله وينظمه ينابيع في الأرض عيونًا، ومسالك ومجاري كالعروق في الأجسام، ثم يخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك، أو مختلفًا أصنافه من بر وشعير وسمسم، ثم يهيج، وذلك لأنه إذا تم جفافه جاز له أن ينفصل عن منابته، وإن لم تتفرق أجزاؤه، فتلك الأجزاء كأنها هاجت لأن تتفرق، ثم يصير حطامًا يابسًا، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ يعني: أن من شاهد هذه الأحوال في النبات علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك، وأنه وإن طال عمره فلا بد له من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون، منحطم الأعضاء والأجزاء، ثم تكون عاقبته الموت. فإذا كانت مشاهدة هذه الأحوال في النبات

تذكره حصول مثل هذه الأحوال في نفسه وفي حياته، فحينئذ تعظم نفرته في الدنيا وطيباتها. والحاصل أنه تعالى في الآيات المتقدمة ذكر ما يقوي الرغبة في الآخرة، وذكر في هذه الآية ما يقوي النفرة عن الدنيا، فشرح صفات القيامة يقوي الرغبة في طاعة اللّٰه، وشرح صفات الدنيا يقوي النفرة عن الدنيا، وإنما قدم الترغيب في الآخرة على التنفير عن الدنيا؛ لأن الترغيب في الآخرة مقصود بالذات، والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض، والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض»[1].

قال ابن رجب: «فالدنيا وجميع ما فيها من الخضرة والبهجة والنضرة، تتقلب أحواله وتتبدل، ثم تصير حطاما يابسا، وقد عدد اللّٰه سبحانه زينة الدنيا ومتاعها المبهج في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾[2] وهذا كله يصير ترابا ما خلا الذهب والفضة، ولا ينتفع بأعيانهما؛ بل هما قيم الأشياء، فلا ينتفع صاحبهما بإمساكهما، وإنما ينتفع بإنفاقهما، ولهذا قال الحسن: بئس الرفيق الدرهم والدينار، لا ينفعانك حتى يفارقانك، وأجسام بني آدم؛ بل وسائر الحيوانات كنبات الأرض، تنقلب من حال إلى حال، ثم تجف وتصير ترابا، قال اللّٰه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾[3].

وما المرء إلا كالنبات وزهره ... يعود رفاتا بعد ما هو ساطع

فينتقل ابن آدم من الشباب إلى الهرم، ومن الصحة إلى السقم، ومن الوجود إلى العدم كما قيل:

وما حالتنا إلا ثلاث ... شباب ثم شيب ثم موت

وآخر ما يسمى المرء شيخا ... ويتلوه من الأسماء ميت

مدة الشباب قصيرة كمدة زهر الربيع، وبهجته ونضارته، فإذا يبس وابيض فقد آن ارتحاله، كما أن الزرع إذا ابيض فقد آن حصاده، وأجل زهور الربيع الورد، ومتى كثر

(١) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٦٥).

(٢) آل عمران: الآية (١٤).

(٣) نوح: الآيتان (١٧و١٨).

فيه البياض فقد قرب زمان انتقاله . . وقد يدرك الزرع آفة قبل بلوغ حصاده فيهلك، كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾[1] قال ميمون بن مهران لجلسائه: يا معشر الشيوخ: ما ينتظر بالزرع إذا ابيض، قالوا: الحصاد، فنظر إلى الشباب فقال: يا معشر الشباب إن الزرع قد تدركه الآفة قبل أن يستحصد، وقال بعضهم: أكثر من يموت الشباب، وآية ذلك أن الشيوخ في الناس قليل.

أيا ابن آدم لا يغررك عافية ... عليك صافية فالعمر معدود

ما أنت إلا كزرع عند خضرته ... بكل شيء من الآفات مقصود

فإن سلمت من الآفات أجمعها ... فأنت عند كمال الأمر محصود

كل ما في الدنيا فهو مذكر بالآخرة، ودليل عليه، فنبات الأرض واخضرارها في الربيع بعد محولها ويبسها في الشتاء، وإيناع الأشجار واخضرارها بعد كونها خشبا يابسا، يدل على بعث الموتى من الأرض، وقد ذكر اللَّه تعالى ذلك في كتابه في مواضع كثيرة»[2].

* * *

---

(١) يونس: الآية (٢٤).

(٢) لطائف المعارف (٢٩٢-٢٩٤).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أفمن فسح اللَّه قلبه لمعرفته، والإقرار بوحدانيته، والإذعان لربوبيته، والخضوع لطاعته ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ يقول: فهو على بصيرة مما هو عليه ويقين، بتنوير الحق في قلبه، فهو لذلك لأمر اللَّه متبع، وعما نهاه عنه منته فيما يرضيه، كمن أقسى اللَّه قلبه، وأخلاه من ذكره، وضيقه عن استماع الحق، واتباع الهدى، والعمل بالصواب؟ وترك ذكر الذي أقسى اللَّه قلبه، وجواب الاستفهام اجتزاء بمعرفة السامعين المراد من الكلام، إذ ذكر أحد الصنفين، وجعل مكان ذكر الصنف الآخر الخبر عنه بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾»[(١)].

قال ابن عاشور: «ومن رشاقة ألفاظ القرآن إيثار كلمة: شَرح للدلالة على قبول الإسلام؛ لأن تعاليم الإسلام وأخلاقه وآدابه تكسب المسلم فرحًا بحاله، ومسرة برضى ربه، واستخفافًا للمصائب والكوارث؛ لجزمه بأنه على حق في أمره، وأنه مثاب على ضره، وأنه راجٍ رحمة ربه في الدنيا والآخرة، ولعدم مخالطة الشك والحيرة ضميره.

فإن المؤمن أول ما يؤمن بأن اللَّه واحد، وأن محمدًا ﷺ رسوله، ينشرح صدره بأنه ارتفع درجات عن الحالة التي كان عليها حالةَ الشرك، إن اجتنبَ عبادة أحجار هو أشرف منها، ومعظم ممتلكاته أشرف منها، كفرسه وجمله وعبده وأَمته وماشيته ونَخْلِه، فشعر بعزة نفسه مرتفعًا عما انكشف له من مهانتها السابقة التي غسلها عنه الإسلام، ثم أصبح يقرأ القرآن وينطق عن الحكمة، ويتسم بمكارم الأخلاق

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٠٩).

وأصالة الرأي، ومحبة فعل الخير لوجه اللَّه لا للرياء والسمعة، ولا ينطوي باطنه على غلّ ولا حسد ولا كراهية في ذات اللَّه، وأصبح يُعد المسلمين لنفسه إخوانًا، وقد ترك الاكتساب بالغارة والميسر، واستغنى بالقناعة عَن الضراعة إلا إلى اللَّه تعالى، وإذا مسه ضر رجا زواله ولم ييأس من تغير حاله. وأيقن أنه مثاب على تحمله وصبره، وإذا مسته نعمة حمد ربه وترقب المزيد، فكان صدره منشرحًا بالإسلام، متلقيًا الحوادث باستبصار غير هياب، شجاع القلب عزيز النفس»[1].

وفي بيان أسباب انشراح الصدر يقول ابن القيم -رحمه اللَّه تعالى-: «فأعظم أسباب انشراح شرح الصدر التوحيد، وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه، قال اللَّه تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[2].

فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه.

ومنها: النور الذي يقذفه اللَّه في قلب العبد، وهو نور الإيمان، فإنه يشرح الصدر ويوسعه، ويفرح القلب، فإذا فقد هذا النور من قلب العبد ضاق وحرج وصار في أضيق سجن وأصعبه..

ومنها: العلم، فإنه يشرح الصدر ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس، فكلما اتسع علم العبد انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل علم؛ بل للعلم الموروث عن الرسول ﷺ وهو العلم النافع، فأهله أشرح الناس صدرا، وأوسعهم قلوبا، وأحسنهم أخلاقا، وأطيبهم عيشا.

ومنها: الإنابة إلى اللَّه ﷻ، ومحبته بكل القلب، والإقبال عليه والتنعم بعبادته، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك، حتى إنه ليقول أحيانا: إن كنت في الجنة في مثل هذه الحالة، فإني إذا في عيش طيب، وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له حس به، وكلما

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٨٠).

(٢) الأنعام: الآية (١٢٥).

كانت المحبة أقوى وأشد، كان الصدر أفسح وأشرح، ولا يضيق إلا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا الشأن، فرؤيتهم قذى عينه، ومخالطتهم حمى روحه.

ومن أعظم أسباب ضيق الصدر: الإعراض عن اللَّه تعالى، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه، فإن من أحب شيئًا غير اللَّه عذب به، وسجن قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسف بالا، ولا أنكد عيشا، ولا أتعب قلبا، فهما محبتان: محبة هي جنة الدنيا، وسرور النفس، ولذة القلب، ونعيم الروح وغذاؤها ودواؤها؛ بل حياتها وقرة عينها، وهي محبة اللَّه وحده بكل القلب، وانجذاب قوى الميل والإرادة والمحبة كلها إليه، ومحبة هي عذاب الروح، وغم النفس، وسجن القلب، وضيق الصدر، وهي سبب الألم والنكد والعناء، وهي محبة ما سواه سبحانه.

ومن أسباب شرح الصدر: دوام ذكره على كل حال، وفي كل موطن، فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر، ونعيم القلب، وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه، وحبسه وعذابه.

ومنها: الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرا، وأطيبهم نفسا، وأنعمهم قلبا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرا، وأنكدهم عيشا، وأعظمهم هما وغما، وقد ضرب رسول اللَّه ﷺ في الصحيح مثلا للبخيل والمتصدق، كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد، كلما هم المتصدق بصدقة اتسعت عليه وانبسطت، حتى يجر ثيابه، ويعفي أثره، وكلما هم البخيل بالصدقة لزمت كل حلقة مكانها، ولم تتسع عليه[1]. فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق، وانفساح قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل، وانحصار قلبه.

ومنها: الشجاعة، فإن الشجاع منشرح الصدر، واسع البطان، متسع القلب، والجبان: أضيق الناس صدرا، وأحصرهم قلبا، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له ولا نعيم، إلا من جنس ما للحيوان البهيمي، وأما سرور الروح ولذتها ونعيمها

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٨٩)، والبخاري (٣/ ٣٨٩/ ١٤٤٣)، ومسلم (٢/ ٧٠٨/ ١٠٢١)، والنسائي (٥/ ٧٤-٧٥/ ٢٥٤٧).

وابتهاجها فمحرم على كل جبان، كما هو محرم على كل بخيل، وعلى كل معرض عن اللَّه سبحانه، غافل عن ذكره، جاهل به وبأسمائه تعالى وصفاته ودينه، متعلق القلب بغيره، وإن هذا النعيم والسرور يصير في القبر رياضا وجنة، وذلك الضيق والحصر ينقلب في القبر عذابا وسجنا، فحال العبد في القبر كحال القلب في الصدر نعيما وعذابا، وسجنا وانطلاقا، ولا عبرة بانشراح صدر هذا لعارض، ولا بضيق صدر هذا لعارض، فإن العوارض تزول بزوال أسبابها، وإنما المعول على الصفة التي قامت بالقلب توجب انشراحه وحبسه، فهي الميزان واللَّه المستعان.

ومنها بل من أعظمها: إخراج دغل القلب من الصفات المذمومة التي توجب ضيقه وعذابه، وتحول بينه وبين حصول البرء، فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره، ولم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه، لم يحظ من انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتوِران على قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما.

ومنها: ترك فضول النظر والكلام والاستماع والمخالطة والأكل والنوم، فإن هذه الفضول تستحيل آلاما وغموما وهموما في القلب، تحصره وتحبسه وتضيقه ويتعذب بها؛ بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها، فلا إله إلا اللَّه ما أضيق صدر من ضرب في كل آفة من هذه الآفات بسهم، وما أنكد عيشه، وما أسوأ حاله، وما أشد حصر قلبه، ولا إله إلا اللَّه ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلة من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همته دائرة عليها حائمة حولها، فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣﴾[1] ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾[2] وبينهما مراتب متفاوتة لا يحصيها إلا اللَّه -تبارك وتعالى-.

والمقصود: أن رسول اللَّه ﷺ كان أكمل الخلق في كل صفة يحصل بها انشراح الصدر، واتساع القلب، وقرة العين، وحياة الروح، فهو أكمل الخلق في هذا الشرح والحياة وقرة العين، مع ما خص به من الشرح الحسي، وأكمل متابعة له أكملهم

---

(١) الانفطار: الآية (١٣).

(٢) الانفطار: الآية (١٤).

انشراحا ولذة وقرة عين، وعلى حسب متابعته ينال العبد من انشراح صدره، وقرة عينه، ولذة روحه ما ينال، فهو ﷺ في ذروة الكمال من شرح الصدر، ورفع الذكر، ووضع الوزر، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتباعه، والله المستعان»[1].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يقول -تعالى ذكره- : فويل للذين جفت قلوبهم، ونأت عن ذكر الله وأعرضت، يعني عن القرآن الذي أنزله -تعالى ذكره-، مذكرا به عباده، فلم يؤمن به، ولم يصدّق بما فيه. وقيل: ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى: عن ذكر الله، فوضعت: «من» مكان «عن»، كما يقال في الكلام: أتخمت من طعام أكلته، وعن طعام أكلته بمعنى واحد.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يقول -تعالى ذكره- : هؤلاء القاسية قلوبهم من ذكر الله في ضلال مبين لمن تأمله وتدبره بفهم، أنه في ضلال عن الحق جائر»[2].

* * *

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٢٣-٢٨).

(٢) جامع البيان (٢٣/ ٢٠٩).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

★ غريب الآية:

مثاني: جمع مثنى أي: أنه يثنى؛ أي: يكرر على مر الأوقات وكر الأعصار، وقيل: قيل له مثنى لأنه فيه تثنية القصص والمواعظ وقيل من الثناء؛ أي: أنه يظهر منه أبدا ما يدعوا إلى الثناء عليه، وعلى من يتلوه ويعمل به.

تقشعر: الاقشعرار أن يلحق الجسم قشعريرة، وهي الرعدة النافضة للجسم، من تذكر شيء مهيب أو هجومه، ويكون ذلك في الفرح والترح، واقشعر جلده: إذا تقبض من الخوف، ووقف شعره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى عن كتابه الذي نزله أنه ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ على الإطلاق، فأحسن الحديث كلام اللّه، وأحسن الكتب المنزلة من كلام اللّه هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن، علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه أجل المعاني؛ لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه، متشابها في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه. حتى إنه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاقه حتى في معانيه الغامضة، ما يبهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم، هذا هو المراد بالتشابه في هذا الموضع.

وأما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[1] فالمراد بها: التي تشتبه على فهوم كثير من الناس، ولا يزول هذا الاشتباه إلا بردها إلى المحكم، ولهذا قال: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ

---

(١) آل عمران: الآية (٧).

﴿مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ فجعل التشابه لبعضه، وهنا جعله كله متشابها؛ أي: في حسنه؛ لأنه قال: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ وهو سور وآيات، والجميع يشبه بعضه بعضا كما ذكرنا.

﴿مَّثَانِيَ﴾ أي: تثنى فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتثنى فيه أسماء اللَّه وصفاته، وهذا من جلالته وحسنه، فإنه تعالى لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزكية للقلوب، المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب، بمنزلة الماء لسقي الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بعد عهدها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة، فكذلك القلب يحتاج دائما إلى تكرر معاني كلام اللَّه تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعا، ولم تحصل النتيجة منه»[1].

قال الزمخشري: «النفوس أنفر شيء من حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرر عليها عودًا عن بدء، لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله، ومن ثم كانت عادة رسول اللَّه ﷺ أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات.. ليركزه في قلوبهم، ويغرسه في صدورهم»[2].

قال ابن كثير: «وقال بعض العلماء: وُيرْوى عن سفيان بن عيينة معنى قوله: ﴿مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ أنّ سياقات القرآن تارةً تكونُ في معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارةً تكونُ بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثاني، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾[3]، وكقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾[4]، إلى أن قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾[5]، ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٩﴾[6]، إلى أن قال: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ٥٥﴾[7]، ونحو هذا من السياقات فهذا كله من المثاني؛ أي: في معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٦٣-٤٦٥).

(٢) الكشاف بتصرف (٣/ ٣٩٥).

(٣) الانفطار: الآيتان (١٣و١٤).

(٤) المطففين: الآية (٧).

(٥) المطففين: الآية (١٨).

(٦) ص: الآية (٤٩).

(٧) ص: الآية (٥٥).

يشبه بعضه بعضا، فهو المتشابه، وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾، ذلك معنى آخر.

وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لما يرجون ويُؤمِّلون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نَغَمات لأبيات، من أصوات القَيْنات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾(٢) أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم، أي يرون غيرهم قد سجد فيسجدون تبعا له.

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام اللَّه من تلاوة رسول اللَّه ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر اللَّه. لم يكونوا يتصارخُون، ولا يتكلّفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقدح المُعلّى في الدنيا والآخرة.

قال عبد الرزاق: حدثنا مَعْمَر قال: تلا قتادة، رحمه الله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال: هذا نعت أولياء اللَّه،

---

(١) الأنفال: الآيات (٢-٤). (٢) الفرقان: الآية (٧٣).

نعتهم اللَّه بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر اللَّه، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان.

وقال السُّدِّي: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلى وعد اللَّه. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: هذه صفة من هداه اللَّه، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله اللَّه، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾»[1].

قلت: هذه الأوصاف التي ذكرها هؤلاء الأئمة في الغشيان وفقدان العقول، والزعق، والصياح، والضرب، والرقص على الأقدام، وغيرها من أفعال الشيطان؛ فإنها في هذه الأزمان هي نعوت الأولياء الصالحين عندهم، والذين يتبرك بهم وتشد الرحال إلى زواياهم وأضرحتهم وأماكنهم، وإقامة المواسم لهم، وإنفاق الأموال الطائلة عليهم، وتبني الكثير من الوجهاء والكبراء لهم، ويعتبرون ما سوى ذلك باطلًا! وهذه المصيبة في الدين عمّت كثيرًا من أقاليم العالم الإسلامي، وتبناها كثير من أصحاب الشهادات العليا ليغتر الناس بهم. فنسأل اللَّه أن يكفينا شرهم بما شاء وكيف شاء.

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٩٤-٩٥).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «هذا تقرير بمعنى التعجيب، والمعنى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ كالمنعمين في الجنة.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ﴾ فقال مجاهد: يخر على وجهه في النار. وقالت فرقة ذلك لما روي أن الكافر يلقى في النار مكتوفًا مربوطة يداه إلى رجليه مع عنقه، ويكب على وجهه، فليس له شيء يتقي به إلا الوجه. وقالت فرقة: المعنى: صفة كثرة ما ينالهم من العذاب، وذلك أنه يتقيه بجميع جوارحه، ولا يزال العذاب يتزايد حتى يتقيه بوجهه الذي هو أشرف جوارحه وفيه حواسه، فإذ بلغ به العذاب إلى هذه الغاية ظهر أنه لا متجاوز بعدها.

قال القاضي أبو محمد: وهذا المعنى عندي أبين بلاغة، وفي هذا المضمار يجري قول الشاعر:

يلقى السيوف بوجهه وبنحره ... ويقيم هامته مقام المغفر

لأنه إنما أراد عظيم جرأته عليها، فهو يلقاها بكل محن وبكل شيء منه حتى بوجهه وبنحره»[١].

وهذه الآية يقول ابن كثير: كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾[٢]، وقال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾[٣] وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾[٤]، واكتفى في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر كقول الشاعر:

---

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٥٢٨-٥٢٩).
(٢) الملك: الآية (٢٢).
(٣) القمر: الآية (٤٨).
(٤) فصلت: الآية (٤٠).

فــمــا أدري إذا يــمــمــت أرضــا أريــد الــخــيــر أيــهــمــا يــلــيــنــي

يعني: الخير والشر»[١].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ يقول: ويقال للظالمين أنفسهم بإكسابهم إياها سخط الله: ذوقوا اليوم أيها القوم وبال ما كنتم في الدنيا تكسبون من معاصي الله»[٢].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٩٥).

(٢) جامع البيان (٢٣/ ٢١٢).

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كذب الذين من قبل هؤلاء المشركين من قُريش من الأمم الذين مضوا في الدهور الخالية رسلهم، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ يقول: فجاءهم عذاب اللّه من الموضع الذي لا يشعرون: أي لا يعلمون بمجيئه منه.

قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: فعجل اللّه لهؤلاء الأمم الذين كذبوا رسلهم الهوان في الدنيا، والعذاب قبل الآخرة، ولم ينظرهم إذ عتوا عن أمر ربهم ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾ يقول: ولعذاب اللّه إياهم في الآخرة إذا أدخلهم النار فعذّبهم بها، أكبر من العذاب الذي عذّبهم به في الدنيا، ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، يقول: لو علم هؤلاء المشركون من قريش ذلك»[1].

قال ابن عاشور: «وفي هذا تعريض بإنذار المشركين بعذاب يحلّ بهم في الدنيا، وهو عذاب السيف الذي أخزاهم اللّه به يوم بدر. فالمراد بالعذاب الذي أتى الذين من قبلهم: هو عذاب الدنيا؛ لأنه الذي يوصف بالإتيان من حيث لا يشعرون.

و﴿حَيۡثُ﴾ ظرف مكان، أي جاء العذابُ الذين من قبلهم من مكان لا يشعرون به؛ فقوم أتاهم من جهة السماء بالصواعق، وقوم أتاهم من الجو مثل ريح عاد، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢١٢).

فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾[(١)]، وقوم أتاهم من تحتهم بالزلازل والخسف مثل قوم لوط، وقوم أتاهم من نبع الماء من الأرض مثل قوم نوح، وقوم عم عليهم البحر مثل قوم فرعون.

وكان العذاب الذي أصاب كفار قريش لم يخطر لهم ببال، وهو قطع السيوف رقابهم وهم في عزة من قومهم، وحرمة عند قبائل العرب، ما كانوا يحسبون أيديًا تقطع رقابهم»[(٢)].

* * *

---

(١) الأحقاف: الآية (٢٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٩٥-٣٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

غير ذي عوج: لا اختلال فيه بوجه من الوجوه، والعوج بكسر العين في المعاني دون الجثث، يقال: في دينه وأمره عوج، وبالفتح في الجثث، نحو في هذا الحائط عَوَج، وقيل المراد بالعوج الشك واللبس، وقال ابن عباس غير مختلف. قال الشاعر:

وقد أتاك يقين غير ذي عوج   من الإله وقول غير مكذوب

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال، أمثال أهل الخير، وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء، والحكمة في ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ عندما نوضح لهم الحق فيعلمون ويعملون.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: جعلناه قرآنا عربيا، واضح الألفاظ، سهل المعاني، خصوصا على العرب. ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾﴾[(١)].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى العلمية والعملية، بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل»[(٢)].

قال الشنقيطي: «وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي: لأنه بلسان

---

(١) الكهف: الآية (١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٦٨).

عربي كما قال تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[١]. وقال تعالى في أول سورة (يوسف): ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾[٢]. وقال في أول (الزخرف): ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾[٣]. وقال في (طه): ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝﴾[٤] وقال تعالى في (فصلت): ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾[٥] وقال تعالى في (الشعراء): ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝﴾[٦] وقال تعالى في سورة (الشورى): ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[٧] الآية. وقال تعالى في (الرعد): ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ۝﴾[٨] إلى غير ذلك من الآيات، وهذه الآيات القرآنية تدل على شرف اللغة العربية وعظمها دلالة لا ينكرها إلا مكابر»[٩].

قال الرازي: «إنه تعالى وصفه بصفات ثلاثة أولها: كونه قرآنًا، والمراد كونه متلوًا في المحاريب إلى قيام القيامة، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝﴾[١٠]، وثانيها: كونه عربيًا، والمراد أنه أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته، كما قال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝﴾[١١] وثالثها: كونه غير ذي عوج، والمراد براءته عن التناقض، كما قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[١٢]»[١٣].

* * *

(١) النحل: الآية (١٠٣).
(٢) يوسف: الآية (٢).
(٣) الزخرف: الآية (٣).
(٤) طه: الآية (١١٣).
(٥) فصلت: الآية (٤٤).
(٦) الشعراء: الآيات (١٩٢-١٩٥).
(٧) الشورى: الآية (٧).
(٨) الرعد: الآية (٣٧).
(٩) أضواء البيان (٦/ ٣٦١).
(١٠) الحجر: الآية (٩).
(١١) الإسراء: الآية (٨٨).
(١٢) النساء: الآية (٨٢).
(١٣) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٧٧).

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

★ غريب الآية:

متشاكسون: مختلفون متشاجرون، أصله من شكس خلقه إذا ساء وضاق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «لما ذكر ﷻ أنه ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل مجملًا جاء بعد ذلك بمثل في أهم الأمور وأعظمها خطرًا وهو التوحيد، فمثل تعالى الكافر والعابد للأوثان والشياطين لرجال عدة في أخلاقهم شكاسة ونقص وعدم مسامحة، فهم لذلك يعذبون ذلك العبد بأنهم يتضايقون في أوقاتهم ويضايقون العبد في كثرة العمل، فهو أبدًا ناصب، فكذلك عابد الأوثان الذي يعتقد أن ضره ونفعه عندها، هو معذب الفكر بها وبحراسة حاله منها، ومتى أرضى صنمًا منها بالذبح له في زعمه تفكر فيما يصنع مع الآخر، فهو أبدًا تعب في ضلال، وكذلك هو المصانع للناس الممتحن بخدمة الملوك، ومثل تعالى المؤمن باللَّه وحده، بعبد لرجل واحد، يكلفه شغله، فهو يعمله على تؤدته، وقد ساس مولاه، فالمولى يغفر زلته ويشكره على إعادة عمله»[(١)].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ يقول -تعالى ذكره-: هل يستوي مثلُ هذا الذي يخدم جماعة شركاء سيئة أخلاقهم، مختلفة فيه لخدمته، مع منازعته شركاءه فيه، والذي يخدمُ واحدا لا ينازعه فيه منازع، إذا أطاعه عرف له موضع طاعته وأكرمه، وإذا أخطأ صفح له عن خطئه، يقول: فأيّ هذين أحسن حالا وأروح جسما وأقلّ تعبا ونصبا؟. وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يقول: الشكر الكامل، والحمدُ التامّ لله وحده دون كلّ معبود سواه. وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

---

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٥٢٩).

﴿يَعْلَمُونَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: وما يستوي هذا المشترك فيه، والذي هو منفرد ملكه لواحد، بل أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون أنهما لا يستويان، فهم بجهلهم بذلك يعبدون آلهة شتى من دون الله. وقيل: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ ولم يقل: مثلين؛ لأنهما كلاهما ضربا مثلا واحدا، فجرى المثل بالتوحيد، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾[١] إذ كان معناهما واحدا في الآية، والله أعلم»[٢].

* * *

(١) المؤمنون: الآية (٥٠).

(٢) جامع البيان (٢٣/ ٢١٤-٢١٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «ثم ابتدأ القول معهم غرضًا آخر من الوعيد يوم القيامة والخصوم، ومن التحذير من حال الكذبة على اللَّه المكذبين بالصدق، فقدم تعالى لذلك توطئة مضمنها وعظ النفوس وتهيئتها لقبول الكلام، وحذف التوعد، وهذا كما تريد أن تنهى إنسانًا عن معاصيه أو تأمره بخير، فتفتتح كلامك بأن تقول: كلنا يفنى، ولا بد للجميع من الموت، أو كل من عليها فان، ونحو هذا مما توقن به نفس الذي تحاور، ثم بعد هذا تورد قولك، فأخبر تعالى أن الجميع ميت»[١].

قال القرطبي: «وهو خطاب للنبي ﷺ أخبره بموته وموتهم، فاحتمل خمسة أوجه: أحدها: أن يكون ذلك تحذيرا من الآخرة. الثاني: أن يذكره حثا على العمل. الثالث: أن يذكره توطئة للموت. الرابع: لئلا يختلفوا في موته كما اختلفت الأمم في غيره، حتى إن عمر رضي الله عنه لما أنكر موته احتج أبو بكر رضي الله عنه بهذه الآية فأمسك. الخامس: ليعلمه أن اللَّه تعالى قد سوى فيه بين خلقه مع تفاضلهم في غيره، لتكثر فيه السلوة، وتقل فيه الحسرة»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وفاة رسول اللَّه ﷺ وما فيها من آيات وعبر

* عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: «أن رسول اللَّه ﷺ مات وأبو بكر بالسنح -قال إسماعيل: يعني بالعالية- فقام عمر يقول: واللَّه ما مات رسول اللَّه ﷺ، قالت وقال عمر: واللَّه ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه اللَّه فليقطعن أيدي

---

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٥٣٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٢٥٤).

رجال وأرجلهم، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول اللَّه ﷺ فقبله فقال: بأبي أنت وأمي، طبت حيًا وميتًا، والذي نفسي بيده لا يذيقك اللَّه الموتتين أبدًا، ثم خرج فقال: أيها الحالف، على رسلك فلما تكلم أبو بكر جلس عمر»[١].

❁ «فحمد اللَّه أبو بكر وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد اللَّه فإن اللَّه حي لا يموت وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[٢] قال: فنشج الناس يبكون، قال: واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة ابن الجراح، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: واللَّه ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلامًا قد أعجبني خشيت أن لا يبلغه أبو بكر، ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس، فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، فقال حباب بن المنذر: لا واللَّه لا نفعل منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: لا، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب دارًا وأعربهم أحسابًا، فبايعوا عمر أو أبا عبيدة، فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول اللَّه ﷺ فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس، فقال قائل: قتلتم سعد بن عبادة، فقال عمر: قتله الله»[٣].

⋆ غريب الحديثين:

بالسُّنْح: بضم السين والنون. وقيل: بسكونها: موضع بعوالي المدينة فيه منازل بني الحارث بن الخزرج.

على رِسلك: بكسر الراء؛ أي: لا تستعجل.

---

(١) أخرجه: البخاري (٧/ ١٩/ ٣٦٦٧).

(٢) آل عمران: الآية (١٤٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٢١٩-٢٢٠) مطولًا، والبخاري (٧/ ٢٣-٢٤/ ٣٦٦٧و٣٦٦٨)، والنسائي (٤/ ٣٠٩-٣١٠/ ١٨٤٠) مختصرًا، وابن ماجه (١/ ٥٢٠/ ١٦٢٧).

فنَشِج الناس: بفتح النون وكسر المعجمة بعدها جيم؛ أي: بكوا بغير انتحاب. والنشج: ما يعرض في حلق الباكي من الغصة. وقيل: هو صوت معه ترجيع كما يردد الصبي بكاءه في صدره[(١)].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: شخص بصر النبي ﷺ ثم قال: «**في الرفيق الأعلى**» (ثلاثًا) وقص الحديث، قالت: فما كان من خطبتهما من خطبة إلا نفع اللَّه بها، لقد خوف عمر الناس وإن فيهم لنفاقًا فردهم اللَّه بذلك.

ثم لقد بصر أبو بكر الناس الهدى، وعرفهم الحق الذي عليهم، وخرجوا به يتلون: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ -إلى- ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[(٢)].

★ غريب الحديث:

شخص بصر النبي ﷺ: من الشخوص وهو ارتفاع الأجفان إلى فوق، وتحديد النظر وانزعاجه.

في الرفيق الأعلى: قال العيني: «أي: الجنة، قاله صاحب «التوضيح». قلت: الرفيق جماعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين يسكنون أعلى عليين، وهو اسم جاء على (فعيل)، وهو الجماعة: كالصديق والخليط، يقع على الواحد والجمع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[(٣)]»[(٤)].

وقصّ الحديث: أي: قصّ القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق. وأراد بالحديث ما قاله عمر من قوله: «**إنه لم يمت ولن يموت حتى يقطع أيادي رجال من المنافقين وأرجلهم**» وما قال أبو بكر من قوله: «**إنه مات**»، وتلا الآيتين، كما مضى[(٥)].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**دعا النبي فاطمة** عليها السلام في شكواه الذي قبض فيه، فسارها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارها بشيء فضحكت، فسألنا عن ذلك فقالت:

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٢٠/ ٣٦٦٩-٣٦٧٠) تعليقًا. وأخرج الطرف الأول منه: أحمد (٦/ ٨٩)، والبخاري (١١/ ١٧٩/ ٦٣٤٨)، ومسلم (٤/ ١٨٩٤/ ٢٤٤٤[٨٧]).

(٣) النساء: الآية (٦٩).

(٤) عمدة القاري (١١/ ٤٠٤).

(٥) عمدة القاري (١١/ ٤٠٤).

سارني النبي ﷺ أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت»[(١)].

⋆ **غريب الحديث:**

شكواه: أي: في مرضه. وكذلك الشكوى والشكاة والشكاية بمعنى المرض.

فسارها: من المساررة. هي خفض الصوت.

* عن عائشة قالت: «**كنت أسمع أنه لا يموت نبي حتى يُخَيَّر بين الدنيا والآخرة، فسمعت النبي** ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه -وأخذته بُحّة- يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾[(٢)] الآية، فظننت أنه خُيِّر»[(٣)].

⋆ **غريب الحديث:**

بُحّة: بضم الموحدة وتشديد المهملة: شيء يعرض في الحلق، فيتغير له الصوت فيغلظ. تقول: بحِحْتُ، بالكسر، بَحًّا، ورجلٌ أبَحُّ: إذا كان ذلك فيه خلقة[(٤)].

* عن سالم بن عبيد وكانت له صحبة قال: «أغمي على رسول اللَّه ﷺ في مرضه فأفاق، فقال: **حضرت الصلاة؟** فقالوا: نعم. فقال: **مروا بلالًا فليؤذن، ومروا أبا بكر أن يصلي للناس**، أو قال: بالناس، قال: ثم أغمي عليه فأفاق فقال: **حضرت الصلاة؟** فقالوا: نعم. فقال: **مروا بلالًا فليؤذن، ومروا أبا بكر فليصلّ بالناس**. فقالت عائشة: إن أبي رجل أسيف إذا قام ذلك المقام بكى فلا يستطيع، فلو أمرت غيره. قال: ثم أغمي عليه فأفاق، فقال: **مروا بلالًا فليؤذن، ومروا أبا بكر فليصلّ بالناس، فإنكنّ صواحب أو صواحبات يوسف**. قال: فأمر بلال فأذن، وأمر أبو بكر فصلى بالناس، ثم إن رسول اللَّه ﷺ وجد خفة، فقال: **انظروا**

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٧٧)، والبخاري (٨/ ١٣٥/ ٤٤٣٣)، ومسلم (٤/ ١٩٠٤/ ٢٤٥٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٩٥-٩٦/ ٨٣٦٧-٨٣٦٨-٨٣٦٩) بنحو هذا السياق وبسياق أطول منه.

(٢) النساء: الآية (٦٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ١٧٦)، والبخاري (٨/ ١٧٢/ ٤٤٣٥)، مسلم (٤/ ١٨٩٣/ ٢٤٤٤[٨٦])، والنسائي في الكبرى (٤/ ٢٦٠/ ٧١٠٣)، وابن ماجه (١/ ٥١٧-٥١٨/ ١٦٢٠).

(٤) فتح الباري (٨/ ١٧٣).

لي من أتكئ عليه. فجاءت بريرة ورجل آخر فاتكأ عليهما، فلما رآه أبو بكر ذهب لينكص، فأومأ إليه أن يثبت مكانه، حتى قضى أبو بكر صلاته. ثم إن رسول اللَّه ﷺ قبض. فقال عمر: واللَّه لا أسمع أحدًا يذكر أن رسول اللَّه ﷺ قبض إلا ضربته بسيفي هذا. قال: وكان الناس أميين لم يكن فيهم نبي قبله، فأمسك الناس، فقالوا: يا سالم انطلق إلى صاحب رسول اللَّه ﷺ فادعه، فأتيت أبا بكر وهو في المسجد، فأتيته أبكي دهشًا، فلما رآني قال لي: أقبض رسول اللَّه ﷺ؟ قلت: إن عمر يقول: لا أسمع أحدًا يذكر أن رسول اللَّه ﷺ قبض إلا ضربته بسيفي هذا! فقال لي: انطلق. فانطلقت معه، فجاء والناس قد دخلوا على رسول اللَّه ﷺ، فقال: يا أيها الناس! أفرجوا لي. فأفرجوا له، فجاء حتى أكب عليه ومسه، فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾، ثم قالوا: يا صاحب رسول الله! أقبض رسول اللَّه ﷺ؟ قال: نعم. فعلموا أن قد صدق. قالوا: يا صاحب رسول الله! أيصلى على رسول الله؟ قال: نعم، قالوا: وكيف؟ قال: يدخل قوم فيكبرون ويصلون ويدعون، ثم يخرجون، ثم يدخل قوم فيكبرون ويصلون ويدعون، ثم يخرجون، حتى يدخل الناس. قالوا: يا صاحب رسول الله! أيدفن رسول اللَّه ﷺ؟ قال: نعم، قالوا: أين؟ قال: في المكان الذي قبض اللَّه فيه روحه، فإن اللَّه لم يقبض روحه إلا في مكان طيب. فعلموا أن قد صدق، ثم أمرهم أن يغسله بنو أبيه. واجتمع المهاجرون يتشاورون، فقالوا: انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار ندخلهم معنا في هذا الأمر. فقالت الأنصار: منا أمير، ومنكم أمير. فقال عمر بن الخطاب: من له مثل هذه الثلاثة: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[1]، من هما؟ قال: ثم بسط يده فبايعه، وبايعه الناس بيعة حسنة جميلة»[2].

---

(١) التوبة: الآية (٤٠).

(٢) أخرجه بتمامه من حديث سالم بن عبيد: الترمذي في «الشمائل» (٣٩٤) واللفظ له، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٥٦-٥٧/ ٦٣٦٧). قال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٨٣): «-روى ابن ماجه بعضه- رواه الطبراني ورجاله ثقات». اهـ.

قلت: عند ابن ماجه (١/ ٣٩٠/ ١٢٣٤) -بعضه- قال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح ورجاله ثقات». علمًا أن سند الترمذي وابن ماجه واحد.

★ **غريب الحديث:**

أُغمي: بصيغة المجهول؛ أي: غُشي.

فإنكنّ صواحبُ أو صواحبات يوسف: قال القاري: المعنى: إنكنّ مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن، ثم إن هذا الخطاب وإن كان بلفظ الجمع فالمراد به واحدة، وهي عائشة فقط، كما أن (صواحب) لفظ جمع، والمراد زليخا فقط، وأغرب ابن حجر حيث قال تبعًا للشارح المعنى: إنكنّ في التظاهر والتعاون على ما تردنه، وكثرة إلحاحكنّ على ما تملن إليه، فإنه يناقضه ما ذكره هو وغيره من أن المراد بالخطاب هي عائشة وحدها، ثم وجه الشبه بين عائشة وزليخا أنها استدعت النسوة، وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة، ومرادها زيادة على ذلك، وهو أن ينظرن إلى حسن يوسف عليه السلام، ويعذرنها في محبتها له، ويتركنها عن الملام، وأن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن أبيها لكونه لا يسمع الناس تعني المأمومين- القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك، وهو أن لا يتشاءم الناس به، وقد صرحت بذلك في الحديث المتفق عليه حيث قالت: **«لقد راجعته، وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلًا قام مقامه أبدًا، وإلا كنت أرى أن لا يقوم مقامه أحد إلا تشاءم الناس به، فأردت أن يعدّل ذلك رسول اللّه ﷺ»**[1]، وبهذا التقرير يندفع إشكال من قال: إن صواحب يوسف عليه السلام لم يقع منهن إظهار خلاف ما في الباطن، واللّه تعالى أعلم[2].

لينكِص: بكسر الكاف، من النكوص، وهو الرجوع إلى وراء، وهو القهقرى، وفي التنزيل: ﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ﴾[3] بالكسر على ما أجمع عليه القراء السبعة والعشرة. وقال الزجاج: يجوز ضم الكاف، وكذا صاحب «الصحاح».

فأومأ: بالهمز على الصحيح، وفي نسخة: «فأومى» ولعله مبني على التخفيف؛ أي: أشار النبي ﷺ إلى أبي بكر[4].

دَهِشًا: بفتح فكسر؛ أي: حال كوني باكيًا مدهوشًا متحيرًا.

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٩٦)، والبخاري (٢/ ٢٠٩/ ٦٧٩)، ومسلم (١/ ٣١٣/ ٤١٨[٩٣])، والترمذي (٥/ ٥٧٣/ ٣٦٧٩)، والنسائي (٢/ ٤٣٤-٤٣٥/ ٨٣٢)، وابن ماجه (١/ ٣٨٩-٣٩٠/ ١٢٣٣).

(٢) جمع الوسائل في شرح الشمائل (٢/ ٢١٢).

(٣) المؤمنون: الآية (٦٦).

(٤) جمع الوسائل (٢/ ١١٣).

أكبّ عليه: أي: أقبل عليه وشغل به.

★ فوائد الأحاديث:

وقوع المصاب العظيم والخطب الجليل موت النبي المصطفى الأمين، بأبي وأمي هو صلوات ربي وسلامه عليه، «فمصابه ﷺ أعظم مصائب الدنيا، فإنه لا مصيبة أعظم من المصيبة به؛ وذلك أن كل مصاب به منه عوض، ولا عوض منه ﷺ»[١] فأيّ مصيبة أعظم من مصيبة بموته «انقطع الوحي، وماتت النبوة، وكان أول ظهور الشر بارتداد العرب وغير ذلك مما يطول ذكره، وكان أول انقطاع الخير وأول نقصانه»[٢].

قال ابن رجب: «كانت الجمادات تتصدع من ألم مفارقة الرسول، فكيف بقلوب المؤمنين؟ لما فقده الجذع الذي كان يخطب إليه قبل اتخاذ المنبر حنّ إليه وصاح كما يصيح الصبي، فنزل إليه فاعتنقه فجعل يهدى كما يهدى الصبي الذي يسكن عند بكائه، فقال: «**لو لم أعتنقه لحنّ إلى يوم القيامة**»[٣]، كان الحسن إذا حدّث بهذا الحديث بكى وقال: هذه خشبة تحنّ إلى رسول اللَّه ﷺ فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه. ورُوي أن بلالًا كان يؤذن بعد وفاة النبي ﷺ قبل دفنه فإذا قال: أشهد أن محمدًا رسول اللَّه، ارتجّ المسجد بالبكاء والنحيب، فلما دُفن ترك بلال الأذان. ما أمرّ عيش من فارق الأحباب خصوصًا من كانت رؤيته حياة الألباب.

لو ذاق طعمَ الفُراق رِضوى ... لكاد من وَجدِهِ يميدُ
قد حمّلوني عذابَ شوقٍ ... يعجزُ عن حمله الحديدُ

لما دفن الرسول ﷺ قالت فاطمة: «**كيف طابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول اللَّه ﷺ؟**»[٤].

---

(١) من كلام أبي الوليد الباجي في «المنتقى» (٢/ ٢٨).
(٢) قاله ابن عبد البر (فتح البر ٦/ ٣٣٤).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٠٩)، والبخاري (٦/ ٦٤٧/ ٣٨٥٣)، والترمذي (٢/ ٣٧٩/ ٥٠٥) وقال: «حسن غريب صحيح»، وفي الباب عن أنس وجابر وسهل بن سعد وأبي بن كعب وابن عباس وأم سلمة ﷺ، والحديث متواتر كما ذكر ابن كثير في التفسير (٦/ ٦١٥).
(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٠٤)، والبخاري (٨/ ١٨٨/ ٤٤٦٢)، وابن ماجه (١/ ٥٢٢/ ١٦٣٠).

قال أنس: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول اللَّه ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي دفن فيه أظلم منها كل شيء. وما نفضنا عن رسول اللَّه ﷺ التراب وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا»[1].

لِيبْكِ رسولَ اللَّه من كان باكيا ... فلا تنسَ قبرًا بالمدينة ثاويا
جزى اللهُ عنّا كلَّ خيرٍ محمدا ... فقد كان مهديًّا وقد كان هاديا
وكان رسولُ اللَّه روحًا ورحمةً ... ونورًا وبرهانًا من اللَّه باديا
وكان رسول اللَّه بالخير آمرًا ... وكان عن الفحشاءِ والسوءِ ناهيا
وكان رسول اللَّه بالقسط قائمًا ... وكان لما استرعاهُ مولاه راعيا
وكان رسول اللَّه يدعو إلى الهدى ... فلبى رسول اللَّه لبيه داعيا
أينسى أبرُّ الناس بالناس كلهم ... وأكرمهم بيتًا وشِعبًا وواديا
أينسى رسول اللَّه أكرم من مشى ... وآثاره بالمسجدين كما هيا
تكدّر من بعد النبي محمد ... عليه سلام كل ما كان صافيا
ركنّا إلى الدنيا الدنية بعده ... وكشفت الأطماع منّا مساويا
وكم من منارٍ كان أوضحَهُ لنا ... ومن علَم أمسى وأصبح عافيا
إذا المرءُ لم يلبس ثيابًا من التُّقى ... تقلَّبَ عريانًا وإن كان كاسيا
وخيرُ خصال المرء طاعة ربِّهِ ... ولا خير فيمن كان لله عاصيا»[2].

قال محمد بن قاسم جسوس: «وفي ذكر المؤمن لمصيبة الأولين والآخرين بوفاة سيد المرسلين صلى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ما يهوّن عليه الموت، ويحببه لديه، ويزهّده في الدنيا ومتعلقاتها، وينغص لذاتها عليه، فإنه ﷺ أسوة حسنة لأمته حيًا وميتًا، فإن المؤمن إذا علم أن المولى ﷻ اختار لأحب الخلق

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢١)، والترمذي (٥/ ٥٤٩/ ٣٦١٨) وقال: «غريب صحيح»، وابن ماجه (١/ ٥٢٢/ ١٦٣١) وصححه ابن حبان (١٤/ ٦٠١/ ٦٦٣٤)، والحاكم (٣/ ٥٧) وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي.

(٢) لطائف المعارف (ص: ١١٢-١١٣).

إليه الدار الآخرة، فإنه لا محالة يحب لنفسه، ما أحبه اللَّه لنبيه.. فإذا توفي هو ﷺ فلا مطمع لأحد في البقاء، قال تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾[1]»[2].

وفيها ما يدلك على شدة ما نزل به ﷺ بأبي هو وأمي في مرضه الذي توفي فيه حتى بلغ به إلى حد الإغماء.

قال القاري: «في الحديث جواز الإغماء على الأنبياء؛ لأنه من جملة الأدواء وأنواع الابتلاء بخلاف الجنون، فإنه نقص ينافي مقام الأنبياء، وقيّد الشيخ أبو حامد من الشافعية جواز الإغماء بغير الطويل، وجزم به البلقيني. قال السبكي: وليس إغماؤهم كإغماء غيرهم؛ لأنه إنما يستر حواسهم الظاهرة دون قلوبهم وقوتهم الباطنة؛ لأنها إذا عصمت من النوم الأخف فالإغماء بالأولى، وأما الجنون فيمتنع عليهم قليله وكثيره؛ لأنه نقص. قلت: ولأنه مما نفى اللَّه عنهم مطلقًا في مواضع. وألحق به السبكي العمى، وقال: لم يعم نبي قط، وما ذكر عن شعيب إنه كان ضريرًا فلم يثبت، وأما يعقوب فحصلت له غشاوة وزالت. وحكى الرازي عن جمع في يعقوب ما يوافقه. قلت: لكن ظاهر القرآن يخالفه حيث قال تعالى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾[3] ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ﴾[4]»[5].

قال القاضي عياض: «فإن قيل: فما الحكمة في إجراء الأمراض وشدتها عليه وعلى غيره من الأنبياء على جميعهم السلام؟ وما الوجه فيما ابتلاهم اللَّه به من البلاء، وامتحانهم بما امتحنوا به؛ كأيوب، ويعقوب، ودانيال، ويحيى، وزكريا، وعيسى، وإبراهيم، ويوسف، وغيرهم، صلوات اللَّه عليهم، وهم خيرته من خلقه، وأحبّاؤه وأصفياؤه.

فاعلم -وفّقنا اللَّه وإياك- أن أفعال اللَّه تعالى كلها عدل، وكلماته جميعها صدق، لا مبدّل لكلماته، يبتلي عباده كما قال تعالى لهم: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ

---

(١) الأنبياء: الآيتان (٣٤و٣٥).

(٢) الفوائد الجلية البهية على الشمائل المحمدية (ص: ٣٦٣).

(٣) يوسف: الآية (٨٤).

(٤) يوسف: الآية (٩٦).

(٥) جمع الوسائل شرح الشمائل (٢/ ٢١١).

تَعْمَلُونَ﴾[1]، و ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2]، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾[3] ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[4] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾[5].

فامتحانه إياهم بضروب المحن زيادة في مكانتهم، ورفعة في درجاتهم، وأسباب لاستخراج حالات الصبر والرضا، والشكر والتسليم، والتوكل والتفويض، والدعاء والتضرع منهم، وتأكيد لبصائرهم في رحمة الممتحَنين، والشفقة على المبتلين، وتذكرة لغيرهم، وموعظة لسواهم ليتأسّوا في البلاء بهم؛ فيتسلّوا في المحن بما جرى عليهم، ويقتدوا بهم في الصبر، ومحو لهنات فرطت منهم، أو غفلات سلفت لهم، ليلقوا اللَّه طيبين مهذبين؛ وليكون أجرهم أكمل، وثوابهم أوفر وأجزل..

وحكمة أخرى أودعها اللَّه في الأمراض لأجسامهم، وتعاقب الأوجاع عليها، وشدتها عند مماتهم، لتضعف قوى نفوسهم، فيسهل خروجها عند قبضهم، وتخفّ عليهم مؤنة النزع، وشدة السكرات بتقدم المرض، وضعف الجسم والنفس لذلك.

وهذا خلاف موت الفجاءة وأخذه، كما يشاهد من اختلاف أحوال الموتى في الشدة واللين، والصعوبة والسهولة..

وحكمة ثالثة أن الأمراض نذير الممات، وبقدر شدتها شدة الخوف من نزول الموت؛ فيستعد من أصابته، وعلم تعاهدها له للقاء ربه، ويعرض عن دار الدنيا الكثيرة الأنكاد، ويكون قلبه معلقًا بالمعاد، فيتنصّل من كل ما يخشى تِباعته من قبل اللَّه وقبل العباد، ويُؤدِّي الحقوق إلى أهلها، وينظر فيما يحتاج إليه من وصية فيمن يخلِّفه أو أمر يعهده.

وهذا نبينا ﷺ المغفور له ما تقدم وما تأخر، قد طلب التنصل في مرضه ممن كان له عليه مال أو حق في بدن، وأقاد من نفسه وماله، وأمكن من القصاص منه، على ما

(١) يونس: الآية (١٤).
(٢) هود: الآية (٧).
(٣) آل عمران: الآية (١٤٠).
(٤) آل عمران: الآية (١٤٢).
(٥) محمد: الآية (٣١).

ورد في حديث الفضل، وحديث الوفاة، وأوصى بالثقلين بعده: كتاب اللَّه وعترته، وبالأنصار عيبته، ودعا إلى كَتب كتاب لئلا تضل أمته بعده؛ إما في النص على الخلافة، أو اللَّه أعلم بمراده. ثم رأى الإمساك عنه أفضل وخيرًا. وهكذا سيرة عباد اللَّه المؤمنين، وأوليائه المتقين.

وهذا كله يُحرَمه غالبًا الكفار؛ لإملاء اللَّه لهم؛ ليزدادوا إثمًا، وليستدرجهم من حيث لا يعلمون، قال اللَّه تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾[1]»[2].

قلت: وفي ذلك حكمة أخرى -واللَّه أعلم- وهي: دفع افتتان الناس بمقاماتهم، ولئلا يعبدوهم لما ظهر على أيديهم من خوارق المعجزات، وظواهر البينات[3].

قال النووي: «قولها: «**فأخبر أني أول من يلحق به من أهله فضحكت**»: هذه معجزة ظاهرة له ﷺ، بل معجزتان: فأخبر ببقائها بعده، وبأنها أول أهله لحاقًا به، ووقع كذلك. وضحكت سرورًا بسرعة لحاقها، وفيه إيثارهم الآخرة وسرورهم بالانتقال إليها والخلاص من الدنيا»[4].

وفيها: أنه «لم يقبض ﷺ حتى خُيِّر مرة أخرى بين الدنيا والآخرة»[5].

قال ابن رجب: «ولما كان الموت مكروهًا بالطبع لما فيه من الشدة والمشقة العظيمة لم يمت نبي من الأنبياء حتى يخيّر. ولذلك وقع التردد فيه في حق المؤمن، كما في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ يقول اللَّه ﷻ: «**وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه**»[6]»[7].

(١) يس: الآيتان (٤٩و٥٠).

(٢) الشفا (٢/ ٩١١-٩٢٤).

(٣) نص على ذلك القاري في «جمع الوسائل» (٢/ ٢١٢).

(٤) شرح مسلم (١٦/ ٥).

(٥) من كلام ابن رجب، «لطائف المعارف» (ص: ١٠٩).

(٦) أخرجه البخاري (١١/ ٤١٤/ ٦٥٠٢).

(٧) لطائف المعارف (ص: ١٠٢).

قلت: وفي هذه الأحاديث فوائد أخرى ليس هذا محل ذكرها، وقد استوفينا الكلام عليها في كتابنا في السيرة، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، فلا وجه لإعادة ذلك هنا، واللَّه المستعان، وعليه التكلان.

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ومعنى هذه الآية ستنقلون من هذه الدار لا محالة، وستجمعون عند اللَّه تعالى في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه من الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي اللَّه ﷻ، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين، ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة، فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة»[(١)].

وفي الغاية من هذه الخصومة **يقول البقاعي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليأخذ بيد المظلوم، وينتقم له من الظالم، ويجازي كلًّا بما عمل، أما في الشر فسوءًا بسوء، لا يظلم مثقال ذرة ولا ما دونه، وأما في الخير فالحسنة بعشرة أمثالها إلى ما فوق ذلك مما لا يعلمه غيره، فلا ينبغي أبدًا لمظلوم أن يتوهم دوام نكده، وعدم الأخذ بيده، فيقتصر في العمل، ويجنح إلى شيء من الخوف والوجل، بل عليه أن يفرح بما يجزل ثوابه، ويسر بما ييسر حسابه، ويشتغل بما يخلص به نفسه في يوم التلاق، الذي الناس فيه فريقان، ولا يشتغل بما لا يكون من تصفية دار الكدر عن الأكدار، وقرارة الدنس عن الأقذاء والأقذار، فإن الدوام فيها محال على حال من الأحوال»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اختصام الخلائق بين يدي اللَّه يوم القيامة واستيفاء حق المظلوم من الظالم

* عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لقد عشنا برهة من دهر وما نرى هذه الآية نزلت

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٩٦).
(٢) نظم الدرر (١٦/ ٥٠١-٥٠٢).

إلا فينا وفي أهل الكتاب: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾[1] فقلت: نختصم. أما نحن فلا نعبد إلا اللَّه، وأما ديننا فالإسلام، وأما كتابنا فالقرآن فلا نغير ولا نحرف أبدًا، وأما قبلتنا فالكعبة، وأما حرامنا أو حرمنا فواحد، وأما نبينا فمحمد ﷺ. فكيف نختصم؟ حتى كفح بعضنا وجوه بعض بالسيوف، فعرفت أنها نزلت فينا»[2].

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث دليل على أن المخاصمة المذكورة في الآية وإن كان سياقها بين المؤمنين والكفار، إلا أنها تشمل كل متنازعين حتى في المؤمنين بعضهم مع بعض **قال ابن جرير** رَحِمَهُ اللَّهُ: «اختلف أهل التأويل في ذلك فقال بعضهم: عنى به اختصام المؤمنين والكافرين، واختصام المظلوم والظالم.. وقال آخرون: بل عنى بذلك اختصام أهل الإسلام.. وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: عني بذلك: إنك يا محمد ستموت، وإنكم أيها الناس ستموتون، ثم إن جميعكم أيها الناس تختصمون عند ربكم، مؤمنكم وكافركم، ومحقوكم ومبطلوكم، وظالموكم ومظلوموكم، حتى يؤخذ لكلّ منكم ممن لصاحبه قبله حق حقُّه.

وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب لأن اللَّه عم بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ خطاب جميع عباده، فلم يخصص بذلك منهم بعضا دون بعض، فذلك على عمومه على ما عمه اللَّه به، وقد تنزل الآية في معنى، ثم يكون داخلا في حكمها كلّ ما كان في معنى ما نزلت به»[3].

وقال القرطبي: «وتخاصمهم هو تحاكمهم إلى اللَّه تعالى فيستوفي من حسنات الظالم بقدر مظلمته، ويردها في حسنات من وجبت له، وهذا عام في جميع المظالم»[4].

قال الحافظ: «واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة

---

(١) الزمر: الآيتان (٣٠و٣١).

(٢) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٥/ ١١٤٤٧)، والحاكم (٤/ ٥٧٢-٥٧٣) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣) جامع البيان (٢٤/ ١-٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٦٦).

بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم؛ لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد، وقد عفا اللَّه تعالى عن المخطئ في الاجتهاد؛ بل ثبت أنه يؤجر أجرًا واحدًا، وأن المصيب يؤجر أجرين . . وحمل هؤلاء الوعيد المذكور في الحديث[١] على من قاتل بغير تأويل سائغ؛ بل بمجرد طلب الملك»[٢].

* عن عقبة بن عامر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«أول خصمين يوم القيامة جاران»**[٣].

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «قوله: **«أول خصمين يوم القيامة جاران»** لم يحسن أحدهما جوار صاحبه، ولم يف له بحقه، ومقصود الحديث الحث على كف الأذى عن الجار، وإن جار، وأنه تعالى يهتم بشأنه، وينتقم للجار المظلوم من الظالم، ويفصل القضاء بينهما، وإلا فمن شعائر الإيمان الكف عن أذى الجيران، وعدم منازعتهم ومعارضتهم فيما يصدر منهم وعنهم من الأضرار، وسوء العشرة والجوار، ويجب أن تعلم أن ذلك ليس إلا بتسليط اللَّه إياهم عليك لما تستوجبه أفعالك الذميمة، وما يعفو اللَّه أكثر، فالحذر من المنازعة الحذر»[٤].

قال القاري: «قال السيوطي: ورد: أول ما يحاسب به العبد صلاته، وورد: أول ما يقضى بين الناس الدم، ولا تنافي؛ لأن ذلك بالنسبة إلى المظالم، كذا في «الزجاجة» حاشية على ابن ماجه، وحاصله أن أول ما يحاسب العبد فيما بينه وبين ربه هو الصلاة لفضلها على سائر العبادات، وأول ما يقضى من حقوق العباد قتل النفس فإنه أكبر الخطيئات، وأما هذا الحديث فمقيد باختصام خصمين وقع الذنب من كل منهما نوع تقصير، وإن فرض أن التقصير من أحدهما، وإطلاق الخصمين

---

(١) يشير إلى قوله ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما كلاهما من أهل النار» أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣)، ومسلم (٤/ ٢٢١٣-٢٢١٤/ ٢٨٨٨)، وأبو داود (٤/ ٤٦٢/ ٤٢٦٨)، والنسائي (٧/ ١٤٢/ ٤١٣٣).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٤٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٥١) واللفظ له، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٣٠٣/ ٨٣٦) و(١٧/ ٣٠٩/ ٨٥٢). قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٧٠): «رواه أحمد والطبراني بنحوه، وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح غير أبي عشانة وهو ثقة». وقال (١٠/ ٣٤٩): «رواه أحمد بإسناد حسن».

(٤) فيض القدير (٣/ ٨٤-٨٥).

على التغليب أو المشاكلة كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾[(١)] فالأول إضافية، ولعل المراد منه الصغائر دون الكبائر. والله أعلم»[(٢)].

* عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»[(٣)].

* عن أبي ذر قال: أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان فقال: «**يا أبا ذر! هل تدري فيم تنتطحان؟**» قال: لا، قال: «**لكن الله يدري، وسيقضي بينهما**»[(٤)].

★ غريب الحديث:

القرناء: التي لها قرن.

الجلحاء: التي ليس لها قرن.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «قوله: «**لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»: هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من الآدميين، وكما يعاد الأطفال والمجانين ومن لم تبلغه دعوة، وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥﴾[(٥)] وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع وجب حمله على ظاهره. قال العلماء: وليس من شرط الحشر والإعادة في القيامة المجازاة والعقاب والثواب، وأما القصاص من القرناء للجلحاء فليس هو من

---

(١) الشورى: الآية (٤٠). (٢) المرقاة (٨/ ٧٣١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٥-٣٢٣)، ومسلم (٤/ ١٩٩٧/ ٢٥٨٢)، والترمذي (٤/ ٥٣٠/ ٢٤٢٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٦٢) واللفظ له، والبزار (كشف الأستار ٤/ ١٦٢-١٦٣/ ٣٤٥٠). قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٥٢): «رواه كله أحمد والبزار بالرواية الأولى، وكذلك الطبراني في المعجم الأوسط وفيها ليث بن أبي سليم وهو مدلس وبقية رجال أحمد رجال الصحيح غير شيخه ابن عائشة وهو ثقة، ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح وفيها راو لم يسم». وأخرجه الطيالسي (ح ٤٨٠). قال الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ١١٧) بعد أن ساق سند الطيالسي: «وهذا إسناد صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أصحاب المنذر -وهو ابن يعلى الثوري- فإنهم لم يسموا، وذلك مما لا يضر؛ لأنهم جمع من التابعين، تنجبر جهالتهم بكثرتهم، كما نبه على ذلك الحافظ السخاوي في غير هذا الحديث». اهـ.

(٥) التكوير: الآية (٥).

قصاص التكليف، إذ لا تكليف عليها؛ بل هو قصاص مقابلة والله أعلم»[١].

قال القرطبي: «قوله: «**لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة**»: هذا جواب قسم محذوف، كأنه قال: والله لتؤدنّ، والحقوق: جمع حق، وهو ما يحقّ على الإنسان أن يؤديه، وهو يعمّ حقوق الأبدان، والأموال، والأعراض، وصغير ذلك، وكبيره. كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[٢]، وكما قال: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[٣]»[٤].

قال القاري: «قال ابن الملك: أي: لو نطح شاة قرناء شاة جلحاء في الدنيا فإذا كان يوم القيامة يؤخذ القرن من القرناء ويعطى الجلحاء حتى تقتص لنفسها من الشاة القرناء، فإن قيل: الشاة غير مكلفة، فكيف يقتص منها؟ قلنا: إن الله تعالى فعال لما يريد، ولا يسأل عما يفعل، والغرض منه إعلام العباد بأن الحقوق لا تضيع، بل يقتص حق المظلوم من الظالم، اهـ. وهو وجه حسن وتوجيه مستحسن إلا أن التعبير عن الحكمة بالغرض وقع في غير موضعه، وجملة الأمر أن القضية دالة بطريق المبالغة على كمال العدالة بين كافة المكلفين، فإنه إذا كان هذا حال الحيوانات الخارجة عن التكليف، فكيف بذوي العقول من الوضيع والشريف والقوي والضعيف»[٥].

وقال السندي: «فيه حث على ترك الظلم وأداء الحقوق إلى أهلها»[٦].

* عن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: «**لما نزلت**: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ قال الزبير: يا رسول الله! أتكرر علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال: نعم، فقال: إن الأمر إذًا لشديد»[٧].

* * *

---

(١) شرح النووي (١٦/ ١١٢).
(٢) الكهف: الآية (٤٩).
(٣) الأنبياء: الآية (٤٧).
(٤) المفهم (٦/ ٥٦٤).
(٥) المرقاة (٨/ ٨٥٢-٨٥٣).
(٦) حاشية المسند (١٢/ ١٣٨).
(٧) أخرجه: أحمد (١/ ١٦٧)، والترمذي (٥/ ٣٤٤-٣٤٥/ ٣٢٣٦) واللفظ له، وقال: «حسن صحيح»، والحاكم (٢/ ٤٣٥) وصححه وأقره الذهبي.

قوله تعالى: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخاطبا للمشركين الذين افتروا على اللَّه، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات اللَّه، وجعلوا لله ولدا تعالى اللَّه عن قولهم علوا كبيرا، ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل اللَّه، صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي: لا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفي الباطل، كذب على اللَّه، وكَذَّب رسول اللَّه، قالوا الباطل و ردّوا الحق»[1].

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ **يقول ابن جرير**: «يقول -تبارك وتعالى-: أليس في النار مأوى ومسكن لمن كفر باللَّه، وامتنع من تصديق محمد ﷺ، واتباعه على ما يدعوه إليه مما أتاه به من عند اللَّه من التوحيد، وحكم القرآن؟»[2].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٩٨-٩٩).

(٢) جامع البيان (٢٤/ ٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ۝٣٣ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذي جاء بالصدق وصدّق به وما ذلك، فقال بعضهم: الذي جاء بالصدق رسول اللَّه ﷺ. قالوا: والصدق الذي جاء به: لا إله إلا اللَّه، والذي صدق به أيضًا، هو رسول اللَّه ﷺ.. وقال آخرون: الذي جاء بالصدق: رسول اللَّه ﷺ، والذي صدق به أبو بكر ﵁.. وقال آخرون: الذي جاء بالصدق رسول اللَّه ﷺ، والصدق القرآن، والمصدقون به المؤمنون.. وقال آخرون: الذي جاء بالصدق جبريل، والصدق القرآن الذي جاء به من عند اللَّه وصدق به رسول اللَّه ﷺ.. وقال آخرون: الذي جاء بالصدق المؤمنون والصدق القرآن وهم المصدقون به.. والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن -تعالى ذكره- عنى بقوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ كلّ من دعا إلى توحيد اللَّه، وتصديق رسله، والعمل بما ابتعث به رسوله من بين رسل اللَّه، وأتباعه والمؤمنين به، وأن يقال: الصدق هو القرآن، وشهادة أن لا إله إلا اللَّه، والمصدّق به: المؤمنون بالقرآن، من جميع خلق اللَّه كائنا من كان من نبيّ اللَّه وأتباعه.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب؛ لأن قوله -تعالى ذكره-: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ عَقيب قوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ﴾ وذلك ذم من اللَّه للمفترين عليه، المكذبين بتنزيله ووحيه، الجاحدين وحدانيته، فالواجب أن يكون عَقيب ذلك مدح من كان بخلاف صفة هؤلاء المذمومين، وهم الذين دعوهم إلى توحيد اللَّه، ووصفه بالصفة التي هو بها، وتصديقهم بتنزيل اللَّه ووحيه، والذين هم كانوا كذلك يوم نزلت هذه الآية، رسول اللَّه ﷺ وأصحابه ومن بعدهم، القائمون في كل عصر وزمان بالدعاء إلى توحيد اللَّه، وحكم كتابه؛ لأن اللَّه -تعالى ذكره- لم يخص وصفه بهذه الصفة التي في هذه الآية على أشخاص

بأعيانهم، ولا على أهل زمان دون غيرهم، وإنما وصفهم بصفة، ثم مدحهم بها، وهي المجيء بالصدق والتصديق به، فكل من كان كذلك وصفه، فهو داخل في جملة هذه الآية إذا كان من بني آدم.. وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: هؤلاء الذين هذه صفتهم. هم الذين اتقوا اللّٰه بتوحيده، والبراءة من الأوثان والأنداد، وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، فخافوا عقابه»[(١)].

قال الرازي: «واعلم أنا سواء قلنا: المراد بالذي صدق به شخص معين، أو قلنا: المراد منه كل من كان موصوفًا بهذه الصفة، فإن أبا بكر داخل فيه.

أما على التقدير الأول: فدخول أبي بكر فيه ظاهر، وذلك لأن هذا يتناول أسبق الناس إلى التصديق، وأجمعوا على أن الأسبق الأفضل إما أبو بكر وإما علي، وحمل هذا اللفظ على أبي بكر أولى؛ لأن عليًا رضي الله عنه كان وقت البعثة صغيرًا، فكان كالولد الصغير الذي يكون في البيت، ومعلوم أن إقدامه على التصديق لا يفيد مزيد قوة وشوكة. أما أبو بكر فإنه كان رجلًا كبيرًا في السن كبيرًا في المنصب، فإقدامه على التصديق يفيد مزيد قوة وشوكة في الإسلام، فكان حمل هذا اللفظ إلى أبي بكر أولى.

وأما على التقدير الثاني: فهو أن يكون المراد كل من كان موصوفًا بهذه الصفة، وعلى هذا التقدير يكون أبو بكر داخلًا فيه»[(٢)].

وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾ يقول السعدي: «من الثواب، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فكل ما تعلقت به إرادتهم ومشيئتهم، من أصناف اللذات والمشتهيات، فإنه حاصل لهم، معد مهيأ، ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يعبدون اللّٰه كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى عباد الله»[(٣)].

* * *

(١) جامع البيان (٢٤/ ٣-٥).
(٢) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٨٠).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٧١).

قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «عمل الإنسان له ثلاث حالات: إما أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ ولا أحسن. والقسم الأخير قسم المباحات وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، والأسوأ المعاصي كلها، والأحسن الطاعات كلها، فبهذا التفصيل، يتبين معنى الآية، وأن قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي: ذنوبهم الصغار، بسبب إحسانهم وتقواهم، ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بحسناتهم كلها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾[(١)]»[(٢)].

قال البقاعي: «فمن كان في هذه الدار محسنا في وقت ما يعبد اللّٰه كأنه يراه فهو في الآخرة كل حين يراه، قال القشيري: ثم يجب أن يكون على أحسن الأعمال أحسن الثواب، وأحسن الثواب الرؤية فيجب أن يكون على الدوام، وهذا استدلال قوي»[(٣)].

* * *

(١) النساء: الآية (٤٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٧٢).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٥٠٨).

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «جرت العادة أن المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة، فحسم اللَّه مادة هذه الشبهة بقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ وذكره بلفظ الاستفهام، والمراد تقرير ذلك في النفوس والأمر كذلك؛ لأنه ثبت أنه.. تعالى عالم بحاجات العباد، وقادر على دفعها وإبدالها بالخيرات والراحات، وهو ليس بخيلًا ولا محتاجًا حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء ذلك المراد، وإذا ثبت هذا كان الظاهر أنه سبحانه يدفع الآفات، ويزيل البليات، ويوصل إليه كل المرادات، فلهذا قال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾»[1].

قال البقاعي: «أي: الخالص له الذي لم يشرك به أصلًا، كما تقدم في المثل ممن كذبه وقصد مساءته، فينصره عليهم حتى يظهر دينه، ويعلي أمره، ويغنيه عن أن يحتاج إلى غيره، أو يجنح إلى سواه، باعتقاد أن في يده شيئًا يستقل به، وهذا لا ينافي السعي في الأسباب مع اعتقاد أنها بيد اللَّه، فإن شاء ربط بها المسببات، وإن شاء أعقمها، بل السعي أكمل؛ لأن ترتيب الأسباب بوضع الحكيم، فالسعي في طرحها ينافي وضع الحكمة»[2].

وقوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ **يقول ابن جرير**: «يقول -تعالى ذكره-: لنبيه محمد ﷺ: ويخوفك هؤلاء المشركون يامحمد بالذين من دون اللَّه من الأوثان والآلهة أن تصيبك بسوء ببراءتك منها، وعيبك لها، واللَّه كافيك ذلك»[3].

---

(١) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٨٢).
(٢) نظم الدرر (١٦/ ٥٠٩).
(٣) جامع البيان (٢٤/ ٦).

قال الشنقيطي: «ومعلوم أن أنبياء اللَّه عليهم صلوات اللَّه وسلامه عليهم، لا يخافون غير اللَّه ولاسيما الأوثان، التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع، ولذا قال تعالى عن نبيه إبراهيم لما خوَّفوه بها: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ﴾[1] الآية. وقال عن نبيه هود: وما ذكره له قومه من ذلك: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾[2].

وقال تعالى في هذه السورة الكريمة، مخاطبًا نبينا ﷺ، بعد أن ذكر تخويفهم له بأصنامهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾[3]. ومعلوم أن الخوف من تلك الأصنام من أشنع أنواع الكفر والإشراك باللَّه.

وقد بين -جل وعلا- في موضع آخر، أن الشيطان يخوف المؤمنين أيضًا، الذين هم أتباع الرسل من أتباعه وأوليائه من الكفار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[4]»[5].

وهذا النوع من الخوف والتخويف يسمى خوف السر وهو -يقول الشيخ سليمان بن عبد اللَّه بن عبد الوهاب-: «أن يخاف من غير اللَّه أن يصيبه بما يشاء من مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلك، بقدرته ومشيئته، سواء ادعى أن ذلك كرامة للمخوف بالشفاعة، أو على سبيل الاستقلال، فهذا الخوف لا يجوز تعلقه بغير اللَّه أصلا؛ لأن هذا من لوازم الإلهية، فمن اتخذ مع اللَّه ندا يخافه هذا الخوف فهو مشرك، وهذا هو الذي كان المشركون يعتقدونه في أصنامهم وآلهتهم، ولهذا يخوفون بها أولياء الرحمن، كما خوفوا إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والسلام- فقال لهم:

---

(١) الأنعام: الآية (٨١).
(٢) هود: الآيات (٥٤-٥٦).
(٣) الزمر: الآية (٣٨).
(٤) آل عمران: الآية (١٧٥).
(٥) أضواء البيان (٦/ ٣٦٣-٣٦٤).

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨١﴾[1] وقال تعالى عن قوم هود أنهم قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ وقال تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ وهذا القسم هو الواقع اليوم من عباد القبور، فإنهم يخافون الصالحين؛ بل الطواغيت كما يخافون اللَّه بل أشد، ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين باللَّه أعطاك ما شئت من الأيمان كاذبا أو صادقا، فإن كان اليمين بصاحب التربة، لم يقدم على اليمين إن كان كاذبا، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أخوف عنده من اللَّه، ولا ريب أن هذا ما بلغ إليه شرك الأولين؛ بل جهد أيمانهم اليمين باللَّه تعالى، وكذلك لو أصاب أحدا منهم ظلم لم يطلب كشفه إلا من المدفونين في التراب، وإذا أراد أن يظلم أحدا فاستعاذ باللَّه أو ببيته لم يعذه، ولو استعاذ بصاحب التربة أو بتربته لم يقدم عليه أحدا، ولم يتعرض له بالأذى، حتى إن بعض الناس أخذ من التجار أموالا عظيمة أيام موسم الحج، ثم بعد أيام أظهر الإفلاس، فقام عليه أهل الأموال فالتجأ إلى قبر في جدة يقال له المظلوم، فما تعرض له أحد بمكروه، خوفا من سر المظلوم، وأشباه هذا من الكفر، وهذا الخوف لا يكون العبد مسلما إلا بإخلاصه لله تعالى، وإفراده بذلك دون من سواه»[2].

وقوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ۝٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾:

يقول ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ومن يخذله اللَّه فيضلَّه عن طريق الحق وسبيل الرشد، فما له سواه من مرشد ومسدّد إلى طريق الحقّ، ومُوفّق للإيمان باللَّه، وتصديق رسوله، والعمل بطاعته ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾ يقول: ومن يوفّقه اللَّه للإيمان به، والعمل بكتابه، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾، يقول: فما له من مزيغ يزيغه عن الحق الذي هو عليه إلى الارتداد إلى الكفر»[3].

---

(١) الأنعام: الآيتان (٨٠و٨١).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٩٥-٤٩٦).

(٣) جامع البيان (٢٤/ ٦).

وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ يقول ابن كثير: «أي: منيع الجناب، لا يضام من استند إلى جنابه، ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه، ولا أشد انتقامة منه ممن كفر به، وأشرك وعاند رسوله ﷺ»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان كفاية اللَّه لعباده

* عن فضالة بن عبيد الأنصاري أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «**طوبى لمن هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع**»[٢].

⋆ غريب الحديث:

طوبى: فُعْلى من الطيب، وقد ثبت عن النبي ﷺ ما يدل على أنها شجرة في الجنة.

قال المناوي: «**"وكان عيشه كفافًا"**: أي: بقدر كفايته لا يشغله ولا يطغيه، قال في الحكم: من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ويمنعك ما يطغيك. قال الشاعر:

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع»[٣].

⋆ فوائد الحديث:

في هذا الحديث بيان كفاية اللَّه لعباده، وأنه هو المتفضل عليهم بهدايتهم إلى الإسلام، والمنعم عليهم بما يكفيهم من أنواع الرزق، وأصناف النعم، فإله هذا شأنه حري بالعبد أن يستغني به عن غيره، وأن يكتفي به عمن سواه، بإخلاص الدين له، والقيام بحق العبودية، والتسليم له والرضا به.

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٠٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١٩)، والترمذي (٤/ ٤٩٧-٤٩٨/ ٢٣٤٩) وقال: «حسن صحيح» واللفظ له، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٣٨٦/ ١١٧٩٣)، والحاكم (٤/ ١٢٢) وصححه ووافقه الذهبي، ابن حبان (الإحسان ٢/ ٤٨٠/ ٧٠٥) وصححه.

(٣) الفيض (٤/ ٢٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين العادلين بالله الأوثان والأصنام: مَنْ خلق السموات والأرض؟ ليقولن: الذي خلقهن الله، فإذا قالوا ذلك، فقل: أفرأيتم أيها القوم هذا الذي تعبدون من دون الله من الأصنام والآلهة ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ يقول: بشدة في معيشتي، هل هن كاشفات عني ما يصيبني به ربي من الضر؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ يقول: إن أرادني ربي أن يصيبني سعة في معيشتي، وكثرة مالي، ورخاء وعافية في بدني، هل هن ممسكات عني ما أراد أن يصيبني به من تلك الرحمة؟ وترك الجواب لاستغناء السامع بمعرفة ذلك، ودلالة ما ظهر من الكلام عليه. والمعنى: فإنهم سيقولون لا، فقل: حسبي الله مما سواه من الأشياء كلها، إياه أعبد، وإليه أفزع في أموري دون كلّ شيء سواه، فإنه الكافي، وبيده الضر والنفع، لا إلى الأصنام والأوثان التي لا تضر ولا تنفع، ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يقول: على الله يتوكل من هو متوكل، وبه فليثق لا بغيره»[1].

وقال الشنقيطي: «ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من أن المعبودات من دونه، لا تقدر أن تكشف ضرًا أراد الله به أحدًا، أو تمسك رحمة أراد بها أحدًا، جاء موضحًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾[2] وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٧).

(٢) مريم: الآية (٤٢).

بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾[3] الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة»[4].

قال في «تيسير العزيز الحميد»: «قال مقاتل: فسألهم النبي ﷺ فسكتوا؛ أي: لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها، وإنما كانوا يدعونها على معنى أنها وسائط وشفعاء عند اللَّه، لا لأنهم يكشفون الضر ويجيبون دعاء المضطر، فهم يعلمون أن ذلك لله وحده، كما قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾[5] وقد دخل في ذلك كل من دعي من دون اللَّه من الملائكة والأنبياء والصالحين، فضلا عن غيرهم، فلا يقدر أحد على كشف ضر، ولا إمساك رحمة، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ وإذا كان كذلك بطلت عبادتهم من دون اللَّه، وإذا بطلت عبادتهم فبطلان دعوة الآلهة والأصنام أبطل وأبطل»[6].

قال الشوكاني: «وفي هذا أعظم دليل على أنهم كانوا في غفلة شديدة، وجهالة عظيمة؛ لأنهم إذا علموا أن الخالق لهم، ولما يعبدون من دون اللَّه هو اللَّه سبحانه، فكيف استحسنت عقولهم عبادة غير خالق الكل، وتشريك مخلوق مع خالقه في العبادة؟ وقد كانوا يذكرون بحسن العقول، وكمال الإدراك، والفطنة التامة، ولكنهم لما قلدوا أسلافهم، وأحسنوا الظنّ بهم، هجروا ما يقتضيه العقل، وعملوا بما هو محض الجهل»[7].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من الشرك أن يستغيث بغير اللَّه أو يدعو غيره

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول اللَّه ﷺ يومًا، فقال: «**يا غلام!**

---

(١) الشعراء: الآيات (٧٢-٧٤).
(٢) فاطر: الآية (٢).
(٣) يونس: الآية (١٠٧).
(٤) أضواء البيان (٦/ ٣٦٤).
(٥) النحل: الآيتان (٥٣و٥٤).
(٦) تيسير العزيز الحميد (١٤٦).
(٧) فتح القدير (٤/ ٦٥٢).

إني أعلمك كلمات: احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعن باللَّه. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[(١)].

★ غريب الحديث:

احفظ الله: أي: احفظ حدود اللَّه وحقوقه، وأوامره ونواهيه، وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده فلا يتجاوز، ولا يتعدى ما أمر به إلى ما نهى عنه، فدخل في ذلك فعل الواجبات جميعها[(٢)].

يحفظك: أي: يحفظك في الدنيا من الآفات والمكروهات وفي العقبى من أنواع العقاب والدركات.

تجاهك: أي: مقابلك وحذاءك.

★ فوائد الحديث:

قوله: «**إذا سألت فاسأل الله**»: أي: إذا أردت السؤال فاسأل اللَّه وحده؛ لأن غيره غير قادر على الإعطاء والمنع، ودفع الضرر وجلب المنافع[(٣)].

قال ابن رجب: «أمر بإفراد اللَّه ﷻ بالسؤال ونهى عن سؤال غيره من الخلق، وقد أمر اللَّه بسؤاله، فقال: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[(٤)].. واعلم أن سؤال اللَّه تعالى دون خلقه هو المتعين عقلًا وشرعًا، وذلك من وجوه متعددة، منها: أن السؤال فيه بذل ماء الوجه، وذلة للسائل، وذلك لا يصلح إلا لله وحده، فلا يصلح الذل إلا به بالعبادة والمسألة، وذلك من علامات المحبة الصادقة.

ومنها: أن في سؤال اللَّه عبودية عظيمة؛ لأنها إظهار للافتقار إليه، واعتراف بقدرته على قضاء الحوائج، وفي سؤال المخلوق ظلم؛ لأن المخلوق عاجز عن جلب النفع لنفسه ودفع الضر عنها، فكيف يقدر على ذلك لغيره؟! وسؤاله إقامة له

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٤/ ٥٧٥-٥٧٦/ ٢٥١٦) واللفظ له، وقال: «حسن صحيح».
(٢) الجامع المنتخب من رسائل ابن رجب (ص: ١٢٥).
(٣) تحفة الأحوذي (٧/ ١٨٥).
(٤) النساء: الآية (٣٢).

مقام من يقدر، وليس هو بقادر»[١].

وقوله: «إذا استعنت فاستعن بالله»: **قال ابن رجب**: «لما أمر ﷺ بحفظ اللَّه والتعرف إليه في الرخاء، وذلك هو العبادة حقيقة، ثم أرشد إلى سؤال اللَّه وحده ودعائه أرشد بعد ذلك إلى الاستعانة باللَّه وحده، وهذا منتزع من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ وهي كلمة عظيمة جامعة، يقال: إن سر الكتب الإلهية كلها ترجع إليها وتدور عليها.

وفي استعانة اللَّه وحده فائدتان: أحدهما: أن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في عمل الطاعات. والثانية: أنه لا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا اللَّه ﷻ، فمن أعانه اللَّه فهو المعان، ومن خذله اللَّه فهو المخذول.

فالعبد محتاج إلى الاستعانة باللَّه في فعل المأمورات، وفي ترك المحظورات، وفي الصبر على المقدورات، كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٢]»[٣].

وأما قوله: «**واعلم أن الأمة**..»: **قال ابن رجب**: «يريد بذلك أن ما يصيب العبد مما يضره وينفعه في دنياه، فكله مقدر عليه، ولا يمكن أن يصيبه ما لم يكتب له ولم يقدر عليه، ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعًا. وقد دل القرآن أيضًا على مثل هذا في قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾[٤] وقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾[٥].. واعلم أن مدار جميع هذه الوصية من النبي ﷺ لابن عباس على هذا الأصل، وما بعده وما قبله متفرع عليه وراجع إليه، فإنه إذا علم العبد أنه لن يصيبه إلا ما كتب اللَّه له من خير أو شر، أو نفع أو ضر، وأن اجتهاد الخلق كلهم جميعًا على خلاف المقدور غير مفيد شيئًا البتة، علم حينئذ أن اللَّه تعالى وحده هو الضار النافع، والمعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه ﷻ، وإفراده بالاستعانة والسؤال والتضرع والابتهال، وإفراده أيضًا بالعبادة والطاعة؛ لأن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع

---

(١) الجامع المنتخب من رسائل ابن رجب (ص: ١٥٤-١٥٧) باختصار.

(٢) يوسف: الآية (١٨).

(٣) الجامع المنتخب (ص: ١٦٦-١٦٨) باختصار. (٤) التوبة: الآية (٥١).

(٥) الحديد: الآية (٢٢).

المضار، ولهذا ذم اللَّه ﷻ من يعبد ما لا ينفع ولا يضر ولا يغني عن عابده شيئًا، وأيضًا فكثير ممن لا يحقق الإيمان وقلبه يقدم طاعة مخلوق على طاعة اللَّه رجاء نفعه أو دفعًا لضره. فإذا تحقق العبد تفرد اللَّه وحده بالنفع والضر، وبالعطاء والمنع، أوجب ذلك إفراده بالطاعة والعبادة، ويقدم طاعته على طاعة الخلق كلهم جميعًا، كما يوجب ذلك أيضًا إفراده سبحانه بالاستعانة به، والطلب منه.

وقد اشتملت هذه الوصية العظيمة الجامعة على هذه الأمور المهمة كلها. فإن حفظ العبد لله ﷻ هو حفظ حدوده، ومراعاة حقوقه وهو حقيقة عبادته، وهو أول ما صُدِّرت به هذه الوصية. ورُتِّب على ذلك حفظ اللَّه لعبده، وهو نهاية ما يطلبه العبد من ربه ويريده منه. ثم عقب ذلك بذكر التعرف إلى اللَّه في الرخاء، وأنه مقتضٍ لمعرفة اللَّه لعبده في الشدة، وهذا هو من تمام حفظ اللَّه لعبده وداخل فيه، إلا أن حالة الشدة لما كان العباد مضطرين فيها إلى من يعرفهم، ويفرج عنهم خُصّت بالذكر لهذا المعنى. وفي هذه الحالة يُخلص المشركون الدعاء إلى اللَّه وحده، ويُفردونه بالسؤال والطلب لعلمهم أنه لا يكشف الضر سواه سبحانه، ثم يعودون عند كشف الضر عنهم إلى الشرك كما ذكر ذلك سبحانه عنهم في مواضع من كتابه وذمهم عليه. فأمر رسول اللَّه ﷺ بمخالفتهم في ذلك بالتعرف إلى اللَّه في حال الرخاء بإخلاص الدين له وحده، وبطاعته والتقرب إليه؛ ليوجب ذلك معرفته لهم في الشدة وكشفها عنهم.

ثم عقب ذلك بذكر إفراد اللَّه بالسؤال. وإفراده بالاستعانة وذلك يشتمل حال الشدة، وحال الرخاء. ثم ذكر بعد هذا كله الأصل الجامع الذي تنبني عليه هذه المطالب كلها، وهو تفرد اللَّه ﷻ بالضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه لا يصيب العبد من ذلك كله إلا ما سبق تقديره وقضاه له، وأن الخلق كلهم عاجزون عن إيصال نفع، أو ضر غير مقدر في الكتاب السابق.

وتحقيق هذا يقتضي انقطاع العبد عن التعلق بالخلق، وعن سؤالهم واستعانتهم ورجائهم بجلب نفع أو دفع ضر، وخوفهم من إيصال ضر، أو منع نفع، وذلك يستلزم إفراد اللَّه سبحانه بالطاعة والعبادة أيضًا، وأن يقدم طاعته على طاعة الخلق كلهم جميعًا، وأن يُتقى سخطه ولو كان فيه سخط الخلق جميعًا»[1].

---

(١) الجامع المنتخب من رسائل ابن رجب (ص: ١٧٥-١٧٧).

* عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من علق تميمة، فلا أتم اللَّه له، ومن علق وَدَعة، فلا ودع اللَّه له**»[١].

★ **غريب الحديث:**

تميمة: هي خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم يتقون بها العين في زعمهم فأبطلها الإسلام.

وَدَعة: شيء يخرج من البحر يشبه الصدف يتقون به العين، ويعلق في حلوق الصبيان وغيرهم.

★ **فوائد الحديث:**

قال الشيخ العثيمين: «الجملة خبرية بمعنى الدعاء، ويحتمل أن تكون خبرية محضة، وكلا الاحتمالين دالّ على أن التميمة محرمة سواء نفى رسول اللَّه ﷺ أن يتم اللَّه له، أو دعا بأن لا يتم اللَّه له، فإن كان الرسول ﷺ أراد به الخبر فإننا نخبر بما أخبر به النبي ﷺ وإلا فإننا ندعو بما دعا به الرسول ﷺ»[٢].

وقوله: «**فلا ودع اللَّه له**»: «أي: لا جعله في دعة وسكون. وقيل: هو لفظ مبني من الودعة؛ أي: لا خفف اللَّه عنه ما يخافه، قاله أبو السعادات[٣]، وهذا دعاء عليه فيه وعيد شديد لمن فعل ذلك، فإنه مع كونه شركًا فقد دعا عليه رسول اللَّه ﷺ بنقيض مقصوده»[٤].

قال الشيخ السعدي: «هذا الباب يتوقف فهمه على معرفة أحكام الأسباب. وتفصيل القول فيها أنه يجب على العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها: أن لا يجعل منها سببًا إلا ما ثبت أنه سبب شرعًا أو قدرًا.

ثانيها: أن لا يعتمد العبد عليها بل يعتمد على مسببها ومقدرها مع قيامه بالمشروع منها، وحرصه على النافع منها.

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٥٤)، وصححه الحاكم (٤/ ٢١٦) واللفظ له ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان (١٣/ ٤٥٠/ ٦٠٨٦).

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٩/ ١٦٠-١٦١).

(٣) النهاية (٥/ ١٦٨).

(٤) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٥٣).

ثالثها : أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت، فإنها مرتبطة بقضاء اللَّه وقدره، لا خروج لها عنه، واللَّه تعالى يتصرف فيها كيف يشاء. إن شاء أبقى سببيتها جارية على مقتضى حكمته ليقوم بها العباد، ويعرفوا بذلك تمام حكمته حيث ربط المسببات بأسبابها، والمعلولات بعللها، وإن شاء غيّرها كيف يشاء؛ لئلا يعتمد عليها العباد، وليعلموا كمال قدرته، وأن التصرف المطلق والإرادة المطلقة لله وحده، فهذا هو الواجب على العبد في نظره وعمله بجميع الأسباب.

إذا علم ذلك فمن لبس الحلقة أو الخيط ونحوهما قاصدًا بذلك رفع البلاء بعد نزوله، أو دفعه قبل نزوله، فقد أشرك؛ لأنه إن اعتقد أنها هي الدافعة الرافعة فهذا الشرك الأكبر.

وهو شرك في الربوبية حيث اعتقد شريكًا مع اللَّه في الخلق والتدبير، وشرك في العبودية حيث تأله لذلك، وعلق به قلبه طمعًا ورجاءً لنفعه.

وإن اعتقد أن اللَّه هو الدافع الرافع وحده، ولكن اعتقدها سببًا يستدفع بها البلاء، فقد جعل ما ليس سببًا شرعيًا ولا قدريًا سببًا، وهذا محرم وكذب على الشرع وعلى القدر.

أما الشرع فإنه ينهى عن ذلك أشد النهي. وما نهى عنه فليس من الأسباب النافعة. وأما القدر فليس هذا من الأسباب المعهودة ولا غير المعهودة التي يحصل بها المقصود، ولا من الأدوية المباحة النافعة. وكذلك هو من جملة وسائل الشرك، فإنه لا بد أن يتعلق قلب متعلقها بها، وذلك نوع شرك ووسيلة إليه. فإذا كانت هذه الأمور ليست من الأسباب الشرعية التي شرعها على لسان نبيه التي يتوسل بها إلى رضاء اللَّه وثوابه، ولا من الأسباب القدرية التي قد علم أو جرب نفعها مثل الأدوية المباحة كان المتعلق بها متعلقًا قلبه بها راجيًا لنفعها، فتعين على المؤمن تركها ليتم إيمانه وتوحيده، فإنه لو تم توحيده لم يتعلق قلبه بما ينافيه، وذلك أيضًا نقص في العقل حيث تعلق بغير متعلق ولا نافع بوجه من الوجوه، بل هو ضرر محض.

والشرع مبناه على تكميل أديان الخلق بنبذ الوثنيات والتعلق بالمخلوقين، وعلى تكميل عقولهم بنبذ الخرافات والخزعبلات، والجد في الأمور النافعة

المرقية للعقول، المزكية للنفوس، المصلحة للأحوال كلها دينيها ودنيويها، واللَّه أعلم»[(١)].

قال الشيخ العثيمين: «ولبس هذه الأشياء قد يكون شركًا أصغر، وقد يكون أكبر بحسب اعتقاد لابسها، وكان لبس هذه الأشياء من الشرك؛ لأن كل من أثبت سببًا لم يجعله اللَّه سببًا شرعيًا ولا قدريًا؛ فقد جعل نفسه شريكًا مع اللَّه. فمثلًا: قراءة الفاتحة سبب شرعي للشفاء. وأكل المسهل سبب حسي لانطلاق البطن، وهو قدري؛ لأنه يعلم بالتجارب.

والناس في الأسباب طرفان ووسط: الأول: من ينكر الأسباب، وهم كل من قال بنفي حكمة الله؛ كالجبرية، والأشعرية.

الثاني: من يغلو في إثبات الأسباب حتى يجعلوا ما ليس بسبب سببًا، وهؤلاء هم عامة الخرافيين من الصوفية ونحوهم.

الثالث: من يؤمن بالأسباب وتأثيراتها، ولكنهم لا يثبتون من الأسباب إلا ما أثبته اللَّه سبحانه ورسوله، سواء كان سببًا شرعيًا أو كونيًا.

ولا شك أن هؤلاء هم الذين آمنوا باللَّه إيمانًا حقيقيًا، وآمنوا بحكمته؛ حيث ربطوا الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها، وهذا من تمام الحكمة..

وطريق العلم بأن الشيء سبب: إما عن طريق الشرع، وذلك كالعسل ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾[(٢)]، وكقراءة القرآن فيها شفاء للناس، قال اللَّه تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)].

وإما عن طريق القدر، كما إذا جربنا هذا الشيء فوجدناه نافعًا في هذا الألم أو المرض، ولكن لا بد أن يكون أثره ظاهرًا مباشرًا كما لو اكتوى بالنار فبرئ بذلك مثلًا؛ فهذا سبب ظاهر بيّن»[(٤)].

وقد تقدم ما يتعلق بالتمائم عند قوله تعالى من سورة (يوسف): ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ الآية (١٠٦).

---

(١) القول السديد (ص: ٣٣-٣٦).

(٢) النحل: الآية (٦٩).

(٣) الإسراء: الآية (٨٢).

(٤) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٩/ ١٥٤-١٥٥)، وانظر مفتاح دار السعادة (٣/ ٣٠٣-٣٠٥).

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٤٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالتكم التي أنتم عليها من العداوة التي تمكَّنتُم فيها، فإنَّ المكانة تُستعار من العَين للمعنى، كما تُستعار هُنا وحَيثُ للزَّمانِ مع كونِهما للمكانِ. وقُرئ على مكاناتِكم ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أي: على مكانتِي فحذف للاختصارِ والمبالغةِ في الوعيدِ، والإشعارِ بأنَّ حالَه لا تزال تزداد قوَّةً بنصر اللَّه ﷻ وتأييدِه، ولذلك توعَّدهم بكونه منصورًا عليهم في الدّارينِ بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فإنَّ خِزي أعدائِه دليلُ غلبتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقد عذَّبهم اللَّه تعالى وأخزاهم يومَ بدرٍ. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائمٌ هو عذابُ النَّار»[(١)].

قال الألوسي: «وقوله تعالى: ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ وعيد لهم، وإطلاقه لزيادة الوعيد؛ لأنه لو قيل: على مكانتي لتراءى أنه عليه الصلاة والسلام على حالة واحدة لا تتغير ولا تزداد، فلما أطلق أشعر بأنه له ﷺ كل زمان مكانة أخرى، وأنه لا يزال يزداد قوة بنصر اللَّه تعالى وتأييده، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فإنه دال على أنه ﷺ منصور عليهم في الدنيا والآخرة، بدليل قوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ فإن الأول إشارة إلى العذاب الدنيوي، وقد نالهم يوم بدر. والثاني: إشارة إلى العذاب الأخروي، فإن العذاب المقيم عذاب النار، فلو قيل: إني عامل على مكانتي، وكان إذ ذاك غير غالب؛ بل الأمر بالعكس، لم يلائم المقصود»[(٢)].

---

(١) تفسير أبي السعود (٧/ ٢٥٦).

(٢) روح المعاني (٢٤/ ٦-٧).

قال البقاعي: «فكأنه يشير إلى أنهم كالحيوانات العجم، لا اختيار لهم، ويعرّض بالعمل الذي مبناه العلم، والمكانة التي محطها الجمود، بأن أفعالهم ليس فيها ما ينبني على العلم، وإنما هي جزاف لا اعتبار لها ولا وزن لها. ثم أجاب من عساه أن يقول له منهم: فماذا تعمل أنت؟ بقوله: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على كفاية اللَّه لي، ليس لي نظر إلى سواه، ولا أخشى غيره، وليس لي مكانة ألتزم الجمود عليها، بل أنا واقف على ما يرد من عند اللَّه، إن نقلني انتقلت، وإن أمرني بغير ذلك امتثلت، وأنا مرتقب كل وقت للزيادة، ثم سبب عن قول من لعله يقول منهم: وماذا عساه يكون قوله؟ إيذانًا بأنه على ثقة من أمره لأن له المخبر به اللَّه..

وقوله: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ لإقامته على حالته وجموده على ضلالته، ومن يؤتيه اللَّه انتصارًا يعليه وينقله إلى نعيم عظيم، لانتقاله بارتقائه في مدارج الكمال، بأوامر ذي الجلال والجمال، ولقد علموا ذلك في قصة المستهزئين، ثم في وقعة بدر، فإن من أهلكه اللَّه منهم جعل إهلاكه أول عذابه، ونقله به إلى عذاب البرزخ، ثم عذاب النار، فلا انفكاك له من العذاب، ولا رجاء لحسن المآب»[1].

* * *

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥١٤-٥١٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن النبي ﷺ كان يعظم عليه إصرارهم على الكفر كما قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾[1] وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾[2] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[3] فلما أطنب اللَّه تعالى في هذه الآية في فساد مذاهب المشركين، تارة بالدلائل والبينات، وتارة بضرب الأمثال، وتارة بذكر الوعد والوعيد، أردفه بكلام يزيل ذلك الخوف العظيم عن قلب الرسول ﷺ فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾»[4].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: إنا أنزلنا عليك يا محمد الكتاب تبيانا للناس بالحقّ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ يقول: فمن عمل بما في الكتاب الذي أنزلناه إليك واتبعه فلنفسه، يقول: فإنما عمل بذلك لنفسه، وإياها بغى الخير لا غيرها، لأنه أكسبها رضا اللَّه والفوز بالجنة، والنجاة من النار. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ يقول: ومن جار عن الكتاب الذي أنزلناه إليك، والبيان الذي بيّناه لك، فضل عن قصد المحجة، وزال عن سواء السبيل، فإنما يجور على نفسه، وإليها يسوق العطب والهلاك، لأنه يكسبها سخط اللَّه، وأليم عقابه، والخزي الدائم. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وما أنت يا محمد على من أرسلتك إليه من الناس برقيب ترقب أعمالهم، وتحفظ عليهم أفعالهم، إنما أنت رسول، وإنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب»[5].

قال ابن عاشور: «نظير هذه الآية في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن

---

(١) الكهف: الآية (٦).
(٢) الشعراء: الآية (٣).
(٣) فاطر: الآية (٨).
(٤) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٨٤-٢٨٥).
(٥) جامع البيان (٢٤/ ٨).

رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ﴾[١] آخر سورة يونس، وفي قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ﴾[٢] في آخر سورة النمل، ولكن جيء في تينك الآيتين بصيغة قصر الاهتداء على نفس المهتدي، وتُرك ذلك في هذه السورة، ووجْهُ ذلك أن تينك الآيتين واردتان بالأمر بمخاطبة المشركين، فكان المقام فيهما مناسبًا لإفادة أن فائدة اهتدائهم لا تعود إلا لأنفسهم، أي ليست لي منفعة من اهتدائهم، خلافًا لهذه الآية، فإنها خطاب موجه من اللّه إلى رسوله ﷺ، ليس فيها حالُ من ينزل منزلة المُدل باهتدائه»[٣].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّۖ﴾ يحتمل معنيين، أحدهما: أن يريد مضمنًا الحق في أخباره وأحكامه، والآخر: أن يريد أنه أنزله بالواجب من إنزاله، وبالاستحقاق لذلك؛ لما فيه من مصلحة العالم وهداية الناس، وكأن هذا الذي فعل اللّه تعالى من إنزال كتاب إلى عبيده، هو إقامة حجة عليهم، وبقي تكسبهم بعد إليهم»[٤].

وفي الآية إعلام بعلو مكانة محمد ﷺ واصطفاء ربه له[٥].

* * *

(١) يونس: الآية (١٠٨).

(٢) النمل: الآيتان (٩١-٩٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٢).

(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٥٣٣).

(٥) أفاده ابن عطية في المحرر الوجيز (٤/ ٥٣٣).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ثم قال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾[1]، فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى. وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى؛ ولهذا قال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾»[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال السدي في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ﴾ قال: يتوفاها في منامها فيلتقي روح الحي وروح الميت فيتذاكران ويتعارفان، قال: فترجع روح الحي إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجلها، وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس.

وهذا أحد القولين في الآية، وهو أن الممسكة من توفيت وفاة الموت أولًا، والمرسلة من توفيت وفاة النوم، والمعنى على هذا القول أنه يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى

---

(١) الأنعام: الآيتان (٦٠و٦١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٠١).

جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى.

والقول الثاني في الآية: أن الممسكة والمرسلة في الآية كلاهما توفى وفاة النوم فمن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها إلى جسدها، ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكمله. واختار شيخ الإسلام هذا القول وقال: «عليه يدل القرآن والسنة، قال: فإنه سبحانه ذكر إمساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاها وفاة النوم، وأما التي توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا بإرسال؛ بل هي قسم ثالث.

والذي يترجح هو القول الأول؛ لأنه سبحانه أخبر بوفاتين: وفاة كبرى، وهي وفاة الموت، ووفاة صغرى، وهي وفاة النوم، وقسم الأرواح قسمين: قسمًا قضى عليها الموت فأمسكها عنده، وهي التي توفاها وفاة الموت، وقسمًا لها بقية أجل فردها إلى جسده إلى استكمال أجلها، وجعل سبحانه الإمساك والإرسال حكمين للوفاتين المذكورتين أولًا، فهذه ممسكة وهذه مرسلة، وأخبر أن التي لم تمت هي التي توفاها في منامها، فلو كان قد قسم وفاة النوم إلى قسمين وفاة موت ووفاة نوم لم يقل: ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ فإنها من حين قبضت ماتت، وهو سبحانه قد أخبر أنها لم تمت فكيف يقول بعد ذلك: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾.

ولمن نصر هذا القول أن يقول: قوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ بعد أن توفاها وفاة النوم، فهو سبحانه توفاها أولًا وفاة نوم، ثم قضى عليها الموت بعد ذلك. والتحقيق أن الآية تتناول النوعين فإنه سبحانه ذكر وفاتين، وفاة نوم ووفاة موت، وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرى، ومعلوم أنه سبحانه يمسك كل نفس ميت سواء مات في النوم أو في اليقظة، ويرسل نفس من لم يمت، فقوله: ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ يتناول من مات في اليقظة ومن مات في المنام»[1].

قال السعدي: «وإخباره أنه يتوفى الأنفس وإضافة الفعل إلى نفسه، لا ينافي أنه قد وكل بذلك ملك الموت وأعوانه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[2] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[3]؛ لأنه تعالى يضيف

(١) الروح (ص: ٢٠-٢١). (٢) السجدة: الآية (١١).
(٣) الأنعام: الآية (٦١).

الأشياء إلى نفسه، باعتبار أنه الخالق المدبر، ويضيفها إلى أسبابها، باعتبار أن من سنته تعالى وحكمته أن جعل لكل أمر من الأمور سببا»[١].

وقال القرطبي: «وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته وانفراده بالألوهية، وأنه يفعل ما يشاء، ويحيي ويميت، لا يقدر على ذلك سواه»[٢].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

يقول ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن في قبض اللَّه نفس النائم والميت وإرساله بعدُ نَفس هذا ترجع إلى جسمها، وحبسه لغيرها عن جسمها لعبرة وعظة لمن تفكر وتدبر، وبيانا له أن اللَّه يحيي من يشاء من خلقه إذا شاء، ويميت من شاء إذا شاء»[٣].

قال ابن عاشور: «إن في حالة الإماتةِ والإنامةِ دلائِلَ على انفراد اللَّه تعالى بالتصرف، وأنه المستحق للعبادة دون غيره، وأن ليس المقصود من هذا الخبر الإخبار باختلاف حالتي الموت والنوم؛ بل المقصود التفكر والنظر في مضرب المثل، وفي دقائق صنع اللَّه، والتذكير بما تنطوي عليه من دقائق الحكمة التي تمر على كل إنسان كلَّ يوم في نفسه، وتمرّ على كثير من الناس في آلهم وفي عشائرهم، وهم معرضون عما في ذلك من الحكَم وبديع الصنع.

وجُعل ما تدل عليه آياتٍ كثيرةً؛ لأنهما حالتان عجيبتان، ثم في كل حالة تصرف يغاير التصرف الذي في الأخرى، ففي حالة الموت سلب الحياة عن الجسم وبقاء الجسم كالجماد، ومَنْعٌ من أن تعود إليه الحياة، وفي حالة النوم سلب بعض الحياة عن الجسم حتى يكون كالميت وما هو بميت، ثم منح الحياة أن تعود إليه دَوَالَيْك، إلى أن يأتي إبّان سلبها عنه سلبًا مستمرًّا»[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٧٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٢٦٣).

(٣) جامع البيان (٢٤/ ٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٥-٢٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قبض الله أرواح عباده حين يشاء وردها عليهم حين يشاء

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»[١].

⋆ غريب الحديث:

فلينفض: فليحرك، والنفض: التحريك.

داخلة إزاره: المراد بالداخلة: طرف الإزار الذي يلي الجسد.

⋆ فوائد الحديث:

قال الكرماني: «فإن قيل: فما وجه تخصيص الترجمة بالإمساك والحفظ بالإرسال؟ قلت: الإمساك كناية عن الموت، فالترجمة تناسبه، والإرسال عن البقاء في الدنيا، فالحفظ مناسب له»[٢].

قال الطيبي: «وهو من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾»[٣].

* عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ في سفره الذي ناموا فيه حتى طلعت الشمس، ثم قال: «**إنكم كنتم أمواتًا فرد الله إليكم أرواحكم**»[٤].

* عن أبي قتادة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لهم ليلة الوادي: «**إن الله قبض أرواحكم**

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٦و٢٩٥)، والبخاري (١١/ ١٥١/ ٦٣٢٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٤-٢٠٨٥/ ٢٧١٤)، وأبو داود (٥/ ٣٠٠/ ٥٠٥٠)، والترمذي (٥/ ٤٤٠-٤٤١/ ٣٤٠١) وزاد زيادة في آخره، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٩٨/ ١٠٦٢٧-١٠٦٢٨)، وابن ماجه (٢/ ١٢٧٥/ ٣٨٧٤).

(٢) شرح البخاري (٢٢/ ١٣٥).

(٣) شرح الطيبي (٦/ ١٨٧٣).

(٤) أخرجه: أبو يعلى (٢/ ١٩٢/ ٨٩٥) واللفظ له، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ١٠٧/ ٢٦٨). قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٣٢٢): «رواه أبو يعلى والطبراني في «الكبير» ورجاله ثقات». وأخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٤١١-٤١٢/ ٤٧٣٨) وصحح إسناده الشيخ الألباني في «الإرواء» (١/ ٢٩٣).

حين شاء، وردها عليكم حين شاء»[1].

★ **فوائد الحديثين:**

قال الحافظ: «قوله: «**إن اللَّه قبض أرواحكم**» هو كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ ولا يلزم من قبض الروح الموت، فالموت انقطاع تعلق الروح بالبدن ظاهرًا وباطنًا، والنوم انقطاعه عن ظاهره فقط»[2].

قال الحافظ ابن رجب: «وهذا يدل على أن النائم تُقبض روحه، وهذا مطابق لقول اللَّه ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فدلت الآية على أن النوم وفاة، ودل الحديث على أن النوم قبض، ودلاّ على أن النفس المتوفاة هي الروح المقبوضة.

وفي حديث أبي جحيفة عن النبي ﷺ في نومهم عن الصلاة أنه قال لهم: «**إنكم كنتم أمواتًا فردّ اللَّه إليكم أرواحكم**..

وفي الآية والحديث دليل على أن قبض الأرواح من الأبدان لا يشترط له مفارقتها للبدن بالكلية؛ بل قد تقبض ويبقى لها به منه نوع اتصال كالنائم.

ويستدل بذلك على أن اتصال الأرواح بالأجساد بعد الموت لإدراك البدن النعيم والعذاب أو للسؤال عند نزول القبر لا يسمى حياة تامة، ولا مفارقتها للجسد بعد ذلك موتًا تامًا، وإلا لكان الميت يحيى ويموت في البرزخ مرارًا كثيرة، وهذا يرد قول من أنكر إعادة الروح إلى الجسد عند السؤال والنعيم والعذاب، وبسط القول في هذا يتسع، وقد ذُكر في موضع آخر»[3].

قال الغنيمان: «إن اللَّه تعالى له ملك كل شيء، فروح الإنسان التي بها حياته وتصرفه، هي بيد اللَّه إذا شاء قَبْضَهَا قَبَضَهَا من بدنها، وأصبح الإنسان ميتًا

---

(١) جزء من حديث أخرجه: أحمد (٥/ ٣٠٧)، والبخاري (٢/ ٨٤/ ٥٩٥)، وأبو داود (١/ ٣٠٧/ ٤٣٩)، والنسائي (٢/ ٤٤١/ ٨٤٥).

(٢) فتح الباري (٢/ ٨٥).

(٣) فتح الباري لابن رجب (٥/ ١٠٣-١٠٥).

لا يستطيع أي عمل، وإذا شاء ردها إلى بدنها فاستطاع العمل والتصرف، وكذلك الإنسان لا يستطيع أن ينام متى شاء، ويستيقظ متى شاء إلا بمشيئة اللَّه تعالى، قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾»[1].

قال ابن رجب: «وفيه دليل لمن لا يفرق بين الروح والنفس؛ فإنه أقر بلالًا على قولته: إن اللَّه أخذ بأنفسهم مع قوله: «**إن اللَّه قبض أرواحنا**».

وقد قيل: إن ذاتهما واحدة، وصفاتهما مختلفة، فإذا اتصفت النفس بمحبة الطاعة والانقياد لها فهي روح، وإن اتصفت بالميل إلى الهوى المضر والانقياد لها فهي نفس. وقد تسمى في الحالة الأولى نفسًا -أيضًا- إما مع قيد كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾[2] وقوله: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾[3]»[4].

قال ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما اختلاف الناس في مسمى النفس والروح: هل هما متغايران أو مسماهما واحد؟ فالتحقيق: أن النفس تطلق على أمور، وكذلك الروح، فيتحد مدلولهما تارة، ويختلف تارة. فالنفس تطلق على الروح، ولكن غالب ما يسمى نفسًا إذا كانت متصلة بالبدن، وأما إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها»[5].

قال ابن عطية: «وحقيقة الأمر في هذا هي مما استأثر اللَّه به، وغيبه عن عباده في قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[6] ويكفيك أن في هذه الآية: ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾، وفي الحديث الصحيح: «**إن اللَّه قبض أرواحنا حين شاء، وردها علينا حين شاء**» في حديث بلال في الوادي، فقد نطقت الشريعة بقبض الروح والنفس في النوم، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ فظاهر أن التفصيل والخوض في هذا كله عناء، وإن كان قد تعرض القول في هذا ونحوه أئمة»[7].

* * *

---

(١) شرح كتاب التوحيد (٢/ ١٦٧).

(٢) الفجر: الآية (٢٧).

(٣) القيامة: الآية (٢).

(٤) فتح الباري (٥/ ١٠٤-١٠٥).

(٥) شرح الطحاوية (ص: ٣٩٤).

(٦) الإسراء: الآية (٨٥).

(٧) المحرر الوجيز (٤/ ٥٣٣-٥٣٤).

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى ذاما للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون اللَّه، وهم الأصنام والأنداد، التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك، وهي لا تملك شيئًا من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالا من الحيوان بكثير.

ثم قال: قل: أي يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند اللَّه، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند اللَّه إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[1].

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ أي: هو المتصرف في جميع ذلك. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجزي كلا بعمله»[2].

قال ابن القيم: «أخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض، وهو اللَّه وحده. فهو الذي يشفع بنفسه إلى نفسه، ليرحم عبده. فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه. فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له، والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له وأمره، بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه وهي إرادته من نفسه أن يرحم عبده. وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم، وهي التي أبطلها اللَّه سبحانه في كتابه، بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾[3] وقوله: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٠٢).
(٣) البقرة: الآية (١٢٣).

وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾[٢] وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾[٣].

فأخبر سبحانه أنه ليس للعباد شفيع من دونه، بل إذا أراد اللّٰه سبحانه رحمة عبده أذِن هو لمن يشفع فيه. كما قال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾[٤] وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[٥] فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه، ولا الشافع شفيع من دونه، بل شفيع بإذنه.

والفرق بين الشفيعين، كالفرق بين الشريك والعبد المأمور.

فالشفاعة التي أبطلها الله: شفاعة الشريك فإنه لا شريك له، والتي أثبتها: شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له. ويقول: اشفع في فلان. ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد، الذين جرّدوا التوحيد وخلّصوه من تعلقات الشرك وشوائبه، وهم الذين ارتضى اللّٰه سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[٦] وقال: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾[٧].

فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاء قول المشفوع له، وإذنه للشافع فيه. فأما المشرك فإنه لا يرتضيه ولا يرضى قوله، فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه فإنه سبحانه علّقها بأمرين: رضاه عن المشفوع له، وإذنه للشافع. فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة.

وسر ذلك: أن الأمر كله لله وحده، فليس لأحد منه معه من الأمر شيء، وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده: هم الرسل والملائكة المقربون، وهم عبيد محض، لا يسبقونه بالقول، ولا يتقدمون بين يديه، ولا يفعلون شيئًا إلا بعد إذنه لهم،

(١) البقرة: الآية (٢٥٤).
(٢) الأنعام: الآية (٥١).
(٣) السجدة: الآية (٤).
(٤) يونس: الآية (٣).
(٥) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٦) الأنبياء: الآية (٢٨).
(٧) طه: الآية (١٠٩).

وأمرهم. ولاسيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا. فهم مملوكون مربوبون، أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه. فإذا أشرك بهم المشرك، واتخذهم شفعاء من دونه، ظنًا منه أنه فعل ذلك تقدمًا، وشفعوا له عند اللّه، فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه وما يجب له. ويمتنع عليه، فإن هذا محال ممتنع، شبيه قياس الرب تعالى على الملوك والكبراء، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج، وبهذا القياس الفاسد عُبدت الأصنام، واتخذ المشركون من دون اللّه الشفيع والولي.

والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق، والرب والعبد، والمالك والمملوك، والغني والفقير، والذي لا حاجة به إلى أحد قط، والمحتاج من كل وجه إلى غيره.

فالشفعاء عند المخلوقين: هم شركاؤهم، فإن قيام مصالحهم بهم، وهم أعوانهم وأنصارهم الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم، ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس، فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم. وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع؛ لأنهم يخافون أن يردوا شفاعتهم، فتنتقض طاعتهم لهم، ويذهبون إلى غيرهم. فلا يجدون بدًّا من قبول شفاعتهم على الكره والرضى. فأما الغني الذي غناه من لوازم ذاته، وكل من في السموات والأرض عبيد له، مقهورون بقهره، مصرَّفون بمشيئته. لو أهلكهم جميعًا لم ينقص من عزّه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذرة.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] وقال سبحانه في القرآن في آية الكرسي: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[2] وقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له

---

(١) المائدة: الآية (١٧). (٢) البقرة: الآية (٢٥٥).

وحده، وأن أحدًا لا يشفع عنده إلا بإذنه، فإنه ليس بشريك، بل مملوك محض. بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض.

فتبين أن الشفاعة التي نفاها اللَّه سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس، ويفعلها بعضهم مع بعض. ولهذا يطلق نفيَها تارة، بناءً على أنها هي المعروفة المشاهدة عند الناس، ويقيدها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه، وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه، فإنه الذي أذن، والذي قبل، والذي رضي عن المشفوع، والذي وفقه لفعل ما يستحق به الشفاعة وقوله.

فمتخذ الشفيع مشرك لا تنفعه شفاعته. ولا يشفع فيه، ومتخذ الرب وحده إلهه ومعبوده ومحبوبه ومرجوّه، ومخوفه الذي يتقرب إليه وحده، ويطلب رضاه، ويتباعد من سخطه هو الذي يأذن اللَّه سبحانه للشفيع أن يشفع فيه.

قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾[١].

فبين سبحانه أن المتخذين شفعاء مشركون، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم. وإنما تحصل بإذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

وسر الفرق بين الشفاعتين: أن شفاعة المخلوق للمخلوق، وسؤاله للمشفوع عنده، لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده، لا خلقًا ولا أمرًا ولا إذنًا، بل هو سبب محرِّك له من خارج. كسائر الأسباب التي تحرِّك الأسباب. وهذا السبب المحرك قد يكون عند المتحرك لأجل ما يوافقه، كمن يشفع عنده في أمر يحبه ويرضاه، وقد يكون عنده ما يخالفه، كما يشفع إليه في أمر يكرهه، ثم قد يكون سؤاله، وشفاعته أقوى من المعارض، فيقبل شفاعة الشافع. وقد يكون المعارض الذي عنده أقوى من شفاعة الشافع، فيردها ولا يقبلها، وقد يتعارض عنده الأمران، فيبقى مترددًا بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد، وبين الشفاعة التي تقتضي القبول، فيتوقف

(١) يونس: الآية (١٨).

إلى أن يترجح عنده أحد الأمرين بمرجح، فشفاعة الإنسان عند المخلوق مثله: هي سعي في سبب منفصل عن المشفوع إليه يحركه به، ولو على كره منه، فمنزلة الشفاعة عنده منزلة من يأمر غيره، أو يكرهه على الفعل، إما بقوة وسلطان، وإما بما يرغبه، فلا بد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع إما رغبة ينتفع بها، وإما رهبة تندفع عنه بشفاعته، وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه، فإنه ما لم يخلق شفاعة الشافع، ويأذن له فيها، ويحبها منه، ويرضى عن الشافع، لم يمكن أن توجد. والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب إليه، ولا لرهبته منه، ولا لرغبته فيما لديه، وإنما يشفع عنده مجرد امتثال لأمره وطاعة له. فهو مأمور بالشفاعة، مطيع بامتثال الأمر. فإن أحدًا من الأنبياء والملائكة، وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعة ولا غيرها إلا بمشيئة اللَّه وخلقه. فالرب تعالى هو الذي يحرك الشفيع حتى يشفع، والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتى يقبل. والشافع عند المخلوق مستغن عنه في أكثر أموره، وهو في الحقيقة شريكه، ولو كان مملوكه وعبده. فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله منه من النفع بالنصر والمعاونة وغير ذلك. كما أن الشافع محتاج إليه فيما يناله منه: من رزق أو نصر أو غيره، فكل منهما محتاج إلى الآخر.

ومن وفقه اللَّه لفهم هذا الموضع ومعرفته، تبين له حقيقة التوحيد والشرك، والفرق بين ما أثبته اللَّه من الشفاعة وبين ما نفاه وأبطله، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[1]»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الشفاعة

* عن أبي هريرة ﷺ قال: «كنا مع النبي ﷺ في دعوة، فرفع إليه الذراع - وكانت تعجبه- فنهس منها نهسة وقال: **أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون بمن يجمع اللَّه الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر، ويسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس، فيقول بعض الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه، إلى ما**

(١) النور: الآية (٤٠).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٣٩-٣٤٤).

بلغكم؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس: أبوكم آدم: فيأتونه فيقولون يا آدم أنت أبو البشر، خلقك اللَّه بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول: ربي غضب غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك اللَّه عبدًا شكورًا، أما ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، نفسي نفسي، ائتوا النبي ﷺ، فيأتوني فأسجد تحت العرش، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسل تعطه، قال محمد بن عبيد: لا أحفظ سائره»[1].

* عن أبي هريرة أنه قال: قيل: يا رسول اللَّه، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول اللَّه ﷺ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا اللَّه، خالصًا من قلبه، أو نفسه**»[2].

* عن سعيد بن المسيب عن أبيه أنه أخبره: «أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول اللَّه ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبداللَّه بن أبي أمية بن المغيرة، قال رسول اللَّه ﷺ لأبي طالب: **يا عم! قل لا إله إلا اللَّه كلمة أشهد لك بها عند اللَّه**، فقال أبو جهل وعبداللَّه بن أبي أمية: يا أبا طالب! أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول اللَّه ﷺ يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ: **أما واللَّه لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**، فأنزل اللَّه تعالى فيه:

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٥-٤٣٦)، والبخاري (٦/ ٤٥٧-٤٥٨/ ٣٣٤٠)، ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٦/ ١٩٤) بأتم من هذا السياق، وكذلك أخرجه الترمذي (٤/ ٥٣٧-٥٣٩/ ٢٤٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٨-٣٧٩/ ١١٢٨٦)، وابن ماجه (٢/ ١٠٩٩/ ٣٣٠٧) مختصرًا.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٣)، والبخاري (١/ ٢٩٧/ ٩٩)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٢٦-٤٢٧/ ٥٨٤٢).

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾[(١)] الآية»[(٢)].

★ **فوائد الأحاديث:**

في هذه الأحاديث إثبات شفاعة النبي ﷺ لأهل الذنوب من أمته، وهذا أمر متفق عليه بين الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين الأربعة وغيرهم، كما فيها رد على من نفاها من المعتزلة وغيرهم، **يقول ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «تأمل قول النبي ﷺ لأبي هريرة وقد سأله: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: «**أسعد الناس بشفاعتي: من قال: لا إله إلا اللَّه، خالصًا من قلبه**» كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته: تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين: أن الشفاعة تنال باتخاذهم أولياءهم شفعاء، وعبادتهم وموالاتهم من دون اللَّه. فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة هو تجريد التوحيد، فحينئذ يأذن اللَّه للشافع أن يشفع.

ومن جهل المشرك: اعتقاده أن من اتخذه وليًا أو شفيعًا: أنه يشفع له، وينفعه عند اللَّه. كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم. ولم يعلموا أن اللَّه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله. كما قال تعالى في الفصل الأول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[(٣)] وفي الفصل الثاني: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[(٤)] وبقي فصل ثالث، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد، واتباع الرسول. وعن هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين. كما قال أبو العالية: «**كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟**».

فهذه ثلاثة أصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها: لا شفاعة إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده، واتباع رسوله. فاللَّه تعالى لا يغفر شرك العادلين به غيره، كما قال

---

(١) التوبة: الآية (١١٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣٣)، والبخاري (٣/ ٢٨٤/ ١٣٦٠) واللفظ له، ومسلم (١/ ٥٤/ ٢٤)، والنسائي (٤/ ٣٩٥-٣٩٦/ ٢٠٣٤).

(٣) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٤) الأنبياء: الآية (٢٨).

تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[١] وأصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة والموالاة والمحبة، كما في الآية الأخرى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[٢] وكما في آية (البقرة): ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[٣].

وترى المشرك يكذب حالُه وعملُه قولَه، فإنه يقول: لا نحبهم كحب اللَّه، ولا نسوّيهم باللَّه، ثم يغضب لهم ولحرماتهم -إذا انتهكت- أعظم مما يغضب لله، ويستبشر بذكرهم، ويتبشبش به. سيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم: من إغاثة اللهفات، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات، وأنهم الباب بين اللَّه وبين عباده. فإنك ترى المشرك يفرح ويُسرّ ويحنّ قلبه، وتهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاة، وإذا ذكرت له اللَّه وحده، وجرّدت توحيده لحقته وحشة، وضيق، وحرج ورماك بنقص الإلهية التي له، وربما عاداك.

رأينا واللَّه منهم هذا عيانًا، ورمونا بعداوتهم، وبغوا لنا الغوائل، واللَّه مخزيهم في الدنيا والآخرة. ولم تكن حجتهم إلا أن قالوا، كما قال إخوانهم: عاب آلهتنا، فقال هؤلاء: تنقصتم مشايخنا، وأبواب حوائجنا إلى اللَّه. وهكذا قال النصارى للنبي ﷺ لما قال لهم: «**إن المسيح عبد الله**» قالوا: تنقصت المسيح وعِبته. وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثانًا تعبد، ومساجد تقصد، وأمر بزيارتها على الوجه الذي أذن اللَّه فيه ورسوله، قالوا: تنقصت أصحابها.

فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم، حتى كأنهم قد تواصوا به، و﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[٤].

وقد قطع اللَّه تعالى كل الأسباب التي تعلّق بها المشركون جميعًا، قطعًا يعلم من تأمله وعرفه: أن من اتخذ من دون اللَّه وليًا أو شفيعًا، فهو ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾[٥] فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[٦].

---

(١) الأنعام: الآية (١).
(٢) الشعراء: الآيتان (٩٧و٩٨).
(٣) البقرة: الآية (١٦٥).
(٤) الكهف: الآية (١٧).
(٥) العنكبوت: الآية (٤١).
(٦) سبأ: الآيتان (٢٢و٢٣).

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع. والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه، فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا، متنقلًا من الأعلى إلى ما دونه، فنفى المِلك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه»[1].

وقال **شيخ الإسلام**: «وللناس في الشفاعة أنواع من الضلال، قد بسطت في غير هذا الموضع.

فكثير منهم يظن أن الشفاعة هي بسبب اتصال روح الشافع بروح المشفوع له، كما ذكر ذلك أبو حامد الغزالي وغيره، ويقولون: من كان أكثر صلاة على النبي ﷺ، كان أحق بالشفاعة من غيره، وكذلك من كان أحسن ظنًا بشخص، وأكثر تعظيمًا له، كان أحق بشفاعته.

وهذا غلط، بل هذا هو قول المشركين الذين قالوا: نتولى الملائكة ليشفعوا لنا، يظنون أن من أحب أحدًا من الملائكة والأنبياء والصالحين وتولاه، كان ذلك سببًا لشفاعته له. وليس الأمر كذلك؛ بل الشفاعة سببها توحيد اللَّه وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها له، فكل من كان أعظم إخلاصا كان أحق بالشفاعة، كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة؛ فإن الشفاعة من اللَّه مبدؤها، وعلى اللَّه تعالى تمامها، فلا يشفع أحد إلا بإذنه، وهو الذي يأذن للشافع، وهو الذي يقبل شفاعته في المشفوع له.

وإنما الشفاعة سبب من الأسباب التي بها يرحم اللَّه من يرحم من عباده، وأحق الناس برحمته هم أهل التوحيد والإخلاص له، فكل من كان أكمل في تحقيق إخلاص (لا إله إلا الله) علمًا وعقيدة، وعملًا وبراءة، وموالاة ومعاداة، كان أحق بالرحمة.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤١-٣٤٣).

والمذنبون -الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم فخَفَّت موازينهم فاستحقوا النار- من كان منهم من أهل (لا إله إلا الله) فإن النار تصيبه بذنوبه، ويميته اللَّه في النار إماتة، فتحرقه النار إلا موضع السجود، ثم يخرجه اللَّه من النار بالشفاعة، ويدخله الجنة، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة.

فبين أن مدار الأمر كله على تحقيق كلمة الإخلاص، وهي (لا إله إلا الله) لا على الشرك بالتعلق بالموتى وعبادتهم، كما ظنه الجاهليون»[1].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤١٣-٤١٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

⋆ غريب الآية:

اشمأزت: الاشمئزاز الانقباض والنفور من الشيء، ويقال: اشمأز فلان يشمئز اشمئزازا فهو مشمئز أي: أنف واستكبر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة للمشركين، وهو أنك إذا ذكرت اللَّه وحده تقول لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، ظهرت آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم، وذلك يدل على الجهل والحماقة؛ لأن ذكر اللَّه رأس السعادات وعنوان الخيرات، وأما ذكر الأصنام التي هي الجمادات الخسيسة، فهو رأس الجهالات والحماقات، فنفرتهم عن ذكر اللَّه وحده، واستبشارهم بذكر هذه الأصنام من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ والحمق الشديد، قال صاحب «**الكشاف**»[1] وقد يقابل الاستبشار والاشمئزاز، إذ كل واحد منهما غاية في بابه؛ لأن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سرورًا حتى يظهر أثر ذلك السرور في بشرة وجهه ويتهلل، والاشمئزاز أن يعظم غمه وغيظه فينقبض الروح إلى داخل القلب فيبقى في أديم الوجه أثر الغبرة والظلمة الأرضية»[2].

قال الألوسي: «وقد رأينا كثيرًا من الناس على نحو هذه الصفة التي وصف اللَّه تعالى بها المشركين، يهشون لذكر أموات يستغيثون بهم، ويطلبون منهم، ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم توافق هواهم واعتقادهم فيهم، ويعظمون من يحكي

---

(١) (٣/ ٤٠١).

(٢) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٨٧).

لهم ذلك، وينقبضون من ذكر اللَّه تعالى وحده، ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه ﷻ، وسرد ما يدل على مزيد عظمته وجلاله، وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة، وينسبونه إلى ما يكره، وقد قلت يومًا لرجل يستغيث في شدة ببعض الأموات، وينادي: يا فلان! أغثني، فقلت له: قل: يا الله! فقد قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1] فغضب، وبلغني أنه قال: فلان منكر على الأولياء، وسمعت عن بعضهم أنه قال: الولي أسرع إجابة من اللَّه ﷻ، وهذا من الكفر بمكان، نسأل اللَّه تعالى أن يعصمنا من الزيغ والطغيان»[2].

قلت: ما قرره هؤلاء العلماء من المقارنة بين ذكر اللَّه وذكر غيره؛ في التعظيم والذكر والاستغاثة والاستعانة هو أمر مشاهد في عباد القبور والأموات؛ فإنك تجد أحدهم يعظم هذا المقبور ويحيطه بهالة من الأكاذيب، وأنه وقف على فلان في النوم وقال له كذا، وأنه أغاث فلانًا المضطر في وقت كذا، وأن الاستغاثة به قد جربت في كثير من المواقف فنجعت، وتجد هذه الأكاذيب تروج على السذج والجهال، فيقبلون على هذه الصنمية فترسخ في أذهانهم رسوخًا لا يمكن أن ينحل إلا إذا شاء اللَّه، وهكذا تجدهم عند ذكر أهل السنة وشيوخها يشمئزون، ولا يحبون ذكرهم ولا الثناء عليهم، وإذا ذكر أهل البدع فإنهم يستبشرون، وهكذا إذا ذكرت مناهج الباطل فإنهم يفرحون لها، وإذا ذكرت مناهج السنة فإنهم يمتعضون؛ ولهذا كان هذا المنهج الباطل سببًا لحدوث الفتن والحروب في كل وقت وزمان، فإلى اللَّه المشتكى.

* * *

---

(١) البقرة: الآية (١٨٦).

(٢) روح المعاني (٢٤/ ١١).

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فاطر السموات: أي: خالقها ومنشئها ومبدعها من غير مثال احتذاه. وأصل الفطر الشق طولا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الألوسي: «أمر بالدعاء والالتجاء إلى اللَّه تعالى لما قاساه في أمر دعوتهم، وناله من شدة شكيمتهم في المكابرة والعناد، فإنه تعالى القادر على الأشياء بجملتها، والعالم بالأحوال برمتها، والمقصود من الأمر بذلك بيان حالهم ووعيدهم، وتسلية حبيبه الأكرم ﷺ وأن جده وسعيه معلوم مشكور عنده ﷻ، وتعليم العباد الالتجاء إلى اللَّه تعالى والدعاء بأسمائه العظمى، ولله تعالى در الربيع بن خيثم فإنه لما سئل عن قتل الحسين رضي اللَّه تعالى عنه تأوه وتلا هذه الآية، فإذا ذكر لك شيء مما جرى بين الصحابة قل: ﴿ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلخ فإنه من الآداب التي ينبغي أن تحفظ، وتقديم المسند إليه في: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ﴾ للحصر أي: أنت تحكم وحدك بين العباد فيما استمر اختلافهم فيه حكمًا يسلمه كل مكابر معاند، ويخضع له كل عات مارد، وهو العذاب الدنيوي أو الأخروي، والمقصود من الحكم بين العباد الحكم بينه عليه الصلاة والسلام وبين هؤلاء الكفرة»[1].

قال السعدي: «وإن من أعظم الاختلاف اختلاف الموحدين المخلصين القائلين: إن ما هم عليه هو الحق، وإن لهم الحسنى في الآخرة دون غيرهم، والمشركين الذين اتخذوا من دونك الأنداد والأوثان، وسووا فيك من لا يسوى شيئًا، وتنقصوك غاية التنقص، واستبشروا عند ذكر آلهتهم، واشمأزوا عند ذكرك،

---

(١) روح المعاني (٢٤/ ١١).

وزعموا مع هذا أنهم على الحق وغيرهم على الباطل، وأن لهم الحسنى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[(١)]، وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها بقوله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾[(٢)] إلى أن قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾[(٣)]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[(٤)] ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[(٥)] ففي هذه الآية بيان عموم خلقه تعالى وعموم علمه، وعموم حكمه بين عباده، فقدرته التي نشأت عنها المخلوقات، وعلمه المحيط بكل شيء، دال على حكمه بين عباده وبعثهم، وعلمه بأعمالهم، خيرها وشرها، وبمقادير جزائها، وخلقه دال على علمه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾[(٦)]»[(٧)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في دعاء النبي ﷺ في الليل وتعظيمه لربه وتحقيقه للتوحيد وسؤاله الهداية

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول اللَّه ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: **«اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»**[(٨)].

---

(١) الحج: الآية (١٧).
(٢) الحج: الآيات (١٩-٢١).
(٣) الحج: الآية (٢٣).
(٤) الأنعام: الآية (٨٢).
(٥) المائدة: الآية (٧٢).
(٦) الملك: الآية (١٤).
(٧) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٧٩-٤٨٠).
(٨) أخرجه: أحمد (٦/ ١٥٦)، ومسلم (١/ ٥٣٤/ ٧٧٠)، وأبو داود (١/ ٤٨٧/ ٧٦٧)، والترمذي (٥/ ٤٥١-٤٥٢/ ٣٤٢٠)، والنسائي (٣/ ٢٣٤-٢٣٥/ ١٦٢٤)، وابن ماجه (١/ ٤٣١/ ١٣٥٧).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «ذكر النبي ﷺ في هذا الدعاء العظيم القدر من أوصاف اللَّه وربوبيته ما يناسب المطلوب، فإنّ فَطْرَ السموات والأرض توسل إلى اللَّه بهذا الوصف في الهداية للفطرة التي ابتدأ الخلق عليها، فذكر كونه فاطر السموات والأرض، والمطلوب تعليم الحق، والتوفيق له، فذكر علمه سبحانه بالغيب والشهادة، وأن من هو بكل شيء عليم جدير أن يطلب منه عبده أن يعلمه، ويرشده ويهديه؛ وهو بمنزلة التوسل إلى الغني بغناه وسعة كرمه أن يعطي عبده شيئًا من ماله، والتوسل إلى الغفور بسعة مغفرته أن يغفر لعبده، وبعفوه أن يعفو عنه، وبرحمته أن يرحمه، ونظائر ذلك.

وذكر ربوبيته تعالى لجبريل وميكائيل وإسرافيل؛ وهذا -واللَّه أعلم- لأن المطلوب هدىً يحيا به القلب، وهؤلاء الثلاثة الأملاك قد جعل اللَّه تعالى على أيديهم أسباب حياة العباد:

أما جبريل؛ فهو صاحب الوحي الذي يوحيه اللَّه إلى الأنبياء، وهو سبب حياة الدنيا والآخرة.

وأما ميكائيل فهو الموكَّل بالقطر الذي به سبب حياة كل شيء.

وأما إسرافيل فهو الذي ينفخ في الصور[1] فيحيي اللَّه الموتى بنفخته؛ فإذا هم قيام لرب العالمين»[2].

وقال: «فمن هداه اللَّه سبحانه إلى الأخذ بالحق حيث كان، ومع من كان، ولو كان مع من يبغضه ويعاديه، ورد الباطل مع من كان، ولو كان مع من يحبه ويواليه، فهو ممن هدي لما اختلف فيه من الحق.

فهذا أعلم الناس وأهداهم سبيلًا وأقومهم قيلًا. وأهل هذا المسلك إذا اختلفوا فاختلافهم اختلاف رحمة وهدى يقر بعضهم بعضًا عليه، ويواليه ويناصره، وهو داخل في باب التعاون والتناظر الذي لا يستغني عنه الناس في أمور دينهم ودنياهم

---

(١) لم يرد -واللَّه أعلم- نص صحيح في أن إسرافيل هو الذي ينفخ في الصور، وإنما ورد أنه صاحب القرن دون تسميته بإسرافيل كما سيأتي تحقيقه في ثنايا هذه السورة.

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠٦-٣٠٧).

بالتناظر والتشاور، وإعمالهم الرأي، وإجالتهم الفكر في الأسباب الموصلة إلى درك الصواب، فيأتي كل منهم بما قدحه زناد فكره، وأدركه قوة بصيرته، فإذا قوبل بين الآراء المختلفة، والأقاويل المتباينة، وعرضت على الحاكم الذي لا يجور وهو كتاب اللَّه وسنة رسوله، وتجرد الناظر عن التعصب والحمية، واستفرغ وسعه، وقصد طاعة اللَّه ورسوله، فقل أن يخفى عليه الصواب من تلك الأقوال، وما هو أقرب إليه، والخطأ وما هو أقرب إليه، فإن الأقوال المختلفة لا تخرج عن الصواب وما هو أقرب إليه، والخطأ وما هو أقرب إليه، ومراتب القرب والبعد متفاوتة.

وهذا النوع من الاختلاف لا يوجب معاداة ولا افتراقًا في الكلمة ولا تبديدًا للشمل فإن الصحابة ﷺ اختلفوا في مسائل كثيرة من مسائل الفروع كالجد مع الإخوة، وعتق أم الولد بموت سيدها، ووقوع الطلاق الثلاث بكلمة واحدة، وفي الخلية والبرية والبتة وفي بعض مسائل الربا، وفي بعض نواقض الوضوء وموجبات الغسل، وبعض مسائل الفرائض وغيرها، فلم ينصب بعضهم لبعض عداوة، ولا قطع بينه وبينه عصمة؛ بل كانوا كل منهم يجتهد في نصر قوله بأقصى ما يقدر عليه، ثم يرجعون بعد المناظرة إلى الألفة والمحبة والمصافاة والموالاة من غير أن يضمر بعضهم لبعض ضغنًا، ولا ينطوي له على معتبة ولا ذم؛ بل يدلّ المستفتي عليه مع مخالفته له ويشهد له بأنه خير منه وأعلم منه.

فهذا الاختلاف أصحابه بين الأجرين والأجر، وكل منهم مطيع لله بحسب نيته واجتهاده وتحريه الحق.

وهنا نوع آخر من الاختلاف وهو وفاق في الحقيقة، وهو اختلاف في الاختيار والأولى، بعد الاتفاق على جواز الجميع كالاختلاف في أنواع الأذان والإقامة، وصفات التشهد والاستفتاح، وأنواع النسك الذي يحرم به قاصد الحج والعمرة، وأنواع صلاة الخوف، والأفضل من القنوت أو تركه، ومن الجهر بالبسملة أو إخفائها ونحو ذلك، فهذا وإن كان صورته صورة اختلاف فهو اتفاق في الحقيقة.

ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لا بد منه لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقوى إدراكهم، ولكن المذموم بغي بعضهم على بعض وعدوانه، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب، وكل من المختلفين قصده طاعة اللَّه ورسوله، لم يضر ذلك الاختلاف، فإنه أمر لا بد منه في النشأة الإنسانية،

ولكن إذا كان الأصل واحدًا، والغاية المطلوبة واحدة، والطريق المسلوكة واحدة، لم يكد يقع اختلاف، وإن وقع كان اختلافًا لا يضر كما تقدم من اختلاف الصحابة، فإن الأصل الذي بنوا عليه واحد هو كتاب اللَّه وسنة رسوله، والقصد واحد وهو طاعة اللَّه ورسوله، والطريق واحد وهو النظر في أدلة القرآن والسنة وتقديمها على كل قول ورأي وقياس، وذوق وسياسة»[١].

* عن أبي عبد الرحمن الحبلي قال: أخرج لنا عبد اللَّه بن عمرو قرطاسًا وقال: كان رسول اللَّه ﷺ يعلمنا يقول: «**اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شيء، وإله كل شيء، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمدًا عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك أن أقترف على نفسي إثمًا، أو أجرّه إلى مسلم**». قال أبو عبد الرحمن: كان رسول اللَّه ﷺ يعلمه عبد اللَّه بن عمرو أن يقول ذلك حين يريد أن ينام[٢].

* عن أبي هريرة أن أبا بكر الصديق ﷺ قال: يا رسول الله! مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: «**قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه**» قال: «**قلها إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك**»[٣].

⋆ غريب الحديثين:

وشركه: روي على وجهين، أظهرهما: بكسر الشين مع إسكان الراء، من الإشراك؛ أي: ما يدعو إليه ويوسوس به من الإشراك باللَّه تعالى.

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٥١٦-٥١٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧١). قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٢٢): «رواه أحمد وإسناده حسن»، قلت: وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف، ولكن يشهد له ما بعده.

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ١٠-١١)، والبخاري في الأدب المفرد (ح: ١٢٠٢)، وأبو داود (٥/ ٣١٠-٣١١/ ٥٠٦٧)، والترمذي (٥/ ٤٣٥-٤٣٦/ ٣٣٩٢) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٦/ ٩٨٣٩)، والحاكم (١/ ٥١٣) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان (الإحسان ٣/ ٢٤٢/ ٩٦٢).

والثاني: شَرَكه: بفتح الشين والراء: حبائله ومصايده، واحده: شَرَكة، بفتح الشين والراء وآخره هاء[١].

أقترف: يقال: قرف الذنب واقترفه إذا عمله. وقارف الذنب وغيره: إذا داناه ولاصقه. وقرفه بكذا: أي: أضافه إليه واتهمه به. وقارف امرأته: إذا جامعها[٢].

★ فوائد الحديثين:

في هذين الحديثين الإرشاد إلى تقديم الثناء والتوسل بين يدي المقصود طلبه بذكر أسماء اللَّه وأوصاف ربوبيته ﷻ لخلقه وألوهيته لهم، فإن ذلك أنجح ما طلب به العبد حوائجه.

قال ابن القيم: «وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء»[٣].

وقال: «ولهذا كان المستحب في الدعاء أن يبدأ الداعي بحمد اللَّه تعالى والثناء عليه بين يدي حاجته، ثم يسأل حاجته.. فالدعاء الذي يتقدمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته وافتقاره واعترافه، كان أبلغ في الإجابة وأفضل، فإنه يكون قد توسل إلى المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله، وعرَّض بل صرح بشدة حاجته وضرورته وفقره ومسكنته، فهذا المقتضي منه، وأوصاف المسؤول مقتضي من اللَّه، فاجتمع المقتضي من السائل والمقتضي من المسؤول في الدعاء، وكان أبلغ وألطف موقعًا وأتم معرفة وعبودية. وأنت ترى في الشاهد -ولله المثل الأعلى- أن الرجل إذا توسل إلى من يريد معروفه بكرمه وجوده وبره وذكر حاجته هو وفقره ومسكنته، كان أعطف لقلب المسؤول، وأقرب لقضاء حاجته»[٤].

* * *

(١) الأذكار للنووي (١/ ٢٢٥).

(٢) النهاية (٤/ ٤٥).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٢٣).

(٤) الوابل الصيب (ص: ١١٠-١١٢) بتصرف.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨)﴾

★ غريب الآية:

حاق بهم: أي: حل ونزل وأصابهم ما كانوا يستهزئون به، وقال ابن عرفة: حاق به الأمر أي: لزمه، ووجب عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي: ولو أن جميع ملك الأرض وضعفه معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ﴾ أي: الذي أوجبه اللّه لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يُتقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهبا، كما قال في الآية الأخرى. ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: وظهر لهم من اللّه من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن الذين ظلموا وهم الكفار، لو كان لهم في الآخرة ما في الأرض جميعًا ومثله معه، لفدوا أنفسهم به من سوء العذاب الذي عاينوه يوم القيامة، وبين هذا المعنى في مواضع أخر، وصرح

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٠٤).

فيها بأنه لا فداء البتة يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾[2] وقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾[4]. فقوله: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ أي: وإن تفتد كل فداء، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[5]، وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[6] الآية، والعدل الفداء، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[7].

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾. قوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي ظهر لهم سيئات ما كسبوا، أي جزاء سيئاتهم التي اكتسبوها في الدنيا، فالظاهر أنه أطلق السيئات هنا مرادًا بها جزاؤها. ونظيره من القرآن قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[8].

ونظير ذلك أيضًا إطلاق العقاب على جزاء العقاب في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾[9] الآية.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنهم يبدوا لهم يوم القيامة حقيقة ما كانوا يعملونه في الدنيا جاء موضحًا في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾[10]، وقوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾[11] وقوله تعالى:

---

(١) آل عمران: الآية (٩١).
(٢) المائدة: الآيتان (٣٦و٣٧).
(٣) الحديد: الآية (١٥).
(٤) الأنعام: الآية (٧٠).
(٥) البقرة: الآية (٤٨).
(٦) البقرة: الآية (١٢٣).
(٧) الرعد: الآية (١٨).
(٨) الشورى: الآية (٤٠).
(٩) الحج: الآية (٦٠).
(١٠) يونس: الآية (٣٠).
(١١) القيامة: الآية (١٣).

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ﴾[٢] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات»[٤].

قال القرطبي: «من أجل ما روي فيه ما رواه منصور عن مجاهد قال: عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات. وقاله السدي.

وقيل: عملوا أعمالا توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا، وقد كانوا ظنوا أنهم ينجون بالتوبة. ويجوز أن يكونوا توهموا أنه يغفر لهم من غير توبة فـ(بدا لهم من اللّه ما لم يكونوا يحتسبون) من دخول النار.

وقال سفيان الثوري في هذه الآية: ويل لأهل الرياء! ويل لأهل الرياء! هذه آيتهم وقصتهم.

وقال عكرمة بن عمار: جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعًا شديدًا، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آية من كتاب اللّه ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ فأنا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب»[٥].

* * *

(١) الانفطار: الآية (٥).
(٢) الكهف: الآية (٤٩).
(٣) الإسراء: الآيتان (١٣و١٤).
(٤) أضواء البيان (٦/ ٣٦٥-٣٦٦).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٢٦٥-٢٦٦).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن هذا حكاية طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة، وذلك لأنهم عند الوقوع في الضر الذي هو الفقر والمرض يفزعون إلى اللَّه تعالى، ويرون أن دفع ذلك لا يكون إلا منه، ثم إنه تعالى إذا خولهم النعمة، وهي إما السعة في المال أو العافية في النفس، زعم أنه إنما حصل ذلك بكسبه وبسبب جهده وجده، فإن كان مالًا قال إنما حصل بكسبي، وإن كان صحة قال إنما حصل ذلك بسبب العلاج الفلاني، وهذا تناقض عظيم؛ لأنه كان في حال العجز والحاجة أضاف الكل إلى اللَّه، وفي حال السلامة والصحة قطعه عن اللَّه، وأسنده إلى كسب نفسه، وهذا تناقض قبيح، فبين تعالى قبح طريقتهم فيما هم عليه عند الشدة والرخاء بلفظة وجيزة فصيحة، فقال: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ يعني النعمة التي خولها هذا الكافر فتنة؛ لأن عند حصولها يجب الشكر، وعند فواتها يجب الصبر، ومن هذا حاله يوصف بأنه فتنة من حيث يختبر عنده حال من أوتي النعمة، كما يقال فتنت الذهب بالنار، إذا عرضته على النار لتعرف خلاصته»[1].

وقوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ **يقول ابن عطية**: «يحتمل أن يريد على علم مني بوجه المكاسب والتجارات وغير ذلك، قاله قتادة. ففي هذا التأويل إعجاب بالنفس، وتعاط مفرط ونحو هذا، ويحتمل أن يريد على علم من اللَّه في، وشيء سبق لي، واستحقاق حزته عند اللَّه لا يضرني معه شيء، ففي هذا التأويل اغترار باللَّه تعالى وعجز، وتمن على الله»[2].

ومثل هذه الآية ما جاء في قصة قارون في قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ

---

(١) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٨٨-٢٨٩).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٥٣٦).

عِندِيٓۚ﴾[(١)] يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود أن قوله: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ إن أريد به علمه نفسه، كان المعنى أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة والمعرفة التي توصلت بها إلى ذلك وحصلته بها، وإن أريد به علم اللَّه، كان المعنى: أوتيته على ما علم اللَّه عندي من الخير والاستحقاق، وأني أهله، وذلك من كرامتي عليه، وقد يترجح هذا القول بقوله: ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ ولم يقل حصلته واكتسبته بعلمي ومعرفتي، فدل على اعترافه بأن غيره آتاه إياه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ أي محنة واختبار، والمعنى أنه لم يؤت هذا لكرامته علينا؛ بل أوتيه امتحانا منا وابتلاء واختبارا هل يشكر فيه أم يكفر.

وأيضًا: فهذا يوافق قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾[(٢)] فهو قد اعترف بأن ربه هو الذي آتاه ذلك، ولكن ظن أنه لكرامته عليه، فالآية على التقدير الأول تتضمن ذم من أضاف النعم إلى نفسه وعلمه وقوته، ولم يضفها إلى فضل اللَّه وإحسانه، وذلك محض الكفر بها، فإن رأس الشكر الاعتراف بالنعمة، وأنها من المنعم وحده، فإذا أضيفت إلى غيره كان جحدا لها، فإذا قال أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة التي حصلت بها ذلك، فقد أضافها إلى نفسه وأعجب بها كما أضافها إلى قدرته الذين قالوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾[(٣)] فهؤلاء اغتروا بقوتهم، وهذا اغتر بعلمه، فما أغنى عن هؤلاء قوتهم ولا عن هذا علمه.

وعلى التقدير الثاني يتضمن ذم من اعتقد أن إنعام اللَّه عليه لكونه أهلا ومستحقا لها، فقد جعل سبب النعمة ما قام به من الصفات التي يستحق بها على اللَّه أن ينعم عليه، وأن تلك النعمة جزاء له على إحسانه وخيره، فقد جعل سببها ما اتصف به هو، لا ما قام به ربه من الجود والإحسان والفضل والمنة، ولم يعلم أن ذلك ابتلاء واختبار له أيشكر أم يكفر، ليس ذلك جزاء على ما هو منه، ولو كان ذلك جزاء على عمله، أو خيرا قام به، فاللَّه سبحانه هو المنعم عليه بذلك السبب، فهو المنعم بالمسبب والجزاء، والكل محض منته، وفضله وجوده، وليس للعبد من نفسه مثقال

---

(١) القصص: الآية (٧٨).

(٢) الفجر: الآيتان (١٥و١٦).

(٣) فصلت: الآية (١٥).

ذرة من الخير، وعلى التقديرين، فهو لم يضف النعمة إلى الرب من كل وجه، وإن أضافها إليه من وجه دون وجه، وهو سبحانه وحده هو المنعم من جميع الوجوه على الحقيقة بالنعم وأسبابها، فأسبابها من نعمه على العبد، وإن حصلت بكسبه، فكسبه من نعمه، فكل نعمة فمن اللَّه وحده حتى الشكر، فإنه نعمة، وهي منه سبحانه، فلا يطيق أحد أن يشكره إلا بنعمته، وشكره نعمة منه عليه»[١].

* * *

(١) شفاء العليل (١/ ١١١-١١٢).

قوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قد قال هذه المقالة يعني قولهم لنعمة اللَّه التي خولهم وهم مشركون: أوتيناه على علم عندنا ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: الذي من قبل مشركي قريش من الأمم الخالية لرسلها، تكذيبا منهم لهم، واستهزاء بهم. وقوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يقول: فلم يغن عنهم حين أتاهم بأس اللَّه على تكذيبهم رسل اللَّه، واستهزائهم بهم ما كانوا يكسبون من الأعمال، وذلك عبادتهم الأوثان. يقول: لم تنفعهم خدمتهم إياها، ولم تشفع آلهتهم لهم عند اللَّه حينئذ، ولكنها أسلمتهم وتبرأت منهم. وقوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ﴾ يقول: فأصاب الذين قالوا هذه المقالة من الأمم الخالية، وبال سيئات ما كسبوا من الأعمال، فعوجلوا بالخزي في دار الدنيا، وذلك كقارون الذي قال حين وعظ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾[1] فخسف اللَّه به وبداره الأرض، ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾[2] يقول اللَّه -جل ثناؤه-: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ يقول لنبيه محمد ﷺ: والذين كفروا باللَّه يا محمد من قومك، وظلموا أنفسهم وقالوا هذه المقالة سيصيبهم أيضًا وبال ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ كما أصاب الذين من قبلهم بقيلهموها ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ يقول: وما يفوتون ربهم ولا يسبقونه هربا في الأرض من عذابه إذا نزل بهم، ولكنه يصيبهم ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[3] ففعل ذلك بهم، فأحلّ بهم خزيه في عاجل الدنيا فقتلهم بالسيف يوم بدر»[4].

---

(١) القصص: الآية (٧٨).
(٢) القصص: الآية (٨١).
(٣) الأحزاب: الآية (٦٢).
(٤) جامع البيان (٢٤/ ١٣).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أولم يعلم يا محمد هؤلاء الذين كشفنا عنهم ضرهم، فقالوا: إنما أوتيناه على علم منا، أن الشدة والرخاء والسعة والضيق والبلاء بيد اللَّه، دون كل من سواه، يبسط الرزق لمن يشاء فيوسعه عليه، ويقدر ذلك على من يشاء من عباده، فيضيقه، وأن ذلك من حجج اللَّه على عباده، ليعتبروا به ويتذكروا، ويعلموا أن الرغبة إليه والرهبة دون الآلهة والأنداد. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ يقول: إن في بسط اللَّه الرزق لمن يشاء، وتقتيره على من أراد لآيات، يعني: دلالات وعلامات ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: يصدقون بالحقّ، فيقرّون به إذا تبينوه وعلموا حقيقته أن الذي يفعل ذلك هو اللَّه دون كل ما سواه»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٤/ ١٣).

قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن اللَّه يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه»[1].

قال الشوكاني: المراد بالإسراف: الإفراط في المعاصي، والاستكثار منها، ومعنى: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾: لا تيأسوا من رحمة اللَّه من مغفرته. ثم لما نهاهم عن القنوط أخبرهم بما يدفع ذلك ويرفعه، ويجعل الرجاء مكان القنوط، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب اللَّه سبحانه لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أوّلًا أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك النهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى، وبفحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقي بعده شك، ولا يتخالج القلب عند سماعه ظنّ، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾، فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده، فهو في قوّة إن اللَّه يغفر كلّ ذنب كائنًا ما كان، إلا ما أخرجه النصّ القرآني، وهو: الشرك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[2]، ثم لم يكتف بما أخبر عباده من مغفرة كل ذنب؛ بل أكد ذلك بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ فيا لها من بشارة ترتاح لها

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٠٦).

(٢) النساء: الآية (٤٨).

قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم، الصادقين في رجائه، الخالعين لثياب القنوط، الرافضين لسوء الظنّ بمن لا يتعاظمه ذنب، ولا يبخل بمغفرته، ورحمته على عباده المتوجهين إليه في طلب العفو، الملتجئين به في مغفرة ذنوبهم، وما أحسن ما علل سبحانه به هذا الكلام قائلًا: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: كثير المغفرة، والرحمة عظيمهما بليغهما واسعهما، فمن أبى هذا التفضل العظيم، والعطاء الجسيم، وظنّ أن تقنيط عباد اللَّه، وتأييسهم من رحمته أولى بهم مما بشرهم اللَّه به، فقد ركب أعظم الشطط، وغلط أقبح الغلط، فإن التبشير وعدم التقنيط الذي جاءت به مواعيد اللَّه في كتابه العزيز، والمسلك الذي سلكه رسوله ﷺ كما صح عنه من قوله: «**يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا**»[(١)]»[(٢)].

قال الحافظ: «واستدل بعموم هذه الآية على غفران جميع الذنوب كبيرها وصغيرها سواء تعلقت بحق الآدميين أم لا؛ والمشهور عند أهل السنة أن الذنوب كلها تغفر بالتوبة، وأنها تغفر لمن شاء اللَّه ولو مات على غير توبة، لكن حقوق الآدميين إذا تاب صاحبها من العود إلى شيء من ذلك تنفعه التوبة من العود، وأما خصوص ما وقع منه فلا بد له من رده لصاحبه أو محاللته منه. نعم في سعة فضل اللَّه ما يمكن أن يعرض صاحب الحق عن حقه، ولا يعذب العاصي بذلك، ويرشد إليه عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[(٣)]. واللَّه أعلم»[(٤)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فأخبر تعالى أنه لا يغفر الشرك، وأخبر أنه يغفر ما دونه لمن يشاء، ولا يجوز أن يراد بذلك التائب كما يقوله من يقوله من المعتزلة؛ لأن الشرك يغفره اللَّه لمن تاب وما دون الشرك يغفره اللَّه أيضًا للتائب فلا تعلق بالمشيئة، ولهذا لما ذكر المغفرة للتائبين قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾. فهنا عمم المغفرة وأطلقها، فإن اللَّه يغفر للعبد أي ذنب تاب منه، فمن تاب من الشرك غفر اللَّه له، ومن تاب من الكبائر غفر اللَّه له، وأي ذنب تاب العبد منه غفر اللَّه له، ففي

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٩)، ومسلم (٣/ ١٣٥٨/ ١٧٣٢)، وأبو داود (٥/ ١٧٠/ ٤٨٣٥).
(٢) فتح القدير (٤/ ٦٥٨-٦٥٩). (٣) النساء: الآية (٤٨).
(٤) فتح الباري (٨/ ٧٠٧).

آية التوبة عمم وأطلق، وفي تلك الآية خصص وعلق، فخص الشرك بأنه لا يغفره، وعلق ما سواه على المشيئة، ومن الشرك التعطيل للخالق، وهذا يدل على فساد قول من يجزم بالمغفرة لكل مذنب، ونبه بالشرك على ما هو أعظم منه كتعطيل الخالق، أو يجوز ألا يعذب بذنب، فإنه لو كان كذلك لما ذكر أنه يغفر البعض دون البعض، ولو كان كل ظالم لنفسه مغفورًا له بلا توبة ولا حسنات ماحية لم يعلق ذلك بالمشيئة»[١].

وقال ابن القيم: «إن الذنوب تغفر بالتوبة النصوح، فلو بلغت ذنوب العبد عنان السماء وعدد الرمل والحصا، ثم تاب منها تاب اللَّه عليه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ . فهذا في حق التائب؛ فإن التوبة تجب ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والتوحيد يكفر الذنوب. .

فالمسلمون ذنوبهم ذنوب موحد إن قوي التوحيد على محو آثارها بالكلية، وإلا فما معهم من التوحيد يخرجهم من النار إذا عذبوا بذنوبهم.

وأما المشركون والكفار فإن شركهم وكفرهم يحبط حسناتهم، فلا يلقون ربهم بحسنة يرجون بها النجاة، ولا يغفر لهم شيء من ذنوبهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ وقال تعالى في حق الكفار والمشركين: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[٢]. .

فالذنوب تزول آثارها بالتوبة النصوح، والتوحيد الخالص، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة لها، وشفاعة الشافعين في الموحدين، وآخر ذلك إذا عذب بما يبقى عليه منها أخرجه توحيده من النار؛ وأما الشرك باللَّه والكفر بالرسول فإنه يحبط جميع الحسنات بحيث لا تبقى معه حسنة»[٣].

قال شيخ الإسلام: «والمقصود هنا أن قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ فيه نهي عن القنوط من رحمة اللَّه

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ١٨٤-١٨٥).

(٢) الفرقان: الآية (٢٣).

(٣) هداية الحيارى (ص: ٢٤٦-٢٤٧).

تعالى، وإن عظمت الذنوب وكثرت، فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة اللَّه وإن عظمت ذنوبه، ولا أن يقنط الناس من رحمة اللَّه. قال بعض السلف: إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة اللَّه، ولا يجريهم على معاصي اللَّه. والقنوط يكون بأن يعتقد أن اللَّه لا يغفر له»[١].

وقال أيضًا: «فإن قيل: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾، معه عموم على وجه الإخبار، فدل أن اللَّه يغفر كل ذنب؛ ومعلوم أنه لم يُرِدْ أن من أذنب من كافر وغيره فإنه يغفر له، ولا يعذبه لا في الدنيا ولا في الآخرة، فإن هذا خلاف المعلوم بالضرورة والتواتر والقرآن والإجماع، إذ كان اللَّه أهلك أممًا كثيرة بذنوبها، ومن هذه الأمة من عُذِّبَ بذنوبه، إما قدرًا، وإما شرعًا في الدنيا قبل الآخرة.

وقد قال تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾[٢]، وقال: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾[٣]، فهذا يقتضي أن هذه الآية ليست على ظاهرها؛ بل المراد أن اللَّه قد يغفر الذنوب جميعًا؛ أي: ذلك مما قد يفعله أو أنه يغفره لكل تائب، لكن يقال: فَلِمَ أتى بصيغة الجزم والإطلاق في موضع التردد والتقْييد؟ قيل: بل الآية على مقتضاها، فإن اللَّه أخبر أنه يغفر جميع الذنوب، ولم يذكر أنه يغفر لكل مذنب، بل قد ذكر في غير موضع أنه لا يغفر لمن مات كافرًا، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾[٤].

وقال في حق المنافقين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾[٥]، لكن هذا اللفظ العام في الذنوب هو مطلق في المذنبين، فالمذنب لم يتعرض له بنفي ولا إثبات، لكن يجوز أن يكون مغفورًا له، ويجوز ألا يكون مغفورًا له؛ إنْ أتى بما يوجب المغفرة غُفِر له، وإن أَصرَّ على ما يناقضها، لم يُغْفَر له.

وأما جنس الذنب فإن اللَّه يغفره في الجملة؛ الكفر والشرك وغيرهما، يغفرها لمن تاب منها، ليس في الوجود ذنب لا يغفره الرب تعالى، بل ما من ذنب إلا واللَّه

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٩-٢٠).

(٢) النساء: الآية (١٢٣).

(٣) الزلزلة: الآيتان (٧و٨).

(٤) محمد: الآية (٣٤).

(٥) المنافقون: الآية (٦).

تعالى يغفره في الجملة.

وهذه آية عظيمة جامعة من أعظم الآيات نفعًا، وفيها رد على طوائف؛ رد على من يقول: إن الداعي إلى البدعة لا تقبل توبته، ويحتجون بحديث إسرائيلي فيه: أنه قيل لذلك الداعية: «**فكيف بمن أضللتَ؟**»، وهذا يقوله طائفة ممن ينتسب إلى السنة والحديث، وليسوا من العلماء بذلك، كأبي علي الأهوازي وأمثاله ممن لا يميزون بين الأحاديث الصحيحة والموضوعة، وما يحتج به وما لا يحتج به، بل يَرْوون كل ما في الباب محتجين به.

وقد حكى هذا طائفة قولا في مذهب أحمد أو رواية عنه، وظاهر مذهبه مع مذاهب سائر أئمة المسلمين أنه تقبل توبته كما تقبل توبة الداعي إلى الكفر، وتوبة من فتن الناس عن دينهم.

وقد تاب قادة الأحزاب، مثل أبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسُهَيْل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وعِكْرِمة بن أبي جهل، وغيرهم بعد أن قُتِل على الكفر -بدعائهم- من قتل، وكانوا من أحسن الناس إسلامًا وغفر اللَّه لهم. قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[١]..

وأيضًا فالداعي إلى الكفر والبدعة، وإن كان أضل غيره، فذلك الغير يُعَاقَب على ذنبه؛ لكونه قَبِل من هذا واتبعه، وهذا عليه وزره ووزر من اتبعه إلى يوم القيامة، مع بقاء أوزار أولئك عليهم، فإذا تاب من ذنبه لم يبق عليه وزره ولا ما حمله هو لأجْل إضلالهم، وأما هم فسواء تاب أو لم يتب، حالهم واحد، ولكن توبته قبل هذا تحتاج إلى ضد ما كان عليه من الدعاء إلى الهدى، كما تاب كثير من الكفار وأهل البدع، وصاروا دعاة إلى الإسلام والسنة. وسحرة فرعون كانوا أئمة في الكفر ثم أسلموا وختم اللَّه لهم بخير»[٢].

قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ **يقول السعدي**: «أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان، لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، مالئة للموجود، تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم

(١) الأنفال: الآية (٣٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٢-٢٥).

على العباد والفواضل في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته، ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها؛ بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى اللَّه تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدًا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[٢] ونزل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾)[٣].

⋆ غريب الحديث:

كفارة: قد تكرر ذكر (الكفارة) في الحديث اسمًا وفعلًا مفردًا وجمعًا، وهي عبارة عن الفَعْلة والخصلة التي من شأنها أن تكفّر الخطيئة؛ أي: تسترها وتمحوها، وهي (فعّالة) للمبالغة، كقتّالة وضرّابة، وهي من الصفات الغالبة في باب الاسمية[٤].

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذين عُنُوا بهذه الآية، فقال بعضهم: عني بها قوم من أهل الشرك، قالوا لما دعوا إلى الإيمان بالله: كيف نؤمن وقد أشركنا وزنينا، وقتلنا النفس التي حرّم اللَّه، واللَّه يعد فاعل ذلك النار، فما ينفعنا مع ما قد سلف منا الإيمان، فنزلت هذه الآية.. وقال آخرون: بل عني بذلك أهل الإسلام، وقالوا: تأويل الكلام: إن اللَّه يغفر الذنوب جميعًا لمن يشاء، قالوا:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٨٤). (٢) الفرقان: الآية (٦٨).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٧٠٦/ ٤٨١٠) واللفظ له، ومسلم (١/ ١١٣/ ١٢٢)، وأبو داود (٤/ ٤٦٦-٤٦٧/ ٤٢٧٤)، والنسائي (٧/ ١٠٠/ ٤٠١٥).

(٤) النهاية (٤/ ١٨٩).

وهي كذلك في مصحف عبد اللَّه، وقالوا: إنما نزلت هذه الآية في قوم صدّهم المشركون عن الهجرة وفتنوهم، فأشفقوا أن لا يكون لهم توبة.. وقال آخرون: نزل ذلك في قوم كانوا يرون أهل الكبائر من أهل النار، فأعلمهم اللَّه بذلك أنه يغفر الذنوب جميعًا لمن يشاء.. وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عنى -تعالى ذكره- بذلك جميع من أسرف على نفسه من أهل الإيمان والشرك؛ لأن اللَّه عم بقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ جميع المسرفين، فلم يخصص به مسرفا دون مسرف»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الذنوب كلها تغفر بالتوبة وأنها تغفر لمن شاء الله ولو مات على غير توبة إلا حقوق الآدمي

* عن أبي هريرة ﷺ قال: خرج النبي ﷺ على رهط من أصحابه يضحكون ويتحدثون فقال: «**والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**». ثم انصرف وبكى القوم، فأوحى اللَّه ﷻ إليه: «**يا محمد لم تقنط عبادي؟**» فرجع النبي ﷺ وقال: «**أبشروا، وسددوا، وقاربوا**»[2].

⋆ غريب الحديث:

لو تعلمون: المراد بالعلم هنا: ما يتعلق بعظمة اللَّه وانتقامه ممن يعصيه، والأهوال التي تقع عند النزع والموت وفي القبر ويوم القيامة، ومناسبة كثرة البكاء وقلة الضحك في هذا المقام واضحة، والمراد به التخويف[3].

تقنط: من القنوط: وهو أشد اليأس من الشيء. يقال: **قَنِطَ يَقْنَطُ وقَنَطَ يَقْنِطُ** فهو قانط وقَنُوط. والقُنوط، بالضم: المصدر.

سددوا وقاربوا: أي: اطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة، وهو القصد في الأمر، والعدل فيه.

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ١٤-١٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٥٣)، والبخاري (١١/ ٣٨٧/ ٦٤٨٥)، والترمذي (٤/ ٤٨٢/ ٢٣١٣)، والبخاري في الأدب المفرد (ح: ٢٥٤) واللفظ له.

(٣) فتح الباري (١١/ ٣٨٨).

★ **فوائد الحديث:**

فيه دلالة على اختصاصه بمعارف بصرية وقلبية، وقد يطلع اللَّه عليها غيره من المخلصين من أمته لكن بطريق الإجمال، وأما تفاصيلها فاختص بها النبي ﷺ، فقد جمع اللَّه له بين علم اليقين وعين اليقين مع الخشية القلبية، واستحضار العظمة الإلهية على وجه لم يجتمع لغيره، ويشير إلى ذلك قوله في حديث عائشة ﵂: «**إن أتقاكم وأعلمكم باللَّه لأنا**»[(١)]»[(٢)].

قال العلامة المقدسي: «اعلم أن دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان: إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة. وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضرّ بنفسه وأهله. فأما العاصي المغرور المتمني على اللَّه مع الإعراض عن العبادة، فلا ينبغي أن يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف، فإن أدوية الرجاء تقلب في حقه سمومًا كما أن العسل شفاء لمن غلبت عليه البرودة، مضرّ لمن غلبت عليه الحرارة.

ولهذا يجب أن يكون واعظ الناس متلطّفًا ناظرًا إلى مواضع العلل، معالجًا كل علة بما يليق بها، وهذا الزمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء؛ بل المبالغة في التخويف، وإنما يذكر الواعظ فضيلة أسباب الرجاء إذا كان مقصوده استمالة القلوب إليه لإصلاح المرضى.

وقد قال علي ﵁: (إنما العالم الذي لا يُقنِط الناس من رحمة اللَّه، ولا يؤمنهم مكر الله).

إذا عرفت هذا، فاعلم أن من أسباب الرجاء ما هو من طريق الاعتبار، ومنها ما هو من طريق الأخبار:

أما الاعتبار، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه من أصناف النعم في كتاب الشكر، فإذا علم لطائف اللَّه تعالى بعباده في الدنيا، وعجائب حكمته التي راعاها في فطرة الإنسان، وأن لطفه الإلهي لم يقصر عن عباده في دقائق مصالحهم في الدنيا، ولم يرض أن تفوتهم الزيادات في الرتبة، فكيف يرضى سياقتهم إلى الهلاك المؤبد؟! فإن من لطف في الدنيا، يلطف في الآخرة؛ لأن مدبر الدارين واحد»[(٣)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣٤)، والبخاري (١/ ٩٥/ ٢٠)، ومسلم (٢/ ٧٨١/ ١١١٠)، وأبو داود (٢/ ٧٨٢-٧٨٣/ ٢٣٨٩)، والنسائي في الكبرى (٢/ ١٩٥/ ٣٠٢٥).

(٢) فتح الباري (١١/ ٦٤٧).

(٣) مختصر منهاج القاصدين للمقدسي (ص: ٣٨٠).

في الحديث دعوة إلى القصد في الطريق إلى اللَّه وتوخي السداد والاستقامة وعدم اليأس من رحمة اللَّه، وذلك نتيجة تراكم الذنوب.

وفيه إثبات صفة الغفران لله ﷻ على الوجه الذي يليق به ﷻ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل.

قال الجيلاني: «إن اقتصارك في موعظتك على ما قلت قد يحمل بعضهم على القنوط وهو أضر من الغفلة التي كانوا فيها، فينبغي أن تزيد في كلامك لهم ما يصرف عنهم القنوط. فرجع صلى اللَّه عليه وآله وسلم إليهم، وامتثل أمر ربه فصرفهم عن القنوط بقوله: «**أبشروا**»، وحملهم على الاعتدال بقوله: «**وسددوا**» والتسديد هو لزوم الاستقامة، «**وقاربوا**» تأكيد للتسديد»[1].

وقال المناوي: ««**لو تعلمون ما أعلم**» أي: من عظم انتقام اللَّه من أهل الجرائم وأهوال القيامة وأحوالها ما علمته لما ضحكتم أصلًا المعبر عنه بقوله: «**لضحكتم قليلًا**» إذ القليل بمعنى العديم على ما يقتضيه السياق؛ لأن (لو) حرف امتناع لامتناع. وقيل: معناه: لو تعلمون ما أعلم مما أعد في الجنة من النعيم وما حفت به من الحجب لسهل عليكم ما كلفتم به، ثم إذا تأملتم ما وراء ذلك من الأمور الخطرات وانكشاف المعظمات يوم العرض على فاطر السموات لاشتد خوفكم، «**ولبكيتم كثيرًا**» فالمعنى مع البكاء لامتناع علمكم بالذي أعلم وعدم الضحك لكونه من المسرة، وفيه من أنواع البديع مقابلة الضحك بالبكاء والقلة بالكثرة، ومطابقة كل منهما بالآخر، قيل: الخطاب إن كان للكفار فليس لهم ما يوجب ضحكًا أصلًا، أو للمؤمنين فعاقبتهم الجنة وإن دخلوا النار فما يوجب البكاء؟ فالجواب أن الخطاب للمؤمن، لكن خرج الخبر في مقام ترجيح الخوف على الرجاء»[2].

* عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**لولا أنكم تذنبون لخلق اللَّه خلقًا يذنبون يغفر لهم**»[3].

★ فوائد الحديث:

كان أبو أيوب رضي الله عنه قد كتم هذا الحديث عن الناس مخافة اتكالهم على سعة

---

(١) فضل اللَّه الصمد (١/ ٣٤٧). (٢) فيض القدير (٥/ ٣١٥-٣١٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٤١٤)، ومسلم (٤/ ٢١٠٥/ ٢٧٤٨)، والترمذي (٥/ ٥١٢/ ٣٥٣٩).

رحمة اللَّه تعالى، وانهماكهم في المعاصي، وإنما حدث به عند وفاته لئلا يكون كاتمًا للعلم، وربما لم يكن أحد يحفظه غيره فتعين عليه أداؤه[١].

قال القرطبي: «هذا خبر من اللَّه تعالى عن ممكن مقدور الوقوع مع علم اللَّه تعالى بأنه لا يقع، فحصل منه أن اللَّه تعالى يعلم حال المقدَّر الوقوع، كما يعلم حال المحقق الوقوع، ونحو من هذا قول اللَّه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾[٢]. وقد عبّر بعض العلماء عن هذا بأن قال: إن اللَّه تعالى يعلم ما كان وما يكون، وما لو كان كيف كان يكون، وحاصل هذا الحديث: أن اللَّه تعالى سبق في علمه أنه يخلق من يعصيه فيتوب، فيغفر له، فلو قُدِّر أن لا عاصي يظهر في الوجود لذهب اللَّه تعالى بالطائعين إلى جنته، ولخلق من يعصيه فيغفر له، حتى يوجِد ما سبق في علمه، ويُظهِر من مغفرته ما تضمّنه اسمه الغفّار، ففيه من الفوائد رجاء مغفرته، والطماعية في سعة رحمته»[٣].

قال الطيبي: «قال التوربشتي: لم يرد هذا الحديث مورد تسلية المنهمكين في الذنوب، وقلة احتفال منهم بمواقعة الذنوب، على ما يتوهم الغرة، فإن الأنبياء صلوات اللَّه عليهم إنما بعثوا ليردعوا الناس عن غشيان الذنوب؛ بل ورد مورد البيان لعفو اللَّه عن المذنبين، وحسن التجاوز عنهم، ليعظموا الرغبة في التوبة والاستغفار.

والمعنى المراد من الحديث هو أن اللَّه تعالى كما أحب أن يحسن إلى المحسن، أحب أن يتجاوز عن المسيء، وقد دل على ذلك غير واحد من أسمائه الغفار، الحليم، التواب، العفوّ لم يكن ليجعل العباد شأنًا واحدًا كالملائكة مجبولين على التنزه من الذنوب، بل يخلق فيهم من يكون بطبعه ميالًا إلى الهوى، متفتنًا بما يقتضيه، ثم يكلفه التوقي عنه، ويحذره عن مداناته، ويعرفه التوبة بعد الابتلاء، فإن وفى فأجره على اللَّه، وإن أخطأ الطريق فالتوبة بين يده، فأراد النبي ﷺ إنكم لو كنتم مجبولين على ما جبلت عليه الملائكة، لجاء اللَّه بقوم يتأتى منهم الذنب، فيتحلى عليهم بتلك الصفات على مقتضى الحكمة، فإن الغفار يستدعي مغفورًا، كما أن الرزاق يستدعي مرزوقًا.

---

(١) شرح مسلم (١٧/ ٥٤). (٢) الأنعام: الآية (٢٨).
(٣) المفهم (٧/ ٨١).

أقول: تصدير الحديث بالقسم رد لمن ينكر صدور الذنب عن العباد، ويعده نقصًا فيهم مطلقًا، وأن اللَّه تعالى لم يرد من العباد صدوره، كمالمعتزلة ومن سلك مسلكهم، فنظروا إلى ظاهره، وأنه مفسدة صرفة، ولم يقفوا على سره أنه مستجلب للتوبة والاستغفار الذي هو موقع محبة اللَّه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1]»[2].

وقال المناوي: «إن في إيقاع العباد في الذنوب أحيانًا من الفوائد التي منها اعتراف المذنب بذنبه، وتنكيس رأسه عن العجب، وحصول العفو من اللَّه، واللَّه يحب أن يعفو، فالقصد من زلل المؤمن ندمه، ومن تفريطه أسفه، ومن اعوجاجه تقويمه، ومن تأخيره تقديمه، والخبر مسوق لبيان أن اللَّه خلق ابن آدم وفيه شموخ وعلو وترفع، وهو ينظر إلى نفسه أبدًا، وخلق العبد المؤمن لنفسه، وأحب منه نظره له دون غيره؛ ليرجع إلى مراقبة خالقه بالخدمة له، وأقام له معقبات، وكفاه كل مؤنة، وعلم أنه مع ذلك كله ينظر لنفسه إعجابًا بها، فكتب عليه ما يصرفه إليه، فقدر له ما يوقظه به إذا شغل عنه، وهو الشر والمعاصي ليتوب ويرجع إلى اللَّه ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[3]»[4].

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانًا، ثم خرج يسأل، فأتى راهبًا فسأله فقال له: هل من توبة؟ قال: لا، فقتله. فجعل يسأل، فقال له رجل: ائت قرية كذا وكذا، فأدركه الموت فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى اللَّه إلى هذه أن تقربي، وأوحى اللَّه إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له»**[5].

★ غريب الحديث:

فأتى راهبًا: فيه إشعار بأن ذلك كان بعد رفع عيسى ﷺ؛ لأن الرهبانية إنما

---

(١) البقرة: الآية (٢٢٢).
(٢) شرح الطيبي (٦/ ١٨٤٠-١٨٤١).
(٣) النور: الآية (٣١).
(٤) فيض القدير (٥/ ٣٣١).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٠-٧٢)، والبخاري (٦/ ٦٣٥/ ٣٤٧٠) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١١٨/ ٢٧٦٦)، وابن ماجه (٢/ ٨٧٥/ ٢٦٢٢).

ابتدعها أتباعه كما نص عليه في القرآن[١].

فَنَاءَ: بنون ومد: أي: بَعُدَ، أو المعنى: مالَ أو نهض مع تثاقل، فعلى هذا فالمعنى: فمال إلى الأرض التي طلبها، هذا هو المعروف في هذا الحديث، وحكى بعضهم فيه: «**فنأى**» بغير مد قبل الهمز، وبإشباعها بوزن (سعى)، تقول: نأى ينأى نأيًا: بَعُدَ، وعلى هذا فالمعنى: فبعد عن الأرض التي خرج منها، ووقع في رواية هشام عن قتادة ما يشعر بأن قوله: «**فناء بصدره**» إدراج، فإنه قال في آخر الحديث: «**قال قتادة: قال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه الموت ناء بصدره**»[٢].

★فوائد الحديث:

قال الحافظ: «في الحديث مشروعية التوبة من جميع الكبائر حتى من قتل الأنفس، ويحمل على أن اللَّه تعالى إذا قبل توبة القاتل تكفل برضا خصمه»[٣].

قال الحافظ: «فيه أن المفتي قد يجيب بالخطأ، وغفل من زعم أنه إنما قتل الأخير على سبيل التأول لكونه أفتاه بغير علم؛ لأن السياق يقتضي أنه كان غير عالم بالحكم حتى استمر يستفتي، وأن الذي أفتاه استبعد أن تصح توبته بعد قتله لمن ذكر أنه قتله بغير حق، وأنه إنما قتله بناءً على العمل بفتواه؛ لأن ذلك اقتضى عنده أن لا نجاة له، فيئس من الرحمة، ثم تداركه اللَّه فندم على ما صنع فرجع يسأل، وفيه إشارة إلى قلة فطنة الراهب، لأنه كان من حقه التحرز ممن اجترأ على القتل حتى صار له عادة؛ لئلا يواجهه بخلاف مراده وأن يستعمل معه المعاريض مداراة عن نفسه»[٤].

وقال أيضًا: «فيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية، والتحول منها كلها والاشتغال بغيرها»[٥].

قال شيخ الإسلام: «ومن ذلك توبة قاتل النفس. والجمهور على أنها مقبولة، وقال ابن عباس: لا تقبل، وعن أحمد روايتان. وحديث قاتل التسعة والتسعين في الصحيحين دليل على قبول توبته. وهذه الآية تدل على ذلك يشير إلى قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾، وآية

---

(١) فتح الباري (٦/ ٦٤١).
(٢) المصدر السابق.
(٣) فتح الباري (٦/ ٦٤١).
(٤) فتح الباري (٦/ ٦٤١-٦٤٢).
(٥) فتح الباري (٦/ ٦٤٢).

النساء إنما فيها وعيد في القرآن كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾[(١)] ومع هذا فهذا إذا لم يتب. وكل وعيد في القرآن فهو مشروط بعدم التوبة باتفاق الناس، فبأي وجه يكون وعيد القاتل لاحقًا به وإن تاب؟ هذا في غاية الضعف؛ ولكن قد يقال: لا تقبل توبته بمعنى أنه لا يسقط حق المظلوم بالقتل، بل التوبة تسقط حق الله، والمقتول مطالبه بحقه، وهذا صحيح في جميع حقوق الآدميين حتى الدين..

فمن تمام التوبة أن يستكثر من الحسنات حتى يكون له ما يقابل حق المقتول، ولعل ابن عباس رأى أن القتل أعظم الذنوب بعد الكفر فلا يكون لصاحبه حسنات تقابل حق المقتول، فلا بد أن يبقى له سيئات يعذب بها، وهذا الذي قاله قد يقع من بعض الناس، فيبقى الكلام فيمن تاب وأخلص، وعجز عن حسنات تعادل حق المظلوم، هل يجعل عليه من سيئات المقتول ما يعذب به؟ وهذا موضع دقيق على مثله يحمل حديث ابن عباس؛ لكن هذا كله لا ينافي موجب الآية، وهو أن الله تعالى يغفر كل ذنب، الشرك والقتل والزنا، وغير ذلك من حيث الجملة، فهي عامة في الأفعال مطلقة في الأشخاص»[(٢)].

* عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أتاني آت من ربي فأخبرني -أو قال: بشرني- أنه من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»**، فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: **«وإن زنى وإن سرق»**[(٣)].

⋆ غريب الحديث:

أتاني آتٍ: سماه في «التوحيد» من طريق شعبة عن واصل: جبريل. وجزم بقوله: **«فبشرني»**.

من أمتي: أي: من أمة الإجابة، ويحتمل أن يكون أعم من ذلك؛ أي: أمة الدعوة، وهو متجه.

---

(١) النساء: الآية (١٠). (٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٥-٢٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٩)، والبخاري (٣/ ١٤٢-١٤٣/ ١٢٣٧)، ومسلم (١/ ٩٤/ ٩٤)، والترمذي (٥/ ٢٧/ ٢٦٤٤)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ١١١٧).

قلت وإن زنى وإن سرق: قال الحافظ: «قد يتبادر إلى الذهن أن القائل هو النبي ﷺ والمقول له الملك الذي بشره به، وليس كذلك، بل القائل هو أبو ذر، والمقول له هو النبي ﷺ»[١].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «في الحديث أن أصحاب الكبائر لا يخلدون في النار، وأن الكبائر لا تسلب اسم الإيمان، وأن غير الموحدين لا يدخلون الجنة. والحكمة في الاقتصار على الزنا والسرقة الإشارة إلى جنس حق اللَّه تعالى وحق العباد»[٢].

قال النووي: «وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرًا عليها دخل الجنة أو لا وإن كان صاحب كبيرة مات مصرًا عليها فهو تحت المشيئة، فإن عفى عنه دخل أولا، وإلا عذب ثم أخرج من النار وخلد في الجنة، واللَّه أعلم.

وأما قوله ﷺ: «**وإن زنى وإن سرق**» فهو حجة لمذهب أهل السنة أن أصحاب الكبائر لا يقطع لهم بالنار، وأنهم إن دخلوها أخرجوا منها وختم لهم بالخلود في الجنة»[٣].

قال الحافظ: «قال الزين بن المنير: حديث أبي ذر من أحاديث الرجاء التي أفضى الاتكال عليها ببعض الجهلة إلى الإقدام على الموبقات، وليس هو على ظاهره؛ فإن القواعد استقرت على أن حقوق الآدميين لا تسقط بمجرد الموت على الإيمان، ولكن لا يلزم من عدم سقوطها أن لا يتكفل اللَّه بها عمن يريد أن يدخله الجنة، ومن ثم رد ﷺ على أبي ذر استبعاده. ويحتمل أن يكون المراد بقوله: «**دخل الجنة**» أي: صار إليها إما ابتداءً من أول الحال، وإما بعد أن يقع ما يقع من العذاب، نسأل اللَّه العفو والعافية»[٤].

* * *

(١) فتح الباري (٣/ ١٤٣).
(٢) فتح الباري (٣/ ١٤٤).
(٣) شرح مسلم (٢/ ٨٤).
(٤) الفتح (٣/ ١٤٣-١٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «لما فَتَح لهم باب الرجاء أعقبه بالإرشاد إلى وسيلة المغفرة معطوفًا بالواو، وللدلالة على الجمع بين النهي عن القنوط من الرحمة وبين الإنابة، جمعًا يقتضي المبادرة، وهي أيضًا مقتضى صيغة الأمر.

والإنابة: التوبة، ولما فيها وَفي التوبة من معنى الرجوع عُدّي الفِعلان بحرف: إلى. والمعنى: توبوا إلى اللَّه مما كنتم فيه من الشرك بأن توحدوه. وعطف عليه الأمر بالإسلام، أي التصديق بالنبيء والقرآن واتباع شرائع الإسلام.

وفي قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ إيذان بوعيد قريب إن لم يُنيبوا ويسلموا، كما يلمح إليه فعل ﴿يَأْتِيَكُمُ﴾. والتعريف في ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ تعريف الجنس، وهو يقتضي أنهم إن لم يُنيبوا ويسلموا يأتهم العذاب. والعذاب منه ما يحصل في الدنيا إن شاءه اللَّه، وهذا خاص بالمشركين، وأما المسلمون فقد استعاذ لهم منه الرسول ﷺ حين نزل: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾[1] كما تقدم في سورة الأنعام، ومن العذاب عذاب الآخرة، وهو جزاء الكفر والكبائر.

وهذا الخطاب يأخذ كلُّ فريق منه بنصيب، فنصيب المشركين الإنابة إلى التوحيد واتّباعُ دين الإسلام، ونصيب المؤمنين منه التوبة إذا أسرفوا على أنفسهم، والإكثار من الحسنات، وأما الإسلام فحاصل لهم.

والنصر: الإعانة على الغلبة بحيث ينفلتُ المغلوب من غلبة قاهره كرهًا على

---

(١) الأنعام: الآية (٦٥).

القاهر، ولا نصير لأحد على الله»[١].

قال ابن القيم: «كثيرا ما يتكرر في القرآن ذكر الإنابة والأمر بها، كقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ وقوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٢] وقوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾[٣] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[٤] وقوله عن نبيه داود: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[٥] والإنابة: الرجوع إلى اللّه وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه، وهي تتضمن المحبة والخشية، فإن المنيب محب لمن أناب إليه خاضع له خاشع ذليل، والناس في إنابتهم على درجات متفاوتة، فمنهم المنيب إلى اللّه بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي، وهذه الإنابة مصدرها: مطالعة الوعيد، والحامل عليها: العلم والخشية والحذر، ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات، فهو ساع فيها بجهده، وقد حبب إليه فعل الطاعات وأنواع القربات، وهذه الإنابة مصدرها: الرجاء ومطالعة الوعد والثواب، ومحبة الكرامة من اللّه، وهؤلاء أبسط نفوسا من أهل القسم الأول، وأشرح صدورًا، وجانب الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم، وإلا فكل واحد من الفريقين منيب بالأمرين جميعًا، ولكن خوف هؤلاء اندرج في رجائهم فأنابوا بالعبادات، ورجاء الأولين اندرج تحت خوفهم فكانت إنابتهم بترك المخالفات، ومنهم المنيب إلى اللّه بالتضرع والدعاء والافتقار إليه والرغبة، وسؤال الحاجات كلها منه، ومصدر هذه الإنابة شهود الفضل والمنة، والغنى والكرم والقدرة، فأنزلوا به حوائجهم، وعلقوا به آمالهم، فإنابتهم إليه من هذه الجهة مع قيامهم بالأمر والنهي، ولكن إنابتهم الخاصة إنما هي من هذه الجهة، وأما الأعمال فلم يرزقوا فيها الإنابة الخاصة، وأملهم المنيب إليه عند الشدائد والضراء فقط إنابة اضطرار لا إنابة اختيار، كحال الذين قال اللّه في حقهم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٧] وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أرواحهم

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٤٣).
(٢) هود: الآية (٨٨).
(٣) ق: الآية (٨).
(٤) الرعد: الآية (٢٧).
(٥) ص: الآية (٢٤).
(٦) الإسراء: الآية (٦٧).
(٧) العنكبوت: الآية (٦٥).

ملتفتة عن اللَّه سبحانه، معرضة عنه إلى مألوف طبيعي نفساني قد حال بينها وبين إنابتها بذاتها إلى معبودها وإلهها الحق، فهي ملتفتة إلى غيره، ولها إليه إنابة ما بحسب إيمانها به ومعرفتها له.

فأعلى أنواع الإنابة إنابة الروح بجملتها إليه؛ لشدة المحبة الخالصة المغنية لهم عما سوى محبوبهم ومعبودهم، وحين أنابت إليه أرواحهم لم يتخلف منهم شيء عن الإنابة، فإن الأعضاء كلها رعيتها وملكها تبع للروح، فلما أنابت الروح بذاتها إليه إنابة محب صادق المحبة، ليس فيه عرق ولا مفصل إلا وفيه حب ساكن لمحبوبه، أنابت جميع القوى والجوارح، فأناب القلب أيضًا بالمحبة والتضرع والذل والانكسار، وأناب العقل بانفعاله لأوامر المحبوب ونواهيه، وتسليمه لها، وتحكيمه إياها دون غيرها، فلم يبق فيه منازعة شبهة معترضة دونها، وأنابت النفس بالانقياد والانخلاع عن العوائد النفسانية، والأخلاق الذميمة، والإرادات الفاسدة، وانقادت لأوامره خاضعة له، وداعية فيه مؤثرة إياها على غيره، فلم يبق فيها منازعة شهوة تعترضها دون الأمر، وخرجت عن تدبيرها واختيارها، تفويضا إلى مولاها، ورضى بقضائه، وتسليما لحكمه، وقد قيل: إن تدبير العبد لنفسه هو آخر الصفات المذمومة في النفس، وأناب الجسد في الأعمال والقيام بها فرضها وسننها على أكمل الوجوه، وأنابت كل جارحة وعضو إنابتها الخاصة، فلم يبق من هذا العبد المنيب عرق ولا مفصل إلا وله إنابة ورجوع إلى الحبيب الحق، الذي كل محبة سوى محبته عذاب على صاحبها، وإن كانت عذبة في مباديها، فإنها عذاب في عواقبها، فإنابة العبد ولو ساعة من عمره هذه الإنابة الخالصة أنفع له وأعظم ثمرة من إنابة سنين كثيرة من غيره، فأين إنابة هذا من إنابة من قبله، وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء؛ بل هذه روحه منيبة أبدا، وإن توارى عنه شهود إنابتها باشتغال، فهي كامنة فيها كمون النار في الزناد، وأما أصحاب الإنابات المتقدمة، فإن أناب أحدهم ساعة بالدعاء والذكر والابتهال فلنفسه وروحه وقلبه وعقله التفاتات عمن قد أناب إليه، فهو ينيب ببعضه ساعة، ثم يترك ذلك مقبلًا على دواعي نفسه وطبعه، واللَّه الموفق المعين لا رب غيره ولا إله سواه»[1].

(١) طريق الهجرتين (١٧٣-١٧٤).

قال السعدي: «وفي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ﴾ دليل على الإخلاص، وأنه من دون إخلاص لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئًا. ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ مجيئا لا يدفع ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ فكأنه قيل: ما هي الإنابة والإسلام؟ وما جزئياتهما وأعمالهما؟ فأجاب تعالى بقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة، كمحبة اللَّه، وخشيته، وخوفه، ورجائه، والنصح لعباده، ومحبة الخير لهم، وترك ما يضاد ذلك.

ومن الأعمال الظاهرة، كالصلاة، والزكاة والصيام، والحج، والصدقة، وأنواع الإحسان، ونحو ذلك، مما أمر اللَّه به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، فالمتبع لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها هو المنيب المسلم، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وكل هذا حثٌّ على المبادرة وانتهاز الفرصة»[(١)].

قال ابن عطية: «إن القرآن العزيز تضمن عقائد نيرة، وأوامر ونواهي منجية وعدات على الطاعات والبر وحدودًا على المعاصي ووعيدًا على بعضها، فالأحسن أن يسلك الإنسان طريق التفهم والتحصيل، وطريق الطاعة والانتهاء، والعفو في الأمور ونحو ذلك، فهو أحسن من أن يسلك طريق الغفلة والمعصية، فيجد أو يقع تحت الوعيد، فهذا المعنى هو المقصود بـ﴿أَحْسَنَ﴾، وليس المعنى أن بعض القرآن أحسن من بعض من حيث هو قرآن، وإنما هو أحسن كله بالإضافة إلى أفعال الإنسان وما يلقى من عواقبها. قال السدي: الأحسن هو ما أمر اللَّه تعالى به في كتابه»[(٢)].

والتحقيق أن شرع اللَّه تعالى فيه ما هو حسن وما هو أحسن وقد تقدم تقرير هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾[(٣)] بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٨٥).
(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٥٣٧).
(٣) الزمر: الآية (٢٣).

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

★ غريب الآية:

يا حسرتى: أي: يا حسرتي، فأبدلت الياء ألفا، والحسرة: شدة الندم.

فرطت: قصرت والتفريط: إهمال ما يجب التحرز فيه حتى يفوت، وقال ابن عرفة: معنى التفريط: أن تترك الشيء حتى يمضي وقت إمكانه، ثم يخرج إلى وقت يمتنع فيه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «ثم حذرهم ونصحهم أن لا يستمروا على غفلتهم حتى يأتيهم يوم يندمون فيه ولا تنفع الندامة، ولئلا تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله»[1].

قال الشوكاني: «قال البصريون: أي حذرًا أن تقول. وقال الكوفيون: لئلا تقول. قال المبرد: بادروا خوف أن تقول، أو حذرًا من أن تقول نفس. وقال الزجاج: خوف أن تصيروا إلى حال تقولون فيها: يا حسرتا على ما فرّطت في جنب اللَّه. قيل: والمراد بالنفس هنا: النفس الكافرة. وقيل: المراد به التكثير كما في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾[2].. ومعنى ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ على ما فرطت في طاعة اللَّه قاله الحسن. وقال الضحاك: على ما فرّطت في ذكر اللَّه، ويعني به: القرآن، والعمل به. وقال أبو عبيدة: ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في ثواب

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٨٥-٤٨٦).
(٢) التكوير: الآية (١٤).

اللَّه. وقال الفراء: الجنب القرب، والجوار؛ أي: في قرب اللَّه وجواره، ومنه قوله: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾[1]، والمعنى على هذا القول، على ما فرّطت في طلب جنب اللَّه؛ أي: في طلب جواره وقربه، وهو: الجنة، وبه قال ابن الأعرابي، وقال الزجاج: أي فرّطت في الطريق الذي هو: طريق اللَّه من توحيده والإقرار بنبوّة رسول اللَّه ﷺ، وعلى هذا فالجنب بمعنى: الجانب؛ أي: قصرت في الجانب الذي يؤدّي إلى رضا اللَّه، ومنه قول الشاعر: للناس جنب والأمير جنب أي: الناس من جانب، والأمير من جانب: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أي: وما كنت إلا من المستهزئين بدين اللَّه في الدنيا»[2].

وليس في الآية إثبات جنب لله ﷻ على أنه صفة من صفاته الخبرية، **يقول شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يعرف عالم مشهور عند المسلمين، ولا طائفة مشهورة من طوائف المسلمين، أثبتوا لله جنبًا، نظير جنب الإنسان، وهذا اللفظ جاء في القرآن في قوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾. فليس في مجرد الإضافة ما يستلزم أن يكون المضاف إلى اللَّه صفة له، بل قد يضاف إليه من الأعيان المخلوقة وصفاتها القائمة بها ما ليس بصفة له باتفاق الخلق، كقوله تعالى: (بيت الله)، و(ناقة الله)، و(عباد الله)، بل وكذلك (روح الله) عند سلف المسلمين وأئمتهم وجمهورهم.

ولكن إذا أضيف إليه ما هو صفة له وليس بصفة لغيره، مثل كلام اللَّه وعلم اللَّه، ويد اللَّه ونحو ذلك، كان صفة له.

وفي القرآن ما يبين أنه ليس المراد بالجنب ما هو نظير جنب الإنسان فإنه قال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾. والتفريط ليس في شيء من صفات اللَّه ﷻ. والإنسان إذا قال: فلان قد فرط في جنب فلان أو جانبه، لا يريد به أن التفريط وقع في شيء من نفس ذلك الشخص؛ بل يريد به أنه فرط في جهته وفي حقه.

فإذا كان هذا اللفظ إذا أضيف إلى المخلوق لا يكون ظاهره أن التفريط في نفس

---

(١) النساء: الآية (٣٦).

(٢) فتح القدير (٤/ ٦٦١).

جنب الإنسان المتصل بأضلاعه؛ بل ذلك التفريط لم يلاصقه، فكيف يظن أن ظاهره في حق اللَّه أن التفريط كان في ذاته.

وجنب الشيء وجانبه، قد يراد به منتهاه وحده، ويسمى جنب الإنسان جنبًا بهذا الاعتبار، قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[2]. وقال النبي ﷺ لعمران بن حصين: «**صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب**»[3].

وإذا قدر أن الإضافة هنا تتضمن صفة اللَّه، كان الكلام في هذا كالكلام في سائر ما يضاف إليه -تعالى- من الصفات، وفي التوراة من ذلك نظير ما في القرآن»[4].

وقوله: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يقول الشوكاني: «أي: لو أن اللَّه أرشدني إلى دينه لكنت ممن يتقي الشرك والمعاصي، وهذا من جملة ما يحتج به المشركون من الحجج الزائفة، ويتعللون به من العلل الباطلة كما في قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾[5]، فهي: كلمة حقّ يريدون بها باطلًا. ثم ذكر سبحانه مقالة أخرى مما قالوا، فقال: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المؤمنين باللَّه الموحدين له، المحسنين في أعمالهم»[6].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في شدة حسرة أهل التفريط يوم القيامة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن اللَّه هداني، فتكون عليه حسرة، وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن اللَّه هداني فيكون له شكر، ثم تلا رسول اللَّه ﷺ: ﴿أَن تَقُولَ**

---

(١) السجدة: الآية (١٦). (٢) آل عمران: الآية (١٩١).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٢٦)، والبخاري (٢/ ٧٤٧/ ١١١٧)، وأبو داود (١/ ٥٨٥/ ٩٥٢)، والترمذي (٢/ ٢٠٨/ ٣٧٢)، وابن ماجه (١/ ٣٨٦/ ١٢٢٣). (٤) الجواب الصحيح (٤/ ٤١٥-٤١٧).

(٥) الأنعام: الآية (١٤٨). (٦) فتح القدير (٤/ ٦٦١-٦٦٢).

نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾»[١].

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث بيان شدة حسرة الكفار يوم القيامة على ما فاتهم من الخيرات والنعيم المقيم، **يقول القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال إبراهيم التيمي: من الحسرات يوم القيامة أن يرى الرجل ماله الذي آتاه اللَّه في الدنيا يوم القيامة في ميزان غيره، قد ورثه وعمل فيه بالحق، كان له أجره وعلى الآخر وزره، ومن الحسرات أن يرى الرجل عبده الذي خوّله اللَّه إياه في الدنيا أقرب منزلة من اللَّه ﷻ، أو يرى رجلًا يعرفه أعمى في الدنيا قد أبصر يوم القيامة وعمي هو»[٢].

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون اللَّه تعالى فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان لهم حسرة**»[٣].

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا اللَّه تعالى فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرة، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم**»[٤].

★ **غريب الحديثين:**

تِرَة: أصل الترة: النقص، ومعناها هاهنا: التبعة، يقال: وَتَرْتُ الرجل تِرة، على وزن وَعَدتُه عِدَةً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[٥].

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٣٥-٤٣٦) واللفظ له، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وأخرجه: أحمد (٢/ ٥١٢)، والبخاري (١١/ ٥١٠/ ٦٥٦٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٧/ ١١٤٥٤)، دون ذكر: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ ...

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٧٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٨٩-٥١٥-٥٢٧)، وأبو داود (٥/ ١٨٠-١٨١/ ٤٨٥٥) واللفظ له، والنسائي الكبرى (٦/ ١٠٧/ ١٠٢٣٦)، والحاكم (١/ ٤٩١-٤٩٢) وصححه وسكت عنه الذهبي، وصححه ابن حبان (٢/ ٣٥١/ ٥٩٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٤٦)، والترمذي (٥/ ٤٣٠/ ٣٣٨٠) واللفظ له، وقال: «حسن صحيح»، والحاكم (١/ ٤٩٦) وقال: «صحيح الإسناد، وصالح ليس بالساقط» وتعقبه الذهبي بقوله: «صالح ضعيف» اهـ. وتابع صالحًا أبو صالح ذكوان السمان عند: أحمد (٢/ ٤٦٣)، والحاكم (١/ ٤٩٢)، وابن حبان (٢/ ٣٥٢-٣٥٣/ ٥٩١) وصححه.

(٥) محمد: الآية (٣٥).

★ **فوائد الحديثين:**

قال البنّا: «يتحسرون بسبب تفريطهم في ذكر اللَّه تعالى، وذلك لما يظهر لهم في موقف الحساب من أجور العامرين لمجالسهم بذكر اللَّه تعالى»[١].

وقال أيضًا: «أي: مثلها في النتن. وفي هذا التشبيه غاية التنفير عن ترك ذكر اللَّه تعالى في المجالس، وأنه ينبغي لكل أحد أن لا يجلس فيه ولا يلامس أهله، وأن يفر عنه كما يفر عن جيفة الحمار»[٢].

قال المباركفوري: «**«فإن شاء عذبهم»**: أي: بذنوبهم السابقة، وتقصيراتهم اللاحقة، **«وإن شاء غفر لهم»**: أي: فضلًا منه ورحمة، وفيه إيماء بأنهم إذا ذكروا اللَّه لم يعذبهم حتمًا؛ بل يغفر لهم جزمًا»[٣].

* * *

---

(١) الفتح الرباني (١٩/ ١٦٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) تحفة الأحوذي (٩/ ٢٢٨).

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مكذبا للقائل: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وللقائل: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: ما القول كما تقولون ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ﴾ أيها المتمني على اللَّه الرد إلى الدنيا لتكون فيها من المحسنين ﴿ءَايَٰتِى﴾ يقول: قد جاءتك حججي من بين رسول أرسلته إليك، وكتاب أنزلته يتلى عليك ما فيه من الوعد والوعيد والتذكير ﴿فَكَذَّبْتَ﴾ بآياتي: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ عن قبولها واتباعها ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يقول: وكنت ممن يعمل عمل الكافرين، ويستن بسنتهم، ويتبع منهاجهم.»[1].

قال الشوكاني: المراد بالآيات هي: الآيات التنزيلية، وهو القرآن، ومعنى التكذيب بها قوله: إنها ليست من عند اللَّه، وتكبر عن الإيمان بها، وكان مع ذلك التكذيب والاستكبار من الكافرين باللَّه. وجاء سبحانه بخطاب المذكر في قوله: جاءتك، وكذّبت، واستكبرت، وكنت، لأن النفس تطلق على المذكر والمؤنث. قال المبرد: تقول العرب نفس واحد؛ أي: إنسان واحد»[2].

قال ابن عاشور: «وقد قوبل كلام النفس بجواب يقابله على عدد قرائنه الثلاث، وذلك بقوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ وهذا مقابل ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ ثم بقوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ وهو مقابل قولها: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، أي ليستْ نهايةُ أمرك التفريط؛ بل أعظم منه وهو الاستكبار، ثم بقوله: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وهذا مقابل قولِ النفس: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فهذه قرائن ثلاث. والمعنى: أن اللَّه هداك في الدنيا بالإرشاد بآيات القرآن، فقابلتَ الإرشاد بالتكذيب والاستكبار والكفر بها فلا عذر لك»[3].

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٢١).
(٢) فتح القدير (٤/ ٦٦٢).
(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٤٨).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى عن خزي الذين كذبوا عليه، وأن وجوههم تكون يوم القيامة مسودة كأنها الليل البهيم، يعرفهم بذلك أهل الموقف، فالحق أبلج واضح كأنه الصبح، فكما سوَّدوا وجه الحق بالكذب، سود اللَّه وجوههم، جزاء من جنس عملهم. فلهم سواد الوجوه، ولهم العذاب الشديد في جهنم، ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق، وعن عبادة ربهم، المفترين عليه؟ بلى واللَّه، إن فيها لعقوبة وخزيا وسخطا، يبلغ من المتكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم بهما.

والكذب على اللَّه يشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك والولد والصاحبة، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء النبوة، أو القول في شرعه بما لم يقله، والإخبار بأنه قاله وشرعه»[1].

قال ابن القيم: «لا أظلم ممن كذب على اللَّه وعلى دينه، وإن أخبروا بما لم يعلموا، فقد كذبوا على اللَّه جهلًا، وإن أصابوا في الباطن وأخبروا بما لم يأذن اللَّه لهم في الإخبار به، وهم أسوأ حالًا من القاذف إذا رآى الفاحشة وحده فأخبر بها، فإنه كاذب عند اللَّه وإن أخبر بالواقع، فإن اللَّه لم يأذن له في الإخبار بها إلا إذا كان رابع أربعة، فإن كان كاذبا عند اللَّه في خبر مطابق لمخبره حيث لم يأذن له في الإخبار به، فكيف بمن أخبر عن حكمه بما لم يعلم أن اللَّه حكم به، ولم يأذن له في الإخبار به، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٨٧-٤٨٨).

حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[١] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾[٢]، والكذب على اللَّه يستلزم التكذيب بالحق والصدق، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾[٣]وهؤلاء الآيات وإن كانت في حق المشركين والكفار، فإنها متناولة لمن كذب على اللَّه في توحيده ودينه، وأسمائه وصفاته وأفعاله، ولا تتناول المخطئ المأجور إذا بذل جهده واستفرغ وسعه في إصابة حكم اللَّه وشرعه، فإن هذا هو الذي فرضه اللَّه عليه فلا يتناول المطيع لله إن أخطأ، وباللَّه التوفيق»[٤].

قال ابن عاشور: «ونسبة شيءٍ إلى اللَّه أمرها خطير، ولذلك قال أيمتنا: إن الحكم المقيس غيرَ المنصوص يجوز أن يقال هُو دينُ اللَّه ولا يجوز أن يقال: قاله اللَّه. ولذلك فجملة: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ واقعة موقع الاستئناف البياني لجملة: ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾ على كلا المعنيين؛ لأن السامع يسأل عن سبب اسوداد الوجوه، فيجاب بأن في جهنم مثواهم، يعني: لأن السواد يناسب ما سيلفح وجوههم من مسّ النار، فأجيب بطريقة الاستفهام التقريري بتنزيل السائل المقدَّرِ منزلة من يعلم أن مثواهم جهنم، فلا يليق به أن يغفل عن مناسبة سواد وجوههم، لمصيرهم إلى النار، فإن للدخائل عَنَاوِينَها. . والكِبر: إظهار المرء التعاظم على غيره؛ لأنه يُعدّ نفسه عظيمًا. وتعريف المتكبرين هنا للاستغراق، وأصحاب التكبر مراتب أقواها الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٥] وهو المعني بقول النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه حبة خردل من إيمان**»[٦] أخرجه مسلم عن ابن مسعود، ألا ترى أنه قابله

(١) النحل: الآيتان (١١٦و١١٧).
(٢) الزمر: الآية (٣٢).
(٣) هود: الآية (١٨).
(٤) إعلام الموقعين (٤/ ١٧٣-١٧٤).
(٥) غافر: الآية (٦٠).
(٦) أخرجه: أحمد (١/ ٤١٢)، ومسلم (١/ ٩٣/ ٩١[١٤٨])، وأبو داود (٤/ ٣٥١/ ٤٠٩١)، والترمذي (٤/ ٣١٧/ ١٩٩٨)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٧/ ٤١٧٣).

بالإيمان، ودونه مراتب كثيرة متفاوتة في قوة حقيقة ماهية التكبر، وكلها مذمومة. وما يدور على الألسن: أن الكبر على أهل الكبر عبادة، فليس بصحيح.

وفي وصفهم بالمتكبرين إيماء إلى أن عقابهم بتسويد وجوههم كان مناسبًا لكبريائهم؛ لأن المتكبر إذا كان سيّئ الوجه انكسرت كبرياؤه؛ لأن الكبرياء تضعف بمقدار شعور صاحبها بمعرفة الناس نقائصه»[١].

قال ابن القيم مبينا خطورة الكبر وعظم جرمه: «أول ذنب عصى اللَّه به أبوا الثقلين: الكبر والحرص، فكان الكبر ذنب إبليس اللعين فآل أمره إلى ما آل إليه، وذنب آدم على نبينا وعليه السلام: كان من الحرص والشهوة، فكان عاقبته التوبة والهداية، وذنب إبليس حمله على الاحتجاج بالقدر والإصرار، وذنب آدم أوجب له إضافته إلى نفسه، والاعتراف به والاستغفار، فأهل الكبر والإصرار والاحتجاج بالأقدار: مع شيخهم وقائدهم إلى النار إبليس، وأهل الشهوة: المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب الذين لا يحتجون عليها بالقدر: مع أبيهم آدم في الجنة، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: التكبر شر من الشرك، فإن المتكبر يتكبر عن عبادة اللَّه تعالى، والمشرك يعبد اللَّه وغيره.

قلت: ولذلك جعل اللَّه النار دار المتكبرين، كما قال اللَّه تعالى في سورة (الزمر) وفي سورة (غافر): ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٢] وفي سورة (النحل): ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾[٣] وفي سورة (تنزيل): ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٤].

وأخبر أن أهل الكبر والتجبر هم الذين طبع اللَّه على قلوبهم فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[٥] وقال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» رواه مسلم، «الكبر بطر الحق وغمص الناس»[٦] وقال

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٥٠-٥١).
(٢) الزمر: الآية (٧٢)، وغافر: الآية (٧٦).
(٣) النحل: الآية (٢٩).
(٤) الزمر: الآية (٦٠).
(٥) غافر: الآية (٣٥).
(٦) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٩و٤١٢)، ومسلم (١/ ٩٣/ ٩١)، وأبو داود (٤/ ٣٥١/ ٤٠٩١)، والترمذي (٤/ ٣١٧-٣١٨/ ١٩٩٩)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٧/ ٤١٧٣).

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[١] تنبيها على أنه لا يغفر الكبر الذي هو أعظم من الشرك وكما أن من تواضع لله رفعه فكذلك من تكبر عن الانقياد للحق أذله اللَّه ووضعه وصغره وحقره ومن تكبر عن الانقياد للحق ولو جاءه على يد صغير أو من يبغضه أو يعاديه فإنما تكبره على اللَّه فإن اللَّه هو الحق وكلامه حق ودينه حق والحق صفته ومنه وله فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله فإنما رد على اللَّه وتكبر عليه واللَّه أعلم»[٢].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: مما سبق لهم من السعادة والفوز عند اللَّه، ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فَزَع، مزحزحون عن كل شر، مُؤمِلون كل خير»[٣].

قال السعدي: «فنفى عنهم مباشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان. فلهم الأمن التام، يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام، فحينئذ يأمنون من كل سوء ومكروه، وتجري عليهم نضرة النعيم، ويقولون: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤﴾[٤]»[٥].

قال ابن عاشور: «وهذا إيذان بأن التقوى تنافي التكبر؛ لأن التقوى كمال الخُلق الشرعي، وتقتضي اجتناب المنهيات وامتثال الأمر في الظاهر والباطن، والكبر مرض قلبي باطني، فإذا كان الكبر ملقيًا صاحبه في النار بحكم قوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فضد أولئك ناجون منها وهم المتقون، إذ التقوى تحول دون أسباب العقاب التي منها الكبر، فالذين اتقوا هم أهل التقوى وهي معروفة»[٦].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قبح الكبر ومآل أهله

* عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان. فيساقون إلى**

---

(١) النساء: الآية (٤٨).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٣٢-٣٣٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١١١).

(٤) فاطر: الآية (٣٤).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٨٨).

(٦) التحرير والتنوير (٢٤/ ٥٢).

سجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال»[١].

★ غريب الحديث:

الذّرّ: قال ابن الأثير: «الذّرّ: النمل الأحمر الصغير، واحدتها: ذَرّة. وسئل ثعلب عنها فقال: إن مائة نملة وزن حبة، والذرة واحدة منها. وقيل: الذرة ليس لها وزن، ويراد بها ما يُرى في شعاع الشمس الداخل في النافذة»[٢].

بَوْلَس: هو بفتح الباء وسكون الواو وفتح اللام: سجن في جهنم.

تعلوهم: قال القاري: «أي: تحيط بهم وتغشاهم كالماء يعلو الغريق»[٣].

نار الأنيار: قال ابن الأثير: «لم أجده مشروحا، ولكن هكذا يُروى، فإن صحت الرواية فيحتمل أن يكون معناه: نار النيران، فجمع النار على أنيار، وأصلها: أنوار؛ لأنها من الواو، كما جاء في ريح وعيد: أرياح وأعياد، من الواو. والله أعلم. اهـ[٤].

وقال القاري: قال شارح: أنيار: جمع نار، كأنياب جمع ناب، وفيه أن الناب يائي والنار واوي، ولذا لم يذكر أنيار في القاموس لكونه شاذًا، والقياس الأنوار إلا أنه قيل الأنيار لئلا يشتبه بجمع النور. قال القاضي: وإضافة النار إليها للمبالغة، كأن هذه النار لفرط إحراقها وشدة حرها تفعل بسائر النيران ما تفعل النار بغيرها. أقول: أو لأنها أصل نيران العالم لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾[٥] ولقوله ﷺ: «**ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم**»[٦] على ما ذكره البيضاوي»[٧].

من عصارة أهل النار: قال القاري: أي: صديدهم المنتن المحمى غاية

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٩)، والترمذي (٤/ ٥٦٥/ ٢٤٩٢) واللفظ له، وقال: «حسن صحيح»، والبخاري في الأدب المفرد (ح ٥٥٧)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٣٩٨/ ١١٨٢٧).

(٢) النهاية (٢/ ١٥٧).

(٣) مرقاة المفاتيح (٨/ ٨٣٥).

(٤) النهاية (٥/ ١٢٦).

(٥) الأعلى: الآية (١٢).

(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٣)، والبخاري (٦/ ٤٠٧/ ٣٢٦٥) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٨٤/ ٢٨٤٣)، والترمذي (٤/ ٦١١/ ٢٥٨٩).

(٧) المرقاة (٨/ ٨٣٥).

الحرارة المعبر عنه بحميم. «**طينة الخبال**»: تفسير لما قبله، وهو بفتح الخاء بمعنى الفساد. قال شارح: هو اسم عصارة أهل النار، وهو ما يسيل منهم من الصديد والقيح والدم»[١].

★فوائد الحديث:

في هذا الحديث بيان سوء حال المتكبرين يوم القيامة، حيث إن اللَّه ﷻ قد عاقبهم بجنس فعالهم السيئة، وهذه سنة اللَّه في خلقه **يقول شيخ الإسلام**: «الثواب والعقاب يكونان من جنس العمل في قدر اللَّه وفي شرعه، فإن هذا من العدل الذي تقوم به السماء والأرض كما قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾[٢]، وقال النبي ﷺ: «**من لا يرحم لا يرحم**»[٣]، ولهذا قطع يد السارق، وشرع قطع يد المحارب ورجله، وشرع القصاص في الدماء والأموال والأبشار، فإذا أمكن أن تكون العقوبة من جنس المعصية كان ذلك هو المشروع بحسب الإمكان، ولهذا قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾[٤] وفي الحديث: «**يحشر الجبارون والمتكبرون على صور الذر يطأهم الناس بأرجلهم**» فإنهم لما أذلّوا عباد اللَّه أذلّهم اللَّه لعباده، كما أن من تواضع لله رفعه اللَّه، فجعل العباد متواضعين له، واللَّه تعالى يُصلحنا وسائر إخواننا المؤمنين، ويوفقنا لما يحبه ويرضاه من القول والعمل وسائر إخواننا المؤمنين، والحمد لله رب العالمين»[٥].

* * *

---

(١) المرقاة (٨/ ٨٣٥-٨٣٦).

(٢) النساء: الآية (١٤٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٦٢)، والبخاري (١٠/ ٥٣٧/ ٦٠١٣)، ومسلم (٤/ ١٨٠٩/ ٢٣١٩)، والترمذي (٤/ ٢٨٤/ ١٩٢٢).

(٤) الإسراء: الآية (٧٢).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١١٩-١٢٠) بتصرف.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى عن عظمته وكماله الموجب لخسران من كفر به فقال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ هذه العبارة وما أشبهها، مما هو كثير في القرآن، تدل على أن جميع الأشياء -غير اللَّه وأسمائه وصفاته- مخلوقة، ففيها رد على كل من قال بقدم بعض المخلوقات، كالفلاسفة القائلين بقدم الأرض والسموات، وكالقائلين بقدم الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل، المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه.

وليس كلام اللَّه من الأشياء المخلوقة؛ لأن الكلام صفة المتكلم، واللَّه تعالى بأسمائه وصفاته أول ليس قبله شيء، فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها أن كلام اللَّه مخلوق من أعظم الجهل، فإنه تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته، ولم يحدث صفة من صفاته، ولم يكن معطلا عنها بوقت من الأوقات، والشاهد من هذا، أن اللَّه تعالى أخبر عن نفسه الكريمة أنه خالق لجميع العالم العلوي والسفلي، وأنه على كل شيء وكيل، والوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيلا عليه، وإحاطته بتفاصيله، ومن قدرة تامة على ما هو وكيل عليه، ليتمكن من التصرف فيه، ومن حفظ لما هو وكيل عليه، ومن حكمة ومعرفة بوجوه التصرفات، ليصرفها ويدبرها على ما هو الأليق، فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله، فما نقص من ذلك فهو نقص فيها.

ومن المعلوم المتقرر، أن اللَّه تعالى منزه عن كل نقص في أي صفة من صفاته، فإخباره بأنه على كل شيء وكيل، يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته على تدبيرها، وكمال تدبيره، وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها»[1].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٨٩-٤٩٠).

وفي هذه الآية إثبات عموم خلق اللَّه لجميع الأشياء، ومما يدخل في هذا المعنى أفعال العباد، فالآية على هذا رادة على المعتزلة، وفي بيان وجه هذا الرد عليهم يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذكره للآية: «وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شيء من العالم، أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته، وليس مخصوصا بذاته وصفاته، فإنه الخالق بذاته وصفاته، وما سواه مخلوق له، واللفظ قد فرق بين الخالق والمخلوق، وصفاته سبحانه داخلة في مسمى اسمه، فإن اللَّه سبحانه اسم للإله الموصوف بكل صفة كمال، المنزه عن كل صفة نقص ومثال، والعالم قسمان: أعيان وأفعال، وهو الخالق لأعيانه وما يصدر عنها من الأفعال، كما أنه العالم بتفاصيل ذلك فلا يخرج شيء منه عن علمه ولا عن قدرته ولا عن خلقه ومشيئته.

قالت القدرية: نحن نقول: إن اللَّه خالق أفعال العباد لا على أنه محدثها ومخترعها، لكن على معنى أنه مقدرها، فإن الخلق التقدير كما قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1] وقال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت   وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

أي: لأنت تمضي ما قدرته وتنفذه بعزمك وقدرتك، وبعض القوم يقدر ثم لا قوة له ولا عزيمة على إنفاذ ما قدره وتنفيذه وإمضائه، فاللَّه تعالى مقدر أفعال العباد، وهم الذين أوجدوها وأحدثوها.

قال أهل السنة قدماؤكم ينكرون تقدير اللَّه سبحانه لأعمال العباد البتة، فلا يمكنهم أن يجيبوا بذلك، ومن اعترف منكم بالتقدير فهو تقدير لا يرجع إلى تأثير، وإنما هو مجرد العلم بها والخبر عنها، ليس التقدير عندكم جعلها على قدر كذا وكذا، فإن هذا عندكم غير مقدور للرب ولا مصنوع له، وإنما هو صنع العبد وإحداثه، فرجع التقدير إلى مجرد العلم والخبر، وهذا لا يسمى خلقا في لغة أمة من الأمم، ولو كان هذا خلقا لكان من علم شيئًا وعلم أسماءه وصفاته، وأخبر عنه بذلك خالقا له، فالتقدير الذي أثبتموه إن كان متضمنا للتأثير في إيجاد الفعل فهو خلاف مذهبكم، وإن لم يتضمن تأثيرا في إيجاده فهو راجع إلى محض العلم والخبر.

قالت القدرية: قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من العام المراد به الخاص، ولا سيما

---

(١) المؤمنون: الآية (١٤).

فإنكم قلتم: إن القرآن لم يدخل في هذا العموم وهو من أعظم الأشياء وأجلها، فخصصنا منه أفعال العباد بالأدلة الدالة على كونها فعلهم ومنعهم.

قالت أهل السنة: القرآن كلام اللَّه سبحانه، وكلامه صفة من صفاته، وصفات الخالق وذاته لم تدخل في المخلوق، فإن الخالق غير المخلوق، فليس ههنا تخصيصا البتة؛ بل اللَّه سبحانه بذاته وصفاته الخالق، وكل ما عداه مخلوق، وذلك عموم لا تخصيص فيه بوجه، إذ ليس إلا الخالق والمخلوق، واللَّه وحده الخالق وما سواه كله مخلوق، وأما الأدلة الدالة على أن أفعال العباد صنع لهم، وإنما أفعالهم القائمة بهم وأنهم هم الذين فعلوها فكلها حق نقول بموجبها، ولكن لا ينبغي أن تكون أفعالا لهم ومخلوقة مفعولة لله، فإن الفعل غير المفعول، ولا نقول إنها فعل لله، والعبد مضطر مجبور عليها، ولا نقول إنها فعل للعبد واللَّه غير قادر عليها، ولا جاعل للعبد فاعلا لها، ولا نقول إنها مخلوقة بين مخلوقين مستقلين بالإيجاد والتأثير، وهذه الأقوال كلها باطلة.

قالت القدرية قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني: مما لا يقدر عليه غيره، وأما أفعال العباد التي يقدر عليها العباد فإضافتها إليهم ينفي إضافتها إليه، وإلا لزم وقوع مفعولين بين فاعلين وهو محال.

قالت أهل السنة: إضافتها إليهم فعلا وكسبا لا ينفي إضافتها إليه سبحانه خلقا ومشيئة، فهو سبحانه الذي شاءها وخلقها، وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة، فلو لم تكن مضافة إلى مشيئته وقدرته وخلقه لاستحال وقوعها منهم، إذ العباد أعجز وأضعف من أن يفعلوا ما لم يشأه اللَّه، ولم يقدر عليه، ولا خلقه»[1].

قال الرازي: «وأما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فالمعنى أن الأشياء كلها موكولة إليه، فهو القائم بحفظها وتدبيرها من غير منازع ولا مشارك، وهذا أيضًا يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى؛ لأن فعل العبد لو وقع بتخليق العبد لكان ذلك الفعل غير موكول إلى اللَّه تعالى، فلم يكن اللَّه تعالى وكيلًا عليه، وذلك ينافي عموم الآية»[2].

---

(١) شفاء العليل (١/ ١٥٤-١٥٥).

(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١٢).

وهذا المقطع من الآية يحتمل معنيين متقاربين أو متلازمين يقول **الألوسي**: «أي: يتولى التصرف فيه كيفما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة، وكأن ذكر ذلك للدلالة على أنه سبحانه الغني المطلق، وأن المنافع والمضار راجعة إلى العباد، ولك أن تقول: المعنى: أنه تعالى حفيظ على كل شيء كما قيل نحو ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾[1] وحاصله أنه تعالى يتولى حفظ كل شيء بعد خلقه فيكون إشارة إلى احتياج الأشياء إليه تعالى في بقائها، كما أنها محتاجة إليه ﷻ في وجودها»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الأشياء كلها مخلوقة لله ﷻ

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا: خلقَ اللَّه الخلق فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل: آمنت بالله**»[3].

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «وجه هذا الحديث ومعناه ترك الفكر فيما يخطر بالقلب من وساوس الشيطان، والامتناع من قبولها، واللياذ باللَّه ﷻ في الاستعاذة منه، والكف عن مجاراته في حديث النفس، ومطاولته في المحاجة والمناظرة، والاشتغال بالجواب على ما يوجبه حق النظر في مثله لو كان المناظر عليه بشرًا وكلّمك في مثل هذا، فإن من ناظرك وتسمع كلامه ويسمع كلامك لا يمكنه أن يغالطك فيما يجري بينكما من الكلام حتى يخرجك من حدود النظر، ورسوم الجدل، فإن باب السؤال والجواب وما يجري فيه من المعارضة والمناقضة معلوم، والأمر فيه محدود محصور، فإذا رعيت الطريقة وأصبت الحجة وألزمتها خصمك انقطع وكُفيت مؤنته وحسمتَ شغبه، وباب ما يوسوس به الشيطان إليك غير محدود

---

(١) الزمر: الآية (٤١).

(٢) روح المعاني (٢٤/ ٢١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣١)، والبخاري (٦/ ٤١٣-٤١٤/ ٣٢٧٦)، ومسلم (١/ ١١٩/ ١٣٤) واللفظ له، وأبو داود (٥/ ٩١-٩٢/ ٤٧٢١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٧٠/ ١٠٤٩٨).

ولا متناه؛ لأنك كلما ألزمته حجة، وأفسدتَ عليه مذهبًا، راغ إلى نوع آخر من الوساوس التي أُعطي التسليط فيها عليك، فهو لا يزال يوسوس إليك حتى يؤدّيك إلى الحيرة والضلال، فأرشد النبي ﷺ عندما يعرض من وساوسه في هذا الباب إلى الاستعاذة باللّه من شره والانتهاء عن مراجعته وحسم الباب فيه بالإعراض عنه والاستعاذة بذكر اللّه والاشتغال بأمر سواه، وهذا حيلة بليغة وجُنة حصينة يخزى معها الشيطان ويبطل كيده.

قلت: ولو أراد النبي ﷺ محاجته وأذِن في مراجعته والرد عليه فيما يوسوس به لكان الأمر على كل موحد سهلًا في قمعه وإبطال قوله، فإنه لو يقدر أن يكون السائل عن مثل هذا واحدًا من البشر لكان جوابه والنقض عليه متلقّىً من سؤاله، ومأخوذًا من فحوى كلامه، وذلك أنه إذا قال: هذا اللّه خلق فمن الذي خلقه؟ فقد نقض بأول كلامه آخره وأعطى أن لا شيء يُتوهم دخوله تحت هذه الصفة من ملَك وإنس وجن ونوع من أنواع الحيوان الذي يتأتى منه فعل؛ لأن جميع ذلك واقع تحت اسم الخلق، فلم يبق للمطالبة مع هذا محل ولا قرار.

وأيضًا فلو جاز على هذه المقدمة أن يُسأل فيقال من خلق الله؟ فيسمى شيء من الأشياء يدّعى له هذا الوصف للزم أن يقال: ومن خلق ذلك الشيء ولامتدّ القول في ذلك إلى ما لا يتناهى، والقول بما لا يتناهى فاسد، فسقط السؤال من أصله.

ومما كان يقال لمن يسأل هذا السؤال إنما وجب إثبات الصانع الواحد لما اقتضاه أوصاف الخليقة من سمات الحدث الموجبة أن لها محدثًا، فقلنا: إن لها خالقًا ونحن لم نشاهد الخالق عيانًا فنحيط بكنهه، ولم يصح لنا أن نصفه بصفات الخلق فيلزمنا أن نقول: إن له خالقًا، والشاهد لا يدل على مثله في الغائب، إنما يدل على فعله، والاستدلال إنما يكون بين المختلفات دون المشتبهات، والمفعول لا يشبه فاعلَه في شيء من نعوته الخاصة، فبطل ما يقع في الوهم من اقتضاء خالق لمن خلق الخلق كله، ولو صرنا نكثر في هذا لدخلنا في نوع ما نهينا عنه فيما رويناه من الحديث، فإذن ننتهي إلى ما أُمرنا به من حسم هذا الباب في مناظرة الشيطان لجهله وقلة إنصافه وكثرة شغبه»[1].

(١) أعلام الحديث (٣/ ١٥١١-١٥١٣).

قال الحافظ معلقًا عليه: «والذي نحا إليه من التفرقة بين وسوسة الشيطان ومخاطبة البشر فيه نظر؛ لأنه ثبت في مسلم من طريق هشام بن عروة عن أبيه في هذا الحديث: «**لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلق اللَّه الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل: آمنت بالله**» فسوى في الكف عن الخوض في ذلك بين كل سائل عن ذلك من بشر وغيره»[١].

فدل الحديث على أن الكون من خلق اللَّه ﷻ وتدبيره، وأن ما سوى اللَّه مربوب مقهور. ولله ﷻ في خلقه حكم عظيمة، **قال الشيخ السعدي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما الحكمة في خلقه فإنه خلق الخلق بالحق ومشتملًا على الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به؛ بل أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات وكل عضو من أعضاء الحيوانات خلقته وهيئته، فلا يرى أحد في خلقه خللًا ولا نقصًا ولا فطورًا، فلو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا مثل خلق الرحمن أو ما يقارب ما أودعه في الكائنات من الحسن والانتظام والإتقان لم يقدروا، وأنى لهم القدرة على شيء من ذلك، وحسب العقلاء الحكماء منهم أن يعرفوا كثيرًا من حكمه، ويطلعوا على بعض ما فيها من الحسن والإتقان. وهذا أمر معلوم قطعًا بما يعلم من عظمته وكمال صفاته وتتبع حكمه في الخلق والأمر، وقد تحدى عباده وأمرهم أن ينظروا ويكرروا النظر والتأمل هل يجدون في خلقه خللًا أو نقصًا، وأنه لا بد أن ترجع الأبصار كليلة عاجزة عن الانتقاد على شيء من مخلوقاته»[٢].

والملاحدة يضيفون هذا الإتقان والإحكام في خلق اللَّه ﷻ إلى الطبيعة، وفي الرد عليهم **يقول شيخ الإسلام ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن الذي تولى ذلك كله وأحكمه ودبّره وقدّره فأحسن تقديره؟

وكأني بك أيها المسكين تقول: هذا كله من فعل الطبيعة، وفي الطبيعة عجائب وأسرار! فلو أراد اللَّه أن يهديك لسألت نفسك بنفسك، وقلت: أخبريني عن هذه الطبيعة، أهي ذات قائمة بنفسها لها علم وقدرة على هذه الأفعال العجيبة؟، أم

---

(١) فتح الباري (٦/ ٤٢٠).

(٢) الحق الواضح المبين (ص: ٥١-٥٢).

ليست كذلك؟؛ بل عرض وصفة قائمة بالمطبوع تابعة له محمولة فيه؟

فإن قالت لك: بل من ذات قائمة بنفسها، لها العلم التام والقدرة والإرادة والحكمة.

فقل لها: هذا هو الخالق البارئ المصور، فلم تسميه طبيعة!؟

ويا لله عن ذكر الطبائع يرغب فيها! فهلاّ سميته بما سمى به نفسه على ألسن رسله، ودخلت في جملة العقلاء والسعداء، فإن هذا الذي وصفت به الطبيعة صفته تعالى.

وإن قالت لك: بل الطبيعة عرض محمول مفتقر إلى حامل، وهذا كله فعلها بغير علم منها ولا إرادة ولا قدرة ولا شعور أصلًا، وقد شوهد من آثارها ما شوهد!

فقل لها: هذا ما لا يصدقه ذو عقل سليم، كيف تصدر هذه الأفعال العجيبة والحكم الدقيقة التي تعجز عقول العقلاء عن معرفتها وعن القدرة عليها ممن لا فعل له ولا قدرة ولا حكمة ولا شعور؟ وهل التصديق بمثل هذا إلا دخول في سلك المجانين والمبرسمين[1].

ثم قل لها بعد: ولو ثبت لك ما ادعيت فمعلوم أن مثل هذه الصفة ليست بخالقة لنفسها ولا مبدعة لذاتها، فمن ربها ومبدعها وخالقها؟ ومن طبّعها وجعلها تفعل ذلك؟ فهي إذًا من أدل الدلائل على بارئها وفاطرها وكمال قدرته وعلمه وحكمته، فلم يُجدِ بك تعطيلك ربَّ العالم وجحدك لصفاته وأفعاله إلا مخالفتك العقل والفطرة.

ولو حاكمناك إلى الطبيعة لأريناك أنك خارج عن موجبها، فلا أنت مع موجب العقل، ولا الفطرة، ولا الطبيعة، ولا الإنسانية أصلًا، وكفى بذلك جهلًا وضلالًا، فإن رجعت إلى العقل وقلت: لا يوجد حكمة إلا من حكيم قادر عليم، ولا تدبير متقَن إلا من صانع قادر مختار مدبِّر عليم بما يريد قادر عليه، لا يعجزه ولا يصعب عليه ولا يؤوده.

قيل لك: فإذًا أقررت -ويحك- بالخلاّق العظيم الذي لا إله غيره ولا رب

---

(١) من البرسام وهو التهاب في الغشاء المحيط بالرئة، يريد: من به مرض.

سواه، فدع تسميته طبيعة أو عقلًا فعّالًا أو موجبًا بذاته، وقل: هذا هو اللَّه الخالق البارئ المصور رب العالمين، وقيوم السموات والأرضين، ورب المشارق والمغارب الذي أحسن كل شيء خلقه، وأتقن ما صنع، فما لك جحدت أسماءه وصفاته بل وذاته؟.

وأضفتَ صنعه إلى غيره وخلقه إلى سواه، مع أنك مضطر إلى الإقرار به وإضافة الإبداع والخلق والربوبية والتدبير إليه ولا بد، فالحمد لله رب العالمين.

على أنك لو تأملت قولك: (طبيعة) ومعنى هذه اللفظة، لدلك على الخالق البارئ لفظها كما دل العقول عليه معناها؛ لأن (طبيعة) فعيلة بمعنى مفعولة؛ أي: مطبوعة، ولا يحتمل غير هذا ألبتة؛ لأنها على بناء الغرائز، التي ركبت في الجسم، ووضعت فيه كالسجية والغريزة والبحيرة والسليقة، والطبيعة فهي التي طبع عليها الحيوان وطبعت فيه.

ومعلوم أن طبيعة من غير طابع لها محال، فقد دل لفظ الطبيعة على الباري تعالى كما دل معناها عليه.

والمسلمون يقولون: إن الطبيعة خلق من خلق اللَّه مسخَّر مربوب، وهي سنته في خليقته التي أجراها عليه، ثم إنه يتصرف فيها كيف شاء وكما شاء، فيسلبها تأثيرها إذا أراد، ويقلب تأثيرها إلى ضده إذا شاء؛ ليُري عباده أنه وحده البارئ المصور، وأنه يخلق ما يشاء كما يشاء ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[1]، وإن الطبيعة التي انتهى نظر الخفافيش إليها إنما هي خلق من خلقه بمنزلة سائر مخلوقاته.

فكيف يحسن بمن له حظ من إنسانية أو عقل أن ينسى من طبعها وخلقها ويحيل الصنع والإبداع عليها؟!

ولم يزل اللَّه سبحانه يسلبها قوتها ويحيلها ويقلبها إلى ضد ما جُعلت له حتى يُري عباده أنها خلقه وصنعه مسخرة بأمره؛ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]»[3].

---

(١) يس: الآية (٨٢).

(٢) الأعراف: الآية (٥٤).

(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٩٦-١٩٨).

واعتقاد أن اللَّه وحده هو الخالق لهذه الخلائق هو أحد الأعمدة التي يبنى عليها التوحيد، وهو من مقتضيات ربوبية اللَّه ﷻ.

قال الشيخ العثيمين معرفًا توحيد الربوبية: «هو إفراد اللَّه ﷻ بالخلق والملك والتدبير. فإفراده بالخلق أن يعتقد الإنسان أنه لا خالق إلا اللَّه، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾[1] فهذه الجملة تفيد الحصر لتقديم الخبر إذ إن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر. وقال تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2]، فهذه الآية تفيد اختصاص الخلق بالله؛ لأن الاستفهام فيها مشرب معنى التحدي. أما ما ورد من إثبات خلق غير اللَّه كقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[3] فهذا ليس خلقًا حقيقة، وليس إيجادًا بعد عدم؛ بل هو تحويل للشيء من حال إلى حال، وأيضًا ليس شاملًا، بل محصور بما يتمكن الإنسان منه، ومحصور بدائرة ضيقة، فلا ينافي قولنا: إفراد اللَّه بالخلق»[4].

* * *

(١) الأعراف: الآية (٥٤).

(٢) فاطر: الآية (٣).

(٣) المؤمنون: الآية (١٤).

(٤) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٩/ ١-٢).

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

* **غريب الآية:**

مقاليد السموات: قيل معناه: خزائنها، وقيل: مفاتيحها، والمعنى: أن له التصرف فيها، وأنه قادر عليها حافظ لها، بمنزلة من بيده مفاتيح الخزائن، والقلائد جمع مقلاد أو مقليد، ويقال أيضًا: إقليد وأقاليد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: مفاتيحها علما وتدبيرا، فـ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾[1] فلما بين من عظمته ما يقتضي أن تمتلئ القلوب له إجلالا وإكراما، ذكر حال من عكس القضية فلم يقدره حق قدره، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على الحق اليقين، والصراط المستقيم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ خسروا ما به تصلح القلوب من التأله والإخلاص لله، وما به تصلح الألسن من إشغالها بذكر اللَّه، وما تصلح به الجوارح من طاعة اللَّه، وتعوضوا عن ذلك كل مفسد للقلوب والأبدان، وخسروا جنات النعيم، وتعوضوا عنها بالعذاب الأليم»[2].

قال الألوسي: «المعنى لا يملك التصرف في خزائن السموات والأرض؛ أي: ما أودع فيها واستعدت له من المنافع غيره تعالى، ولا يخفى أن هذه الجملة إن كانت في موضع التعليل لقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ على المعنى الأول. فالأظهر الاقتصار في معناها على أنه لا يملك أمر السموات والأرض، أي العالم

(١) فاطر: الآية (٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٩٠-٤٩١).

بأسره غيره تعالى، فكأنه قيل: هو تعالى يتولى التصرف في كل شيء؛ لأنه لا يملك أمره سواه ﷻ، وإن كانت تعليلًا له على المعنى الثاني، فالأظهر الاقتصار في معناها على أنه لا قدرة عليها لأحد غيره -جل شأنه-، فكأنه قيل: هو تعالى يتولى حفظ كل شيء؛ لأنه لا قدرة لأحد عليه غيره تعالى، وجوز أن تكون عطف بيان للجملة قبلها، وأن تكون صفة ﴿وَكِيلٌ﴾ وأن تكون خبرًا بعد خبر، فأمعن النظر في ذلك وتدبر»[1].

قال الرازي: «صريح الآية يقتضي أنه لا خاسر إلا كافر، وهذا يدل على أن كل من لم يكن كافرا فإنه لابد وأن يحصل له حظ من رحمة الله»[2].

* * *

(١) روح المعاني (٢٤/ ٢١).

(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «قُلْ يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين، الذين دعوك إلى عبادة غير الله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي: هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا فلو كان لكم علم بأن اللَّه تعالى الكامل من جميع الوجوه، مسدي جميع النعم، هو المستحق للعبادة، دون من كان ناقصا من كل وجه، لا ينفع ولا يضر، لم تأمروني بذلك، وذلك لأن الشرك باللَّه محبط للأعمال، مفسد للأحوال»[1].

قال الرازي: «إنما وصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقًا للأشياء، وبكونه مالكًا لمقاليد السموات والأرض، وظاهر كون هذه الأصنام جمادات أنها لا تضر ولا تنفع، ومن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة، واشتغل بعبادة هذه الأجسام الخسيسة، فقد بلغ في الجهل مبلغًا لا مزيد عليه، فلهذا السبب قال: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ ولا شك أن وصفهم بهذا الأمر لائق بهذا الموضع»[2].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية **يقول الشوكاني**: «هذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل؛ لأن اللَّه سبحانه قد عصمهم عن الشرك، ووجه إيراده على هذا الوجه، التحذير والإنذار للعباد من الشرك؛ لأنه إذا كان موجبًا لإحباط عمل الأنبياء على الفرض والتقدير فهو محبط لعمل غيرهم من أممهم بطريق الأولى. قيل: وفي الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: ولقد أوحي إليك لئن

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٩١).
(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١٣).

أشركت، وأوحي إلى الذين من قبلك كذلك. قال مقاتل: أي أوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد، والتوحيد محذوف، قال: لئن أشركت يا محمد؛ ليحبطن عملك، وهو خطاب للنبي ﷺ خاصة. وقيل: إفراد الخطاب في قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ﴾ باعتبار كل واحد من الأنبياء، كأنه قيل: أوحي إليك، وإلى كل واحد من الأنبياء هذا الكلام، وهو: لئن أشركت، وهذه الآية مقيدة بالموت على الشرك كما في الآية الأخرى ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾[1] وقيل: هذا خاص بالأنبياء؛ لأن الشرك منهم أعظم ذنبًا من الشرك من غيرهم، والأوّل أولى»[2].

قال الشيخ حافظ حكمي: «فالشرك أعظم ذنب عصي اللَّه به، ولهذا أخبرنا سبحانه أنه لا يغفره، وأنه لا أضل من فاعله، وأنه مخلد في النار أبدا لا نصير له ولا حميم، ولا شفيع يطاع، وأنه لو قام لله تعالى قيام السارية ليلا ونهارا ثم أشرك مع اللَّه تعالى غيره لحظة من اللحظات ومات على ذلك فقد حبط عمله كله بتلك اللحظة التي أشرك فيها، ولو كان نبيا رسولا، ولو كان محمدًا ﷺ، وهذا من تقدير وقوع المحال، وهو كثير في اللغة العربية؛ أي: لو قدر وقوع ذلك من ملك أو رسول لكان كغيره من المشركين في حبوط عمله، وحلول غضب اللَّه عليه، وإلا فلم يرسل اللَّه تعالى رسولا إلا معصوما من جميع المعاصي، فضلا عن الشرك، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[3]»[4].

وقوله: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ **يقول ابن جرير** رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: لا تعبد ما أمرك به هؤلاء المشركون من قومك يا محمد بعبادته؛ بل اللَّه فاعبد دون كلّ ما سواه من الآلهة والأوثان والأنداد ﴿وَكُن مِّنَ الشَّٰكِرِينَ﴾ لله على نعمته عليك بما أنعم من الهداية لعبادته، والبراءة من عبادة الأصنام والأوثان»[5].

قال السعدي: «فكما أنه تعالى يشكر على النعم الدنيوية، كصحة الجسم

---

(١) البقرة: الآية (٢١٧).
(٢) فتح القدير (٤/ ٦٦٥-٦٦٦).
(٣) الأنعام: الآية (١٢٤).
(٤) معارج القبول (١/ ٤٣٦-٤٣٧).
(٥) جامع البيان (٢٤/ ٢٤-٢٥).

وعافيته، وحصول الرزق وغير ذلك، كذلك يشكر ويثنى عليه بالنعم الدينية، كالتوفيق للإخلاص والتقوى؛ بل نعم الدين، هي النعم على الحقيقة، وفي تدبر أنها من اللَّه تعالى والشكر لله عليها، سلامة من آفة العجب التي تعرض لكثير من العاملين بسبب جهلهم، وإلا فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الترهيب من الشرك

* عن عبد اللَّه قال: «سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: **أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**. قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: **ثم أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك**، قلت: ثم أي؟ قال: **ثم أن تزاني بحليلة جارك**»[2].

★ غريب الحديث:

ندًّا: النِّدُّ، بكسر النون وتشديد الدال: هو نظير الشيء الذي يعارضه في أموره. وقيل: ندّ الشيء: من يشاركه في جوهره، وهو ضرب من المثل، لكن المثل يقال في أي مشاركة كانت، فكل ندّ مثل من غير عكس.

حليلة جارك: الحليلة هي التي يحل وطؤها بالنكاح أو التسري.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وهو نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3]. ومعناه: أن اتخاذ الإنسان إلهًا غير خالقه المنعم عليه؛ مع علمه بأن ذلك المتخذ ليس هو الذي خلقه، ولا الذي أنعم عليه، من أقبح القبائح، وأعظم الجهالات، وعلى هذا فذلك أكبر الكبائر وأعظم العظائم»[4].

قال ابن بطال: «قال المهلب: في حديث عبد اللَّه ترتيب الذنوب في العظم، وقد يجوز أن يكون بين الذنبين المرتبين ذنب غير مذكور، وهو أعظم من المذكور،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٩٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤٣٤)، والبخاري (١٣/ ٦٠٠/ ٧٥٢٠)، ومسلم (١/ ٩٠/ ٨٦)، وأبو داود (٢/ ٧٣٢-٧٣٣/ ٢٣١٠)، والترمذي (٥/ ٣١٤-٣١٥/ ٣١٨٢)، والنسائي (٧/ ١٠٣-١٠٤/ ٤٠٢٤).

(٣) البقرة: الآية (٢٢). (٤) المفهم (١/ ٢٨٠).

وذلك أنه لا خلاف بين الأمة أن عمل قوم لوط أعظم من الزنا. وكان ﷺ إنما قصد بالتعظيم من الذنوب إلى ما يخشى مواقعته وبه الحاجة إلى بيانه وقت السؤال كما فعل في الإيمان بوفد عبد القيس وغيرهم»[١].

قال الحافظ: «وفيما قاله نظر من أوجه: أحدها: ما نقله من الإجماع، ولعله لا يقدر أن يأتي بنقل صحيح صريح بما ادعاه عن إمام واحد؛ بل المنقول عن جماعة عكسه فإن الحد عند الجمهور والراجح من الأقوال إنما ثبت فيه بالقياس على الزنا والمقيس عليه أعظم من المقيس أو مساويه، والخبر الوارد في قتل الفاعل والمفعول به أو رجمهما ضعيف[٢]. وأما ثانيًا فما من مفسدة فيه إلا ويوجد مثلها في الزنا وأشد، ولو لم يكن إلا ما قيد به في الحديث المذكور فإن المفسدة فيه شديدة جدًّا، ولا يتأتى مثلها في الذنب الآخر، وعلى التنزل فلا يزيد. وأما ثالثًا ففيه مصادمة للنص الصريح على الأعظمية من غير ضرورة إلى ذلك. وأما رابعًا فالذي مثل به من قصة الأشربة ليس فيه إلا أنه اقتصر لهم على بعض المناهي، وليس فيه تصريح ولا إشارة بالحصر في الذي اقتصر عليه، والذي يظهر أن كلًّا من الثلاثة على ترتيبها في العظم، ولو جاز أن يكون فيما لم يذكره شيء يتصف بكونه أعظم منها لما طابق الجواب السؤال، نعم يجوز أن يكون فيما لم يذكر شيء يساوي ما ذكر فيكون التقدير في المرتبة الثانية مثلًا بعد القتل الموصوف وما يكون في الفحش مثله أو نحوه، لكن يستلزم أن يكون فيما لم يذكر في المرتبة الثانية شيء هو أعظم مما ذكر في المرتبة الثالثة ولا محذور في ذلك»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا الترتيب وجه معقول، وهو أن قوى الإنسان ثلاث: قوة العقل، وقوة الغضب، وقوة الشهوة.. فالكفر متعلق بالقوة العقلية الناطقة الإيمانية، ولهذا لا يوصف به من لا تمييز له، والقتل ناشئ عن القوة الغضبية، وعدوان فيها. والزنا عن القوة الشهوانية. فالكفر اعتداء وفساد في القوة العقلية الإنسانية، وقتل النفس اعتداء وفساد في القوة الغضبية. والزنا اعتداء وفساد

---

(١) شرح البخاري (٨/ ٤٣٠).

(٢) ما ذكره الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الوجه قد تقدم الرد عليه وبيان ضعفه في سورة (النمل) عند الكلام على حد اللوطي: الآية رقم (٥٨).

(٣) فتح الباري (١٢/ ١٣٩-١٤٠).

في القوة الشهوانية.

ومن وجه آخر ظاهر، أن الخلق خلقهم اللَّه لعبادته، وقوام الشخص بجسده، وقوام النوع بالنكاح والنسل، فالكفر فساد المقصود الذي له خلقوا، وقتل النفس فساد النفوس الموجودة، والزنا فساد في المنتظر من النوع. فذاك إفساد الموجود، وذاك إفساد لما لم يوجد بمنزلة من أفسد مالًا موجودًا، أو منع المنعقد أن يوجد. وإعدام الموجود أعظم فسادًا، فلهذا كان الترتيب كذلك.

ومن وجه ثالث، أن الكفر فساد القلب والروح الذي هو ملك الجسد، والقتل إفساد للجسد الحامل له، وإتلاف الموجود. وأما الزنا فهو فساد في صفة الوجود لا في أصله»[(١)].

* عن أبي بكرة قال: قال النبي ﷺ: «**أكبر الكبائر: الإشراك باللَّه، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور وشهادة الزور -ثلاثًا- أو قول الزور**، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»[(٢)].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالعبادة والاستعانة وما يدخل في ذلك من الدعاء والاستغاثة والخشية، والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستغفار: كل هذا لله وحده لا شريك له، فالعبادة متعلقة بألوهيته، والاستعانة متعلقة بربوبيته، واللَّه رب العالمين لا إله إلا هو، ولا رب لنا غيره، لا ملك ولا نبي ولا غيره؛ بل أكبر الكبائر الإشراك باللَّه وأن تجعل له ندا وهو خالقك، والشرك أن تجعل لغيره شركًا أي نصيبًا في عبادتك، وتوكلك، واستعانتك، كما قال من قال: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[(٣)]»[(٤)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فما عبد أحد من بني آدم غير اللَّه كائنًا من كان إلا وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتع المعبود

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٤٢٨-٤٣١).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٦)، والبخاري (١٢/ ٣٢٧/ ٦٩١٩) واللفظ له، ومسلم (١/ ٩١/ ٨٧)، والترمذي (٤/ ٢٧٥/ ١٩٠١).

(٣) الزمر: الآية (٣).

(٤) مجموع الفتاوى (١/ ٧٤).

بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع اللَّه الذي هو غاية رضى الشيطان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾؛ أي: من إغوائهم وإضلالهم، ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1].

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند اللَّه، وأنه لا يُغفر بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود في العذاب، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه؛ بل يستحيل على اللَّه سبحانه أن يشرع لعباده عبادة إله غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله، وكيف يُظن بالمنفرد بالربوبية والإلهية والعظمة والجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك، أو يرضى به؟ تعالى اللَّه عن ذلك علوًا كبيرًا.

فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذي خلق اللَّه له الخلق، وأمر لأجله بالأمر، كان أكبر الكبائر عند اللَّه.

وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم؛ فإن اللَّه سبحانه خلق الخلق، وأنزل الكتب لتكون الطاعة له وحده، والشرك والكبر ينافيان ذلك.

ولذلك حرّم اللَّه الجنة على أهل الشرك والكبر، فلا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من كبر»[2].

* عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رجل: يا رسول اللَّه، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: «**من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر**»[3].

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «وأما معنى الحديث فالصحيح فيه ما قاله جماعة من المحققين أن المراد بالإحسان هنا الدخول في الإسلام بالظاهر والباطن جميعًا، وأن يكون مسلمًا

(١) الأنعام: الآية (١٢٨).

(٢) الداء والدواء (ص: ٢١٨-٢١٩).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٤٠٩)، والبخاري (١٢/ ٣٢٨/ ٦٩٢١)، ومسلم (١/ ١١١/ ١٢٠)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٧/ ٤٢٤٢).

حقيقًا، فهذا يغفر له ما سلف في الكفر بنص القرآن العزيز، والحديث الصحيح: «**الإسلام يهدم ما قبله**»[١]، وبإجماع المسلمين، والمراد بالإساءة عدم الدخول في الإسلام بقلبه، بل يكون منقادًا في الظاهر مظهرًا للشهادتين غير معتقد للإسلام بقلبه، فهذا منافق باقٍ على كفره بإجماع المسلمين فيؤاخذ بما عمل في الجاهلية قبل إظهار صورة الإسلام، وبما عمل بعد إظهارها، لأنه مستمر على كفره، وهذا معروف في استعمال الشرع، يقولون: حسن إسلام فلان: إذا دخل فيه حقيقة بإخلاص، وساء إسلامه أو لم يحسن إسلامه إذا لم يكن كذلك، واللَّه أعلم»[٢].

قال ابن بطال: «قال المهلب: وأما حديث ابن مسعود فمعناه: من أحسن في الإسلام بالتمادي عليه ومحافظته، والقيام بشروطه؛ لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، وأجمعت الأمة أن الإسلام يجُبُّ ما قبله.

وأما قوله: «**من أساء في الإسلام**» فمعناه: من أساء في عقد الإسلام والتوحيد بالكفر باللَّه، فهذا يؤخذ بكل كفر سلف له في الجاهلية والإسلام، فعرضت هذا القول على بعض العلماء فأجازوه، وقالوا: لا معنى لحديث ابن مسعود غير هذا، ولا تكون هذه الإساءة إلا الكفر؛ لإجماع الأمة أن المؤمنين لا يؤاخذون بما عملوا في الجاهلية»[٣].

قال الخطابي: «ظاهر هذا الحكم خلاف ما أجمعت عليه الأمة من أن الإسلام يجُبّ ما قبله. قال اللَّه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾[٤].

ووجه هذا الحديث وتأويله: أنه إذا أسلم مرة لم يؤاخذ بما كان سلف من كفره ولم يعاقب عليه، وإن أساء في الإسلام غاية الإساءة وركب أشدّ ما يكون من المعاصي ما دام ثابتًا على إسلامه، وإنما يؤخذ بما جناه في الإسلام من المعصية ويعيّر بما كان منه في الكفر ويُبكَّت به كأنه يقال له: أليس قد فعلت كيت وكيت وأنت كافر؟ فهلاّ منعك إسلامك من معاودة مثله إذ أسلمت؟ ثم يُعاقب على قدر ما

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٠٥)، ومسلم (١/ ١١٢/ ١٢١).

(٢) شرح مسلم (٢/ ١١٧)، وانظر المفهم (١/ ٣٢٧).

(٣) شرح البخاري (٨/ ٥٧٠). (٤) الأنفال: الآية (٣٨).

يستحقه من المعصية التي اكتسبها في الإسلام، ولا يجوز أن يعاقب عقوبة الكفار؛ لأن المسلم لا يخلد في النار، والكافر مخلد فيها أبدًا»[١].

قال الحافظ معلقًا عليه: «وحاصله أنه أوَّلَ المؤاخذةَ في الأول بالتبكيت وفي الآخر بالعقوبة، والأولى قول غيره: إن المراد بالإساءة الكفر؛ لأنه غاية الإساءة وأشد المعاصي فإذا ارتد ومات على كفره كان كمن لم يسلم، فيعاقب على جميع ما قدمه، وإلى ذلك أشار البخاري بإيراد هذا الحديث بعد حديث **«أكبر الكبائر الشرك»** وأورد كلًا في أبواب المرتدين»[٢].

وقال أيضًا: «ثم وجدت في «كتاب السنة» لعبدالعزيز بن جعفر وهو من رؤوس الحنابلة ما يدفع دعوة الخطابي وابن بطال الإجماع الذي نقلاه، وهو ما نقل عن الميموني عن أحمد أنه قال: بلغني أن أبا حنيفة يقول إن من أسلم لا يؤاخذ بما كان في الجاهلية، ثم رد عليه بحديث ابن مسعود ففيه أن الذنوب التي كان الكافر يفعلها في جاهليته إذا أصر عليها في الإسلام فإنه يؤاخذ بها؛ لأنه بإصراره لا يكون تاب منها وإنما تاب من الكفر، فلا يسقط عنه ذنب تلك المعصية لإصراره عليها، وإلى هذا ذهب الحليمي من الشافعية، وتأول بعض الحنابلة قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[٣] على أن المراد ما سلف مما انتهوا عنه، قال: والاختلاف في هذه المسألة مبني على أن التوبة هي الندم على الذنب مع الإقلاع عنه والعزم على عدم العود إليه، والكافر إذا تاب من الكفر ولم يعزم على عدم العود إلى الفاحشة لا يكون تائبًا منها فلا تسقط عنه المطالبة بها، والجواب عن الجمهور أن هذا خاص بالمسلم، وأما الكافر فإنه يكون بإسلامه كيوم ولدته أمه، والأخبار دالة على ذلك، كحديث أسامة لما أنكر عليه النبي ﷺ قتل الذي قال: لا إله إلا الله، حتى قال في آخره: **«حتى تمنيت أنني كنت أسلمت يومئذ»**[٤]»[٥].

---

(١) أعلام الحديث (٤/ ٢٣١١-٢٣١٢).

(٢) فتح الباري (١٢/ ٣٢٩-٣٣٠).

(٣) الأنفال: الآية (٣٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٧)، والبخاري (٧/ ٦٥٨/ ٤٢٦٩)، ومسلم (١/ ٩٦-٩٧/ ٩٦)، وأبو داود (٣/ ١٠٢-١٠٣/ ٢٦٤٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٧٦-١٧٧/ ٨٥٩٥).

(٥) فتح الباري (١٢-٣٣٠).

وسئل شيخ الإسلام عن اليهودي أو النصراني إذا أسلم، هل يبقى عليه ذنب بعد الإسلام؟

فأجاب: إذا أسلم باطنًا وظاهرًا غفر له الكفر الذي تاب منه بالإسلام بلا نزاع، وأما الذنوب التي لم يتب منها مثل: أن يكون مصرًا على ذنب، أو ظلم، أو فاحشة، ولم يتب منها بالإسلام. فقد قال بعض الناس: إنه يغفر له بالإسلام. والصحيح: أنه إنما يغفر له ما تاب منه. كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قيل: أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: «**من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية. ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر**».

وحسن الإسلام أن يلتزم فعل ما أمر اللَّه به، وترك ما نهى عنه. وهذا معنى التوبة العامة، فمن أسلم هذا الإسلام غفرت ذنوبه كلها.

وهكذا كان إسلام السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لعمرو بن العاص: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟**» فإن اللام لتعريف العهد، والإسلام المعهود بينهم كان الإسلام الحسن.

وقوله: «**ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر**» أي: إذا أصر على ما كان يعمله من الذنوب فإنه يؤاخذ بالأول والآخر. وهذا موجب النصوص والعدل، فإن من تاب من ذنب غفر له ذلك الذنب، ولم يجب أن يغفر له غيره.

والمسلم تائب من الكفر، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ﴾[1] وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[2] أي: إذا انتهوا عما نهوا عنه غفر لهم ما قد سلف.

فالانتهاء عن الذنب هو التوبة منه. من انتهى عن ذنب غفر له ما سلف منه. وأما من لم ينته عن ذنب فلا يجب أن يغفر له ما سلف لانتهائه عن ذنب آخر»[3].

* * *

(١) التوبة: الآية (٥). (٢) الأنفال: الآية (٣٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٧٠١-٧٠٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ما قدروا الله: أي: ما عظموه حق تعظيمه، ولا عرفوه حق معرفته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه؛ بل فعلوا ما يناقض ذلك، من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا يملك من الأمر شيئًا. فسووا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السماوات -على سعتها وعظمها- مطويات بيمينه، فلا عظمه حق عظمته من سوَّى به غيره، ولا أظلم منه. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه وتعاظم عن شركهم به»[1].

قال ابن القيم: «فكان هذا ردًّا على المشركين، والمعطلين الجاحدين لتوحيده ولصفاته، كما كان ذلك ردًّا على منكري كتبه ورسله، وهذان أصلا الإسلام: شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه، وهذا الذي وصف به نفسه هاهنا يتضمن من اقتداره على تغيير العالم وتبديله ما يبطل قول أعدائه الملاحدة المكذبين بالمبدأ والمعاد، أئمة هؤلاء المعارضين للوحي بالعقل والرأي، وقال تعالى في آية (الحج): ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٩٢-٤٩٣).

(٢) الحج: الآيات (٧٣-٧٥).

فما قدره من عبد من دونه من لا يخلق ذبابًا واحدًا، وإن سلبه الذباب شيئًا مما عليه من خلوق وغيره لم يقدر على استنقاذه منه، ولا يكون أضعف من هذا الإله وعابده، فكيف يُعبد مَنْ دون من له القوة كلها، والعزة كلها، ولما كان هذا من جهلهم بالله وترك تعظيمه الذي ينبغي له، قال كثير من المفسرين في معنى ذلك: ما عظّموه حق عظمته، وقال بعضهم: ما عرفوه حق معرفته، وقال بعضهم: ما عبدوه حق عبادته، وقال آخرون: ما وصفوه حق صفته، ولما كان أهل العلم والإيمان قد قاموا من ذلك بحسب قدرتهم وطاقتهم التي أعانهم بها، ووفّقهم بها لمعرفته وعبادته وتعظيمه لم يتناولهم هذا الوصف، فإن التعظيم له سبحانه والمعرفة والعبادة، ووصفه بما وصف به نفسه قد أمر به عباده وأعانهم عليه ورضي منهم بمقدورهم من ذلك، وإن كانوا لا يقدرونه قدره ولا يقدر أحد من العباد قدره، فإنه إذا كانت السموات السبع في يده كالخردلة في يد أحدنا، والأرضون السبع في يده الأخرى، كذلك فكيف يقدره حق قدره من أنكر أن يكون له يدان فضلًا عن أن يقبض بهما شيئًا؟ فلا يد عند المعطلة، ولا قبض في الحقيقة، وإنما ذلك مجاز لا حقيقة له، وللجهمية والمعطلة نفاة الصفات من هذا الذم أوفر نصيب، وللمتفلسفة وأفراخهم وأتباعهم ذنوب مثل ذنوب أصحابهم وأكثر»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قبض الله السموات والأرضين بيده وإثبات اليمين له سبحانه

* عن عبد الله ﷺ قال: «جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! إنا نجد أن الله يحمل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾»[2].

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٦٣-١٣٦٤).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤٢٩-٤٥٧)، والبخاري (٨/ ٧٠٧/ ٤٨١١)، ومسلم (٤/ ٢١٤٧/ ٢٧٨٦)، والترمذي (٥/ ٣٤٥-٣٤٦/ ٣٢٣٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٦/ ١١٤٥٠).

★ **غريب الحديث:**

نواجذه: جمع ناجذ، بنون وجيم مكسورة ثم ذال معجمة، وهو ما يظهر عند الضحك من الأسنان، وقيل: هي الأنياب، وقيل: هي الأضراس، وقيل: الدواخل من الأضراس التي في أقصى الحلق.

★ **فوائد الحديث:**

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «وهذه الأحاديث وما في معناها تدل على عظمة اللَّه وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته. وقد تعرف ﷻ إلى عباده بصفاته وعجائب مخلوقاته، وكلها تعرف وتدل على كماله، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له في ربوبيته وإلهيته، وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال اللَّه وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم على الإسلام والإيمان.

وتأمل ما في هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبي ﷺ ربه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن اللَّه من الصفات التي تدل على عظمته، وتأمل ما فيها من إثبات علو اللَّه تعالى على عرشه، ولم يقل النبي ﷺ في شيء منها: إن ظاهرها غير مراد، وإنما تدل تشبيه صفات اللَّه بصفات خلقه، فلو كان هذا حقًّا بلّغه أمينه أمته، فإن اللَّه أكمل به الدين وأتم به النعمة فبلّغ البلاغ المبين، صلوات اللَّه وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين، وتلقى الصحابة ﷺ عن نبيهم ﷺ ما وصف به ربه من صفات كماله ونعوت جلاله، فآمنوا به وآمنوا بكتاب اللَّه وما تضمنه من صفات ربهم -جل وعلا-؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾[1] وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم، والأئمة من المحدثين والفقهاء كلهم وصف اللَّه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، ولم يجحدوا شيئًا من الصفات، ولا قال أحد منهم: إن ظاهرها غير مراد، ولا أنه يلزم من إثباتها التشبيه؛ بل أنكروا على من

---

(١) آل عمران: الآية (٧).

قال ذلك غاية الإنكار؛ فصنفوا في رد هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدي أهل السنة والجماعة»[١].

قال الغنيمان: «هذا الحديث يدل على عظمة اللَّه تعالى حيث يضع السموات كلها على إصبع من أصابع يده الكريمة العظيمة، وعدّد المخلوقات المعروفة للخلق بالكبر والعظمة، وأخبر أن كل نوع منها يضعه تعالى على إصبع، ولو أراد تعالى لوضع السموات والأرضين ومن فيهن على إصبع واحدة من أصابع يده -جل وعلا-.

وهذا من العلم الموروث عن الأنبياء المتلقى عن الوحي من اللَّه تعالى، ولهذا صدقه رسول اللَّه ﷺ؛ بل وأعجبه ذلك وسُرَّ به، ولهذا ضحك حتى بدت نواجذه تصديقًا له، كما قال عبد اللَّه بن مسعود، ولا التفات إلى قول من تبنّى التعطيل، وصار نصيبه من معرفة هذه الأوصاف الكريمة العظيمة، التي تعرف اللَّه بها إلى عباده، هو ما يعرفونه من أنفسهم. فحملهم ذلك على تعطيل اللَّه تعالى من هذه الأوصاف، مرة بردّ هذه النصوص، والطعن في رواتها بلا حجة سوى روايتهم لها، ومرة بتأويلها التأويل الباطل، الذي يخرجها عن مراد المتكلم بها. ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾[٢].

هذا وقد تنوعت النصوص من كتاب اللَّه تعالى وسنة رسوله ﷺ على إثبات اليدين لله تعالى، وإثبات الأصابع لهما، وإثبات القبض بهما وتثنيتهما، وأن إحداهما يمين كما مرّ، وفي نصوص كثيرة، والأخرى شمال كما في صحيح مسلم، وأنه تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وبالنهار ليتوب مسيء الليل، وأنه تعالى يتقبل الصدقة من الكسب الطيب بيمينه فيربيها لصاحبها وأن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، وغير ذلك مما هو ثابت عن اللَّه ورسوله..

وهذا الذي أشرت إليه كله يمنع تأويل اليدين بالنعمة أو القوة، أو الخزائن، أو القدرة، أو غير ذلك، ويجعل التأويل في حكم التحريف، بل هو تحريف.

وقد آمن المسلمون بهذه النصوص على ظاهرها، وقبلوها ولم يتعرضوا لها

(١) فتح المجيد (ص: ٦٢٠-٦٢٢).
(٢) البقرة: الآية (١٤٠).

بتأويل تبعًا لرسول اللَّه ﷺ، وصحابته، وأئمة الهدى؛ بل وكل من قَبِل ما جاءت به الرسل وآمن به»[١].

وقال ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جل ربنا أن تكون أصابعه كأصابع خلقه، وعن أن يشبه شيء من صفات ذاته صفات خلقه، وقد أجل اللَّه قدر نبيه ﷺ عن أن يوصف الخالق البارئ بحضرته بما ليس من صفاته فيسمعه فيضحك عنده ويجعل بدل وجوب النكير والغضب على المتكلم به ضحكًا تبدو نواجذه تصديقًا وتعجبًا لقائله، لا يصف النبي ﷺ بهذه الصفة مؤمن مصدق برسالته»[٢].

وقال أيضًا: فتدبروا يا أولي الألباب ما نقوله في هذا الباب في ذكر اليدين كنحو قولنا في ذكر الوجه والعينين تستيقنوا بهداية اللَّه إياكم، وشرحه -جل وعلا- صدوركم للإيمان بما قصه اللَّه -جل وعلا- في محكم تنزيله، وبينه على لسان نبيه ﷺ من صفات خالقنا ﷻ، وتعلموا بتوفيق اللَّه إياكم أن الحق والصواب والعدل في هذا الجنس مذهبنا مذهب أهل الآثار ومتبعي السنن، وتقفوا على جهل من يسميهم مشبهة إذ الجهمية المعطلة جاهلون بالتشبيه. نحن نقول: لله -جل وعلا- يدان كما أعلمنا الخالق البارئ في محكم تنزيله، وعلى لسان نبيه المصطفى ﷺ، ونقول: كلتا يدي ربنا ﷻ يمين على ما أخبر النبي ﷺ، ونقول: إن اللَّه ﷻ يقبض الأرض جميعًا بإحدى يديه ويطوي السماء بيده الأخرى، وكلتا يديه يمين لا شمال فيهما[٣]، ونقول: من كان من بني آدم سليم الأعضاء والأركان مستوي التركيب لا نقص في يديه أقوى بني آدم، وأشدهم بطشًا، له يدان عاجز أن يقبض على أقل من شعرة واحدة من جزء من أجزاء كثيرة على أرض واحدة من سبع أرضين، ولو أن جميع من خلقهم اللَّه من بني آدم إلى وقتنا هذا وقضى خلقهم إلى قيام الساعة لو اجتمعوا على معونة بعضهم بعضًا وحاولوا على قبض أرض واحدة من الأرضين السبع بأيديهم كانوا عاجزين عن ذلك غير مستطيعين له، وكذلك لو اجتمعوا جميعًا على طي جزء من أجزاء سماء واحدة لم يقدروا على ذلك، ولم يستطيعوا، وكانوا عاجزين عنه، فكيف يكون -يا ذوي الحجا- من وصف يد خالقه بما بينا من القوة

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٣٠٥-٣٠٦).

(٢) كتاب التوحيد (ص: ٧٦).

(٣) تقدم الخلاف في هذه المسألة في سورة التوبة الآية (١٠٤)، فلتنظر هناك.

والأيدي، ووصف يد المخلوقين بالضعف والعجز مشبهًا يد الخالق بيد المخلوقين؟ أو كيف يكون مشبهًا من يثبت لله أصابع على ما بينه النبي المصطفى صلى اللَّه عليه للخالق البارئ، ونقول: «**إن اللَّه -جل وعلا- يمسك السموات على إصبع والأرضين على إصبع**» تمام الحديث، ونقول: إن جميع بني آدم منذ خلق اللَّه آدم إلى أن ينفخ في الصور، ولو اجتمعوا على إمساك جزء من أجزاء كثيرة من سماء من سمواته أو أرض من أرضيه السبع بجميع أبدانهم كانوا غير قادرين على ذلك ولا مستطيعين له؛ بل عاجزين عنه، فكيف يكون من يثبت لله ﷻ يدين على ما أثبته اللَّه لنفسه وأثبته له ﷺ مشبهًا يدي ربه بيدي بني آدم؟ نقول: لله يدان مبسوطتان ينفق كيف يشاء»[(١)].

قال شيخ الإسلام بعد سياقه لحديث الباب: «وهذا يقتضي أن عظمته أعظم مما وصف ذلك الحبر، فإن الذي في الآية أبلغ»[(٢)].

*** عن ابن مسعود قال: «ما بين السماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وما بين السماء السابعة والكرسي مسيرة خمسمائة عام، وما بين الكرسي والماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش على الماء، واللَّه ﷻ** على العرش، يعلم ما أنتم عليه»[(٣)].

⋆ فوائد الحديث:

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «وهذا الحديث كأمثاله يدل على عظمة اللَّه وكماله، وعظم مخلوقاته، وأنه المتصف بصفات الكمال التي وصف بها نفسه في كتابه، ووصفه بها رسول اللَّه ﷺ، وعلى كمال قدرته، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له دون كل ما سواه، وباللَّه التوفيق»[(٤)].

وقال أيضًا: «وفيه التصريح بأن اللَّه فوق عرشه»[(٥)].

---

(١) كتاب التوحيد (ص: ٨٢-٨٤). (٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٦٢).

(٣) أخرجه: الطبراني (٩/ ٢٠٢/ ٨٩٨٧) واللفظ له، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٢٩٠-٢٩٢/ ٨٥١-٨٥٢)، ابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٨٨٥)، والدارمي في الرد على الجهمية ص (٢٦-٢٧)، واللالكائي في شرح الاعتقاد (٣/ ٤٣٨-٤٣٩/ ٦٥٩)، وصححه الذهبي في مختصر العلو ص (١٠٣).

(٤) فتح المجيد (ص: ٦٢٨).

(٥) فتح المجيد (ص: ٦٢٨).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**يقبض اللَّه الأرض، ويطوي السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**»[(١)].

* عن عبد اللَّه بن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يطوي اللَّه عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»[(٢)].

★ فوائد الحديثين:

قال الغنيمان: «قوله: «**إن اللَّه يقبض يوم القيامة الأرض**» أي: يجمعها بيده، فتكون في قبضته كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وقوله: «**وتكون السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك**» أي: أنه تعالى يطوي السموات بيده اليمنى، والأرض مقبوضة بيده الأخرى، وأنه يهزهن ثم يقول -يعظّم نفسه-: أنا الملك؛ أي: الذي يتصرف في كل شيء كيف يشاء، لا يشاركه في ذلك أحد، ولهذا جاء فيه: أنه تعالى إذا قبضهن، يهزهن ويقول: «**أنا الملك أنا الملك، أين ملوك الدنيا؟**».

وهذا الحديث مطابق لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

وفيه الدليل الواضح على ثبوت اليدين لله تعالى، وهو نص لا يقبل تأويلًا. ولهذا صارت تأويلات المعطلين ليدي رب العالمين، شبه اللعب في كلام اللَّه وكلام رسوله، الذي يترفع عنه العقلاء، فضلًا عن أهل التقى»[(٣)].

قال الشيخ العثيمين: «قوله: «**ثم يقول: أنا الملك**» يقول ذلك ثناءً على نفسه تبارك وتعالى، وتنبيهًا على عظمته الكاملة وعلى ملكه الكامل، وهو السلطان، فهو مالك ذو

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٤)، والبخاري (٨/ ٧٠٨/ ٤٨١٢)، ومسلم (٤/ ٢١٤٨/ ٢٧٨٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٧-٤٤٨/ ١١٤٥٥)، وابن ماجه (١/ ٦٨-٦٩/ ١٩٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٧٢)، والبخاري (١٣/ ٤٨٤/ ٧٤١٢)، ومسلم (٤/ ٢١٤٨/ ٢٧٨٨)، وأبو داود (٥/ ١٠٠/ ٤٧٣٢)، وابن ماجه (١/ ٧١-٧٢/ ١٩٨)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٠٠-٤٠١/ ٧٦٨٩).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٣٠٢).

سلطان، وهذه الجملة كلا جزأيها معرفة، وإذا كان المبتدأ والخبر كلاهما معرفة، فإن ذلك من طرق الحصر؛ أي: أنا الذي لي الملكية المطلقة، والسلطان التام لا ينازعني فيهما أحد»[١].

قال شيخ الإسلام: «فإذا كان سبحانه يطوي السموات كلها بيمينه، وهذا قدرها عنده، كما قال ابن عباس -رضي اللَّه تعالى عنهما-: «**ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم**»، وهو سبحانه بين لنا من عظمته بقدر ما نعقله، كما قال عبد العزيز الماجشون: والله! ما دلهم على عظيم ما وصف من نفسه، وما تحيط به قبضته إلا صغر نظيرها منهم عندهم، إن ذلك الذي ألقى في روعهم وخلق على معرفته قلوبهم»[٢].

وقال أيضًا بعدما ساق حديثي الباب وما في معناهما: «ففي هذه الآية والأحاديث الصحيحة -المفسرة لها المستفيضة التي اتفق أهل العلم على صحتها وتلقيها بالقبول- ما يبين أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمة اللَّه تعالى أصغر من أن تكون مع قبضه لها إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا، حتى يدحوها كما تدحى الكرة»[٣].

وقال أيضًا نقلًا عن الكرجي رَحِمَهُ اللَّهُ بعدما ذكر حديث الباب وما في معناه: «إلى غيرها من الأحاديث، هالتنا أو لم تهلنا، بلغتنا أو لم تبلغنا، اعتقادنا فيها وفي الآي الواردة في الصفات: أنّا نقبلها ولا نحرفها ولا نكيفها، ولا نعطلها ولا نتأولها، وعلى العقول لا نحملها، وبصفات الخلق لا نشبهها، ولا نعمل رأينا وفكرنا فيها، ولا نزيد عليها ولا ننقص منها؛ بل نؤمن بها ونكل علمها إلى عالمها، كما فعل ذلك السلف الصالح، وهم القدوة لنا في كل علم»[٤].

* عن مجاهد: «**قال ابن عباس: أتدري ما سعة جهنم؟ قلت: لا، قال: أجل، واللَّه ما تدري. حدثتني عائشة أنها سألت رسول اللَّه ﷺ** عن قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ قال: قلت: فأين الناس يومئذ

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (١٠/ ١١٢١). (٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٨١-٤٨٢).
(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٦٢).
(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ١٨٥).

يا رسول الله؟ قال: على جسر جهنم»[١].

* عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله! ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ فأين المؤمنون يومئذ؟ قال: «**على الصراط يا عائشة**»[٢].

* عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[٣] فأين يكون الناس يومئذ -يا رسول الله-؟ قال: «**على الصراط**»[٤].

قال ابن العربي: «قال في الحديث الصحيح وذكره أبو عيسى: إن المؤمنين يومئذ على الصراط فيحتمل ثلاثة معان: أحدها: أن يكونوا على الصراط، والصراط بما عليه على الإصبع. ثانيها: أن تكون حالتان: إحداهما: يكونون على الصراط. ثالثها: أن يكون المؤمنون خاصة على الصراط دون سائر الخلق. وثانيها أقواها»[٥].

قال القرطبي: «فهذه الأحاديث تنص على أن السموات والأرض تبدل وتزال، ويخلق الله أرضًا أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجسر»[٦].

وقد تقدم الكلام على هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ الآية (٤٨) من سورة (إبراهيم).

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ١١٦-١١٧)، والترمذي (٥/ ٣٤٧/ ٣٢٤١) واللفظ له، وقال: «حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٧/ ١١٤٥٣)، والحاكم (٢/ ٤٣٦) وصححه وأقره الذهبي.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٤٧/ ٣٢٤٢)، واللفظ له، وقال: «حسن صحيح».

(٣) إبراهيم: الآية (٤٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٥-١٠١-١٣٤-٢١٨)، ومسلم (٤/ ٢١٥٠/ ٢٧٩١)، والترمذي (٥/ ٢٧٦/ ٣١٢١) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٠/ ٤٢٧٩).

(٥) عارضة الأحوذي (١٢/ ١٢٢).

(٦) جامع أحكام القرآن (٩/ ٣٨٣).

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

صعق: مات. والصاعقة هي الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منه نار فقط، أو موت، أو عذاب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «لما خوفهم تعالى من عظمته، خوفهم بأحوال يوم القيامة، ورغَّبهم ورهَّبهم فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه، ومن أطلعه اللَّه على علمه من خلقه..

﴿فَصَعِقَ﴾ أي: غشي أو مات، على اختلاف القولين: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ أي: كلهم، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمها، وما يعلمون أنها مقدمة له. ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ ممن ثبته اللَّه عند النفخة فلم يصعق، كالشهداء أو بعضهم، وغيرهم. وهذه النفخة الأولى، نفخة الصعق، ونفخة الفزع»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النفخ في الصور

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل من اليهود بسوق المدينة: والذي اصطفى موسى على البشر. فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه قال: أتقول هذا وفينا رسول اللَّه ﷺ؟ فذكر ذلك لرسول اللَّه فقال: «**قال اللَّه عز وجل**: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ **فأكون أول من رفع رأسه، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش،**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٩٣-٤٩٤).

فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى اللَّه ﷻ. ومن قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»[١].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: «استب رجلان: رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين، فقال: اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فدعا النبي ﷺ المسلم فسأله عن ذلك، فأخبره. فقال النبي ﷺ: **لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش جنب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله»**[٢].

⋆ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «هذا مشكل بالمعلوم من الأحاديث الدالة على أن موسى ﷺ قد توفي، وأن النبي ﷺ قد رآه في قبره، وبأن المعلوم المتواتر: أنه توفي بعد أن ظهر دينه، وكثرت أمته، ودُفن بالأرض، ووجه الإشكال: أن نفخة الصعق إنما يموت بها من كان حيًا في هذه الدار، فأما من مات فيستحيل أن يموت مرة أخرى؛ لأن الحاصل لا يُستحصل، ولا يُبتغى؛ وإنما ينفخ في الموتى نفخة البعث، وموسى قد مات، فلا يصح أن يموت مرة أخرى، ولا يصح أن يكون مستثنىً ممن صُعق؛ لأن المستثنيين أحياء لم يموتوا، ولا يموتون، فلا يصح استثناؤهم من الموتى، وقد رام بعضهم الانفصال عن هذا الإشكال، فقال: يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمت من الأنبياء، وهذا قول باطل بما ذكرناه. قال القاضي عياض: يحتمل أن المراد بهذه الصعقة: صعقة فزع بعد النشر حين تنشق السموات والأرضون، قال: فتستقل الأحاديث والآيات.

قلت: وهذا غفلة عن مساق الحديث؛ فإنه يدل على بطلان ما ذُكر دلالة

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٥٠-٤٥١)، والترمذي (٥/ ٣٤٨/ ٣٢٤٥) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٨-١٤٢٩/ ٤٢٧٤) واللفظ له.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٤)، والبخاري (٥/ ٨٩/ ٢٤١١)، ومسلم (٤/ ١٨٤٣-١٨٤٤/ ٢٣٧٣)، وأبو داود (٥/ ٥٣/ ٤٦٧١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٨/ ١١٤٥٨).

واضحة، فإن النبي ﷺ قال: إنه حين يخرج من القبر فيلقى موسى، وهو متعلق بالعرش، وهذا كان عند نفخة البعث، ثم إن النبي ﷺ عندما يرى موسى يقع له تردد في موسى على ظاهر هذا الحديث، هل مات عند نفخة الصعق المتقدمة على نفخة البعث، فيكون قد بُعث قبله، أو لم يمت عند نفخة الصعق لأجل الصعقة التي صُعقها على الطور، جعلت له تلك عوضًا من هذه، وعلى هذا فكان حيًّا حالة نفخة الصعق، ولم يُصعق، ولم يمت، وحينئذ يبقى الإشكال إذ لم يحصل عنه انفصال.

قلت: والذي يُزيحه -إن شاء اللَّه تعالى- أن يُقال: إن الموت ليس بعدم، وإنما هو انتقال من حال إلى حال، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يُرزقون فرحين مستبشرين، فهذه صفات الأحياء في الدنيا، وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى، مع أنه قد صح عن النبي ﷺ: «**أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء**»[١]، وأن النبي ﷺ قد اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس، وفي السماء، وخصوصًا بموسى عليه السلام وقد أخبرنا النبي ﷺ بما يقتضي أن اللَّه تعالى يردّ عليه روحه حتى يرد السلام على كل من يسلم عليه[٢]، إلى غير ذلك مما ورد في هذا المعنى، وهو كثير بحيث يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غُيبوا عنا بحيث لا ندركهم، وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم موجودون أحياء، ولا يراهم أحد من نوعنا. . وإذا تقرر أنهم أحياء فهم فيما بين السماء والأرض؛ فإذا نُفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السموات والأرض إلا من شاء اللَّه، فأما صعق غير الأنبياء فموت، وأما صعق الأنبياء، فالأظهر أنه غشية، فإذا نُفخ في الصور نفخة البعث ممن مات حيي، ومن غُشي عليه أفاق، ولذلك قال: «**فأكون أول من يفيق**» وهي رواية صحيحة وحسنة. فهذا الذي ظهر لي، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله»[٣].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٨)، وأبو داود (١/ ٦٣٥/ ١٠٤٧)، والنسائي (٣/ ١٠١-١٠٢/ ١٣٧٣)، وابن ماجه (١/ ٣٤٥/ ١٠٨٥)، وصححه ابن خزيمة (٣/ ١١٨/ ١٧٣٣)، وابن حبان (٣/ ١٩٠-١٩١/ ٩١٠)، وصححه الحاكم (١/ ٢٧٨) على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٢٧)، وأبو داود (٢/ ٥٣٤/ ٢٠٤١) وصحح إسناده النووي في «الأذكار» (ص: ١٢٠) رقم (٣٠٤).

(٣) المفهم (٦/ ٢٣٢-٢٣٤).

قال ابن القيم: «قال أبو عبد اللَّه القرطبي: إن حمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال، وإن حمل على صعقة الموت عند النفخ في الصور، فيكون ذكر يوم القيامة يراد به أوائله، فالمعنى إذا نُفخ في الصور نفخة البعث كنت أول من يرفع رأسه، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور.

قلت: وحمل الحديث على هذا لا يصح؛ لأنه صلى اللَّه عليه وآله وسلم تردد هل أفاق موسى قبله أم لم يصعق؛ بل جوزي بصعقة الطور، فالمعنى: لا أدري أصعق أم لم يصعق، وقد قال في الحديث: «**فأكون أول من يفيق**» وهذا يدل على أنه ﷺ يصعق فيمن يصعق، وأن التردد حصل في موسى هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق، ولو كان المراد به الصعقة الأولى وهي صعقة الموت لكان ﷺ قد جزم بموته وتردد هل مات موسى أم لم يمت، وهذا باطل لوجوه كثيرة، فعلم أنها صعقة فزع لا صعقة موت، وحينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت عند النفخة الأولى، نعم تدل على أن موت الخلائق عند النفخة الأولى وكل من لم يذق الموت قبلها فإنه يذوقه حينئذ. وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية، واللَّه أعلم.

فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله في الحديث: «**إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عليه الأرض، فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش**»؟

قيل: لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث فركب بين اللفظين فجاء هذا. والحديثان هكذا:

أحدهما: «**أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق**».

والثاني هكذا: «**أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة**»[1]، ففي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر**»،

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢)، والترمذي (٥/ ٥٤٨/ ٣٦١٥) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٠/ ٤٣٠٨).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

فدخل على الراوي هذا الحديث في الحديث الآخر، وكان شيخنا أبو الحجاج الحافظ يقول ذلك»[١].

قال الغنيمان: «وهذا احتمال بعيد جدًّا. ويحتاج إلى دليل، ولا وجود له إذ لا يجوز تخطئة الراوي بمجرد إشكال يعرض للإنسان في لفظ الحديث، فما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هنا غير صحيح، وسيتبين ذلك عند ذكر روايات الحديث.

فلفظ حديث أبي سعيد في البخاري: «**لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق؟ أم حوسب بصعقة الأولى**»[٢] ثم رواه في أماكن متعددة من صحيحه بألفاظ متقاربة، ليس فيها فأكون أول من تنشق عنه الأرض، إلا في هذا الموضع.

ولكن في رواية أبي هريرة: أنه ﷺ قال: «**لا تفضلوا بين أولياء اللَّه، فإنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء اللَّه، ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور، أم بعث قبلي**».

قال الحافظ: وقع في رواية: «**إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الثانية**» وفي أخرى: «**إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الأخيرة**».

ورواه في التفسير بسند آخر مختصرًا، ولفظه: «**إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش، فلا أدري أكذلك كان، أم بعد النفخة**» ثم ذكره معلقًا، في الموضع نفسه بلفظ: «**فأكون أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش**» ورواه مسلم، ولفظه: «**لا تفضلوا بين أنبياء اللَّه، فإنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء اللَّه، قال: ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من بعث، أو في أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقة يوم الطور، أو بعث قبلي؟**».

---

(١) انظر الروح (ص: ٣٦-٣٧)، والتذكرة للقرطبي (ص: ١٦٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٣)، والبخاري (٥/ ٨٩-٩٠/ ٢٤١٢)، ومسلم (٤/ ١٨٤٥/ ٢٣٧٣[١٦٣]).

ثم رواه بسند آخر وفيه: «**فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق**».

وأما حديث أبي سعيد المتقدم في ذكر الانشقاق، فقد رواه أيضًا الإمام أحمد: فقال: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن عمرو بن يحيى، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تخيروا بين الأنبياء، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، فأفيق فأجد موسى متعلقًا بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أجزي بصعقة الطور، أو أفاق قبلي**»؟

وذكر الحافظ أن في رواية محمد بن عمرو، عن أبي سلمة -عند ابن مردويه-: «**أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، فأنفض التراب عن رأسي، فآتي قائمة العرش فأجد موسى قائمًا عندها، فلا أدري أنفض التراب عن رأسه قبلي، أو كان ممن استثنى الله**».

فهذه الرواية تدل على أن الصعق المذكور هو النفخة الثانية في الصور، فإن قوله في رواية أبي هريرة: «**فإنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بالعرش**» وفي الرواية الأخرى: «**إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش**»، وفي أخرى: «**إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الثانية**».

وفي رواية مسلم: «**ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من بعث**».

فهذا واضح وصريح، في أن المقصود البعث من الموت الحاصل بنفخ الصور النفخة الثانية، وبه يتبين أن ما قاله القرطبي وغيره مما سبق ذكره، وكذا ما ذهب إليه ابن القيم كله غير صحيح كما سبق، وكذا قول الحليمي في المنهاج: (إن ظاهر الحديث أن هذه صعقة غشي يوم القيامة، لا صعقة الموت الحادث عن نفخ الصور) مردود بما صرحت به الروايات المذكورة.

فالصواب ما نصت عليه هذه الروايات من أن موسى عليه السلام يبعث قبل نبينا ﷺ وأما تردده أأصابه الصعق فبعث قبله، أو كان ممن استثنى الله تعالى، أو جوزي عن الصعق بصعقة الطور، كل ذلك يقتضي أنه بعث قبله.

ولكن يبقى الإشكال في أن النفخة التي استثنى الله تعالى منها هي الأولى. ومعلوم أن موسى عليه السلام قد مات قبلها، فكيف يصح استثناؤه منها؟

فيقال: وكذا نبينا ﷺ وسائر الأنبياء لا ينالهم ذلك، وإنما ينال من كان حيًا في ذلك الوقت، ويكون الأقرب ما قال الحليمي: أن المعنى إذا نفخ في الصور مرة أخرى، كنت أول من بعث، فأجد موسى مبعوثًا قبلي، فلا أدري أفضل بذلك على سائر الخلق، أو أن ذلك جزاء له بصعقة الطور.

وهذا بناء على أن النفخ في الصور مرتان، وهو الذي تؤيده الأدلة الصحيحة، كما مر في هذه الروايات السابقة»[1].

واختلف العلماء في المقصود بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وقوله في الحديث: «أو كان ممن استثنى الله» **قال الحافظ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحاصل ما جاء في ذلك عشرة أقوال:

الأول: أنهم الموتى كلهم لكونهم لا إحساس لهم فلا يصعقون، وإلى هذا جنح القرطبي في «المفهم» وفيه ما فيه، ومستنده أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، وتعقبه صاحبه القرطبي في «التذكرة» فقال: قد صح فيه حديث أبي هريرة؛ وفي الزهد لهناد بن السري عن سعيد بن جبير موقوفًا هم الشهداء وسنده إلى سعيد صحيح. وسأذكر حديث أبي هريرة في الذي بعده، وهذا هو القول الثاني.

الثالث: الأنبياء، وإلى ذلك جنح البيهقي في تأويل الحديث في تجويزه أن يكون موسى ممن استثنى اللَّه، قال: ووجهه عندي أنهم أحياء عند ربهم كالشهداء، فإذا نفخ في الصور النفخة الأولى صعقوا ثم لا يكون ذلك موتًا في جميع معانيه إلا في ذهاب الاستشعار، وقد جوز النبي ﷺ أن يكون موسى ممن استثنى اللَّه، فإن كان منهم فإنه لا يذهب استشعاره في تلك الحالة بسبب ما وقع له في صعقة الطور..

الرابع: قال يحيى بن سلام في تفسيره: بلغني أن آخر من يبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ثم يموت الثلاثة، ثم يقول اللَّه لملك الموت: مت، فيموت..

الخامس: يمكن أن يؤخذ مما في الرابع.

السادس: الأربعة المذكورون وحملة العرش، وقع ذلك في حديث أبي هريرة

(١) شرح كتاب التوحيد (١/ ٤٢٦-٤٢٩).

الطويل المعروف بحديث الصور، وسنده ضعيف ومضطرب.

السابع: موسى وحده.

الثامن: الولدان الذين في الجنة، والحور العين.

التاسع: هم وخزان الجنة والنار وما فيها..

العاشر: الملائكة كلهم، جزم به أبو محمد ابن حزم في الملل والنحل فقال: الملائكة أرواح لا أرواح فيها، فلا يموتون أصلا»[1].

قال القرطبي: «والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، والكل محتمل، والله أعلم»[2].

قال شيخ الإسلام: «وبكل حال: النبي ﷺ قد توقف في موسى، وهل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناه الله أم لا، فإذا كان النبي ﷺ لم يخبر بكل من استثنى الله، لم يمكنا نحن أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة، وأعيان الأنبياء وأمثال ذلك مما لم يخبر به، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه»[3].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة أربعون يومًا؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنةً؟ قال: أبيت. ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، قال: وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»**[4].

⋆ غريب الحديث:

عجب الذنب: بفتح العين المهملة وسكون الجيم، وهو عظم لطيف في أصل الصلب.

---

(١) فتح الباري (١١/ ٤٥١) بتصرف. (٢) المفهم (٦/ ٢٣١).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦١).

(٤) أخرجه: البخاري (٨/ ٧٠٨/ ٤٨١٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٠-٢٢٧١/ ٢٩٥٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٩/ ١١٤٥٩)، وأخرج الشطر الأخير منه فقط: أحمد (٢/ ٣٢٢و٤٢٨و٤٩٩)، ومسلم (٤/ ٢٢٧١/ ٢٩٥٥[١٤٢])، وأبو داود (٥/ ١٠٨/ ٤٧٤٣)، والنسائي (٤/ ٤١٧/ ٢٠٧٦)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٥/ ٤٢٦٦).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «يعني: نفختي الصعق والبعث، يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾»[(١)].

وفي هذا الحديث دليل على أن نفخات الصور نفختان كما يدل عليه ظاهر هذا الحديث. وقد اختلف العلماء في ذلك. فمنهم من ذهب إلى أنها أربع نفخات: **قال الحافظ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «زعم ابن حزم أن النفخات يوم القيامة أربع: الأولى: نفخة إماتة يموت فيها من بقي حيًا في الأرض، والثانية: نفخة إحياء يقوم بها كل ميت، وينشرون من القبور، ويجمعون للحساب، والثالثة: نفخة فزع وصعق يفيقون منها كالمغشي عليه لا يموت منها أحد، والرابعة: نفخة إفاقة من ذلك الغشي. وهذا الذي ذكره من كون الثنتين أربعًا ليس بواضح بل هما نفختان فقط، ووقع التغاير في كل واحدة منهما باعتبار من يستمعها، فالأولى: يموت بها كل من كان حيًا، ويغشى على من لم يمت ممن استثنى اللَّه، والثانية: يعيش بها من مات ويفيق بها من غشي عليه، واللَّه أعلم»[(٢)].

ومنهم من ذهب إلى أنها ثلاث نفخات: وإليه ذهب ابن العربي وابن كثير، وابن تيمية رحمهم اللَّه. **قال شيخ الإسلام**: والقرآن قد أخبر بثلاث نفخات: نفخة الفزع، ذكرها في سورة (النمل) في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[(٣)]، ونفخة الصعق والقيام ذكرهما في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾»[(٤)].

«أما استدلالهم بالآية التي تذكر نفخة الفزع فليست الآية صريحة على أن هذه نفخة ثالثة، إذ لا يلزم من ذكر الحق -تبارك وتعالى- للفزع الذي يصيب من في

---

(١) المفهم (٧/ ٣٠٦).

(٢) فتح الباري (٦/ ٥٥٠-٥٥١).

(٣) الآية (٨٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦٠-٢٦١).

السموات والأرض عند النفخ في الصور أن تجعل هذه نفخة مستقلة، فالنفخة الأولى تفزع الأحياء قبل صعقهم، والنفخة الثانية تفزع الناس عند بعثهم»[١].

قال القرطبي: «نفخة الفزع هي نفخة الصعق؛ لأن الأمرين لازمان لها؛ أي: فزعوا فزعًا ماتوا منه»[٢].

قال الحافظ: «ثم وجدت مستند ابن العربي في حديث الصور الطويل.. قد ذكرت أن سنده ضعيف ومضطرب»، ثم ذكر ما في معنى حديث الباب من الأحاديث، ثم قال: «وفي كل ذلك دلالة على أنهما نفختان فقط»[٣].

قال القرطبي: «وهو الصحيح إن شاء اللَّه تعالى؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فاستثنى كما استثنى في نفخة الفزع، فدل على أنهم واحدة»[٤].

قال الحافظ: «وفيه شرح قول أبي هريرة لما قيل له: «**أربعون سنة؟**» قال: «أبيت»، بالموحدة، ومعناه: امتنعت من تبيينه؛ لأني لا أعلمه، فلا أخوض فيه بالرأي»[٥].

قال القرطبي: «وقول أبي هريرة: «أبيت» فيه تأويلان: الأول: أبيتُ؛ أي: امتنعت من بيان ذلك وتفسيره، وعلى هذا كان عنده علم من ذلك سمعه من النبي ﷺ، الثاني: أي: أبيتُ أن أسأل عن ذلك النبي ﷺ، وعلى هذا لم يكن عنده علم من ذلك، والأول أظهر؛ وإنما لم يبينه لأنه لم ترهق لذلك حاجة، ولأنه ليس من البينات والهدى الذي أمر بتبليغه.. وقد جاء أن بين النفختين أربعين عامًا، واللَّه أعلم»[٦].

قال الحافظ: «قلت: وقع كذلك في طريق ضعيف عن أبي هريرة في تفسير ابن مردويه، وأخرج ابن المبارك في «الرقائق» من مرسل الحسن: «**بين النفختين أربعون سنة، الأولى يميت اللَّه بها كل حي، والأخرى يحيي اللَّه بها كل ميت**»

---

(١) قاله الأشقر في القيامة الكبرى (ص: ٤١).
(٢) التذكرة (ص: ١٨٤).
(٣) فتح الباري (١١/ ٤٤٩-٤٥٠).
(٤) التذكرة (ص: ١٨٤).
(٥) فتح الباري (١١/ ٤٥٠).
(٦) التذكرة (ص: ١٦٦).

ونحوه عند ابن مردويه من حديث ابن عباس، وهو ضعيف أيضًا، وعنده أيضًا ما يدل على أن أبا هريرة لم يكن عنده علم بالتعيين، فأخرج عنه بسند جيد لما قالوا: «**أربعون ماذا؟**» قال: «**هكذا سمعت**»، وأخرج الطبري بسند صحيح عن قتادة فذكر حديث أبي هريرة منقطعًا ثم قال: «**قال أصحابه: ما سألناه عن ذلك ولا زادنا عليه، غير أنهم كانوا يرون من رأيهم أنها أربعون سنة**»، وفي هذا تعقب على قول الحليمي: اتفقت الروايات على أن بين النفختين أربعين سنة»[١].

وعلى هذا فالصحيح عدم تحديد أيّ ذلك سيكون لعدم صحته عن المعصوم ﷺ.

* عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «**جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: قرن ينفخ فيه**»[٢].

★ فوائد الحديث:

فيه بيان لحقيقة الصور، وأنه كما فسره النبي ﷺ قرن ينفخ فيه الملك الموكل به[٣].

وقد نقل الحافظ عن قتادة أنه فسر الصور أنه كهيئة البوق، ونقل عن الجوهري أنه البوق الذي يزمر به، وهو معروف. ويقال للباطل. **قال الحافظ**: لا يلزم من كون الشيء مذمومًا أن لا يشبه به الممدوح، فقد وقع تشبيه صوت الوحي بصلصلة الجرس مع النهي عن استصحاب الجرس.. والصور إنما هو قرن كما جاءت في الأحاديث المرفوعة، وقد وقع في قصة بدء الأذان بلفظ البوق والقرن في الآلة التي يستعملها اليهود للأذان»[٤].

* عن أبي سعيد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ**». فكأن ذلك ثقل على أصحاب

---

(١) فتح الباري (١١/ ٤٥٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٢)، وأبو داود (٥/ ١٠٧/ ٤٧٤٢)، والترمذي (٤/ ٥٣٦/ ٢٤٣٠) واللفظ له، وحسنه، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٨/ ١١٤٥٦)، والحاكم (٢/ ٥٠٦) وصححه وأقره الذهبي، وابن حبان (الإحسان ١٦/ ٣٠٣/ ٧٣١٢) وصححه.

(٣) أفاده الشنقيطي في أضواء البيان (٦/ ٦٦٢).

(٤) فتح الباري (١١/ ٤٤٧).

النبي ﷺ، فقال لهم: «قولوا حسبنا اللَّه ونعم الوكيل على اللَّه توكلنا»[(١)].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن طرف صاحب الصور منذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه، كأن عينيه كوكبان دُرِّيّان»[(٢)].

★ **غريب الحديثين:**

أنعم: من النَّعمة، بالفتح، وهي المسرة والفرح والترفه.

★ **فوائد الحديثين:**

قال الطيبي: «قال القاضي: معناه: كيف يطيب عيشي وقد قرب أن ينفخ في الصور، فكنى عن ذلك بأن صاحب الصور وضع رأس الصور في فمه، وهو مترصد مترقب لأن يؤمر فينفخ فيه، واللَّه أعلم»[(٣)].

قال القاري: «والظاهر أن كلًّا من الالتقام والإصغاء وما بعده على الحقيقة، وأنه عبادة لصاحبه؛ بل هو مكلف به»[(٤)].

قال الحافظ: «اشتهر أن صاحب الصور إسرافيل عليه السلام. ونقل فيه الحليمي الإجماع، ووقع التصريح به في حديث وهب بن منبه المذكور وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي وفي حديث أبي هريرة عند ابن مردويه وكذا في حديث الصور الطويل الذي أخرجه عبد بن حميد والطبري وأبو يعلى في «الكبير» والطبراني في «الطوالات» وعلي بن معبد في «كتاب الطاعة والمعصية» والبيهقي في «البعث» من

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٧-٧٣)، والترمذي (٤/ ٥٣٦/ ٢٤٣١) واللفظ له، وحسنه، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٨/ ٤٢٧٣)، والحاكم (٤/ ٥٥٩)، وقال: «لولا أن أبا يحيى التيمي على الطريق لحكمت للحديث بالصحة على شرط الشيخين». قال الشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة (٣/ ٦٧): «قد تابعه جرير عن الأعمش عند أبي يعلى وابن حبان، فالسند صحيح على شرط الشيخين»، وصححه ابن حبان (الإحسان ٣/ ١٠٥/ ٨٢٣).

(٢) أخرجه: أبو الشيخ في «العظمة» (٣/ ٨٤٣-٨٤٤/ ٣٩١)، والحاكم (٤/ ٥٥٨-٥٥٩) واللفظ له، وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي، وزاد عليه فقال: «على شرط مسلم». قال الشيخ الألباني رحمه الله: «أصاب الحاكم وأخطأ الذهبي، فإن الفزاري من رجال مسلم لا من شيوخه، وابن ملاس لم يخرج له مسلم أصلًا، وهو صدوق كما قال ابن أبي حاتم (١/ ٤/ ١١٦)، فليس على شرط مسلم إذن..» اهـ. (انظر «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٦٥». وحسنه الحافظ في «الفتح» (١١/ ٤٤٨).

(٣) شرح الطيبي (١١/ ٣٤٩١).

(٤) المرقاة (٩/ ٤٦٤).

حديث أبي هريرة، ومداره على إسماعيل بن رافع، واضطرب في سنده مع ضعفه، فرواه عن محمد بن كعب القرظي تارة بلا واسطة وتارة بواسطة رجل مبهم، ومحمد عن أبي هريرة تارة بلا واسطة وتارة بواسطة رجل من الأنصار مبهم أيضًا، وأخرجه إسماعيل بن أبي زياد الشامي أحد الضعفاء أيضًا في تفسيره عن محمد بن عجلان عن محمد بن كعب القرظي، واعترض مغلطاي على عبد الحق في تضعيفه الحديث بإسماعيل بن رافع، وخفي عليه أن الشامي أضعف منه، ولعله سرقه منه فألصقه بابن عجلان، وقد قال الدارقطني: إنه متروك، يضع الحديث، وقال الخليلي: شيخ ضعيف شحن تفسيره بما لا يتابع عليه. وقال الحافظ عماد الدين بن كثير في حديث الصور: جمعه إسماعيل بن رافع من عدة آثار وأصله عنده عن أبي هريرة، فساقه كله مساقًا واحدًا. وقد صحح الحديث من طريق إسماعيل بن رافع القاضي أبو بكر بن العربي في سراجه، وتبعه القرطبي في التذكرة، وقول عبد الحق في تضعيفه أولى، وضعفه قبله البيهقي فوقع في هذا الحديث عند علي بن معبد: «**إن اللَّه خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش**» الحديث، وقد ذكرت ما جاء عن وهب بن منبه في ذلك فلعله أصله»[1].

قلت: والذي يظهر للناظر بعد كلام الحافظ ابن حجر أنه لم يصح حديث مرفوع إلى المعصوم صلوات اللَّه وسلامه عليه فيه تسمية صاحب الصور باسم إسرافيل، وهذا من علم الغيب الذي لا يجوز لنا إثبات عقيدة فيه إلا بالنص والدليل، فالواجب على المسلم في مثل هذا التوقف حتى يرد ذلك.

* عن أوس بن أوس أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة. فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة**»[2].

⋆ **غريب الحديث:**

النفخة: هي نفخة الصور.

---

(١) فتح الباري (١١/ ٤٤٨-٤٤٩).

(٢) جزء من حديث أخرجه: أحمد (٤/ ٨)، وأبو داود (١/ ٦٣٥/ ١٠٤٧)، والنسائي (٣/ ١٠١-١٠٢/ ١٣٧٣)، وابن ماجه (١/ ٣٤٥/ ١٠٨٥)، وابن خزيمة (٣/ ١١٨/ ١٧٣٣)، وابن حبان (٣/ ١٩٠-١٩١/ ٩١٠) وصححاه، والحاكم (١/ ٢٧٨) وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

الصعقة: هي الصوت الهائل الذي يموت الإنسان من هوله، وهو النفخة الأولى؛ قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1].

★فوائد الحديث:

فيه أن يوم القيامة -وهو يوم النفخ في الصور لبعث الأجساد من قبورها- يكون في يوم الجمعة[2].

وسيأتي الكلام عليه في سورة (الجمعة) إن شاء اللّٰه تعالى.

* * *

(١) شرح الطيبي (٤/ ١٢٦٦).

(٢) أفاده ابن كثير في «النهاية» (١/ ٢٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «علم من هذا أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل، وهو كذلك، فإن اللَّه أخبر أن الشمس تكور، والقمر يخسف، والنجوم تنذثر، ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها، عندما يتجلى وينزل للفصل بينهم، وفي ذلك اليوم يجعل اللَّه للخلق قوة، وينشئهم نشأة يَقْوَوْنَ على أن لا يحرقهم نوره، ويتمكنون أيضًا من رؤيته، وإلا فنوره تعالى عظيم، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: كتاب الأعمال وديوانه، وضع ونشر؛ ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾[1] ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[2]»[3].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ يقول: وجيء بالنبيين ليسألهم ربهم عما أجابتهم به أممهم، وردت عليهم في الدنيا، حين أتتهم رسالة اللَّه، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾، يعني بالشهداء: أمة محمد ﷺ، يستشهدهم ربهم على الرسل، فيما ذكرت من تبليغها رسالة اللَّه التي أرسلهم بها ربهم إلى أممها، إذ جحدت أممهم أن يكونوا أبلغوهم رسالة اللَّه، والشهداء: جمع شهيد، وهذا نظير قول

---

(١) الكهف: الآية (٤٩).

(٢) الإسراء: الآية (١٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٩٤-٤٩٥)

الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[١]. وقيل: عنى بقوله: ﴿ٱلشُّهَدَآءِ﴾: الذين قتلوا في سبيل الله، وليس لما قالوا من ذلك في هذا الموضع كبير معنى؛ لأن عقيب قوله: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، وفي ذلك دليل واضح على صحة ما قلنا من أنه إنما دعى بالنبيين والشهداء للقضاء بين الأنبياء وأممها، وأن الشهداء إنما هي جمع شهيد، الذين يشهدون للأنبياء على أممهم كما ذكرنا.. وقوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وقضي بين النبيين وأممها بالحقّ، وقضاؤه بينهم بالحقّ، أن لا يحمل على أحد ذنب غيره، ولا يعاقب نفسا إلا بما كسبت»[٢].

قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ يقول ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ووفى الله حينئذ كل نفس جزاء عملها من خير وشرّ، وهو أعلم بما يفعلون في الدنيا من طاعة أو معصية، ولا يعزب عنه علم شيء من ذلك، وهو مجازيهم عليه يوم القيامة، فمثيب المحسن بإحسانه، والمسيء بما أساء»[٣].

* * *

(١) البقرة: الآية (١٤٣).

(٢) جامع البيان (٢٤/ ٣٣).

(٣) جامع البيان (٢٤/ ٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

⋆ غريب الآية:

زمرا: جماعات، واحدها: زمرة. والزمرة الجماعة القليلة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار؟ وإنما يساقون سوقا عنيفا بزجر وتهديد ووعيد، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾[1] أي: يدفعون إليها دفعًا. هذا وهم عطاش ظماء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴿٨٦﴾﴾[2]. وهم في تلك الحال صُمٌّ وبكم وعمي، منهم من يمشي على وجهه، ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾[3].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أي: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا، لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية، الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القوى على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ أي: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾ أي: يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه، ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ أي: ويحذرونكم من شر هذا اليوم؟ فيقول الكفار

---

(١) الطور: الآية (١٣). (٢) مريم: الآيتان (٨٥و٨٦).
(٣) الإسراء: الآية (٩٧).

لهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: قد جاءونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق إلينا من الشِّقْوة التي كنا نستحقها حيث عَدَلْنا عن الحق إلى الباطل، كما قال تعالى مخبرا عنهم في الآية الأخرى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾[١]؛ أي: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾[٢] أي: بعدا لهم وخسارا.

وقوله هاهنا: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين؛ بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به؛ ولهذا قال -جل وعلا- ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها، ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: فبئس المصير وبئس المقيل لكم، بسبب تكبركم في الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل»[٣].

قال الرازي: «دلت الآية على أنه لا وجوب قبل مجيء الشرع؛ لأن الملائكة بينوا أنه ما بقي لهم علة ولا عذر بعد مجيء الأنبياء ﷺ، ولو لم يكن مجيء الأنبياء شرطا في استحقاق العذاب لما بقي في هذا الكلام فائدة»[٤].

* * *

(١) الملك: الآيات (٨-١٠).
(٢) الملك: الآية (١١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١١٩).
(٤) التفسير الكبير (٢٧/ ٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة ﴿زُمَرًا﴾ أي: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ أي: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة.. وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ لم يذكر الجواب ههنا، وتقديره: حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراما وتعظيما، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سَعِدوا وطابوا، وسُرّوا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم. وإذا حذف الجواب هاهنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل..

وقوله: ﴿أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أي: طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم»[١].

قال السعدي: «فبسبب طيبكم ﴿فَٱدْخُلُوهَا﴾ لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون. وقال في النار: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ وفي الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١١٩-١٢٢).

بالواو، إشارة إلى أن أهل النار، بمجرد وصولهم إليها، فتحت لهم أبوابها من غير إنظار ولا إمهال، وليكون فتحها في وجوههم، وعلى وصولهم، أعظم لحرها، وأشد لعذابها.

وأما الجنة، فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد، إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك، فيحتاجون لدخولها إلى الشفاعة عند أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى اللَّه بمحمد ﷺ حتى يشفع، فيشفعه اللَّه تعالى.

وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان، اللتان لا يدخل فيهما إلا من استحقهما، بخلاف سائر الأمكنة والدور»[1].

قال أبو عمر بن عبد البر: «وقد قال بعض أهل العلم بالقرآن واللغة: إن الواو في قوله ﷻ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ فذكر ذلك بالواو. وقال في جهنم: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ بلا واو، قال: فالواو في ذكر الجنة هي واو الثمانية؛ لأن للجنة ثمانية أبواب، فمن هناك ذكرت الواو في ذلك، وواو الثمانية عندهم معروفة، من ذلك قول اللَّه ﷻ: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[2] فأدخل الواو في الصفة الثامنة دون غيرها.

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾[3]. فأدخل الواو في الصفة الثامنة. فسموا هذه الواو: واو الثمانية. ومنها عندهم قول اللَّه ﷻ: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ﴾[4]. وما قالوا من ذلك عندي حسن. وقد كان بعضهم يقول: إن الواو في قوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ ليست واو الثمانية، ولا وجه لما أنكر من ذلك. واللَّه أعلم»[5].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٩٨-٥٠٠).
(٢) التوبة: الآية (١١٢).
(٣) التحريم: الآية (٥).
(٤) الكهف: الآية (٢٢).
(٥) فتح البر (١١/ ١٢).

وقد رد ابن القيم كون هذه (الواو) للثمانية فقال: «وهذا قول ضعيف لا دليل عليه، ولا تعرفه العرب، ولا أئمة العربية، وإنما هو من استنباط بعض المتأخرين.

وقالت طائفة أخرى: الواو زائدة، والجواب الفعل الذي بعدها كما هو في الآية الثانية، وهذا أيضًا ضعيف، فإن زيادة الواو غير معروف في كلامهم، ولا يليق بأفصح الكلام أن يكون فيه حرف زائد لغير معنى ولا فائدة.

وقالت طائفة ثالثة: الجواب محذوف، وقوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ عطف على قوله: ﴿جَآءُوهَا﴾. وهذا اختيار أبي عبيد والمبرد والزجاج وغيرهم.

قال المبرد: وحذف الجواب أبلغ عند أهل العلم.

قال أبو الفتح ابن جني: وأصحابنا يدفعون زيادة الواو ولا يجيزونه، ويرون أن الجواب محذوف للعلم به.

بقي أن يقال: فما السر في حذف الجواب في آية أهل الجنة، وذكره في آية أهل النار؟ فقال: هذا أبلغ في الموضعين، فإن الملائكة تسوق أهل النار إليها وأبوابها مغلقة، حتى إذا وصلوا إليها فتحت في وجوههم فيفجؤهم العذاب بغتة، فحين انتهوا إليها فتحت أبوابها بلا مهلة، فإن هذا شأن الجزاء المترتب على الشرط أن يكون عقيبه فإنها دار الإهانة والخزي، فلم يستأذن لهم في دخولها، ويطلب إلى خزنتها أن يمكنوهم من الدخول، وأما الجنة فإنها دار اللّه ودار كرامته، ومحل خواصه وأوليائه، فإذا انتهوا إليها صادفوا أبوابها مغلقة، فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتحها لهم، ويستشفعون إليه بأولي العزم من رسله، وكلهم يتأخر عن ذلك حتى تقع الدلالة على خاتمهم وسيدهم وأفضلهم، فيقول: أنا لها فيأتي إلى تحت العرش، ويخر ساجدًا لربه فيدعوه ما شاء أن يدعوه، ثم يأذن له في رفع رأسه وأن يسأل حاجته فيشفع إليه سبحانه في فتح أبوابها فيشفعه ويفتحها تعظيمًا لخطرها، وإظهارًا لمنزلة رسوله وكرامته عليه.

وإن مثل هذه الدار التي هي دار ملك الملوك رب العالمين، إنما يدخل إليها بعد تلك الأهوال العظيمة التي أولها من حين عقل العبد في هذه الدار إلى أن انتهى إليها، وما ركبه من الأطباق طبقًا بعد طبق، وقاساه من الشدائد شدة بعد شدة حتى أذن اللّه -تعالى- خاتم أنبيائه ورسله وأحب خلقه إليه أن يشفع إليه في فتحها لهم.

وهذا أبلغ وأعظم في تمام النعمة، وحصول الفرح والسرور، مما يقدر بخلاف ذلك لئلا يتوهم الجاهل أنها بمنزلة الخان الذي يدخله من شاء، فجنة اللَّه عالية غالية»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الجنة وأبوابها وأهلها

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: **«أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين على آثارهم كأحسن كوكب دري في السماء إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا تباغض بينهم ولا تحاسد، لكل امرئ زوجتان من الحور العين، يرى مخ سوقهن من وراء العظم واللحم»**[2].

★ غريب الحديث:

سبق الكلام عليه في سورة (مريم) الآيتان (٦٢و٦٣).

★ فوائد الحديث:

جاء الحديث في معرض بيان أهل الجنة وأوصافهم، وأنهم يدخلونها جماعات، جماعة تلو جماعة.

* عن سهل بن سعد ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«إن في الجنة بابًا يقال له: (الريان)، يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق، فلم يدخل منه أحد»**[3].

★ غريب الحديث:

الرّيّان: قال ابن الأثير: قال الحربي: إن كان هذا اسمًا للباب، وإلا فهو من

---

(١) حادي الأرواح (ص: ٤٧-٤٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٢)، والبخاري (٦/ ٣٩٣/ ٣٢٥٤)، ومسلم (٤/ ٢١٧٨-٢١٧٩/ ٢٨٣٤)، الترمذي (٥/ ٥٨٥/ ٢٥٣٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٩/ ٤٣٣٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣٥)، والبخاري (٤/ ١٣٩/ ١٨٩٦)، ومسلم (٢/ ٨٠٨/ ١١٥٢)، والترمذي (٣/ ١٣٧/ ٧٦٥)، والنسائي (٤/ ٤٧٨/ ٢٢٣٥-٢٢٣٦)، وابن ماجه (١/ ٥٢٥/ ١٦٤٠).

الرَّواء، وهو الماء الذي يُروي. يقال: رَوِيَ يَرْوى، فهو رَيّان، وامرأة رَيَّا. فالرّيّان فعلان من الرَّيّ، والألف والنون زائدتان، مثلهما في عطشان، فيكون من باب رَيا لا رَينَ»[١].

* **فوائد الحديث:**

وقعت المناسبة بين لفظ (الريان) ومعناه؛ لأنه مشتق من الرّيّ، وهو مناسب لحال الصائمين، وأن من دخله لم يظمأ[٢].

قال ابن الأثير: «والمعنى: أن الصُّيّام بتعطيشهم أنفسهم في الدنيا يدخلون من باب الريان؛ ليأمنوا من العطش قبل تمكنهم في الجنة»[٣].

قال القرطبي: «سمي هذا الباب بهذا الاسم، لأنه جزاء الصائمين على عطشهم وجوعهم، واكتفي بذكر الري عن الشبع؛ لأنه يدل عليه من حيث إنه يستلزمه»[٤].

قال القاضي عياض: «هذا نوع كرامة لهم -أي: الصائمين- والاختصاص كما اختصوا به حتى لا يزاحموا فيه، وإن كانت لا مزاحمة في الحقيقة في أبواب الجنة لسعتها، وأنه ليس بموضع ضرر ولا عنت ولا نصب»[٥].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «**من أنفق زوجين في سبيل اللّه نودي من أبواب الجنة، يا عبد اللّه هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد. ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، فقال أبو بكر** رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه، ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: **نعم، وأرجو أن تكون منهم**»[٦].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**لكل أهل عمل باب من أبواب الجنة يدعون منه بذلك العمل ولأهل الصيام باب يدعون منه يقال له: (الريان) فقال**

---

(١) النهاية (٢/ ٢٦١).

(٢) فتح الباري (٤/ ١٤٠).

(٣) النهاية (٢/ ٢٩١).

(٤) المفهم (٣/ ٢١٦).

(٥) إكمال المعلم (٤/ ١١٤).

(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٨و٣٦٦)، والبخاري (٤/ ١٤٠/ ١٨٩٧)، ومسلم (٢/ ٧١١-٧١٢/ ١٠٢٧)، والترمذي (٥/ ٥٧٣-٥٧٤/ ٣٦٧٤)، والنسائي (٤/ ٤٧٨-٤٧٩/ ٢٢٣٧).

أبو بكر: يا رسول اللَّه، هل أحد يدعى من تلك الأبواب كلها؟ قال: نعم، وأنا أرجو أن تكون منهم يا أبا بكر»[1].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة دعي الإنسان بأكبر عمله، فإن كانت الصلاة أفضل دعي بها، وإن كان صيامه أفضل دعي به، وإن كان الجهاد أفضل دعي به، ثم يأتي بابًا من أبواب الجنة يقال له: (الريّان)، يدعى منه الصائمون**. قال أبو بكر الصديق ﷺ: يا رسول اللَّه، أثم أحد يدعى بعملين؟ قال: **نعم، أنت»**[2].

★ غريب الأحاديث:

من أنفق زوجين في سبيل الله: قال أبو عمر: «معناه عند أهل العلم: من أنفق شيئين من نوع واحد، نحو درهمين أو دينارين، أو فرسين، أو قميصين، وكذلك من صلى ركعتين، ومشى في سبيل اللَّه خطوتين، أو صام يومين، ونحو ذلك كله، وإنما أراد واللَّه أعلم أقل التكرار، وأقل وجوه المداومة على العمل من أعمال البر؛ لأن الاثنين أقل الجمع»[3].

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن عبد البر: «وفي هذا الحديث دليل على أن للجنة أبوابًا، وقد قيل: إن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب جهنم سبعة، أجارنا اللَّه من جهنم، وأدخلنا الجنة برحمته آمين»[4].

وقال أيضًا: «وفيه دليل على فضل أبي بكر.. وأنه ينادى يوم القيامة من جميع أبواب الجنة، لتقدمه في أعمال البر، ورجاء رسول اللَّه ﷺ يقين إن شاء الله»[5].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٤٩) واللفظ له. قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٩٨): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عمرو بن علقمة وقد وثقه جماعة» اهـ. وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر (١٩/ ٣٨/ ٩٧٩٩).

(٢) أخرجه: ابن أبي شيبة (٦/ ٣٥٣/ ٣١٩٦٥)، والبزار (كشف الأستار ٤/ ١٧٣/ ٣٤٧٤) واللفظ له. قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٩٨): «رواه البزار، وإسناده حسن».

(٣) فتح البر (١١/ ١١). (٤) فتح البر (١١/ ١٢).

(٥) المصدر السابق (١١/ ١٥).

وقال أيضًا: «وفي الحديث دليل على أن من صام يومين محتسبًا بهما وجه اللَّه، يعطش فيهما نفسه. سقاه اللَّه وأرواه يوم القيامة، وإنما قلنا يومين، ولم نقل يومًا واحدًا، وإن كان جاء في غير هذا الحديث، لقوله ﷺ: «**من أنفق زوجين في سبيل الله**» ثم قال: «**وإن كان من أهل الصيام دعي من باب الريّان**» ومن أرواه اللَّه يوم القيامة، لم يظمأ ولم ينل بؤسًا، وتلك حال من غفر له، وأدخل الجنة برحمة اللَّه، لا حرمنا اللَّه ذلك برحمته آمين»[1].

وقال أيضًا: «فيه أن من أكثر من شيء عرف به، ونسب إليه، ألا ترى إلى قوله: «**فمن كان من أهل الصلاة**» يريد من أكثر منها، فنسب إليها؛ لأن الجميع من أهل الصلاة، وكذلك من أكثر من الجهاد، ومن الصيام، على هذا المعنى، ونسب إليه: دعي من بابه ذلك، واللَّه أعلم»[2].

قال الحافظ: «وفي الحديث إشعار بقلة من يدعى من تلك الأبواب كلها، وفيه إشارة إلى أن المراد ما يتطوع به من الأعمال المذكورة لا واجباتها؛ لكثرة من يجتمع له العمل بالواجبات كلها، بخلاف التطوعات، فقلّ من يجتمع له العمل بجميع أنواع التطوعات، ثم من يجتمع له ذلك إنما يدعى من جميع الأبواب على سبيل التكريم له، وإلا فدخوله إنما يكون من باب واحد، ولعله باب العمل الذي يكون أغلب عليه. واللَّه أعلم»[3].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة، قال رسول اللَّه ﷺ: «**ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير، أو كما بين مكة وبصرى**»[4].

---

(١) المصدر السابق (١١/ ١٥). (٢) المصدر السابق (١١/ ١٠).

(٣) فتح الباري (٧/ ٣٤).

(٤) جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٥و٤٣٦)، والبخاري (٨/ ٥٠٥/ ٤٧١٢)، ومسلم (١/ ١٨٤/ ١٩٤)، والترمذي (٤/ ٥٣٧/ ٢٤٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٨-٣٧٩/ ١١٢٨٦).

★ غريب الحديث:

المصراعين: الواحد: مصراع، وهو الباب.

بُصرى: بالضم والقصر: بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حَوْران.

* عن عتبة بن غزوان ﷺ أنه خطب فقال: «**ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام**»[1].

★ غريب الحديث:

كظيظ من الزحام: أي: ممتلئ.

★ فوائد الحديثين:

قال المناوي: «إن ما تقرر في هذا الخبر يعارضه خبر أبي هريرة المتفق عليه أن «**ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر**»، وفي لفظ: «**كما بين مكة وبصرى**»، وبين الخبر[2] كما ترى بون عظيم، إلا أن البعض حاول التوفيق بأن المذكور في هذا الخبر أوسع الأبواب وهو الباب الأعظم، وما عداه هو المراد في خبر أبي هريرة، وبأن الجنان درجات بعضها فوق بعض، فأبوابها كذلك، فباب الجنة العالية فوق باب الجنة التي تحتها، وكلما علت الجنة اتسعت، فعاليها أوسع مما دونه، وسعة الباب بحسب وسع الجنة، فاختلاف الأخبار لاختلاف الأبواب»[3].

قال ابن القيم: «ولما كانت الجنات درجات بعضها فوق بعض، كانت أبوابها كذلك، وباب الجنة العالية فوق باب الجنة التي تحتها، وكلما علت الجنة اتسعت، فعاليها أوسع مما دونه، وسعة الباب بحسب وسع الجنة، ولعل هذا وجه الاختلاف الذي جاء في مسافة ما بين مصرعي الباب، فإن أبوابها بعضها أعلى من بعض»[4].

* عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: **ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأن**

---

(١) هو طرف من حديث أخرجه: أحمد (٤/ ١٧٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٨-٢٢٧٩/ ٢٩٦٧)، والنسائي في الكبرى كما في «التحفة» (٧/ ٢٣٤/ ٩٧٥٧).

(٢) هكذا بالأصل، ولعله: الخبرين.

(٣) فيض القدير (٥/ ٤٣٤).

(٤) حادي الأرواح (ص: ٥٦).

محمدًا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»[١].

* عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع، إلا فتحت له أبواب الجنة، فقيل له: ادخل بسلام**»[٢].

* عن عتبة بن عبد اللَّه السلمي رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**ما من مسلم يتوفى له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية، من أيها شاء دخل**»[٣].

⋆ غريب الأحاديث:

الكبائر: واحدتها: كبيرة، وهي الفعلة القبيحة من الذنوب المنهي عنها شرعًا العظيم أمرها، كالقتل والزنا والفرار من الزحف وغير ذلك.

يبلغوا الحنث: أي: لم يبلغوا مبلغ الرجال، ويجري عليهم القلم فيكتب عليهم الحِنث، وهو الإثم. وقال الجوهري: بلغ الغلام الحنث: أي: المعصية والطاعة.

⋆ فوائد الأحاديث:

من صفات المتقين الذين يلجون الجنة: المداومة على إتمام الوضوء والذكر الذي يكون بعده. قال هراس: «ورد في القرآن الكريم ذكر أبواب الجنة من غير نص على عددها. قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾[٤]. وقال سبحانه: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾[٥]. وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾.

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٤٥و١٤٦)، ومسلم (١/ ٢٠٩-٢١٠/ ٢٣٤) واللفظ له، وأبو داود (١/ ١١٨-١١٩/ ١٦٩)، والترمذي (١/ ٧٧-٧٨/ ٥٥)، والنسائي (١/ ١٠٠/ ١٤٨)، وابن ماجه (١/ ١٥٩/ ٤٧٠).

(٢) أخرجه: النسائي (٥/ ١٠-١١/ ٢٤٣٧) واللفظ له، وابن خزيمة (١/ ١٦٣/ ٣١٥)، وابن حبان (٥/ ٤٣-٤٤/ ١٧٤٨) وصححاه، والحاكم (٢/ ٢٤٠) وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٨٣-١٨٤)، وابن ماجه (١/ ٥١٢/ ١٦٠٤)، والطبراني (١٧/ ١١٩/ ٢٩٤) واللفظ له. قال البوصيري في الزوائد: «في إسناده شرحبيل بن شفعة، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال أبو داود: شرحبيل وجرير كلهم ثقات اهـ. وباقي رجاله رجال الإسناد على شرط البخاري» اهـ. وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٧٥): «رواه ابن ماجه بإسناد حسن» اهـ.

(٤) الرعد: الآية (٢٣). (٥) ص: الآية (٥٠).

ولكن السنة المطهرة بينت أن عددها ثمانية أبواب، وأن أعلاها هو باب الجهاد، ولها باب يقال له الريان، لا يدخل منه إلا الصائمون، فإذا دخلوا أغلق، فلا يدخل منه أحد غيرهم. ولكل نوع من الأعمال الصالحة باب يدخل منه أهله المبرزون فيه، وقد يدعى المرء من الأبواب كلها إذا وفى بجميع شعب الإيمان»[١].

وقال القرطبي: «ظاهر هذا يقتضي أن قول هذه الكلمات يقتضي دخول الجنة والتخيير في أبوابها، وذلك بخلاف ما ظهر من حديث أبي هريرة الآتي في كتاب: الزكاة، فإن فيه ما يقتضي أن كل من كان من أهل الجنة إنما يدخل من الباب المعين للعمل الذي كان يعمله غالبًا الداخل، فإنه قال فيه: «**فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الصيام، وهكذا الجهاد**» والتوفيق بين الظاهرين: أن كل من يدخل الجنة مخيَّر في الدخول من أي باب شاء، غير أنه إذا عُرض عليه الأفضل في حقه؛ دخل منه مختارًا للدخول منه من غير جبر عليه ولا منع له من الدخول من غيره، ولذلك قال أبو بكر ﵁: ما على من يُدعى من تلك الأبواب من ضرورة. والله أعلم»[٢].

* عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعًا**»[٣].

⋆ فوائد الحديث:

قوله: «**أنا أول الناس يشفع في الجنة**»: قال القرطبي: «أي: في دخول الجنة قبل الناس.. ويحتمل أن يراد به أنه يشفع في ترفيه منازل بعض أهل الجنة. والأول أظهر»[٤].

* عن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك**»[٥].

---

(١) شرح قصيدة ابن القيم (٢/ ٣٣٦-٣٣٧). (٢) المفهم (١/ ٢٠١).
(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٠)، ومسلم (١/ ١٨٨/ ١٩٦).
(٤) المفهم (١/ ٤٥٢-٤٥٣).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٦)، ومسلم (١/ ١٨٨/ ١٩٧).

★ غريب الحديث:

الخازن: أي: الحافظ، وهو المؤتمن على الشيء الذي استحفظه. والخزن: حفظ الشيء في الخزانة، ثم عبر به عن كل حفظ.

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «وذلك أن قيامه إليه ﷺ خاصة إظهارًا لمزيته ورتبته، ولا يقوم في خدمة أحد بعده؛ بل خزنة الجنة يقومون في خدمته، وهو كالملك عليهم، وقد أقامه اللَّه في خدمة عبده ورسوله حتى مشى إليه وفتح له الباب»(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**يدخل الجنة من أمتي زمرة، هم سبعون ألفًا، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر**». وقال أبو هريرة: «**فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نمرة عليه، فقال: يا رسول اللَّه، ادع اللَّه أن يجعلني منهم، قال**: «**اللهم اجعله منهم**». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول اللَّه، ادع اللَّه أن يجعلني منهم، فقال: «**سبقك بها عكاشة**»(٢).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج علينا النبي ﷺ يومًا فقال: «**عرضت عليّ الأمم، فجعل يمرّ النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد، ورأيت سوادًا كثيرًا سد الأفق، فرجوت أن تكون أمتي، فقيل: هذا موسى وقومه، ثم قيل لي: انظر، فرأيت سوادًا كثيرًا سد الأفق، فقيل لي: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سوادًا كثيرًا سد الأفق، فقيل: هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب**». فتفرق الناس ولم يبين لهم. فتذاكر أصحاب النبي ﷺ فقالوا: أما نحن فولدنا في الشرك، ولكنا آمنا باللَّه ورسوله، ولكن هؤلاء هم أبناؤنا. فبلغ النبي ﷺ فقال: «**هم الذين لا يتطيرون ولا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون**». فقام عكاشة بن محصن فقال: أمنهم أنا يا رسول الله؟ فقال: «**نعم**». فقام رجل آخر فقال: أمنهم أنا؟ فقال: «**سبقك بها**

---

(١) حادي الأرواح (ص: ٩٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٢-٣٥١-٤٠٠و٤٠١-٤٥٦)، والبخاري (١١/ ٤٩٥/ ٦٥٤٢)، ومسلم (١/ ١٩٧/ ٢١٦).

عكاشة»[(١)].

* عن عمران بن حصين: قال نبي اللَّه ﷺ: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون». فقام عكاشة فقال: ادع اللَّه أن يجعلني منهم. قال: «أنت منهم». قال: فقام رجل فقال: يا نبي الله! ادع اللَّه أن يجعلني منهم. قال: «سبقك بها عكاشة»[(٢)].

* عن سهل بن سعد أن رسول اللَّه ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفًا -أو سبعمائة ألف، لا يدري أبو حازم أيهما قال- متماسكون آخذ بعضهم بعضًا لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»[(٣)].

* عن أبي أمامة قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفًا، وثلاثَ حثيات من حثياته»[(٤)].

★ غريب الأحاديث:

الرهط: هي الجماعة دون العشرة.

الاسترقاء: طلب الرقية وهي العوذة التي يُرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات.

يتطيّرون: من الطِّيَرة بكسر الطاء وفتح الياء، وقد تُسكّن: هي التشاؤم بالشيء، وهو مصدر تطيّر، يقال: تطيَّر طِيَرَةً. وأصله فيما يقال: التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما. وكان ذلك يصدّهم عن مقاصدهم.

يكتوون: من الكيّ: وهو العلاج بالنار.

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧١-٣٢١)، والبخاري (١٠/ ٢٥٩-٢٦٠/ ٥٧٥٢)، ومسلم (١/ ١٩٩/ ٢٢٠)، والترمذي (٤/ ٥٤٤/ ٢٤٤٦)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٧٨/ ٧٦٠٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣٦و٤٤١و٤٤٣)، ومسلم (١/ ١٩٨/ ٢١٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣٥)، والبخاري (٦/ ٣٩٢/ ٣٢٤٧)، ومسلم (١/ ١٩٨/ ٢١٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٦٨)، والترمذي (٤/ ٥٤٠/ ٢٤٣٧)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٣/ ٤٢٨٦)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٦/ ٢٣٠/ ٧٢٤٦).

★ **فوائد الأحاديث:**

قال ابن بطال -وهو يتحدث عن أبواب الجنة-: «ويمكن أن يكون الباب الباقي باب المتوكلين الذين يدخلون الجنة في سبعين ألفًا من باب واحد، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم كالبدر: الذين لا يسترقون ولا يكتوون، ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»[١].

قال الأشقر: «وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه خص الذين لا حساب عليهم بباب خاص بهم دون غيرهم، وهو باب الجنة الأيمن، وبقيتهم يشاركون بقية الأمم في الأبواب الأخرى»[٢].

قال القرطبي: «قوله: «**أدخِل الجنة من أمتك من لا حساب عليه**» يعني به -واللَّه أعلم-: السبعين ألفًا الذين لا يسترقون، ولا يتطيّرون، وعلى ربهم يتوكّلون. و«**من الباب الأيمن**» هو الذي عن يمين القاصد إلى الجنة بعد جواز الصراط، واللَّه أعلم، وكأنه أفضل الأبواب.

وقوله: «**هم شركاء الناس بسائر الأبواب**» يحتمل أن يعود هذا الضمير إلى الذين لا حساب عليهم، وهو الظاهر، ويكون معناه: أنهم لا يُلجؤون إلى الدخول من الباب الأيمن؛ بل من أي باب شاؤوا. كما جاء في حديث أبي بكر حيث قال: **فهل على من يُدعى من تلك الأبواب من ضرورة؟** فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا، وأرجو أن تكون منهم**». وكما قال عليه الصلاة والسلام فيمن أسبغ الوضوء، وهلّل بعده: «**أدخله اللَّه من أيّ أبواب الجنة الثمانية شاء**»، ويحتمل أن يعود على الأمة، وفيه بعدٌ»[٣].

فيه دليل على عظم ما أكرم اللَّه ﷻ به النبي ﷺ وأمته. **قال القاضي عياض**: «أخبر النبي ﷺ أن هؤلاء لهم مزية بدخولهم الجنة بغير حساب، وبأن وجوههم تضيء إضاءة البدر، فقيل: من هم يا رسول الله؟ فقال: «**الذين لا يكتوون..**» الحديث، فأخبر أن لهؤلاء مزيد خصوص على سائر المؤمنين، وصفات تميزوا بها»[٤].

---

(١) شرح البخاري (٤/ ١٧).
(٢) الجنة والنار (ص: ١٥١).
(٣) المفهم (١/ ٤٣٨).
(٤) إكمال المعلم (١/ ٦٠١).

وقوله: «**تضيء وجوههم إضاءة القمر**»: **قال الحافظ**: «قال القرطبي: المراد بالصورة: الصفة، يعني: أنهم في إشراق وجوههم على صفة القمر ليلة تمامه، وهي ليلة أربعة عشر، ويؤخذ منه أن أنوار أهل الجنة تتفاوت بحسب درجاتهم. قلت: وكذا صفاتهم في الجمال ونحوه»(١).

قوله: «**لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم**»: **قال الحافظ**: «وهذا ظاهره يستلزم الدور، وليس كذلك؛ بل المراد أنهم يدخلون صفًا واحدًا فيدخل الجميع دفعة واحدة، ووصفهم بالأولية والآخرية باعتبار الصفة التي جازوا فيها على الصراط، وفي ذلك إشارة إلى سعة الباب الذي يدخلون منه الجنة، قال عياض: يحتمل أن يكون معنى كونهم متماسكين أنهم على صفة الوقار فلا يسابق بعضهم بعضًا؛ بل يكون دخولهم جميعًا»(٢).

قال ابن القيم: «فإن النبي ﷺ جعل الوصف الذي يستحق به هؤلاء دخول الجنة بغير حساب، وهو تحقيق التوحيد وتجريده، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون، والطيرة نوع من الشرك، ويتوكلون على الله وحده لا على غيره، وتركهم الاسترقاء والتطير هو من تمام التوكل على الله»(٣).

قوله: «**سبعون ألفًا**»: **قال العيني**: «قيل: هم أكثر من هذا العدد، وأجيب: الله أعلم بذلك مع احتمال أن يراد بالسبعين الكثير، وقال بعضهم: إن العدد المذكور على ظاهره. وقوّى كلامه بأحاديث منها: ما رواه الترمذي من حديث أبي أمامة رفعه: «**وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حثيات من حثيات ربي**».

قلت: احتمال الزيادة في السبعين باق»(٤).

* عن أبي هريرة قال: «جئت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة قال: ما كنتم تنادون؟ قال: كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فأجله أو أمده إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة أشهر فإن الله بريء من المشركين

---

(١) فتح الباري (١١/ ٥٠٤).
(٢) فتح الباري (١١/ ٥٠٤-٥٠٥).
(٣) حادي الأرواح (ص: ١١٧).
(٤) عمدة القاري (١٥/ ٦١٤).

ورسوله، ولا يحج بعد العام مشرك. فكنت أنادي حتى صَحِلَ صوتي»[١].

★ **غريب الحديث:**

بَرِئ: سَلِم.

صَحِلَ: من الصَّحَل، بالتحريك: كالبُحَّة، وألاّ يكون حادّ الصوت.

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة**»، وفي حديث أبي هريرة في الذي قتل نفسه: «**نفس مسلمة**»[٢].

قال القرطبي: «قوله: «**لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة**» أي: مؤمنة؛ لأن الإسلام العريّ عن الإيمان لا ينفع صاحبه في الآخرة، ولا يدخله الجنة، وذلك بخلاف الإيمان فإن مجرده يدخل صاحبه الجنة، وإن عوقب بترك الأعمال»[٣].

قال المناوي: «إن اللَّه حرم الجنة على من في قلبه خبث فلا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره، فإنها دار الطيبين ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ فمن تطهر في الدنيا من البلايا والمصائب ولقي اللَّه طاهرًا من خبثه، دخلها بغير تعوق، ومن لم يتطهر منها فإن كانت نجاسته عينية كالكافر لم يدخلها بحال، وإن كانت عارضية دخلها بعد تطهيره بالنار»[٤].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٩)، والنسائي (٥/ ٢٥٩/ ٢٩٥٨) واللفظ له، والحاكم (٢/ ٣٣١) وصححه وأقره الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٩)، والبخاري (٦/ ٢٢٠-٢٢١/ ٣٠٦٢)، ومسلم (١/ ١٠٥-١٠٦/ ١١١)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٧٨/ ٨٨٨٣) مختصرًا.

(٣) المفهم (١/ ٣٢٠).

(٤) فيض القدير (٢/ ٢٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾

⋆ غريب الآية:

نتبوأ من الجنة: أي: نتخذ منها منازل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير، يقولون عند ذلك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ أي: الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام، كما دعوا في الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[1]، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[2]، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾[3].

وقولهم: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسدي، وابن زيد: أي أرض الجنة.

وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[4]، ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي: أين شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وصف تربة الجنة

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فُرِج

---

(١) آل عمران: الآية (١٩٤).
(٢) الأعراف: الآية (٤٣).
(٣) فاطر: الآيتان (٣٤و٣٥).
(٤) الأنبياء: الآية (١٠٥).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٢٣).

عن سقف بيتي وأنا بمكة، ثم ساق حديث الإسراء وفيه: «ثم أُدخلت الجنة، فإذا فيها حبائل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»[١].

* عن أبي سعيد قال: «قال رسول اللَّه ﷺ لابن صائد: ما تربة الجنة؟ قال: درمكة بيضاء مسك يا أبا القاسم! قال: صدقت»[٢].

⋆ غريب الحديثين:

حبايل اللؤلؤ: قال الحافظ: «كذا وقع لجميع رواة البخاري في هذا الموضع بالحاء المهملة ثم الموحدة وبعد الألف تحتانية ثم لام، وذكر كثير من الأئمة أنه تصحيف، وإنما هو «**جنابذ**» بالجيم والنون وبعد الألف موحدة ثم ذال معجمة، كما وقع عند المصنف في أحاديث الأنبياء من رواية ابن المبارك وغيره عن يونس، وكذا عند غيره من الأئمة. ووجدت في نسخة معتمدة من رواية أبي ذر في هذا الموضع «**جنابذ**» على الصواب، وأظنه من إصلاح بعض الرواة»[٣].

درمكة بيضاء: قال العلماء: معناه: أنها في البياض درمكة، وفي الطيب مسك، والدرمك هو الدقيق الحواري الخالص البياض[٤].

⋆ فوائد الحديثين:

قال القاضي عياض: «وفيه دليل على وجود الجنة والنار وخلقهما على ما ذهب إليه أهل السنة والحديث، وأن الجنة في السماء أو فوقها وجهتها على ما جاءت به ظواهر الأحاديث، وأن العرش سقفها»[٥].

وفيه أيضًا دليل على وجود الجنابذ في الجنة وهي القباب، سميت بذلك تشبيهًا لها بجنابذ الورود قبل تفتحها[٦].

قال الحافظ ابن رجب: «وهذا يدل على أن لونها بيضاء، وقد يكون منها ما هو

---

(١) جزء من حديث أخرجه: أحمد (٥/ ١٤٣-١٤٤)، والبخاري (١/ ٦٠٥-٦٠٦/ ٣٤٩)، ومسلم (١/ ١٤٨-١٤٩/ ١٦٣)، والنسائي في الكبرى (١/ ١٤٠/ ٣١٤) مختصرًا.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٤-٢٥)، ومسلم (٤/ ٢٢٤٣/ ٢٩٢٨).

(٣) فتح الباري (١/ ٦١١).

(٤) شرح مسلم للنووي (١٨/ ٤٢).

(٥) إكمال المعلم (١/ ٥٠٣).

(٦) أفاده ابن رجب في «فتح الباري» (٢/ ٣٢٥).

أبيض، ومنها ما هو أصفر كالزعفران»[1].

وقال ابن القيم: «ذهبت طائفة من السلف إلى أن تربتها -أي: الجنة- متضمنة للنوعين: المسك والزعفران؛ قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا محمد بن أبي عبيد عن أبيه عن الأعمش عن مالك بن الحارث قال: قال معتب بن سمي: الجنة ترابها المسك والزعفران، ويحتمل معنيين آخرين.

أحدهما: أن يكون التراب من زعفران، فإذا عجن بالماء صار مسكًا، والطين يسمى ترابًا..

المعنى الثاني: أن يكون زعفرانًا باعتبار اللون مسكًا باعتبار الرائحة، وهذا من أحسن شيء يكون، البهجة والإشراق لون الزعفران، والرائحة رائحة المسك، وكذلك تشبيهها بالدرمك، وهو الخبز الصافي الذي يضرب لونه إلى صفرة مع لينها ونعومتها، وهذا معنى ما ذكره سفيان بن عيينة عن أبي نجيح عن مجاهد بهذا، أرض الجنة من فضة وترابها المسك، فاللون في البياض لون الفضة، والرائحة رائحة المسك»[2].



(١) فتح الباري (٢/ ٣٢٧).

(٢) حادي الأرواح (ص: ١٢٣-١٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حافّين: جمع حافّ، وهو المحدق بالشيء؛ من حففت بالشيء: إذا أحطت به، وهو مأخوذ من الحفاف وهو الجانب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نزل كُلا في المحل الذي يليق به ويصلح له، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بين الخلائق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

ثم قال: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ونطق الكون أجمعه -ناطقه وبهيمه- لله رب العالمين، بالحمد في حكمه وعدله؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل؛ بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شَهِدَت له بالحمد»[1].

قال ابن القيم: «وقد نبه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره، بأن حمد نفسه في أول الخلق وآخره، وعند الأمر والشرع، وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على تفرده بالإلهية وعلى حياته، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك، وموالاة أحد من خلقه لحاجته إليه، وحمد نفسه على علوه وكبريائه، وحمد نفسه في الأولى والآخرة، وأخبر عن سريان حمده في العالم العلوي والسفلي، ونبه على هذا كله في كتابه، وحمد نفسه

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٢٥).

عليه، فتنوع حمده وأسباب حمده، وجمعها تارة وفرقها أخرى؛ ليتعرف إلى عباده ويعرفهم كيف يحمدونه، وكيف يثنون عليه، وليتحبب إليهم بذلك، ويحبهم إذا عرفوه وأحبوه وحمدوه، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[1] وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾[2] وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾[4] وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾[5] وقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾[6] وقال: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٥﴾[7] وقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾[8].

وأخبر عن حمد خلقه له بعد فصله بينهم، والحكم لأهل طاعته بثوابه وكرامته، والحكم لأهل معصيته بعقابه وإهانته، ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وأخبر عن حمد أهل الجنة له، وأنهم لم يدخلوها إلا بحمده، كما أن أهل النار لم يدخلوها إلا بحمده، فقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[9] و﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾[10] وقال عن أهل النار: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٧٤ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٧٥﴾[11] وقال: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ

---

(١) الفاتحة: الآيات (٢-٤).
(٢) الأنعام: الآية (١).
(٣) الكهف: الآيتان (١و٢).
(٤) سبأ: الآية (١).
(٥) فاطر: الآية (١).
(٦) القصص: الآية (٧٠).
(٧) غافر: الآية (٦٥).
(٨) الروم: الآيتان (١٧و١٨).
(٩) الأعراف: الآية (٤٣).
(١٠) يونس: الآية (١٠).
(١١) القصص: الآيتان (٧٤و٧٥).

ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾[١] وشهدوا على أنفسهم بالكفر والظلم وعلموا أنهم كانوا كاذبين في الدنيا، مكذبين بآيات ربهم، مشركين به جاحدين لإلهيته، مفترين عليه، وهذا اعتراف منهم بعدله فيهم، وأخذهم ببعض حقه عليهم، وأنه غير ظالم لهم، وأنهم إنما دخلوا النار بعدله وحمده، وإنما عوقبوا بأفعالهم وبما كانوا قادرين على فعله وتركه، لا كما تقول الجبرية، وتفصيل هذه الحكمة مما لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة به، ولا إلى التعبير عنه، ولكن بالجملة فكل صفة عليا، واسم حسن، وثناء جميل، وكل حمد ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام، فهو لله ﷻ على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها، وجميع ما يوصف به ويذكر به، ويخبر عنه به، فهو محامد له وثناء وتسبيح وتقديس، فسبحانه وبحمده لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه؛ بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني به عليه خلقه، فله الحمد أولا وآخرا، حمدا كثيرًا طيبا مباركا فيه، كما ينبغي لكرم وجهه، وعز جلاله، ورفيع مجده، وعلو جده»[٢].

* * *

(١) الملك: الآية (١١).

(٢) طريق الهجرتين (ص: ١٣٠-١٣٢).



سورة غافر

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل هذه السورة

* عن المهلب بن أبي صفرة أخبرني من سمع النبي ﷺ يقول: «**إن بُيِّتُّم فليكن شعاركم: (حم لا ينصرون)**»[1].

* عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «**إنكم ستلقون العدو غدًا وإن شعاركم: (حم لا ينصرون)**»[2].

★ غريب الحديثين:

إن بُيِّتُّم: تبييت العدو: هو أن يقصد في الليل من غير أن يعلم فيؤخذ بغتة، وهو البيات.

شعاركم: علامتكم التي تعرفون بها أصحابكم هذا الكلام. والشعار في الأصل: العلامة التي تنصب ليعرف الرجل بها.

★ فوائد الحديثين:

قال الطيبي: «نبه ﷺ على أن ذكرها لعظم شأنها وشرف منزلتها عند الله تعالى. مما يستظهر به المسلمون على استنزال النصر عليهم والخذلان على عدوهم. فأمرهم

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٦٥) وفي سنده شريك بن عبد الله النخعي، وأبو داود (٣/ ٧٤/ ٢٥٩٧) واللفظ له، والترمذي (٤/ ١٧٠/ ١٦٨٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٧٠-٢٧١/ ٨٨٦١)، والحاكم (٢/ ١٠٧) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين إلا أن فيه إرسالًا، فإذا الرجل الذي لم يسمه المهلب بن أبي صفرة البراء بن عازب»، ووافقه الذهبي، وصحح ابن كثير أيضًا إسناده (٧/ ١١٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٩) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٧-١٥٨/ ١٠٤٥١-١٠٤٥٢)، والحاكم (٢/ ١٠٧) وصححه ووافقه الذهبي.

أن يقولوا: (حم)، ثم استأنف وقال: (لا ينصرون) جوابًا لسائل عسى أن يقول: ماذا يكون إذا قلت هذه الكلمة؟ فقال: لا ينصرون»[١].

قال البنا: «والمراد أنهم جعلوا العلامة بينهم لمعرفة بعضهم في ظلمة الليل هو التكلم بلفظ الشعار عند هجوم العدو عليهم، واختار رسول اللَّه ﷺ أن يكون شعارهم لفظ: (حم لا ينصرون)؛ لما فيه من التفاؤل بعدم انتصار الخصم من حصول الغرض بالشعار، واللَّه أعلم»[٢].

* * *

(١) شرح الطيبي (٨/ ٢٧٠٤).

(٢) بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني (١٤/ ٥٦).

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾

★ **غريب الآية:**

العزيز: الغالب الممتنع على من يريده بالقهر والغلبة.

التوب: التوبة. قال القرطبي: والتوب: يجوز أن يكون مصدر تاب. ويحتمل أنه جمع توبة، نحو: دَوْمَةٍ ودَوْمٍ.

الطول: التفضل والإنعام. يقال: اللهم طُلْ علينا؛ أي: أنعم وتفضل. ومنه: قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا﴾[1]؛ أي: غنىً وسعة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «جمع -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين؛ هما جلب النفع ودفع الضر، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحًا في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[3] الآية، وقوله تعالى في آخر (الأنعام): ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾[4]، وقوله في (الأعراف): ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[5]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معروفة»[6].

قال ابن القيم: «تأمل كيف افتتح الآية بقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، والتنزيل

---

(١) النساء: الآية (٢٥).
(٢) الحجر: الآيتان (٤٩-٥٠).
(٣) الأعراف: الآية (١٥٦).
(٤) الأنعام: الآية (١٦٥).
(٥) الأعراف: الآية (١٦٧).
(٦) أضواء البيان (٦/ ٣٧٢).

يستلزم علو المنزل من عنده، لا تعقل العرب من لغتها ؛ بل ولا غيرها من الأمم السليمة الفطرة إلا ذلك، وقد أخبر أن تنزيل الكتاب منه، فهذا يدل على شيئين : أحدهما : علوه تعالى على خلقه، والثاني : أنه هو المتكلم بالكتاب المنزل من عنده لا غيره، فإنه أخبر أنه منه، وهذا يقتضي أن يكون منه قولا ، كما أنه منه تنزيلا ، فإن غيره لو كان هو المتكلم به لكان الكتاب من ذلك الغير، فإن الكلام إنما يضاف إلى المتكلم به.

ومثل هذا : ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾[1] ومثله : ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾[2] ومثله : ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[3] فاستمسك بحرف (مِنْ) في هذه المواضع، فإنه يقطع حجج شعب المعتزلة والجهمية.

وتأمل كيف قال : (تنزيل من) ولم يقل : تنزيله، فتضمنت الآية إثبات علوه وكلامه، وثبوت الرسالة.

ثم قال : ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ فتضمن هذان الاسمان صفتي القدرة والعلم، وخلق أعمال العباد، وحدوث كل ما سوى الله ؛ لأن القدرة هي قدرة اللّٰه كما قال أحمد بن حنبل، فتضمنت إثبات القدر، ولأن عزته تمنع أن يكون في ملكه ما لا يشاؤه، أو أن يشاء ما لا يكون، فكانت عزته تبطل ذلك. وكذلك كمال قدرته توجب أن يكون خالق كل شيء، وذلك ينفي أن يكون في العالم شيء قديم لا يتعلق به خلقه ؛ لأن كمال قدرته وعزته يبطل ذلك، ثم قال : ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ والذنب مخالفة شرعه وأمره، فتضمن هذان الاسمان إثبات شرعه وإحسانه وفضله.

ثم قال : ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ وهذا جزاؤه للمذنبين، وذو الطول جزاؤه للمحسنين، فتضمنت الثواب والعقاب.

ثم قال : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فتضمن ذلك التوحيد والمعاد، فتضمنت الآيتان إثبات صفة العلو والكلام والقدرة والعلم والقدر، وحدوث العالم والثواب والعقاب والتوحيد والمعاد.

وتنزيل الكتاب منه على لسان رسوله يتضمن الرسالة والنبوة.

---

(١) السجدة : الآية (١٣).
(٢) النحل : الآية (١٠٢).
(٣) فصلت : الآية (٤٢).

فهذه عشرة قواعد الإسلام والإيمان، تجلى على سمعك في هذه الآية العظيمة، ولكن حور تزف إلى ضرير مقعد. فهل خطر ببالك قط أن هذه الآية تتضمن هذه العلوم والمعارف مع كثرة قراءتك لها وسماعك إياها، وهكذا سائر آيات القرآن؟، فما أشدها من حسرة، وأعظمها من غبنة على من أفنى أوقاته في طلب العلم، ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن، ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه، فاللَّه المستعان»[1].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ أي: تنزيل هذا الكتاب -وهو القرآن- من اللَّه ذي العزة والعلم، فلا يرام جنابه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه.

وقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ أي: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخَضَع لديه.

وقوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر اللَّه وبغى، وقد اجتمع في هذه الآية الرجاء والخوف. وهذه كقوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ يقرن هذين الوصفين كثيرًا في مواضع متعددة من القرآن؛ ليبقى العبد بين الرجاء والخوف.. والمعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام، التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[2].

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نظير له في جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه، ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب، فيجازي كل عامل بعمله، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[3]»[4].

قال السعدي: «ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من اللَّه الموصوف بهذه الأوصاف، أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني. فإن القرآن إما إخبار عن أسماء اللَّه وصفاته وأفعاله، وهذه أسماء وأوصاف وأفعال. وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة، فهي من تعليم العليم لعباده.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٩٣-١٩٤).
(٢) إبراهيم: الآية (٣٤).
(٣) الرعد: الآية (٤١).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١١٧-١١٨).

وإما إخبار عن نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ . وإما إخبار عن نقمه الشديدة، وعما يوجبها ويقتضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ . وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ . وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوى اللَّه، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ . وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن كل بني آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون

* عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

خطّاء: بالتشديد: كثير الخطأ. والمراد بالخطأ: المعصية عمدًا أو مطلقًا بناءً على أنه الخطأ المقابل للصواب دون العمد.

★ **فوائد الحديث:**

قال الصنعاني: «والحديث دالّ على أنه لا يخلو من الخطيئة إنسان؛ لما جُبل عليه هذا النوع من الضعف، وعدم الانقياد للملة في فعل ما إليه دعاه، وترك ما عنه نهاه، ولكنه تعالى بلطفه فتح باب التوبة لعباده، وأخبر أن خير الخطائين التوابون،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٠٢-٥٠٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٩٨)، والترمذي (٤/ ٥٦٨-٥٦٩/ ٢٤٩٩) وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة عن قتادة»، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٠/ ٤٢٥١) واللفظ له، والحاكم (٤/ ٢٤٤) وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبي: «علي لين»، وحسنه الشيخ الألباني.

المكثرون للتوبة على قدر كثرة الخطأ، وفي الأحاديث أدلة على أن العبد إذا عصى الله وتاب تاب الله عليه، ولا يزال كذلك ولن يهلك على الله إلا هالك»[١].

قال المناوي: «يعني أن العبد لا بد أن يجري عليه ما سبق به القدر، فكأنه قال: لا بد لك من فعل الذنوب والخطايا لأن ذلك مكتوب عليك فأَحدِث توبة، فإنه لا يؤتى العبد من فعل المعصية وإن عظمت وكثرت، وإنما يؤتى من ترك التوبة وتأخيرها، فإن الله غفور يحب التوابين وقد قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[٢] فما وصفهم بعدم السيئة أصلًا»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالعبد المؤمن إذا تاب وبدَّل الله سيئاته حسنات، انقلب ما كان يضره من السيئات بسبب توبته حسنات ينفعه الله بها، فلم تبق الذنوب بعد التوبة مضرة له، بل كانت توبته منها من أنفع الأمور له، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية، فمن نسي القرآن ثم حَفِظَه خير من حِفْظِه الأول لم يضره النسيان، ومن مرض ثم صح وقوي لم يضره المرض العارض.

والله -تعالى- يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه؛ ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع، والخشوع لله والإنابة إليه، وكمال الحذر في المستقبل والاجتهاد في العبادة ما لم يحصل بدون التوبة كمن ذاق الجوع والعطش، والمرض والفقر والخوف، ثم ذاق الشِّبَع والرِّي، والعافية والغنى والأمن، فإنه يحصل له من المحبة لذلك وحلاوته ولذته، والرغبة فيه وشكر نعمة الله عليه، والحذر أن يقع فيما حصل أولًا ما لم يحصل بدون ذلك..

وينبغي أن يعرف أن التوبة لا بد منها لكل مؤمن، ولا يكمل أحد ويحصل له كمال القرب من الله، ويزول عنه كل ما يكره إلا بها.

ومحمد ﷺ أكمل الخلق وأكرمهم على الله، وهو المقدم على جميع الخلق في أنواع الطاعات، فهو أفضل المحبين لله، وأفضل المتوكلين على الله، وأفضل العابدين له، وأفضل العارفين به، وأفضل التائبين إليه، وتوبته أكمل من توبة غيره؛ ولهذا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[٤].

---

(١) سبل السلام (٤/ ٣١٥-٣١٦).

(٢) القصص: الآية (٥٤).

(٣) فيض القدير (٥/ ١٦-١٧).

(٤) مجموع الفتاوى (١٥/ ٥٥-٥٦).

قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤﴾

★ **غريب الآية:**

تَقَلُّبُهُمْ: أي: تصرفهم في البلاد للتجارة والكسب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة، أنه لا يجادل في آيات اللَّه؛ أي: لا يخاصم فيها محاولًا ردها، وإبطال ما جاء فيها، إلا الكفار.

وقد بين تعالى في غير هذا الموضع الغرض الحامل لهم على الجدال فيها مع بعض صفاتهم، وذلك في قوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾[1] وأوضح ذلك الغرض في هذه السورة الكريمة، في قوله: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾[2].

وقد قدمنا في سورة (الحج) أن الذين يجادلون في اللَّه منهم أتباع يتبعون رؤساءهم المضلين من شياطين الإنس والجن؛ وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾[3].

وإن منهم قادة هم رؤساؤهم المتبوعون وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾[4] الآية.

وبين تعالى في موضع آخر أن من أنواع جدال الكفار، جدالهم للمؤمنين الذين

---

(١) الكهف: الآية (٥٦).
(٢) غافر: الآية (٥).
(٣) الحج: الآيتان (٣-٤).
(٤) الحج: الآيتان (٨-٩).

استجابوا لله وآمنوا به وبرسوله؛ ليردوهم إلى الكفر بعد الإيمان، وبين بطلان حجة هؤلاء، وتوعدهم بغضبه عليهم، وعذابه الشديد، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾[1].

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ نهى اللَّه -جل وعلا- نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة ليشرع لأمته عن أنْ يغره تقلب الذين كفروا في بلاد اللَّه، بالتجارات والأرباح، والعافية وسعة الرزق، كما كانت قريش تفيض عليها الأموال من أرباح التجارات وغيرها من رحلة الشتاء والصيف المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾﴾[2] أي: إلى اليمن والشام، وهم مع ذلك كفرة فجرة، يكذبون نبي اللَّه ويعادونه.

والمعنى: لا تغتر بإنعام اللَّه عليهم، وتقلبهم في بلاده في إنعام وعافية، فإن اللَّه -جل وعلا- يستدرجهم بذلك الإنعام، فيمتعهم به قليلًا، ثم يهلكهم فيجعل مصيرهم إلى النار.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾[4] وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات.

والفاء في قوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾، سببية؛ أي: لا يكن تقلبهم في بلاد اللَّه، متنعمين بالأموال والأرزاق، سببًا لاغترارك بهم، فتظن بهم ظنًا حسنًا؛ لأن ذلك التنعم تنعم استدراج، وهو زائل عن قريب، وهم صائرون إلى الهلاك

---

(١) الشورى: الآية (١٦).
(٢) قريش: الآية (٢).
(٣) آل عمران: الآيتان (١٩٦ و١٩٧).
(٤) لقمان: الآيتان (٢٣ و٢٤).
(٥) البقرة: الآية (١٢٦).
(٦) يونس: الآيتان (٦٩ و٧٠).

والعذاب الدائم»[١].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ما يخاصم في حجج اللَّه وأدلته على وحدانيته بالإنكار لها إلا الذين جحدوا توحيده. وقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ يقول -جل ثناؤه-: فلا يخدعك يا محمد تصرفهم في البلاد وبقاؤهم ومكثهم فيها، مع كفرهم بربهم، فتحسب أنهم إنما أمهلوا وتقلبوا، فتصرّفوا في البلاد مع كفرهم باللَّه، ولم يعاجلوا بالنقمة والعذاب على كفرهم؛ لأنهم على شيء من الحق، فإنا لم نمهلهم لذلك، ولكن ليبلغ الكتاب أجله، ولتحقّ عليهم كلمة العذاب، عذاب ربك»[٢].

قال الشوكاني: «أي: ما يخاصم في دفع آيات اللَّه وتكذيبها إلا الذين كفروا، والمراد: الجدال بالباطل، والقصد إلى دحض الحقّ، كما في قوله: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾. فأما الجدال لاستيضاح الحقّ، ورفع اللبس، والبحث عن الراجح والمرجوح، وعن المحكم والمتشابه، ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن، وردّهم بالجدال إلى المحكم، فهو من أعظم ما يتقرّب المتقرّبون، وبذلك أخذ اللَّه الميثاق على الذين أوتوا الكتاب فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾[٤]، وقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٥]»[٦].

قال السعدي: «لا ينبغي للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية، ويظن أن إعطاء اللَّه إياه في الدنيا دليل على محبته له، وأنه على الحق، ولهذا قال: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: ترددهم فيها بأنواع التجارات والمكاسب؛ بل الواجب على العبد أن يعتبر الناس بالحق، وينظر إلى الحقائق الشرعية، ويزن بها الناس، ولا يزن الحق بالناس، كما عليه من لا علم ولا عقل له»[٧].

---

(١) أضواء البيان (٦/ ٣٧٢-٣٧٤).
(٢) جامع البيان (٢٤/ ٤٢).
(٣) آل عمران: الآية (١٨٧).
(٤) البقرة: الآية (١٥٩).
(٥) العنكبوت: الآية (٤٦).
(٦) فتح القدير (٤/ ٦٧٥-٦٧٦).
(٧) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٠٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حكم المراء في القرآن

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**المراء في القرآن كفر**»[١].

* عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص قال: سمع عمرو بن العاص رجلًا يقرأ آية من القرآن فقال: من أقرأكها؟ قال: رسول اللَّه ﷺ. قال: فقد أقرأنيها رسول اللَّه ﷺ على غير هذا، فذهبا إلى رسول اللَّه ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله! آية كذا وكذا ثم قرأها، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**هكذا أنزلت**»، فقال الآخر: يا رسول اللَّه، فقرأها على رسول اللَّه ﷺ وقال: أليس هكذا يا رسول الله؟ قال: «**هكذا أنزلت**» فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فأي ذلك قرأتم فقد أصبتم، ولا تماروا فيه، فإن المراء فيه كفر أو آية الكفر**»[٢].

⋆ غريب الحديثين:

المراء: الجدال، والتماري والمماراة، المجادلة على مذهب الشك والريبة، ويقال للمناظرة مماراه؛ لأن كلا يستخرج ما عند صاحبه ويمتريه، كما يمتري الحالب اللبن من الضرع.

⋆ فوائد الحديثين:

قال الخطابي: «اختلف الناس في تأويله. فقال بعضهم: معنى المراء هنا: الشك فيه كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾[٣] أي: شك. ويقال: بل المراء هو الجدال المشكَّك فيه. وتأوله بعضهم على المراء في قراءته، دون تأويله ومعانيه، مثل أن يقول قائل: هذا قرآن قد أنزله اللَّه -تبارك وتعالى-. ويقول الآخر: لم ينزله اللَّه هكذا، فيكفر به من أنكره.

وقد أنزل اللَّه سبحانه كتابه على سبعة أحرف، كلها شاف كاف، فنهاهم ﷺ عن إنكار القراءة التي يسمع بعضهم بعضًا يقرؤها، وتوعدهم بالكفر عليها لينتهوا عن

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٨-٢٨٦)، وأبو داود (٥/ ٩/ ٤٦٠٣) واللفظ له، والحاكم (٢/ ٢٢٣) وصححه ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ٤/ ٣٢٤-٣٢٥/ ١٤٦٤) وصححه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٥). قال الحافظ في «الفتح» (٩/ ٣٢): «إسناده حسن».

(٣) هود: الآية (١٧).

المراء فيه، والتكذيب به، إذ كان القرآن منزلًا على سبعة أحرف، وكلها قرآن منزل يجوز قراءته، ويجب علينا الإيمان به.

وقال بعضهم: إنما جاء هذا في الجدال بالقرآن في الآي التي فيها ذكر القدر والوعيد، وما كان في معناهما على مذهب أهل الكلام والجدل، وعلى معنى ما يجري من الخوض بينهم فيها، دون ما كان منها في الأحكام وأبواب التحليل والتحريم، والحظر والإباحة، فإن أصحاب رسول اللَّه ﷺ قد تنازعوا فيما بينهم، وتحاجوا بها عند اختلافهم في الأحكام، ولم يتحرجوا عن التناظر بها وفيها، وقد قال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1]. فعُلم أن النهي منصرف إلى غير هذا الوجه، واللَّه أعلم»[2].

قال القاري: «وسماه النبي ﷺ كفرًا باسم ما يخشى عاقبته، وذلك بأن يسند أحدهم كلامه إلى آية ثم يأتي صاحبه بآية أخرى تدافعًا له كأنه يزعم أن الذي أتيت به نقيض ما استدللت به.. قال البيضاوي: المراد بالمراء فيه: التدارؤ، وهو أن يروم تكذيب القرآن بالقرآن ليدفع بعضه ببعض، فيطرق إليه قدحًا وطعنًا، ومن حق الناظر في القرآن أن يجتهد في التوفيق بين الآيات المختلفة ما أمكنه، فإن القرآن يصدق بعضه بعضًا، فإن أشكل عليه شيء من ذلك، ولم يتيسر له التوفيق فليعتقد أنه من سوء فهمه، وليكله إلى عالمه وهو اللَّه تعالى ورسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[3]»[4].

* * *

(١) النساء: الآية (٥٩).
(٢) معالم السنن (٤/ ٢٧٥).
(٣) النساء: الآية (٥٩).
(٤) المرقاة (١/ ٤٩٢-٤٩٣).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾

★ **غريب الآية:**

ليأخذوه: ليهلكوه بالحبس أو القتل. والعرب تسمي الأسير: الأخيذ، لأنه مأسور للقتل. قال الشاعر:

فإمّا تأخذوني تَقْتُلوني ... فكم مِنْ آخِذٍ يهْوَى خُلُودِي

ليدحضوا: أي: ليزيلوا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «ثم قص -تعالى- على رسول اللّه ﷺ قصص الأمم المكذبة رسلها، وأخبره أنهم كانوا من جدالهم لرسله على مثل الذي عليه قومه الذين أرسل إليهم، وأنه أحلّ بهم من نقمته عند بلوغهم أمدهم بعد إعذار رسله إليهم، وإنذارهم بأسه ما قد ذكر في كتابه، إعلاما منه بذلك نبيه أن سنته في قومه الذين سلكوا سبيل أولئك في تكذيبه وجداله، سنته من إحلالِ نقمته بهم، وسطوته بهم، فقال -تعالى ذكره-: كذبت قبل قومك المكذبين لرسالتك إليهم رسولا، المجادليك بالباطل قوم نوح والأحزاب من بعدهم، وهم الأمم الذين تحزبوا وتجمعوا على رسلهم بالتكذيب لها، كعاد وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مَدْيَن وأشباههم..

وقوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وهمت كل أمة من هذه الأمم المكذّبة رسلها، المتحزّبة على أنبيائها، برسولهم الذي أرسل إليهم ليأخذوه فيقتلوه..

قوله: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ يقول: وخاصموا رسولهم بالباطل من الخصومة؛ ليبطلوا بجدالهم إياه وخصومتهم له الحق الذي جاءهم به من عند

اللَّه، من الدخول في طاعته، والإقرار بتوحيده، والبراءة من عبادة ما سواه، كما يخاصمك كفار قومك يا محمد بالباطل.

وقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فأخذت الذين هموا برسولهم ليأخذوه بالعذاب من عندي، فكيف كان عقابي إياهم، ألم أهلكهم فأجعلهم للخلق عبرة، ولمن بعدهم عظة؟ وأجعل ديارهم ومساكنهم منهم خلاء، وللوحوش ثواء»[١].

قال السعدي: «هدد من جادل بآيات اللَّه ليبطلها، كما فعل من قبله من الأمم من قوم نوح وعاد والأحزاب من بعدهم، الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق ليبطلوه، وعلى الباطل لينصروه، وأنه بلغت بهم الحال، وآل بهم التحزب إلى أنه: ﴿هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: يقتلوه. وهذا أبلغ ما يكون للرسل الذين هم قادة أهل الخير الذين معهم الحق الصرف الذي لا شك فيه ولا اشتباه، هموا بقتلهم، فهل بعد هذا البغي والضلال والشقاء إلا العذاب العظيم الذي لا يخرجون منه؟ ولهذا قال في عقوبتهم الدنيوية والأخروية: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: بسبب تكذيبهم وتحزبهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كان أشد العقاب وأفظعه، ما هو إلا صيحة أو حاصب ينزل عليهم، أو يأمر الأرض أن تأخذهم، أو البحر أن يغرقهم، فإذا هم خامدون»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (٢٤/ ٤٢-٤٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٠٤-٥٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾

★ غريب الآية:

حَقَّت: وجبت ولزمت. مأخوذ من الحق، لأنه يلزم المرء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وكما حق على الأمم التي كذبت رسلها التي قصصت عليك يا محمد قصصها عذابي، وحل بها عقابي بتكذيبهم رسلهم، وجدالهم إياهم بالباطل، ليدحضوا به الحق، كذلك وجبت كلمة ربك على الذين كفروا بالله من قومك، الذين يجادلون في آيات الله»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٤/ ٤٣).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: الذين يحملون عرش اللَّه من ملائكته، ومن حول عرشه، ممن يحفّ به من الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ يقول: يصلون لربهم بحمده وشكره ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ يقول: ويقرّون باللَّه أنه لا إله لهم سواه، ويشهدون بذلك، لا يستكبرون عن عبادته ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ يقول: ويسألون ربهم أن يغفر للذين أقرّوا بمثل إقرارهم من توحيد اللَّه، والبراءة من كلّ معبود سواه ذنوبهم، فيعفوها عنهم.. وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ وفي هذا الكلام محذوف، وهو: «يقولون»، ومعنى الكلام ويستغفرون للذين آمنوا يقولون: يا ربنا وسعت كلّ شيء رحمة وعلما. ويعني بقوله: ﴿وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء من خلقك، فعلمت كل شيء، فلم يخف عليك شيء، ورحمت خلقك، ووسعتهم برحمتك.. وقوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ يقول: فاصفح عن جرم من تاب من الشرك بك من عبادك فرجع إلى توحيدك واتبع أمرك ونهيك.. وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ يقول: وسلكوا الطريق الذي أمرتهم أن يسلكوه، ولزموا المنهاج الذي أمرتهم بلزومه، وذلك الدخول في الإسلام.. وقوله: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ يقول: واصرف عن الذين تابوا من الشرك، واتبعوا سبيلك عذاب النار يوم القيامة»[1].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن كمال لطفه تعالى بعباده المؤمنين، وما قيض لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم، من استغفار الملائكة

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٤٣-٤٥).

المقربين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم، وفي ضمن ذلك الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله، وقربهم من ربهم، وكثرة عبادتهم ونصحهم لعباد اللَّه، لعلمهم أن اللَّه يحب ذلك منهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ أي: عرش الرحمن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها، وأقربها من اللَّه تعالى، الذي وسع الأرض والسموات والكرسي، وهؤلاء الملائكة، قد وكلهم اللَّه تعالى بحمل عرشه العظيم، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم، واختيار اللَّه إياهم لحمل عرشه، وتقديمهم في الذكر، وقربهم منه، يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة ﷷ، قال تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾[1].

﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ من الملائكة المقربين في المنزلة والفضيلة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم للّه تعالى، وخصوصًا التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح اللَّه وتحميده؛ لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره، وحمد له تعالى، بل الحمد هو العبادة للّه تعالى، وأما قول العبد: (سبحان اللَّه وبحمده) فهو داخل في ذلك وهو من جملة العبادات.

﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جدًا، أن الملائكة الذين يؤمنون باللَّه ولا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفات حملة العرش

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«أذن لي أن أحدث عن ملك قد مرقت رجلاه الأرض السابعة، والعرش على منكبه وهو يقول: سبحانك أين كنت وأين تكون»**[3].

---

(١) الحاقة: الآية (١٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٠٥-٥٠٧).

(٣) أخرجه: أبو يعلى (١١/ ٤٩٦/ ٦٦١٩)، قال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٣٥): «رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح»، وصححه الحافظ في «المطالب العالية» (٣/ ٢٦٧/ ٣٤٤٩). وله شاهد من حديث جابر يأتي بعده إن شاء اللَّه تعالى.

* عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام**»[1].

★ غريب الحديثين:

مرقت: يقال: مرق السهم من الرمية يمرق مرقًا ومروقًا: خرج من الجانب الآخر. والخوارج يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية أي: يجوزونه ويخرقونه ويتعدونه، وقيل: المروق: أن ينفذ السهم الرمية فيخرج طرفه من الجانب الآخر وسائره في جوفها.

شحمة الأذن: ما لان من أسفلها وهو معلق القرط.

عاتقه: هو ما بين المنكبين إلى أصل العنق.

★ فوائد الحديثين:

قال المناوي: «**«من حملة العرش»**: أي: الذين يحملون عرش الرحمن، الذي هو أعظم المخلوقات، المحيط بجميع العوالم، والعرش السرير. «**ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة**» وفي رواية: «**سبعين عامًا**»: أي: بالفرس الجواد كما في خبر آخر. فما ظنك بطوله وعظم جثته؟! قال الطيبي: والمراد بالسبعمائة عام هنا التكثير لا التحديد؛ لأنه أليق بالكلام وأدعى للمقام»[2].

وانظر بعض الفوائد حول حملة العرش في سورة (سبأ) الآية (٢٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في دعاء الملائكة لبني آدم

* عن صفوان -وهو ابن عبد الله بن صفوان- وكانت تحته الدرداء، قال:

---

(١) أخرجه: أبو داود (٥/ ٩٦/ ٤٧٢٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٣/ ٩٤٨/ ٤٧٦)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٤٢٥/ ١٧٣٠) و(٥/ ٢١٢/ ٤٤١٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٢٨٤-٢٨٥/ ٨٤٦)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٢٣٧٠/ ١٨٩٦٧). قال ابن كثير رحمه الله (٤/ ٤١٤): «وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات» اهـ. وقال الذهبي في «العلو» (ص ١١٤/ ح ٧٥ المختصر): «إسناده صحيح» اهـ. وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ٨٠) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح». قال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٨٥٩): «إسناده على شرط الصحيح». انظر الصحيحة (١٥١).

(٢) فيض القدير (١/ ٤٥٨).

قدمت الشام، فأتيت أبا الدرداء في منزله فلم أجده، ووجدت أم الدرداء، فقالت: أتريد الحج العام؟ فقلت: نعم، قالت: فادع اللَّه لنا بخير، فإن النبي ﷺ كان يقول: **«دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل»**[١].

⋆ فوائد الحديث:

قال النووي: «وفيه فضل الدعاء لأخيه المسلم بظهر الغيب. ولو دعا لجماعة من المسلمين حصلت هذه الفضيلة. ولو دعا لجملة المسلمين فالظاهر حصولها أيضًا. وكان بعض السلف إذا أراد أن يدعو لنفسه يدعو لأخيه المسلم بتلك الدعوة لأنها تستجاب ويحصل له مثلها»[٢].

وقال القرطبي: «المسلم هنا هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده، الذي يحب للناس ما يحب لنفسه؛ لأن هذا هو الذي يحمله حاله وشفقته على أخيه المسلم أن يدعو له بظهر الغيب؛ أي: في حال غيبته عنه، وإنما خص حال الغيبة بالذكر لبعدها عن الرياء، والأغراض المفسدة أو المنقصة؛ فإنه في حال الغيبة يتمحض الإخلاص، ويصح قصد وجه اللَّه تعالى بذلك، فيوافقه الملك في الدعاء، ويبشره على لسان رسوله ﷺ بأن له مثل ما دعا به لأخيه. والأخوة هنا: هي الأخوة الدينية، وقد تكون معها صداقة ومعرفة، وقد لا تكون، وقد يتعين، وقد لا يتعين، فإن الإنسان إذا دعا لإخوانه المسلمين حيث كانوا، وصدق اللَّه في دعائه، وأخلص فيه في حال الغيبة عنهم، أو عن بعضهم، قال الملك له ذلك القول، بل قد يكون ثوابه أعظم؛ لأنه دعا بالخير، وقصده للإسلام، ولكل المسلمين، واللَّه تعالى أعلم»[٣].

قال القاضي عياض: «فيه أن الداعي لأخيه بظهر الغيب له من الأجر بمثل ما دعا به؛ لأنه وإن دعا لغيره فقد عمل عملين صالحين: أحدهما ذكر اللَّه، وهو عمل خير لمسلم يؤجر عليه، وقد نص فيه أنها مستجابة كما نص عليه في الحديث»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٩٥)، مسلم (٤/ ٢٠٩٤-٢٧٣٣)، وأبو داود (٢/ ١٧٦/ ١٥٣٤)، وابن ماجه (٢/ ٩٦٦-٩٦٧/ ٢٨٩٥).
(٢) شرح مسلم (١٧/ ٤١).
(٣) المفهم (٧/ ٦١-٦٢).
(٤) إكمال المعلم (٨/ ٢٢٨).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «لم يبين هنا الآية المتضمنة لوعدهم بالجنات، هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

ولكنه -جل وعلا- أوضح وعده إياهم بذلك في سورة الرعد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾[1]»[2].

قال ابن جرير: «قوله -تعالى ذكره- مخبرًا عن دعاء ملائكته لأهل الإيمان به من عباده، تقول: يا ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ يعني: بساتين إقامة ﴿ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ يعني: التي وعدت أهل الإنابة إلى طاعتك أن تدخلهموها ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ يقول: وأدخل مع هؤلاء الذين تابوا واتبعوا سبيلك جنات عدن من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، فعمل بما يرضيك عنه من الأعمال الصالحة في الدنيا، وذكر أنه يدخل مع الرجل أبواه وولده وزوجته الجنة، وإن لم يكونوا عملوا عمله بفضل رحمة الله إياه»[3].

قال السعدي: «وتضمن ذلك أن المقارن من زوج وولد وصاحب، يسعد بقرينه، ويكون اتصاله به سببًا لخير يحصل له، خارج عن عمله وسبب عمله، كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وقد يقال: إنه لا بد من وجود صلاحهم لقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ فحينئذ يكون ذلك من نتيجة عملهم والله أعلم»[4].

---

(١) الرعد: الآيتان (٢٢-٢٣).
(٢) أضواء البيان (٦/ ٣٧٤).
(٣) جامع البيان (٢٤/ ٤٥).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥١٠).

قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ﴾ فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها، فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السيئ وقاهم جزاء السيئ، وإن كان قوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ﴾ أظهر في عقوبات الأعمال المطلوب وقايتها يومئذ، فإن قيل: فقد سألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم، وهذا هو وقاية العقوبات السيئة، فدل على أن المراد بالسيئات التي سألوا وقايتها الأعمال السيئة، ويكون الذي سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي ﷺ[1]، ولا يرد على هذا قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم، وهي سيئات في نفسها، قيل: وقاية السيئات نوعان:

أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه.

والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة فلا يعاقب عليها، فتضمنت الآية سؤال الأمرين، والظرف تقييد للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية.

وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح، والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم، وقدموا بين يدي استغفارهم توسلهم إلى اللَّه سبحانه بسعة علمه، وسعة رحمته، فسعة علمه تتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها، وضعفهم عن العصمة واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم، وما زين لهم من الدنيا وزينتها، وعلمه بهم إذ أنشأهم من الأرض وإذا هم أجنة في بطون

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٢)، وأبو داود (٢/ ٥٩١-٥٩٢/ ٢١١٨-٢١١٩)، والترمذي (٣/ ٤١٣-٤١٤/ ١١٠٥) وحسنه، والنسائي (٦/ ٣٩٧-٣٩٨/ ٣٢٧٧)، وابن ماجه (١/ ٦٠٩-٦١٠/ ١٨٩٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

أمهاتهم، وعلمه السابق بأنهم لا بد أن يعصوه، وأنه يحب العفو والمغفرة، وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبته، فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء، ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله، وهو صراطه الموصل إليه، الذي هو معرفته ومحبته وطاعته فيما أمر، وترك ما يكره، واتبعوا السبيل التي يحبها، ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم، وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التي وعدهم بها، وهو سبحانه وإن كان لا يخلف الميعاد، فإنه وعدهم بها بأسباب من جملتها دعاء ملائكته لهم بأن يدخلهم إياها برحمته التي منها أن وفقهم لأعمالها، وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها.

ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك، وكمال علمك، فإن العزة كمال القدرة، والحكمة كمال العلم، وبهاتين الصفتين يقضي ﷻ ما يشاء، ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر»[1].

قال السعدي: «وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة كمال معرفتهم بربهم، والتوسل إلى اللَّه بأسمائه الحسنى، التي يحب من عباده التوسل بها إليه، والدعاء بما يناسب ما دعوا اللَّه فيه، فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة، وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التي علم اللَّه نقصها، واقتضاءها لما اقتضته من المعاصي، ونحو ذلك من المبادئ والأسباب التي قد أحاط اللَّه بها علمًا توسلوا بالرحيم العليم.

وتضمن كمال أدبهم مع اللَّه تعالى بإقرارهم بربوبيته لهم الربوبية العامة والخاصة، وأنه ليس لهم من الأمر شيء، وإنما دعاؤهم لربهم صدر من فقير بالذات من جميع الوجوه، لا يُدْلِي على ربه بحالة من الأحوال، إن هو إلا فضل اللَّه وكرمه وإحسانه.

وتضمن موافقتهم لربهم تمام الموافقة، بمحبة ما يحبه من الأعمال التي هي

---

(١) الداء والدواء (ص: ٢٠٩-٢١١).

العبادات التي قاموا بها، واجتهدوا اجتهاد المحبين، ومن العمال الذين هم المؤمنون الذين يحبهم اللَّه تعالى من بين خلقه، فسائر الخلق المكلفين يبغضهم اللَّه إلا المؤمنين منهم، فمن محبة الملائكة لهم دعوا اللَّه، واجتهدوا في صلاح أحوالهم؛ لأن الدعاء للشخص من أدل الدلائل على محبته؛ لأنه لا يدعو إلا لمن يحبه.

وتضمن ما شرحه اللَّه وفصله من دعائهم بعد قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ التنبيه اللطيف على كيفية تدبر كتابه، وأن لا يكون المتدبر مقتصرًا على مجرد معنى اللفظ بمفرده، بل ينبغي له أن يتدبر معنى اللفظ، فإذا فهمه فهمًا صحيحًا على وجهه، نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه وما لا يتم إلا به وما يتوقف عليه، وجزم بأن اللَّه أراده، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص، الدال عليه اللفظ.

والذي يوجب الجزم له بأن اللَّه أراده أمران:

أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنى والمتوقف عليه.

والثاني: علمه بأن اللَّه بكل شيء عليم، وأن اللَّه أمر عباده بالتدبر والتفكر في كتابه.

وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعاني، وهو المخبر بأن كتابه هدى ونور وتبيان لكل شيء، وأنه أفصح الكلام وأجله إيضاحًا، فبذلك يحصل للعبد من العلم العظيم والخير الكثير بحسب ما وفقه اللَّه له»[1].



(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٠٨-٥١٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لَمَقْتُ: المقت: أشد البغض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الذين كفروا بالله ينادون في النار يوم القيامة إذا دخلوها، فمقتوا بدخولهموها أنفسهم حين عاينوا ما أعدّ الله لهم فيها من أنواع العذاب، فيقال لهم: لمقت الله إياكم أيها القوم في الدنيا، إذ تدعون فيها للإيمان بالله فتكفرون، أكبر من مقتكم اليوم أنفسكم لما حل بكم من سخط الله عليكم»[١].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة، والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها، من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقونها، لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك، ويقال لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ أي: إياكم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أي: حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق، فكفرتم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له، وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم، فهذا ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: فلم يزل هذا المقت مستمرًا عليكم، والسخط من الكريم حَالا بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت، فاليوم حلَّ عليكم غضب الله وعقابه حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه»[٢].

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٤٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥١١).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «والمقصود.. أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي اللَّه ﷻ في عرصات القيامة، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾[١] فلا يجابون. ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾[٢] فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسيسها ومقامعها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾[٣]، ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾[٤] وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال، وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة، وهي قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي: قدرتك عظيمة، فإنك أحييتنا بعدما كنا أمواتًا، ثم أمتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادر على ذلك، لنعمل غير الذي كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون. فأجيبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا، ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه؛ بل تجحده وتنفيه»[٥].

---

(١) السجدة: الآية (١٢).
(٢) الأنعام: الآيتان (٢٧و٢٨).
(٣) فاطر: الآية (٣٧).
(٤) المؤمنون: الآيتان (١٠٧و١٠٨).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٢٣).

قال الشوكاني: «ثم ذكر سبحانه اعترافهم بعد أن صاروا في النار بما كذبوا به في الدنيا، فقال حاكيًا عنهم: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ التي أسلفناها في الدنيا من تكذيب الرّسل، والإشراك باللَّه، وترك توحيده، فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وقد جعلوا اعترافهم هذا مقدّمة لقولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: هل إلى خروج لنا من النار، ورجوع لنا إلى الدنيا من سبيل، ومثل هذا قولهم الذي حكاه اللَّه عنهم: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾[(١)]، وقوله: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾[(٢)]، وقوله: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾[(٣)] الآية»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ قال: «**هي مثل التي في البقرة**: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[(٥)] كانوا أمواتًا في أصلاب آبائهم ثم أخرجهم فأحياهم ثم يميتهم ثم يحييهم بعد الموت»[(٦)].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «اختلف أهل التأويل في معنى قولهم: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك: كانوا أمواتًا في أصلاب آبائهم ثم أحياهم ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها في الدنيا، ثم أحياهم للبعث والقيامة، فهاتان حياتان وموتتان، وهو قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ وقال السدي: أميتوا في الدنيا ثم أحياهم في القبور للمسألة، ثم أميتوا ثم أحيوا في الآخرة. وإنما صار إلى هذا لأن لفظ الميت لا ينطلق في العرف على النطفة. واستدل العلماء من هذا في إثبات سؤال القبر، ولو كان الثواب والعقاب للروح دون الجسد فما معنى الإحياء والإماتة؟ والروح عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح لا تموت ولا تتغير ولا تفسد،

---

(١) الشورى: الآية (٤٤).
(٢) السجدة: الآية (١٢).
(٣) الأنعام: الآية (٢٧).
(٤) فتح القدير (٤/ ٦٧٩).
(٥) البقرة: الآية (٢٨).
(٦) أخرجه: ابن جرير في التفسير (ج ٢٤/ ٤٧)، والطبراني (٩/ ٢١٤/ ٩٠٤٤-٩٠٤٥)، والحاكم (٢/ ٤٣٧) وصححه ووافقه الذهبي.

وهو حي لنفسه لا يتطرق إليه موت ولا غشية ولا فناء. وقال ابن زيد في قوله: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الآية: خلقهم في ظهر آدم وأخرجهم وأحياهم وأخذ عليهم الميثاق، ثم أماتهم ثم أحياهم في الدنيا ثم أماتهم»[1].

قال الشنقيطي: «التحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه، أن المراد بالإماتتين في هذه الآية الكريمة، الإماتة الأولى التي هي كونهم في بطون أمهاتهم نطفًا وعلقًا ومضغًا قبل نفخ الروح فيهم، فهم قبل نفخ الروح فيهم لا حياة لهم، فأطلق عليهم بذلك الاعتبار اسم الموت.

والإماتة الثانية: هي إماتتهم وصيرورتهم إلى قبورهم عند انقضاء آجالهم في دار الدنيا.

وأن المراد بالإحياءتين، الإحياءة الأولى في دار الدنيا، والإحياءة الثانية، التي هي البعث من القبور إلى الحساب والجزاء والخلود الأبدي، الذي لا موت فيه، إما في الجنة وإما في النار.

والدليل من القرآن على أن هذا القول في الآية هو التحقيق، أن اللَّه صرح به واضحًا في قوله -جل وعلا-: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[2] وبذلك تعلم أن ما سواه من الأقوال في الآية لا معوّل عليه.

والأظهر عندي أن المسوغ الذي سوغ إطلاق اسم الموت على العلقة والمضغة مثلًا في بطون الأمهات، أن عين ذلك الشيء، الذي هو نفس العلقة والمضغة، له أطوار كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾[3] ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾[4]، ولما كان ذلك الشيء تكون فيه الحياة في بعض تلك الأطوار، وفي بعضها لا حياة له، صح إطلاق الموت والحياة عليه من حيث إنه شيء واحد، ترتفع عنه الحياة تارة وتكون فيه أخرى»[5].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٩٤).
(٢) البقرة: الآية (٢٨).
(٣) نوح: الآية (١٤).
(٤) الزمر: الآية (٦).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٣٧٤-٣٧٥).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «أي: ذلك الذي أنتم فيه من العذاب بسبب أنه إذا دعي اللَّه في الدنيا وحده دون غيره كفرتم به، وتركتم توحيده ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ﴾ غيره من الأصنام، أو غيرها ﴿تُؤۡمِنُواْ﴾ بالإشراك به، وتجيبوا الدّاعي إليه، فبيّن سبحانه لهم السبب الباعث على عدم إجابتهم إلى الخروج من النار، وهو ما كانوا فيه من ترك توحيد اللَّه، وإشراك غيره به في العبادة التي رأسها الدّعاء، ومحل ذلكم الرفع على أنه خبر مبتدإ محذوف؛ أي: الأمر ذلكم، أو مبتدأ خبره محذوف؛ أي: ذلكم العذاب الذي أنتم فيه بذلك السبب، وفي الكلام حذف، والتقدير: فأجيبوا بأن لا سبيل إلى الرّدّ، وذلك لأنكم كنتم إذا دعي اللَّه، إلخ ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ﴾ وحده دون غيره، وهو الذي حكم عليكم بالخلود في النار، وعدم الخروج منها»[1].

قال السعدي: «أي: إذا دعي لتوحيده، وإخلاص العمل له، ونهي عن الشرك به ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ به واشمأزت لذلك قلوبكم ونفرتم غاية النفور.

﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾ أي: هذا الذي أنزلكم هذا المنزل وبوأكم هذا المقيل والمحل، أنكم تكفرون بالإيمان، وتؤمنون بالكفر، ترضون بما هو شر وفساد في الدنيا والآخرة، وتكرهون ما هو خير وصلاح في الدنيا والآخرة.

تؤثرون سبب الشقاوة والذل والغضب، وتزهدون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾[2].

﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ العلي: الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه،

---

(١) فتح القدير (٤/ ٦٧٩-٦٨٠).

(٢) الأعراف: الآية (١٤٦).

علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، ومن علو قدره كمال عدله تعالى، وأنه يضع الأشياء مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفجار. ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة والمجد، في أسمائه وصفاته وأفعاله المتنزه عن كل آفة وعيب ونقص، فإذا كان الحكم له تعالى، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم، فحكمه لا يغير ولا يبدل»[١].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥١٢-٥١٣).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾

★ غريب الآية:

ينيب: من النوب، وهو رجوع الشيء مرة بعد أخرى، والإنابة الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة وإخلاص العمل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه -جل وعلا- هو الذي يُري خلقه آياته، أي الكونية القدرية ليجعلها علامات لهم على ربوبيته، واستحقاقه العبادة وحده، ومن تلك الآيات الليل والنهار والشمس والقمر، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ﴾(1) الآية.

ومنها السموات والأرضون وما فيهما والنجوم، والرياح والسحاب، والبحار والأنهار، والعيون والجبال والأشجار، وآثار قوم هلكوا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(2). وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾(3). وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾(4) وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾(5).

وما ذكره -جل وعلا- في آية المؤمن هذه؛ من أنه هو الذي يُرِي خلقه آياته، بينه

---

(1) فصلت: الآية (٣٧).
(2) البقرة: الآية (١٦٤).
(3) آل عمران: الآية (١٩٠).
(4) الجاثية: الآيات (٣-٥).
(5) يونس: الآية (٦).

وزاده إيضاحًا في غير هذا الموضع، فبين أنه يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم، وأن مراده بذلك البيان أن يتبين لهم أن ما جاء به محمد ﷺ حق، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

والآفاق جمع أفق وهو الناحية، والله -جل وعلا- قد بين من غرائب صنعه وعجائبه في نواحي سمواته وأرضه، ما يتبين به لكل عاقل أنه هو الرب المعبود وحده. كما أشرنا إليه من الشمس والقمر والنجوم والأشجار والجبال، والدواب والبحار إلى غير ذلك.

وبين أيضًا أن من آياته التي يريهم ولا يمكنهم أن ينكروا شيئًا منها، تسخيره لهم الأنعام ليركبوها ويأكلوا من لحومها، وينتفعوا بألبانها، وزبدها وسمنها وأقطها، ويلبسوا من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾[2].

وبين في بعض المواضع، أن من آياته التي يريها بعض خلقه، معجزات رسله؛ لأن المعجزات آيات؛ أي: دلالات وعلامات على صدق الرسل، كما قال تعالى في فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾[3] وبين في موضع آخر، أن من آياته التي يريها خلقه عقوبته المكذبين رسله، كما قال تعالى في قصة إهلاكه قوم لوط: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾[4] وقال في عقوبته فرعون وقومه بالطوفان والجراد والقمل إلخ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾[5] الآية.

قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أطلق -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة الرزق وأراد المطر؛ لأن المطر سبب الرزق، وإطلاق المسبب وإرادة سببه لشدة الملابسة بينهما أسلوب عربي معروف، وكذلك عكسه الذي هو إطلاق السبب

---

(١) فصلت: الآية (٥٣).
(٢) غافر: الآيات (٧٩-٨١).
(٣) طه: الآية (٥٦).
(٤) العنكبوت: الآية (٣٥).
(٥) الأعراف: الآية (١٣٣).

وإرادة المسبب، كقوله:

أكلت دمًا إن لم أرُعْك بضرَّةٍ بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

فأطلق الدم وأراد الدية، لأنه سببها. .

وإطلاق الرزق في آية المؤمن هذه على المطر جاء مثله في غير هذا الموضع كقوله تعالى في أول سورة (الجاثية): ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[1] فأوضح بقوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أن مراده بالرزق المطر؛ لأن المطر هو الذي يحيي اللَّه به الأرض بعد موتها.

وقد أوضح -جل وعلا- أنه إنما سمى المطر رزقًا؛ لأن المطر سبب الرزق في آيات كثيرة من كتابه، كقوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[2] الآية، والباء في قوله: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ سببية كما ترى.

وكقوله تعالى في سورة (إبراهيم): ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾[3] الآية. وقوله تعالى في سورة (ق): ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾[4].

وبين في آيات أخر أن الرزق المذكور شامل لما يأكله الناس، وما تأكله الأنعام؛ لأن ما تأكله الأنعام يحصل بسببه للناس الانتفاع بلحومها وجلودها وألبانها، وأصوافها وأوبارها وأشعارها، كما تقدم، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[6] الآية. فقوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾؛ أي: تتركون أنعامكم سائمة فيه تأكل منه من غير أن تتكلفوا لها مؤونة العلف. . وكقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن

---

(١) الآية (٥).
(٢) الآية (٢٢).
(٣) الآية (٣٢).
(٤) الآيات (٩-١١).
(٥) السجدة: الآية (٢٧).
(٦) النحل: الآيتان (١٠-١١).

نَبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾[١] الآية. وقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[٢] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن الناس ما يتذكر منهم؛ أي: ما يتعظ بهذه الآيات المشار إليها في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ أي من رزقه الله الإنابة إليه.

والإنابة: الرجوع عن الكفر والمعاصي إلى الإيمان والطاعة. وهؤلاء المنيبون المتذكرون المتعظون هم أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال، المذكورون في قوله تعالى في أول سورة (آل عمران): ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٣] وفي قوله تعالى في سورة (إبراهيم): ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٤] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد دلت آية المؤمن هذه، وما في معناها من الآيات على أن غير أولي الألباب المتذكرين المذكورين آنفًا لا يتذكر ولا يتعظ بالآيات؛ بل يعرض عنها أشد الإعراض. وقد جاء هذا المعنى موضحًا، في آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾[٦]، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾[٨]، وقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾[٩] في (الأنعام) و(يس) إلى غير ذلك من الآيات»[١٠].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: الذي يريكم أيها الناس حججه وأدلته على وحدانيته وربوبيته ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ يقول: ينزل لكم من أرزاقكم

(١) طه: الآيتان (٥٣ و٥٤).
(٢) النازعات: الآيات (٣١-٣٣).
(٣) آل عمران: الآية (٧).
(٤) إبراهيم: الآية (٥٢).
(٥) يوسف: الآية (١٠٥).
(٦) القمر: الآية (٢).
(٧) الصافات: الآية (١٤).
(٨) يونس: الآية (١٠١).
(٩) الأنعام: الآية (٤)، ويس: الآية (٤٦).
(١٠) أضواء البيان (٦/ ٣٧٦-٣٧٩).

من السماء بإدرار الغيث الذي يخرج به أقواتكم من الأرض، وغذاء أنعامكم عليكم ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ يقول: وما يتذكر حجج اللَّه التي جعلها أدلة على وحدانيته، فيعتبر بها ويتعظ، ويعلم حقيقة ما تدل عليه، إلا من ينيب، يقول: إلا من يرجع إلى توحيده، ويقبل على طاعته»[١].

قال السعدي: «يذكر تعالى نعمه العظيمة على عباده، بتبيين الحق من الباطل، بما يُرِي عباده من آياته النفسية والآفاقية والقرآنية، الدالة على كل مطلوب مقصود، الموضحة للهدى من الضلال، بحيث لا يبقى عند الناظر فيها والمتأمل لها أدنى شك في معرفة الحقائق، وهذا من أكبر نعمه على عباده، حيث لم يُبْقِ الحق مشتبهًا ولا الصواب ملتبسًا، بل نوَّع الدلالات ووضح الآيات، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، وكلما كانت المسائل أجل وأكبر، كانت الدلائل عليها أكثر وأيسر، فانظر إلى التوحيد لما كانت مسألته من أكبر المسائل؛ بل أكبرها، كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية وتنوعت، وضرب اللَّه لها الأمثال، وأكثر لها من الاستدلال، ولهذا ذكرها في هذا الموضع، ونبه على جملة من أدلتها فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

ولما ذكر أنه يُرِي عباده آياته، نبه على آية عظيمة فقال: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أي: مطرًا به ترزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم، وذلك يدل على أن النعم كلها منه، فمنه نعم الدين، وهي المسائل الدينية والأدلة عليها، وما يتبع ذلك من العمل بها. والنعم الدنيوية كلها، كالنعم الناشئة عن الغيث الذي تحيا به البلاد والعباد. وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود، الذي يتعين إخلاص الدين له، كما أنه وحده المنعم.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات حين يذكر بها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إلى اللَّه تعالى، بالإقبال على محبته وخشيته، وطاعته والتضرع إليه، فهذا الذي ينتفع بالآيات، وتصير رحمة في حقه، ويزداد بها بصيرة»[٢].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٤٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥١٣-٥١٤).

قوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ وللمؤمنين به فاعبدوا اللَّه أيها المؤمنون له، مخلصين له الطاعة، غير مشركين به شيئًا مما دونه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ يقول: ولو كره عبادتكم إياه مخلصين له الطاعة الكافرون المشركون في عبادتهم إياه الأوثان والأنداد»[1].

قال السعدي: «لما كانت الآيات تثمر التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص للّه، رتب الأمر على ذلك بالفاء الدالة على السببية فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، والإخلاص معناه: تخليص القصد للّه تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق اللَّه وحقوق عباده؛ أي: أخلصوا للّه تعالى في كل ما تدينونه به وتتقربون به إليه.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يثنكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم باللَّه لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾[2]»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الإخلاص شرط في قبول العمل

* عن أبي الزبير قال: «كان ابن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: **لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا باللَّه، لا إله إلا اللَّه ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا اللَّه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.** وقال: كان

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٤٩).
(٢) الزمر: الآية (٤٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥١٤-٥١٥).

رسول اللَّه ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**لا إله إلا اللَّه مخلصين له الدين**»؛ أي: مخلصين له العبادة لا نشرك فيها غيره شركًا أصغر ولا أكبر، ولو كره الكافرون الإخلاص في العبادة له تعالى[٢].

قال الحافظ ابن رجب: «وتحقيق هذا المعنى وإيضاحه أن قول العبد: (لا إله إلا الله)، يقتضي أن لا إله له غير اللَّه، والإله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالًا، ومحبة وخوفًا ورجاءً، وتوكلًا عليه، وسؤالًا منه، ودعاءً له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله -ﷻ-، فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قوله: لا إله إلا اللَّه، ونقصًا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك، ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصي التي منشؤها من طاعة غير اللَّه أو خوفه أو رجائه، أو التوكل عليه والعمل لأجله، كما ورد في الصحيح إطلاق الشرك على الرياء، وعلى الحلف بغير اللَّه، وعلى التوكل على غير اللَّه، والاعتماد عليه، وعلى من سوّى بين اللَّه وبين المخلوق في المشيئة، مثل أن يقول: ما شاء اللَّه وشاء فلان، وكذا قوله: ما لي إلا اللَّه وأنت، وكذلك ما يقدح في التوحيد وتفرد اللَّه بالنفع والضر كالطيرة، والرقى المكروهة، وإتيان الكهان وتصديقهم بما يقولون، وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى اللَّه عنه قادح في تمام التوحيد وكماله. ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التي منشؤها من اتباع هوى النفس بما هو كفر وشرك، كقتال المسلم، ومن أتى حائضا أو امرأة في دبرها، ومن شرب الخمر المرة الرابعة، وإن كان ذلك لا يخرجه عن الملة بالكلية.

ولهذا قال السلف: كفر دون كفر، وشرك دون شرك، وقد ورد إطلاق الإله على الهوى المتبع، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[٣]وقال الحسن: هو الذي

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤)، ومسلم (١/ ٤١٥-٤١٦/ ٥٩٤)، وأبو داود (٢/ ١٧٣-١٧٤/ ١٥٠٦-١٥٠٧)، والنسائي (٣/ ٧٨-٧٩/ ١٣٣٨-١٣٣٩).

(٢) قاله خطاب السبكي في «المنهل» (٨/ ١٧٢).

(٣) الجاثية: الآية (٢٣).

لا يهوى شيئًا إلا ركبه، وقال قتادة، هو الذي كلما هوي شيئًا ركبه، وكلما اشتهى شيئًا أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى.. ويدل عليه أيضًا أن اللَّه تعالى سمى طاعة الشيطان في معصية عبادة للشيطان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾(١) وقال تعالى حاكيًا عن خليله إبراهيم أنه قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾(٢) فمن لم يتحقق بعبودية الرحمن وطاعته فإنه يعبد الشيطان بطاعته له، ولم يخلص من عبادة الشيطان إلا من أخلص عبودية الرحمن وهم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾(٣) فهم الذين حققوا قول: لا إله إلا اللَّه، وأخلصوا في قولها، وصدقوا قولهم بفعلهم، فلم يلتفتوا إلى غير اللَّه محبة ورجاءً وخشية وطاعة وتوكلًا، وهم الذين صدقوا في قول: لا إله إلا اللَّه، وهم عباد اللَّه حقًّا.

فأما من قال: لا إله إلا اللَّه بلسانه، ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية اللَّه ومخالفته، فقد كذّب فعله قوله، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية اللَّه في طاعة الشيطان والهوى، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾(٤) ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٥)»(٦).

وسيأتي ما يتعلق بإخلاص العمل لله ﷻ عند قوله تعالى من سورة (البينة): ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ الآية (٥).

* * *

(١) يس: الآية (٦٠).
(٢) مريم: الآية (٤٤).
(٣) الحجر: الآية (٤٢).
(٤) القصص: الآية (٥٠).
(٥) ص: الآية (٢٦).
(٦) الجامع المنتخب من رسائل ابن رجب (ص: ٢٢٨-٢٣١) باختصار.

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾

★ غريب الآية:

يوم التلاق: يوم البعث.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾[1] وقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ كقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾[2]، وكقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[3]؛ ولهذا قال: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة، حذر منه عباده.

وقال ابن جُرَيج: قال ابن عباس: يلتقي فيه آدم وآخر ولده. وقال ابن زيد: يلتقي فيه العباد. وقال قتادة والسدي وبلال بن سعد وسفيان بن عيينة: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض. وقال قتادة أيضًا: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق. وقال مَيْمون بن مِهْران: يلتقي فيه الظالم والمظلوم. وقد يقال: إن يوم القيامة هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر. كما قاله آخرون»[4].

قال السعدي: «ذكر تعالى من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له،

---

(١) المعارج: الآيتان (٣و٤).
(٢) النحل: الآية (٢).
(٣) الشعراء: الآيات (١٩٢-١٩٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٢٤-١٢٥).

فقال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: العلي الأعلى، الذي استوى على العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعًا باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره، وجلت أوصافه، وتعالت ذاته، أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الطاهر المطهر، وهو الإخلاص، الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه، ويجعلهم فوق خلقه، ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحي، فقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ أي: الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح، فهو تعالى ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ الذي فيه نفع العباد ومصلحتهم.

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الرسل الذين فضلهم اللَّه واختصهم اللَّه لوحيه ودعوة عباده. والفائدة في إرسال الرسل هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال: ﴿لِيُنذِرَ﴾ من ألقى اللَّه إليه الوحي ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي: يخوف العباد بذلك، ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه»[١].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥١٥ و٥١٦).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «وقوله تعالى في آية المؤمن هذه: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ﴾ جاء مثله في آيات كثيرة، كقوله في بروزهم ذلك اليوم: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾[2] الآية، وكقوله في كونهم لا يخفى على اللَّه منهم شيء ذلك اليوم: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾[5]، والآيات بمثل ذلك كثيرة»[6].

قال السعدي: «﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ أي: ظاهرون على الأرض، وقد اجتمعوا في صعيد واحد لا عوج ولا أمت فيه، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر. ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ﴾ لا من ذواتهم، ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال.

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ﴾ أي: من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخرين، أهل السموات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسباب، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة؟ الملك ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصًا في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم،

---

(١) إبراهيم: الآية (٤٨).
(٢) إبراهيم: الآية (٢١).
(٣) الحاقة: الآية (١٨).
(٤) العاديات: الآية (١١).
(٥) آل عمران: الآية (٥).
(٦) أضواء البيان (٦/ ٣٧٩).

يومئذ لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في إثبات صفة الملك التام لله تعالى يوم القيامة

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**إن اللَّه يقبض يوم القيامة الأرض وتكون السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك**»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «المقصود إظهار انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعاوى المدعين وانتساب المنتسبين، إذ قد ذهب كل ملك وملكه ومتكبر ومِلكه، وانقطعت نسبهم ودعاويهم، ودل على هذا قوله الحق عند قبض الأرض والأرواح وطي السماء: «**أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**»، وفي حديث ابن عمر: «**ثم يطوي الأرض بشماله والسموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**» وعنه قوله سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ هو انقطاع زمن الدنيا وبعده يكون البعث والنشر»[٣].

قال ابن القيم: «وهو الملك الذي لا شريك له، والفرد الذي لا ند له، والغني فلا ظهير له، والصمد فلا ولد له، ولا صاحبة له، والعلي فلا شبيه له، ولا سمي له، كل شيء هالك إلا وجهه، وكل ملك زائل إلا ملكه، وكل ظل قالص إلا ظله، وكل فضل منقطع إلا فضله، لن يطاع إلا بإذنه ورحمته، ولن يعصى إلا بعلمه وحكمته، يطاع فيشكر، ويعصى فيتجاوز ويغفر، كل نقمة منه عدل وكل نعمة منه فضل، أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، حال دون النفوس وأخذ بالنواصي، وسجل الآثار، وكتب الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة، عطاؤه كلام، وعذابه كلام، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥١٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٧٢)، والبخاري (١٣/ ٤٨٤/ ٧٤١٢) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٤٨/ ٢٧٨٨)، وأبو داود (٥/ ١٠٠/ ٤٧٣٢)، وابن ماجه (١/ ٧١-٧٢/ ١٩٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٩٦).

فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾[١] فإذا أشرقت على القلب أنوار هذه الصفات اضمحل عندها كل نور ووراء هذا ما لا يخطر بالبال، ولا تناله عبارة»[٢].

وقوله: «**أنا الملك**»: قال الغنيمان: «أي: أنه تعالى ينفرد بالملك فهو الملك حقًّا الذي لا منازع له ولا معاون، ولا ظهير ولا شريك، وفي ذلك اليوم، عندما يقبض الأرض بيده، ويطوي السموات بيمينه، ويصبح كل شيء في قبضته، ينادي الذين كانوا ينازعونه في الدنيا ملكه، ويتعدون على سلطانه من المتكبرين والمتجبرين من ملوك الدنيا، وقد انفرد مالك الملك الواحد القهار، ذو السلطان - وهو متفرد به في كل آن- غير أنه في ذلك اليوم ينكشف جليًا فيناديهم بما يتضمن توبيخهم وتهديدهم: أين ملوك الدنيا؟ فهل يستطيعون منعًا أو ردًا؟ وهل لديهم قوة أو حيلة أو فدى؟ لقد ذهب منهم كل شيء، وبقيت التبعات والذل والحسرات»[٣].

قال ابن جرير: «ولا خلاف بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب أن المَلْك والمُلْكَ مشتق فتأويل قراءة من قرأ ذلك (مَلِكِ يوم الدين) أن لله الملك يوم الدين خالصًا دون جميع خلقه الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكًا جبابرة ينازعونه الملك، ويدافعونه الانفراد بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية، فأيقنوا بلقاء اللَّه يوم الدين أنهم الصغرة الأذلة، وأن له دونهم ودون غيرهم الملك والكبرياء والعزة والبهاء، كما قال -جل ذكره- وتقدست أسماؤه في تنزيله: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ فأخبر تعالى أنه المنفرد يومئذ بالملك دون ملوك الدنيا الذين صاروا يوم الدين من ملكهم إلى ذلة وصغار، ومن دنياهم في المعاد إلى خسار»[٤].

وقد تقدمت فوائد أخرى في سورة (الزمر) الآية (٧).

* * *

---

(١) يس: الآية (٨٢).

(٢) الوابل الصيب (ص: ١٣٨).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ١٣٩).

(٤) تفسير ابن جرير (١/ ٦٥).

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- -مخبرًا عن قيله يوم القيامة حين يبعث خلقه من قبورهم لموقف الحساب-: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يقول: اليوم يثاب كلّ عامل بعمله، فيوفى أجر عمله، فعامل الخير يجزى الخير، وعامل الشر يجزى جزاءه. وقوله: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ يقول: لا بخس على أحد فيما استوجبه من أجر عمله في الدنيا، فينقص منه إن كان محسنا، ولا حُمِل على مسيء إثم ذنب لم يعمله فيعاقب عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يقول: إن اللَّه ذو سرعة في محاسبة عباده يومئذ على أعمالهم التي عملوها في الدنيا»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في نفي الظلم وإثبات العدل في الجزاء يوم القيامة

* عن جابر بن عبد اللَّه قال: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول اللَّه ﷺ فاشتريت بعيرًا ثم شددت عليه رحلي، فسرت إليه شهرًا حتى قدمت عليه الشام فإذا عبد اللَّه بن أنيس، فقال للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديثًا بلغني عنك أنك سمعته من رسول اللَّه ﷺ في القصاص فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**يحشر الناس يوم القيامة أو قال العباد عراة غرلًا بهمًا**. قال: قلنا: وما بهمًا؟ قال: **ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان، ولا ينبغي لأحد من أهل النار**

(١) جامع البيان (٢٤/ ٥١-٥٢).

أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه حتى اللطمة، قال: قلنا كيف وإنا إنما نأتي اللَّه ﷻ عراة غرلًا بهمًا؟ قال: **بالحسنات والسيئات**»[١].

⋆ غريب الحديث:

غُرلًا: غير مختونين.

الديان: من أسماء اللَّه تعالى، ومعناه: المحاسب المجازي لا يضيع عمل عامل.

⋆ فوائد الحديث:

قال فضل اللَّه الجيلاني: «القصاص بين المتظالمين إنما يقع بالحسنات والسيئات؛ أي: يؤخذ من حسنات الظالم فيعطى للمظلوم، وإن لم يكن له حسنة يؤخذ من سيئات المظلوم ويطرح على الظالم، فيتخفف المظلوم من سيئاته، ويزداد الظالم في النكال والعذاب بدل سيئات المظلوم»[٢].

* عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن اللَّه -تبارك وتعالى- أنه قال: «**يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا. يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم. يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم. يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي! لو أن أولكم**

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٩٥) واللفظ له، والبخاري -تعليقا بصيغة الجزم- (١/ ٢٣٠)، ووصله في الأدب المفرد رقم (٩٧٠)، والحاكم (٢/ ٤٣٧-٤٣٨) وصححه وأقره الذهبي، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ١٩٦-١٩٧/ ١٣١).

(٢) فضل اللَّه الصمد (٢/ ٤٤٨).

وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[1].

★ فوائد الحديث:

«**إني حرمت الظلم على نفسي**» قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني أنه منع نفسه من الظلم لعباده، كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾[2] وقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾[3] وقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[4] وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾[5] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾[6] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾[7] وقال: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾[8] والهضم: أن ينقص من جزاء حسناته، والظلم: أن يعاقب بذنوب غيره، ومثل هذا كثير في القرآن.

وهو مما يدل على أن الله قادر على الظلم، ولكنه لا يفعله فضلًا منه وجودًا، وكرمًا وإحسانًا إلى عباده.

وقد فسر كثير من العلماء الظلم بأنه وضع الأشياء في غير موضعها»[9].

قال القرطبي: «أي: لا ينبغي لي ولا يجوز علي كما قال ﷻ: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾[10] وقد اتفق العقلاء على أن الظلم على الله تعالى محال»[11].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذه النصوص النافية للظلم تثبت العدل في الجزاء، وأنه لا يبخس عامل عمله، وكذلك قوله فيمن عاقبهم ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٤-١٦٠-١٧٧)، ومسلم (٤/ ١٩٩٤-١٩٩٥/ ٢٥٧٧) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧/ ٢٤٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٢/ ٤٢٥٧).

(٢) ق: الآية (٢٩).

(٣) غافر: الآية (٣١).

(٤) آل عمران: الآية (١٠٨).

(٥) فصلت: الآية (٤٦).

(٦) يونس: الآية (٤٤).

(٧) النساء: الآية (٤٠).

(٨) طه: الآية (١١٢).

(٩) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٤-٣٥).

(١٠) مريم: الآية (٩٢).

(١١) المفهم (٦/ ٥٥٢).

ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾[1] وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦﴾[2] بين أن عقاب المجرمين عدلًا لذنوبهم، لا لأنا ظلمناهم فعاقبناهم بغير ذنب. والحديث الذي في السنن: «**لو عذب اللَّه أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم**»[3]. يبين أن العذاب لو وقع لكان لاستحقاقهم ذلك، لا لكونه من غير ذنب، وهذا يبين أن من الظلم المنفي عقوبة من لم يذنب»[4].

وقال أيضًا: «وبهذا يتبين القول المتوسط وهو أن الظلم الذي حرمه اللَّه على نفسه مثل: أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها، ويعاقب البريء على ما لم يفعل من السيئات، ويعاقب هذا بذنب غيره، أو يحكم بين الناس بغير القسط، ونحو ذلك من الأفعال التي ينزه الرب عنها لقسطه وعدله وهو قادر عليها، وإنما استحق الحمد والثناء لأنه ترك هذا الظلم وهو قادر عليه، وكما أن اللَّه منزه عن صفات النقص والعيب، فهو أيضًا منزه عن أفعال النقص والعيب»[5].

وقال أيضًا: «ثم ختمه بتحقيق ما بينه فيه من عدله وإحسانه، فقال: «**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد اللَّه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**» فبين أنه محسن إلى عباده في الجزاء على أعمالهم الصالحة إحسانًا يستحق به الحمد لأنه هو المنعم بالأمر بها، والإرشاد إليها، والإعانة عليها، ثم إحصائها ثم توفية جزائها، فكل ذلك فضل منه وإحسان، إذ كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل.. وكما بين أنه محسن في الحسنات متم إحسانه بإحصائها والجزاء عليها، بين أنه عادل في الجزاء على السيئات فقال: «**ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**»»[6].

قال ابن علان: «قوله: «**فمن وجد خيرًا**» أي: عملًا يثاب عليه، أو وجد ثوابًا ونعيمًا بأن وفق لأسبابهما أو حياة طيبة هنيئة مريئة كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا

---

(١) هود: الآية (١٠١). (٢) الزخرف: الآية (٧٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٨٢-١٨٣)، وأبو داود (٥/ ٧٥/ ٤٦٩٩)، وابن ماجه (١/ ٢٩-٣٠/ ٧٧)، وصححه ابن حبان (٢/ ٥٠٥-٥٠٦/ ٧٢٧) من حديث زيد بن ثابت ﷺ.

(٤) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٤٣-١٤٤). (٥) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٤٦).

(٦) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٠٢-٢٠٣).

مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[١].

قوله: «**فليحمد الله**»: أي: على توفيقه لذلك العمل الذي يترتب عليه الخير والثواب فضلًا منه ورحمة، وعلى إسداء ما وصل إليه من عظم المبرات فعُلم أنه أُريد بذلك الآخرة فقط، كأن الأمر فيه بمعنى الإخبار بأن من وجد خيرًا فيها حمد اللّٰه عليه، ومن وجد غيره لام نفسه حيث لا ينفع اللوم، وقد جاء مثل ذلك الإخبار في القرآن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾[٢] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[٣] وقال عن أهل النار: ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾[٤]»[٥].

وقال أيضًا: «**قوله: «غير ذلك»** أي: شرًا، ولم يذكره تعليمًا لنا كيفية الأدب في النطق بالكناية عما يؤذي، وإشارة إلى أنه تعالى إذا اجتنب لفظه فكيف الوقوع فيه، أو إلى أنه ﷻ كريم حيي يحب الستر ويغفر الذنب فلا يعاجل بالعقوبة ولا يهتك الستر.

قوله: «**فلا يلومن إلا نفسه**» لبقائها على الظلمة الأصلية، واكتساب المعاصي والمظالم، وهي السبب فيها، فلما آثرت شهواتها ولذاتها على رضى خالقها ورازقها فكفرت بأنعمه ولم تذعن لأحكامه وحكمه، فاستحقت أن يعاملها بمظهر عدله، وأن يحرمها مزايا جوده وفضله، ونسأل اللّٰه العافية عن ذلك بمنه. وأعمال العباد وإن كانت غير موجبة لثواب أو عقاب بذواتها، كما سبق، إلا أنه تعالى أجرى عادته بربطهما بها ربط المسببات بالأسباب، وأكّد الفعل هنا بالنون تحذيرًا أن يخطر في قلب عامل أن يستحق اللوم غير نفسه وليس كذلك لأن اللّٰه تعالى أوضح وأعذر حتى لم يبق حجة لأحد، وفيه إيماء إلى دوام ذم ابن آدم وقلة إنصافه، فإنه يحسب طاعته من عمله لنفسه ولا يسندها إلى التوفيق، ويتبرأ من المعاصي ويسندها إلى الأقدار»[٦].

* * *

(١) النحل: الآية (٩٧).
(٢) الزمر: الآية (٧٤).
(٣) فاطر: الآية (٣٤).
(٤) إبراهيم: الآية (٢٢).
(٥) الفتوحات الربانية (٧/ ٣٩٧).
(٦) الفتوحات الربانية (٧/ ٣٩٧-٣٩٨).

قوله تعالى : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الآزفة: القيامة. سميت بذلك لقربها. يقال: أزف فلان يأزف أَزْفًا: قَرب.

كاظمين: جمع كاظم، وهو الذي يمسك ما في قلبه. يقال: كظم غيظه: إذا حبسه ولم يُبْدِهِ.

حميم: أي: قريب مشفق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ هو اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾[١] وقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾[٢]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾[٣] وقال: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[٤] وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾[٥].

وقوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ أي ساكتين، قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها. وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد.

ومعنى: ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾[٦].

---

(١) النجم: الآيتان (٥٧-٥٨).
(٢) القمر: الآية (١).
(٣) الأنبياء: الآية (١).
(٤) النحل: الآية (١).
(٥) الملك: الآية (٢٧).
(٦) النبأ: الآية (٣٨).

وقال ابن جُرَيْج: ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾ أي: باكين.

وقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم؛ بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير»(١).

قال الشنقيطي: «الإنذار هو الإعلام المقترن بتهديد خاصة، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذارًا.. والظاهر أن قوله هنا: ﴿يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ هو المفعول الثاني للإنذار لا ظرف له؛ لأن الإنذار والتخويف من يوم القيامة، واقع في دار الدنيا. والآزفة القيامة؛ أي: أنذرهم يوم القيامة، بمعنى خوفهم إياه وهددهم بما فيه من الأهوال العظام ليستعدوا لذلك في الدنيا بالإيمان والطاعة.

وإنما عبر عن القيامة بالآزفة لأجل أزوفها أي قربها، والعرب تقول: أزف الترحل بكسر الزاي، يأزف بفتحها، أزفا بفتحتين على القياس، وأزوفا فهو آزف، على غير قياس في المصدر الأخير، والوصف بمعنى قرب وقته وحان وقوعه، ومنه قول نابغة ذبيان:

أزف الترحل غير أن ركابنا   لما تزل برحالنا وكأن قد

ويروى: أفد الترحل، ومعناهما واحد.

والمعنى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ أي: يوم القيامة القريب مجيئها ووقوعها.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من اقتراب قيام الساعة، جاء موضحًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ۝٥٧ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ وقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ الآية. وقوله تعالى في (الأحزاب): ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾(٢) وقوله تعالى في (الشورى): ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾(٣).. ومعنى كون: ﴿ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ في ذلك الوقت فيه لعلماء التفسير وجهان معروفان:

أحدهما: ما قاله قتادة وغيره، من أن قلوبهم يومئذ ترتفع من أماكنها في

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٢٦).

(٢) الآية (٦٣).   (٣) الآية (١٧).

الصدور حتى تلتصق بالحلوق، فتكون لدى الحناجر، فلا هي تخرج من أفواههم فيموتوا، ولا هي ترجع إلى أماكنها في الصدور فيتنفسوا. وهذا القول هو ظاهر القرآن.

والوجه الثاني: هو أن المراد بكون القلوب لدى الحناجر، بيان شدة الهول، وفظاعة الأمر، وعليه فالآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾[1] وهو زلزال خوف وفزع لا زلزال حركة الأرض.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿كَـٰظِمِينَ﴾ معناه مكروبين ممتلئين خوفًا وغمًا وحزنًا. والكظم: تردد الخوف والغيظ والحزن في القلب حتى يمتلئ منه ويضيق به.

والعرب تقول: كظمت السقاء إذا ملأته ماء، وشددته عليه. وقول بعضهم: ﴿كَـٰظِمِينَ﴾؛ أي: ساكتين، لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن الخوف والغم الذي ملأ قلوبهم يمنعهم من الكلام، فلا يقدرون عليه، ومن إطلاق الكظم على السكوت قول العجاج:

وربّ أسراب حجيج كظَّم عن اللَّغا ورفث التكلُّم

ويرجع إلى هذا القول معنى قول من قال: كاظمين أي: لا يتكلمون إلا من أذن له اللَّه وقال الصواب، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[2]»[3].

* * *

---

(١) الأحزاب: الآية (١٠-١١).

(٢) النبأ: الآية (٣٨).

(٣) أضواء البيان (٦/ ٣٨٠-٣٨٢).

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ذكره- مخبرا عن صفة نفسه: يعلم ربكم ما خانت أعين عباده، وما أخفته صدورهم، يعني: وما أضمرته قلوبهم؛ يقول: لا يخفى عليه شيء من أمورهم حتى ما يحدث به نفسه، ويضمره قلبه، إذا نظر ماذا يريد بنظره، وما ينوي ذلك بقلبه»[١].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها؛ ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من اللَّه حَقّ الحياء، ويَتَّقُوهُ حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر»[٢].

قال الرازي: «والمعنى أنه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديدًا جدًّا.. والمراد بقوله: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ مضمرات القلوب، والحاصل أن الأفعال قسمان: أفعال الجوارح وأفعال القلوب، أما أفعال الجوارح، فأخفاها خائنة الأعين، واللَّه أعلم بها، فكيف الحال في سائر الأعمال. وأما أفعال القلوب، فهي معلومة لله تعالى لقوله: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ فدل هذا على كونه تعالى عالمًا بجميع أفعالهم»[٣].

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٥٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٢٧).

(٣) التفسير الكبير (٢٧/ ٥٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في أنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين

* عن سعد قال: لما كان يوم فتح مكة أمن رسول اللَّه ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين، وسماهم وابن أبي سرح، فذكر الحديث، قال: وأما ابن أبي سرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول اللَّه ﷺ الناس إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على رسول اللَّه ﷺ فقال: يا نبي الله: بايع عبد اللَّه. فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال: «**أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟**» فقالوا: ما ندري يا رسول اللَّه ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك؟! قال: «**إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**»[١].

⋆ غريب الحديث:

رجل رشيد: معنى الرشد ههنا: الفطنة لصواب الحكم في قتله.

⋆ فوائد الحديث:

معنى خائنة الأعين: أن يضمر بقلبه غير ما يظهره للناس، فإذا كف بلسانه وأومأ بعينه إلى خلاف ذلك فقد خان، وكان ظهور تلك الخيانة من قبل عينيه، فسميت: خائنة الأعين[٢].

قال الكرماني: «قوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ هي صفة للنظرة؛ أي: يعلم النظرة المسترقة إلى ما لا يحل، وأما خائنة الأعين التي حرمتها من خصائص النبي ﷺ فهي الإشارة بالعين إلى المباح من الضرب ونحوه، على خلاف ما يظهر بالقول»[٣].

وذكر القسطلاني: من بين ما اختص به ﷺ مما حرم عليه خائنة الأعين فقال: «ومنها: خائنة الأعين، وهي الإيماء إلى المباح من قتل أو ضرب على خلاف ما

(١) أخرجه: أبو داود (٣/ ١٣٣-١٣٤/ ٢٦٨٣) واللفظ له، والنسائي (٧/ ١٢٢/ ٤٠٧٨)، والحاكم (٣/ ٤٥)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وانظر الصحيحة رقم (١٧٢٣).
(٢) معالم السنن (٢/ ٢٤٩).
(٣) شرح البخاري (١١/ ٤٧).

يشعر به الحال، كما قيل له ﷺ في قصة رجل أراد قتله: هلا أومأت إلينا بقتله، فقال: «**ما كان ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**»، ولا يحرم ذلك على غيره إلا في محظور»[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله ﷺ: «**ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**» أي: أن النبي ﷺ لا يخالف ظاهره باطنه، ولا سره علانيته، وإذا نفذ حكم اللَّه وأمره لم يوم به، بل صرح به وأعلنه وأظهره»[٢].

قال ابن تيمية: «وهذا مبالغة في استواء ظاهره وباطنه، وسره وعلانيته، وأنه لا يبطن خلاف ما يظهر على عادة المكارين المنافقين»[٣].

* * *

(١) المواهب اللدنية (٢/ ٦١٠). وانظر «اللفظ المكرم» للخضيري (١/ ٢٤٥)، و«الفصول في سيرة الرسول ﷺ» (ص: ٢٩٦).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٦٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٤٩).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «عن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وهذا الذي فسر به ابن عباس في هذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾[1]. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ أي: لا يملكون شيئًا ولا يحكمون بشيء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي: سميع لأقوال خلقه، بصير بهم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك»[2].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ يقول: والأوثان والآلهة التي يعبدها هؤلاء المشركون بالله من قومك من دونه لا يقضون بشيء؛ لأنها لا تعلم شيئًا، ولا تقدر على شيء، يقول -جل ثناؤه- لهم: فاعبدوا الذي يقدر على كل شيء، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فيجزي محسنكم بالإحسان، والمسيء بالإساءة، لا ما لا يقدر على شيء ولا يعلم شيئًا، فيعرف المحسن من المسيء، فيثيب المحسن، ويعاقب المسيء.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يقول: إن الله هو السميع لما تنطق به ألسنتكم أيها الناس، البصير بما تفعلون من الأفعال، محيط بكل ذلك محصيه عليكم، ليجازي جميعكم جزاءه يوم الجزاء»[3].

قال السعدي: «﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق، وهو المحيط علمًا وكتابة وحفظا بجميع الأشياء، وهو

---

(١) النجم: الآية (٣١).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٢٧).
(٣) جامع البيان (٢٤/ ٥٤).

المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدري، الذي إذا شاء شيئًا كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أولياءه وأحبابه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ بما كان وما يكون، وما يبصر وما لا يبصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥١٨).

قوله تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

آثارا: أثر الشيء حصول ما يدل على وجوده.

من واق: أي: من حافظ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أو لم يسر هؤلاء المقيمون على شركهم باللَّه، المكذبون رسوله من قريش في البلاد، ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ يقول: فيروا ما الذي كان خاتمة أمم الذين كانوا من قبلهم من الأمم الذين سلكوا سبيلهم في الكفر باللَّه، وتكذيب رسله ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يقول: كانت تلك الأمم الذين كانوا من قبلهم أشد منهم بطشا، وأبقى في الأرض آثارا، فلم تنفعهم شدة قواهم، وعظم أجسامهم، إذ جاءهم أمر اللَّه، وأخذهم بما أجرموا من معاصيه، واكتسبوا من الآثام، ولكنه أباد جمعهم، وصارت مساكنهم خاوية منهم بما ظلموا ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يقول: وما كان لهم من عذاب اللَّه إذ جاءهم، من واق يقيهم، فيدفعه عنهم.. ثم قال: يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي فعلت بهؤلاء الأمم الذين من قبل مشركي قريش من إهلاكناهم بذنوبهم فعلنا بهم بأنهم كانت تأتيهم رسل اللَّه إليهم بالبيّنات، يعني بالآيات الدالات على حقيقة ما تدعوهم إليه من توحيد اللَّه، والانتهاء إلى طاعته ﴿فَكَفَرُوا﴾ يقول: فأنكروا رسالتها، وجحدوا توحيد اللَّه، وأبوا أن يطيعوا اللَّه ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ يقول: فأخذهم

اللَّه بعذابه فأهلكهم ﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يقول: إن اللَّه ذو قوّة لا يقهره شيء، ولا يغلبه، ولا يعجزه شيء أراده، شديد عقابه من عاقب من خلقه، وهذا وعيد من اللَّه مشركي قريش، المكذّبين رسوله محمدًا ﷺ يقول لهم -جل ثناؤه-: فاحذروا أيها القوم أن تسلكوا سبيلهم في تكذيب محمد ﷺ وجحود توحيد اللَّه، ومخالفة أمره ونهيه فيسلك بكم في تعجيل الهلاك لكم مسلَكَهم»[١].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٥٤-٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة، أنه أرسل نبيه موسى -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-، بآياته وحججه الواضحة، كالعصا واليد البيضاء إلى فرعون وهامان وقارون فكذبوه، وزعموا أنه ساحر.

وأوضح هذا المعنى، في آيات كثيرة كقوله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾[1]، وقوله تعالى عن فرعون: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[3] والآيات بمثل ذلك كثيرة»[4].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مسليًا لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ومبشرًا له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران، فإن اللَّه تعالى أرسله بالآيات البينات، والدلائل الواضحات؛ ولهذا قال: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ والسلطان هو: الحُجة والبرهان.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ هو: ملك القبط بالديار المصرية، ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ وهو: وزيره في مملكته ﴿وَقَٰرُونَ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالا وتجارة ﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي: كذبوه وجعلوه ساحرًا مُمَخْرِقًا مموهًا كذابًا في أن اللَّه أرسله. وهذه كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾[5]»[6].

---

(١) الأعراف: الآية (١٣٢).
(٢) طه: الآية (٧١).
(٣) الشعراء: الآية (٣٤).
(٤) أضواء البيان (٦/ ٣٨٢-٣٨٣).
(٥) الذاريات: الآيتان (٥٢ و٥٣).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٢٨).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فلما جاء موسى هؤلاء الذين أرسله اللَّه إليهم بالحق من عندنا، وذلك مجيئه إياهم بتوحيد اللَّه، والعمل بطاعته، مع إقامة الحجة عليهم، بأن اللَّه ابتعثه إليهم بالدعاء إلى ذلك ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ باللَّه ﴿مَعَهُۥ﴾ من بني إسرائيل ﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ يقول: واستبقوا نساءهم للخدمة.

فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾، وإنما كان قتل فرعون الولدان من بني إسرائيل حذار المولود الذي كان أخبر أنه على رأسه ذهاب ملكه، وهلاك قومه، وذلك كان فيما يقال قبل أن يبعث اللَّه موسى نبيًّا؟ قيل: إن هذا الأمر بقتل أبناء الذين آمنوا مع موسى، واستحياء نسائهم، كان أمرا من فرعون وملئه من بعد الأمر الأول الذي كان من فرعون قبل مولد موسى»[١].

قال ابن كثير: «﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: بالبرهان القاطع الدال على أن اللَّه تعالى أرسله إليهم، ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل. أما الأول: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين. وأما الأمر الثاني: فللعلة الثانية، لإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾»[٢].

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٥٦).

(٢) الأعراف: الآية (١٢٩).

قال قتادة: هذا أمر بعد أمر. قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا يُنصروا عليهم، إلا ذاهب وهالك في ضلال»[1].

قال السعدي: «قاعدة: وتدبر هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب اللَّه تعالى: إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد اللَّه أن يحكم على ذلك المعين بحكم، لا يختص به ذكر الحكم، وعلقه على الوصف العام ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سيق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين. فلهذا لم يقل: وما كيدهم إلا في ضلال؛ بل قال: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾»[2].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٢٨ و١٢٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٢١).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ وهذا عَزْمٌ من فرعون لعنه اللَّه على قتل موسى عليه السلام؛ أي: قال لقومه: دعوني حتى أقتل لكم هذا، ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: لا أبالي منه. وهذا في غاية الجحد والتجبر والعناد.

وقوله -قبحه الله-: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ يعني: موسى، يخشى فرعون أن يُضِلَّ موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم. وهذا كما يقال في المثل: «صار فرعون مُذَكِّرًا» يعني: واعظا، يشفق على الناس من موسى عليه السلام»[(١)].

قال السعدي: «﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متكبرا متجبرا مغررًا لقومه السفهاء: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: زعم -قبحه الله- أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه، ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشر في الأرض فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ الذي أنتم عليه ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق، هذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إلا عقل من قال اللَّه فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾[(٢)]»[(٣)].

قال الرازي: «من قبائح أفعال أولئك الكفار مع موسى عليه السلام ما حكاه اللَّه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ وهذا الكلام كالدلالة على أنهم كانوا يمنعونه من قتله، وفيه احتمالان.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٢٩).

(٢) الزخرف: الآية (٥٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٢١-٥٢٢).

والاحتمال الأول: أنهم منعوه من قتله لوجوه: الأول: لعله كان فيهم من يعتقد بقلبه كون موسى صادقًا، فيأتي بوجوه الحيل في منع فرعون من قتله. الثاني: قال الحسن: إن أصحابه قالوا له لا تقتله فإنما هو ساحر ضعيف ولا يمكنه أن يغلب سحرتك، وإن قتلته أدخلت الشبهة على الناس، وقالوا: إنه كان محقًا، وعجزوا عن جوابه فقتلوه. الثالث: لعلّهم كانوا يحتالون في منعه من قتله؛ لأجل أن يبقى فرعون مشغول القلب بموسى فلا يتفرغ لتأديب أولئك الأقوام، فإن من شأن الأمراء أن يشغلوا قلب ملكهم بخصم خارجي حتى يصيروا آمنين من شر ذلك الملك.

والاحتمال الثاني: أن أحدًا ما منع فرعون من قتل موسى، وأنه كان يريد أن يقتله، إلا أنه كان خائفًا من أنه لو حاول قتله لظهرت معجزات قاهرة تمنعه عن قتله فيفتضح، إلا أنه لوقاحته قال: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ وغرضه منه أنه إنما امتنع عن قتله رعاية لقلوب أصحابه، وغرضه منه إخفاء خوفه. أما قوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ فإنما ذكره على سبيل الاستهزاء، يعني أني أقتله فليقل لربه حتى يخلصه مني.

أما قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ المقصود من هذا الكلام بيان السبب الموجب لقتله، وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين أو فساد الدنيا، أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو الذي كانوا عليه، فلما كان موسى ساعيًا في إفساده كان في اعتقادهم أنه ساع في إفساد الدين الحق، وأما فساد الدنيا فهو أنه لا بد وأن يجتمع عليه قوم، ويصير ذلك سببًا لوقوع الخصومات وإثارة الفتن، ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم لا جرم بدأ فرعون بذكر الدين فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾»[1].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ٥٥-٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، عاذ بربه؛ أي: اعتصم به، وتمنع من كل متكبر، أي متصف بالكبر، لا يؤمن بيوم الحساب، أي لا يصدق بالبعث والجزاء.

وسبب عياذ موسى بربه المذكور، أن فرعون قال لقومه: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[1].

فعياذ موسى المذكور بالله إنما هو في الحقيقة من فرعون، وإن كانت العبارة أعم من خصوص فرعون؛ لأن فرعون لا شك أنه متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، فهو داخل في الكلام دخولًا أوليًا، وهو المقصود بالكلام.

وما ذكره -جل وعلا- في آية المؤمن هذه، من عياذ موسى بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب كفرعون وعتاة قومه، ذكر نحوه في سورة (الدخان) في قوله تعالى عن موسى مخاطبًا فرعون وقومه: ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾[2] الآية»[3].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال موسى لفرعون وملئه: إني استجرت أيها القوم بربي وربكم، من كلّ متكبر عليه، تكبر عن توحيده، والإقرار بألوهيته وطاعته، لا يؤمن بيوم يحاسب الله فيه خلقه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بما أساء؛ وإنما خص موسى صلوات الله وسلامه عليه الاستعاذة بالله ممن لا يؤمن بيوم الحساب؛ لأن من لم يؤمن بيوم الحساب مصدقا، لم يكن

---

(١) غافر: الآية (٢٦). (٢) الدخان: الآية (٢٠).
(٣) أضواء البيان (٦/ ٣٨٣).

للثواب على الإحسان راجيا، ولا للعقاب على الإساءة، وقبيح ما يأتي من الأفعال خائفا، ولذلك كان استجارته من هذا الصنف من الناس خاصة»[١].

قال الرازي: «المعنى أنه لم يأت في دفع شره إلا بأن استعاذ بالله، واعتمد على فضل الله لا جرم صانه الله عن كل بلية، وأوصله إلى كل أمنية.

واعلم أن هذه الكلمات التي ذكرها موسى ﵇ تشتمل على فوائد:

الفائدة الأولى: أن لفظة: ﴿إِنِّي﴾ تدل على التأكيد، فهذا يدل على أن الطريق المؤكد المعتبر في دفع الشرور والآفات عن النفس الاعتماد على الله، والتوكل على عصمة الله تعالى.

الفائدة الثانية: أنه قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ فكما أن عند القراءة يقول المسلم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن، فكذلك عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الإنس إذا قال المسلم: أعوذ بالله، فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات.

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ والمعنى: كأن العبد يقول: إن الله سبحانه هو الذي رباني، وإلى درجات الخير رقاني، ومن الآفات وقاني، وأعطاني نعمًا لا حد لها ولا حصر، فلما كان المولى ليس إلا الله وجب أن لا يرجع العاقل في دفع كل الآفات إلا إلى حفظ الله تعالى.

الفائدة الرابعة: أن قوله: ﴿وَرَبِّكُم﴾ فيه بعث لقوم موسى ﵇ على أن يقتدوا به في الاستعاذة بالله، والمعنى فيه أن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة قوي ذلك التأثير جدًّا، وذلك هو السبب الأصلي في أداء الصلوات في الجماعات.

الفائدة الخامسة: أنه لم يذكر فرعون في هذا الدعاء؛ لأنه كان قد سبق له حق تربية على موسى من بعض الوجوه، فترك التعيين رعاية لذلك الحق.

الفائدة السادسة: أن فرعون وإن كان أظهر ذلك الفعل، إلا أنه لا فائدة في الدعاء على فرعون بعينه؛ بل الأولى الاستعاذة بالله في دفع كل من كان موصوفًا

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٥٧).

بتلك الصفة، حتى يدخل فيه كل من كان عدوًا، سواء كان مظهرًا لتلك العداوة أو كان مخفيًا لها.

الفائدة السابعة: أن الموجب للإقدام على إيذاء الناس أمران أحدهما: كون الإنسان متكبرًا قاسي القلب. والثاني: كونه منكرًا للبعث والقيامة، وذلك لأن المتكبر القاسي قد يحمله طبعه على إيذاء الناس إلا أنه إذا كان مقرًا بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعًا له من الجري على موجب تكبره، فإذا لم يحصل عنده الإيمان بالبعث والقيامة كانت الطبيعة داعية له إلى الإيذاء والمانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائلًا، وإذا كان الخوف من السؤال والحساب زائلًا فلا جرم تحصل القسوة والإيذاء.

الفائدة الثامنة: أن فرعون لما قال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ قال على سبيل الاستهزاء ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ﴾ فقال موسى: إن الذي ذكرته يا فرعون بطريق الاستهزاء هو الدين المبين والحق المنير، وأنا أدعو ربي وأطلب منه أن يدفع شرك عني، وسترى أن ربي كيف يقهرك، وكيف يسلطني عليك.

واعلم أن من أحاط عقله بهذه الفوائد علم أنه لا طريق أصلح ولا أصوب في دفع كيد الأعداء وإبطال مكرهم إلا الاستعاذة بالله، والرجوع إلى حفظ الله، والله أعلم»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحصن بالله تعالى في دفع الشرور

* عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ كان إذا خاف قومًا قال: «**اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم**»[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

نجعلك في نحورهم: يقال: جعلتُ فلانًا في نحر العدو: أي: قبالته وحذاءه، ليقاتل عنك ويحول بينك وبينه. وخص النحر بالذكر لأن العدو به يستقبل عند

---

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ٥٦-٥٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤١٤-٤١٥)، أبو داود (٢/ ١٨٧/ ١٥٣٧)، النسائي في الكبرى (٦/ ١٥٤/ ١٠٤٣٧)، الحاكم (٢/ ١٤٢) وصححه ووافقه الذهبي. ابن حبان (الإحسان ١١/ ٨٢ و٨٣/ ٤٧٦٥) وصححه.

المناهضة للقتال، أو للتفاؤل بنحورهم أي: قتلهم[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «والمعنى: نسألك أن تصد صدورهم، وتدفع شرورهم، وتكفينا أمورهم، وتحول بيننا وبينهم»[٢].

قال ابن علان: «وفيه إيماء إلى دواء من وقع في كيد الأعادي وترياق من أصابته سموم الأفاعي الحساد البواغي وذلك الاعتصام بحبل اللَّه سبحانه، والركون بالقلب إلى الرب»[٣].

وقال أيضًا: «وفيه التحصن بأسماء اللَّه تعالى، واللوذ به، واللجأ إليه تعالى في ما ينزل بالإنسان مما يشفق منه، وأنه لا ينافي التوكل»[٤].

* * *

---

(١) شرح الطيبي (٦/ ١٩٠٤).
(٢) شرح الطيبي (٦/ ١٩٠٤).
(٣) دليل الفالحين (٢/ ٤٧٨ و٤٧٩).
(٤) دليل الفالحين (٤/ ١٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال شيخ الإسلام: «أخبر سبحانه أنه كان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه، وأنه خاطبهم بالخطاب الذي ذكره، فهو من آل فرعون باعتبار النسب والجنس والظاهر، وليس هو من آل فرعون الذين يدخلون أشد العذاب»[١].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة، أن رجلًا مؤمنًا من آل فرعون يكتم إيمانه؛ أي: يخفي عنهم أنه مؤمن، أنكر على فرعون وقومه إرادتهم قتل نبي اللَّه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ الآية. مع أنه لا ذنب له يستحق به القتل إلا أنه يقول: ربي اللَّه.

وقد بين في آيات أخر أن من عادة المشركين قتل المسلمين، والتنكيل بهم، وإخراجهم من ديارهم من غير ذنب إلا أنهم يؤمنون باللَّه، ويقولون: ربنا اللَّه، كقوله تعالى في أصحاب الأخدود، الذين حرقوا المؤمنين: ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾[٣]. وقوله تعالى عن الذين كانوا سحرة لفرعون، وصاروا من خيار المؤمنين لما هددهم فرعون قائلًا: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٤]

---

(١) الجواب الصحيح (٢/ ٢٠٥).

(٢) البروج: الآيات (٤-٨).

(٣) الحج: الآيتان (٣٩ و٤٠).

(٤) الأعراف: الآية (١٢٤).

أنهم أجابوه بما ذكره اللَّه عنهم في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات»[2].

قال السعدي: «قيض اللَّه تعالى لموسى عليه السلام من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون وملئه. ومن جملة الأسباب، هذا الرجل المؤمن، الذي من آل فرعون، من بيت المملكة، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة، وخصوصًا إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه، فإنهم يراعونه في الغالب ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر، كما منع اللَّه رسوله محمدًا ﷺ بعمه أبي طالب من قريش، حيث كان أبو طالب كبيرًا عندهم، موافقًا لهم على دينهم، ولو كان مسلمًا لم يحصل منه ذلك المنع.

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم، مقبحًا فعل قومه، وشناعة ما عزموا عليه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ أي: كيف تستحلون قتله، وهذا ذنبه وجرمه أنه يقول ربي اللَّه، ولم يكن أيضًا قولا مجردًا عن البينات، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ لأن بينته اشتهرت عندهم اشتهارًا علم به الصغير والكبير؛ أي: فهذا لا يوجب قتله.

فهلا أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرتم: هل يحل قتله إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته، واستعلى برهانه، فبينكم وبين حل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق المطي.

ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل، بأي حالة قدرت، فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي: موسى بين أمرين، إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذبًا فكذبه عليه، وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقًا وقد جاءكم بالبينات، وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذبكم اللَّه عذابًا في الدنيا وعذابًا في الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا.

وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الذي

---

(١) الأعراف: الآيتان (١٢٥و١٢٦).

(٢) أضواء البيان (٦/ ٣٨٣ و٣٨٤).

لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائرًا بين تلك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم.

ثم انتقل رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه إلى أمر أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ أي: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل. ﴿كَذَّابٌ﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى اللَّه، فهذا لا يهديه اللَّه إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله، ولا يوفقه للصراط المستقيم؛ أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه اللَّه إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية، فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفًا ولا كاذبًا، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه»[1].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: كيف تقتلون رجلا لكونه يقول: ﴿رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تَنزل معهم في المخاطبة فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ يعني: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذبا فإن اللَّه سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يك صادقا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقا، فينبغي على هذا ألا تتعرضوا له؛ بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه.

وهكذا أخبر اللَّه تعالى عن موسى عليه السلام، أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة في قوله: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٩ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ۝٢١﴾[2] وهكذا قال رسول اللَّه ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى اللَّه تعالى عباد اللَّه، ولا يمسوه بسوء، وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته، قال اللَّه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[3]

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٢٢-٥٢٤).
(٢) الدخان: الآيات (١٧-٢١).
(٣) الشورى: الآية (٢٣).

أي: إلا ألا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة، فلا تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس. وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكان فتحًا مبينًا.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ أي: لو كان هذا الذي يزعم أن اللَّه أرسله إليكم كاذبا كما تزعمون، لكان أمره بينا، يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، كانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديدا ومنهجه مستقيما، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه اللَّه، وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة وما يلقاه الدعاة إلى التوحيد والسنة إلى يوم القيامة

* عن عروة بن الزبير قال: سألت عبد اللَّه بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول اللَّه ﷺ، قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداء في عنقه فخنقه به خنقا شديدا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾»[٢].

* عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنهم قالوا لها: ما أشد ما رأيت المشركين بلغوا من رسول اللَّه ﷺ؟ فقالت: كان المشركون قعدوا في المسجد يتذاكرون رسول اللَّه ﷺ وما يقول في آلهتهم، فبيناهم كذلك إذ أقبل رسول اللَّه ﷺ فقاموا إليه بأجمعهم، فأتى الصريخ إلى أبي بكر، فقيل: أدرك صاحبك، فخرج من عندنا وإن له لغدائر أربعًا، وهو يقول: ويلكم! ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾؟ فلهوا عن رسول اللَّه ﷺ وأقبلوا على أبي بكر. قالت: فرجع إلينا أبو بكر، فجعل لا يمس شيئًا من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٣٠-١٣١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٠٤)، والبخاري (٧/ ٢٦/ ٣٦٧٨) واللفظ له.

(٣) أخرجه أبو يعلى (١/ ٥٢/ ٥٢) واللفظ له، والحميدي (١/ ١٥٥-١٥٦/ ٣٢٤). قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٦-١٧): «رواه أبو يعلى وفيه تدروس جد أبي الزبير ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات». وحسن الحافظ إسناده في «الفتح» (٧/ ٢١٥).

★ **غريب الحديث:**

فلهوا عنه: أي: انشغلوا عنه بأبي بكر.

غدائر: ذوائب. جمع ذؤابة. والغديرة هي الذؤابة المظفورة من الشعر.

★ **فوائد الحديثين:**

قال المناوي: «انتصب أبو بكر لمناوأة المشركين، وذب عن المصطفى وحده ولم يهب شرق الدنيا وغربها، وجاد بمهجته في اللَّه تعالى، ولما مات أبو طالب انتهز قريش الفرصة واجتمعوا على المصطفى ﷺ أن يقتلوه قائلين: أنت الذي تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا، فلم يعنه إلا الصديق رضي اللَّه تعالى عنه، فنادى بأعلى صوته: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، فمؤمن آل فرعون الذي أثنى عليه اللَّه كان يكتم إيمانه، وأبو بكر ﷺ بذل نفسه فحاول إظهاره وإعلانه»[1].

قال السندي: «فقد وافق أبو بكر مؤمن آل فرعون، وزاد عليه حيث خاصم باليد واللسان بخلاف مؤمن آل فرعون، فإنه خاصم باللسان فقط، رضي اللَّه تعالى عنهما»[2].

* عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**»[3].

★ **غريب الحديث:**

الجهاد: بالكسر لغة: المشقة، وشرعًا: بذل الجهد في قتال الكفار ويطلق على مجاهدة النفس وعلى تعلم أمور الدين ثم العمل بها ثم على تسليمها، وأما مجاهدة الشيطان فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات وما يزينه من الشهوات، وأما مجاهدة الكفار فباليد والمال والقلب والقالب. وأما الفساق فباليد ثم اللسان ثم القلب[4].

كلمة: المراد بالكلمة: ما أفاد أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر من لفظ أو ما في

---

(١) فيض القدير (٢/ ٣١٥). (٢) حاشية السندي على المسند (١١/ ٥٠٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٩-٦١)، وأبو داود (٤/ ٥١٤/ ٤٣٤٤)، والترمذي (٤/ ٤٠٩/ ٢١٧٤) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٩/ ٤٠١١) واللفظ له. (انظر الصحيحة رقم ٤٩١).

(٤) فيض القدير (٢/ ٣٠).

معناه ككتابة أو نحوها .

سلطان جائر : أي : صاحب ظلم .

★فوائد الحديث:

قال الخطابي : «إنما صار ذلك أفضل الجهاد لأن من جاهد العدو كان مترددًا بين رجاء وخوف لا يدري هل يغلب أو يُغلب ، وصاحب السلطان مقهور في يده فهو إذا قال الحق وأمره بالمعروف فقد تعرض للتلف وأهدف نفسه للهلاك ، فصار ذلك أفضل أنواع الجهاد من أجل غلبة الخوف ، واللَّه أعلم»[1] .

قال المناوي : «لأن مجاهد العدو متردد بين رجاء وخوف ، وصاحب السلطان إذا أمر بمعروف تعرض للتلف ، فهو أفضل من جهة غلبة خوفه ، ولأن ظلم السلطان يسري إلى جم غفير ، فإذا كفه فقد أوصل النفع إلى خلق كثير ، بخلاف قتل كافر ، والمراد بالسلطان من له سلاطة وقهر»[2] .

قال ابن رجب : «إن خشي -أي : الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر- في الإقدام على الإنكار على الملوك أن يؤذي أهله أو جيرانه ، لم ينبغ له التعرض لهم حينئذ ، لما فيه من تعدي الأذى إلى غيره ، كذلك قال الفضيل بن عياض وغيره ، ومع هذا فمتى خاف منهم على نفسه السيف أو السوط أو الحبس أو القيد أو النفي أو أخذ المال أو نحو ذلك من الأذى سقط أمرهم ونهيهم ، وقد نص الأئمة على ذلك ، منهم مالك وأحمد وإسحاق وغيرهم ، قال أحمد : لا يُتعرض للسلطان فإن سيفه مسلول ، وقال ابن شبرمة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالجهاد ، يجب على الواحد أن يصابر فيه الاثنين ويحرم عليه الفرار منهما ، ولا يجب عليه مصابرة أكثر من ذلك .

فإن خاف السبّ أو سماع الكلام السيئ لم يسقط عنه الإنكار بذلك ، نص عليه الإمام أحمد . وإن احتمل الأذى وقوي عليه فهو أفضل ، نص عليه أحمد أيضًا . وقيل له : أليس قد جاء عن النبي ﷺ أنه قال : «**ليس للمؤمن أن يذل نفسه ، أن**

---

(١) معالم السنن (٤/ ٣٢٤).

(٢) فيض القدير (٢/ ٣٠).

يعرضها من البلاء لما لا طاقة له به»[١]؟ قال: ليس هذا من ذلك، ويدل على ما قاله.. ثم ذكر حديث الباب وأما حديث: «**لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه**» فإنما يدل على أنه إذا علم أنه لا يطيق الأذى، ولا يصبر عليه، فإنه لا يتعرض حينئذ للآمر، وهذا حق، وإنما الكلام فيمن علم من نفسه الصبر، كذلك قاله الأئمة، كسفيان وأحمد والفضيل بن عياض وغيرهم، وقد روي عن الإمام أحمد ما يدل على الاكتفاء بالإنكار بالقلب»[٢].

قال ابن عبد البر: «إن لم يتمكن من نصح السلطان، فالصبر والدعاء، فإنهم كانوا ينهون عن سب الأمراء». ثم ساق آثارًا عن السلف في ذلك[٣].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٠٥)، والترمذي (٤/ ٤٥٣/ ٢٢٥٤) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٣٣١/ ٤٠١٦) من حديث حذيفة ﷺ، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦١٣).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٤٩-٢٥١).

(٣) التمهيد (١٦/ ٦٩٢).

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾

★ غريب الآية:

ظاهرين: أي: غالبين.

بأس: عذاب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ثم قال المؤمن محذرًا قومه زوال نعمة اللَّه عنهم وحلول نقمة اللَّه بهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: قد أنعم اللَّه عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر اللَّه، وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة اللَّه إن كذبتم رسوله، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي: لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئًا من بأس اللَّه إن أرادنا بسوء»[1].

قال صديق حسن خان: «﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ ذكرهم ذلك الرجل المؤمن ما هم فيه من الملك ليشكروا اللَّه ولا يتمادوا في كفرهم، ومعنى: ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ الظهور على الناس، والغلبة لهم، والاستعلاء عليهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر.

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي: من يمنعنا من عذابه، ويحول بيننا وبينه عند مجيئه، وفي هذا تحذير منه لهم من نقمة اللَّه بهم، وإنزال عذابه عليهم، وإنما نسب ما يسرهم من الملك والظهور في الأرض لهم خاصة، ونظم نفسه في سلكهم فيما يهمهم من مجيء بأس اللَّه تطييبا لقلوبهم، وإيذانا بأنه مناصح ساع في تحصيل ما يجديهم، ودفع ما يرديهم، ليتأثروا بنصحه»[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٣١).

(٢) فتح البيان (١٢/ ١٨٤).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه رادًّا على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي، وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به من الرسالة: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[1]، وقال اللّه تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[2].

فقوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ كذب فيه وافترى، وخان اللّه ورسوله ورعيته، فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضًا في ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال اللّه تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾[4]»[5].

قال الشنقيطي: «وهذان الأمران اللذان ذكر تعالى عن فرعون أنه قالهما في هذه الآية الكريمة، قد بين في آيات أخر أن فرعون كاذب في كل واحد منهما.

أما الأول منهما وهو قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ فقد بين تعالى كذبه فيه في آيات من كتابه، وأوضح فيها أنه يعلم ويتيقن أن الآيات التي جاءه بها موسى حق، وأنها ما أنزلها إلا اللّه، وأنه جحدها هو ومن استيقنها معه من قومه ليستخفوا بها عقول الجهلة منهم، كقوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا

---

(١) الإسراء: الآية (١٠٢).
(٢) النمل: الآية (١٤).
(٣) هود: الآية (٩٧).
(٤) طه: الآية (٧٩).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٣١و١٣٢).

سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾[١].

فقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ دليل واضح على أن فرعون كاذب في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾. وكقوله تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ فقول نبي اللَّه موسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مؤكدًا إخباره بأن فرعون عالم بذلك بالقسم، وقد دل أيضًا على أنه كاذب في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾. وكان غرض فرعون بهذا الكذب التدليس والتمويه ليظن جهلة قومه أن معه الحق، كما أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾[٢].

وأما الأمر الثاني وهو قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فقد بين تعالى كذبه فيه في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حكم الوالي الغاش لرعيته

* عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: **«ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم اللَّه عليه الجنة»**[٤].

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «معناه بين في التحذير من غش المسلمين لمن قلده اللَّه شيئًا من أمرهم، واسترعاه عليهم، ونصبه خليفة لمصلحتهم، وجعله واسطة بينه وبينهم في تدبير أمورهم في دينهم ودنياهم. فإذا خان فيما أؤتمن عليه ولم ينصح فيما قلِّده واستُخلف عليه، إما بتضييع لتعريفهم ما يلزمهم من دينهم وأخذهم به، والقيام بما يتعين عليه من حفظ شرائعهم، والذب عنها لكل متصدّ لإدخال داخلة

---

(١) النمل: الآيات (١٢-١٤). (٢) الزخرف: الآية (٥٤).

(٣) أضواء البيان (٦/ ٣٨٥-٣٨٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٥)، والبخاري (١٣/ ١٥٨/ ٧١٥١)، ومسلم (١/ ١٢٥/ ١٤٢) واللفظ له.

فيها، أو تحريف لمعانيها، أو إهمال حدودهم، أو تضييع حقوقهم، أو ترك حماية حوزتهم، ومجاهدة عدوهم، أو ترك سيرة العدل فيهم، فقد غشهم. وقد نبه ﷺ أن ذلك من كبائر الذنوب الموبقة المبعدة عن الجنة، إذا دخلها السابقون والمقربون، إن أنفذ اللَّه عليه وعيده الموجب لعذابه بالنار، أو إيقافه بالبرزخ والأعراف المدة التي يشاء اللَّه تعالى، أو يحرم الجنة رأسًا إن فعل ذلك مستحلًّا»[١].

قال ابن بطال: «النصيحة فرض على الوالي لرعيته.. فمن ضيّع من استرعاه اللَّه أمرهم، أو خانهم، أو ظلمهم، فقد توجه إليه الطلب بمظالم العباد يوم القيامة، فكيف يقدر على التحلل من ظلم أمة عظيمة؟ وهذا الحديث بيان وعيد شديد على أئمة الجور»[٢].

قال الحافظ -بعد نقل قول ابن بطال السابق-: «ونقل ابن التين عن الداودي نحوه، قال: ويحتمل أن يكون هذا في حق الكافر لأن المؤمن لا بد له من نصيحة. قلت: وهو احتمال بعيد جدًّا والتعليل مردود؛ فالكافر أيضًا قد يكون ناصحًا فيما تولاه ولا يمنعه ذلك الكفر. وقال غيره: يحمل على المستحل، والأولى أنه محمول على غير المستحل، وإنما أريد به الزجر والتغليظ، وقد وقع في رواية لمسلم بلفظ: «**لم يدخل معهم الجنة**» وهو يؤيد أن المراد أنه لا يدخل الجنة في وقت دون وقت»[٣].

* * *

---

(١) الإكمال (١/ ٤٤٦-٤٤٧).

(٢) شرح البخاري (٨/ ٢١٩).

(٣) فتح الباري (١٣/ ١٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

دأب: الدأب العادة المستمرة دائما على حالة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا إخبار من اللَّه ﷻ، عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آل فرعون: أنه حذر قومه بأس اللَّه في الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: الذين كذبوا رسل اللَّه في قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس اللَّه، وما رده عنهم راد، ولا صده عنهم صاد.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: إنما أهلكهم اللَّه بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره، فأنفذ فيهم قدره»[١].

قال السعدي: «﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ مكررًا دعوة قومه غير آيس من هدايتهم، كما هي حالة الدعاة إلى اللَّه تعالى، لا يزالون يدعون إلى ربهم، ولا يردهم عن ذلك راد، ولا يثنيهم عتو من دعوه عن تكرار الدعوة فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني الأمم المكذبين، الذين تحزبوا على أنبيائهم، واجتمعوا على معارضتهم، ثم بينهم فقال: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: مثل عادتهم في الكفر والتكذيب، وعادة اللَّه فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جرم أسلفوه»[٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٣٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ۝٣٣﴾

★ غريب الآية:

يوم التناد: يوم القيامة. قال أمية بن أبي الصلت:

وبث الخلق فيها إذا دحاها فهم سكانها حتى التناد

سمي بذلك لمناداة الناس بعضهم بعضًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «لما خوفهم العقوبات الدنيوية، خوفهم العقوبات الأخروية، فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢﴾ أي: يوم القيامة، حين ينادي أهل الجنة أهل النار: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾[1] إلى آخر الآيات.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾[2] وحين ينادي أهل النار مالكًا: ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ فيقول: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[3] وحين ينادون ربهم: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧﴾[4] فيجيبهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[5] وحين يقال للمشركين: ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾[6]. فخوفهم ﷺ هذا اليوم المهول، وتوجع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك، ولهذا قال: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ أي: قد ذهب بكم إلى النار ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾[7].

---

(١) الأعراف: الآية (٤٤).
(٢) الأعراف: الآية (٥٠).
(٣) الزخرف: الآية (٧٧).
(٤) المؤمنون: الآية (١٠٧).
(٥) المؤمنون: الآية (١٠٨).
(٦) القصص: الآية (٦٤).
(٧) الطارق: الآيتان (٩و١٠).

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ ؛ لأن الهدى بيد اللَّه تعالى، فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به لخبثه، فلا سبيل إلى هدايته»[١].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٢٦ و٥٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد جاءكم يوسف بن يعقوب يا قوم من قبل موسى بالواضحات من حجج اللَّه.. وقوله: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ يقول: فلم تزالوا مرتابين فيما أتاكم به يوسف من عند ربكم، غير موقني القلوب بحقيقته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ يقول: حتى إذا مات يوسف قلتم أيها القوم: لن يبعث اللَّه من بعد يوسف إليكم رسولا بالدعاء إلى الحقّ ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ يقول: هكذا يصد اللَّه عن إصابة الحقّ وقصد السبيل من هو كافر به مرتاب، شاكّ في حقيقة أخبار رسله»[1].

قال السعدي: «﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب ﷺ ﴿مِن قَبْلُ﴾ إتيان موسى بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ في حياته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ ازداد شككم وشرككم، و ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ أي: هذا ظنكم الباطل، وحسبانكم الذي لا يليق باللَّه تعالى، فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى، لا يأمرهم وينهاهم، ويرسل إليهم رسله، والظن أن اللَّه لا يرسل رسولا ظن ضلال، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي وصفوا به موسى ظلمًا وعلوا، فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة، حيث نسبوا ذلك إلى اللَّه، وكذبوا رسوله.

فالذي وصفه السرف والكذب، لا ينفك عنهما، لا يهديه اللَّه، ولا يوفقه

(١) جامع البيان (٢٤/ ٦٣).

للخير؛ لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه اللَّه، بأن يمنعه الهدى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[1] ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾[2] ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]»[4].

قال الرازي: «وفي المراد بها أي: البينات- قولان: الأول: أن المراد بالبينات قوله: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[5]، والثاني: المراد بها المعجزات، وهذا أولى، ثم إنهم بقوا في نبوته شاكين مرتابين، ولم ينتفعوا البتة بتلك البينات، فلما مات قالوا إنه: ﴿لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ وإنما حكموا بهذا الحكم على سبيل التشهي والتمني من غير حجة ولا برهان، بل إنما ذكروا ذلك ليكون ذلك أساسًا لهم في تكذيب الأنبياء الذين يأتون بعد ذلك، وليس في قولهم: ﴿لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ لأجل تصديق رسالة يوسف، وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها، وإنما هو تكذيب لرسالة من هو بعده مضمومًا إلى تكذيب رسالته، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ أي مثل هذا الضلال يضل اللَّه كل مسرف في عصيانه، مرتاب في دينه»[6].

* * *

---

(١) الصف: الآية (٥).
(٢) الأنعام: الآية (١١٠).
(٣) التوبة: الآية (١٠٩).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٢٧-٥٢٨).
(٥) يوسف: الآية (٣٩).
(٦) التفسير الكبير (٢٧/ ٦٣).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من اللَّه، فإن اللَّه يمقت على ذلك أشد المقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ أي: والمؤمنون أيضًا يُبغضُون من تكون هذه صفته، فإن من كانت هذه صفته، يطبع اللَّه على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفًا، ولا ينكر منكرًا؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ﴾ أي: على اتباع الحق ﴿جَبَّارٖ﴾»[1].

قال السعدي: «ثم ذكر وصف المسرف الكذاب فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي بينت الحق من الباطل، وصارت -من ظهورها- بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها، ليدفعوها ويبطلوها ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾ أي: بغير حجة وبرهان، وهذا وصف لازم لكل من جادل في آيات اللَّه، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان؛ لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصلا ﴿كَبُرَ﴾ ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ فاللَّه أشد بغضًا لصاحبه؛ لأنه تضمن التكذيب بالحق، والتصديق بالباطل، ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغض اللَّه لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم، وهؤلاء خواص خلق اللَّه تعالى، فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما طبع على قلوب آل فرعون ﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ متكبر في نفسه

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٣٣).

على الحق برده وعلى الخلق باحتقارهم، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه»[١].

قال شيخ الإسلام: «المقصود هنا أنه سبحانه في هاتين الآيتين بين من يجادل في آيات اللَّه بغير سلطان أتاهم، وقد بين في غير موضع أن السلطان هو الحجة، وهو الكتاب المنزل، كما قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾[٢] وقيل: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[٣] في غير موضع.

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾[٤]، وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾[٥] وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾[٦].

وإذا كان كذلك ففي هذا بيان أنه لا يجوز لأحد أن يعارض كتاب اللَّه بغير كتاب، فمن عارض كتاب اللَّه وجادل فيه بما يسميه معقولات وبراهين وأقيسة، أو ما يسميه مكاشفات ومواجيد وأذواق، من غير أن يأتي على ما يقوله بكتاب منزل، فقد جادل في آيات اللَّه بغير سلطان، هذه حال الكفار الذين قال فيهم: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[٧] فهذه حال من يجادل في آيات اللَّه مطلقا.

ومن المعلوم أن الذي يجادل في جميع آيات اللَّه لا يجادل بسلطان، فإن السلطان من آيات اللَّه، وإنما الذي يجادل في آيات اللَّه بسلطان يكون قد جادل في بعض آيات اللَّه ببعض آيات الله»[٨].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن علماء الأمة لا يجمعون على ضلالة

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «ما رآه المؤمنون حسنًا فهو عند اللَّه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٢٨ و٥٢٩).
(٢) الروم: الآية (٣٥).
(٣) النجم: الآية (٢٣).
(٤) الصافات: الآيات (١٥١-١٥٧).
(٥) الطور: الآية (٣٨).
(٦) القلم: الآيات (٣٥-٣٧).
(٧) غافر: الآية (٤).
(٨) الاستقامة (١/ ٢١-٢٣).

حسن، وما رآه المؤمنون قبيحًا فهو عند اللَّه سيئ»[١].

★ فوائد الحديث:

قال العلامة الألباني: «إن من عجائب الدنيا أن يحتج بعض الناس بهذا الحديث على أن في الدين بدعة حسنة، وأن الدليل على حسنها اعتياد المسلمين لها! ولقد صار من الأمر المعهود أن يبادر هؤلاء إلى الاستدلال بهذا الحديث عندما تثار هذه المسألة. وخفي عليهم:

أن هذا الحديث موقوف، فلا يجوز أن يحتج به في معارضة النصوص المرفوعة القاطعة في أن كل بدعة ضلالة، كما صح عنه ﷺ.

وعلى افتراض صلاحية الاحتجاج به، فإنه لا يعارض تلك النصوص لأمور:
الأول: أن المراد به إجماع الصحابة واتفاقهم على أمر، كما يدل عليه السياق، ويؤيده استدلال ابن مسعود به على إجماع الصحابة على انتخاب أبي بكر خليفة، وعليه فاللام في «المسلمون» ليس للاستغراق كما يتوهمون، بل للعهد.

الثاني: سلمنا أنه للاستغراق، ولكن ليس المراد به قطعًا كل فرد من المسلمين ولو كان جاهلًا لا يفقه من العلم شيئًا، فلا بد إذن من أن يحمل على أهل العلم منهم، وهذا مما لا مفر لهم منه، فيما أظن»[٢].

وقال أيضًا: «وخلاصة القول أن حديث ابن مسعود هذا الموقوف لا متمسَّك فيه للمبتدعة، كيف وهو رضي الله عنه أشد الصحابة محاربة للبدعة والنهي عن اتباعها، وأقواله وقصصه في ذلك معروفة في «سنن الدارمي» و«حلية الأولياء» وغيرهما[٣]»[٤].

---

(١) أخرجه مطولا ومختصرا: أحمد (١/ ٣٧٩)، الطبراني (٩/ ١١٢-١١٣/ ٨٥٨٢ -٨٥٨٣)، البزار (كشف الأستار ١/ ٨١/ ١٣٠). قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٧٧-١٧٨): «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجاله موثقون» اهـ. وأخرجه: الحاكم (٣/ ٧٨-٧٩) وصححه ووافقه الذهبي، وقد ذكر الشيخ الألباني - حفظه اللَّه - كلاما حول فقه هذا الأثر، فلينظر (٢/ ١٩,١٧).

(٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/ ١٧-١٨).

(٣) وقد استوفينا مواقفه في كتابنا «موسوعة مواقف السلف» فلينظر هناك.

(٤) السلسلة الضعيفة (٢/ ١٩).

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ -رادًّا على الذين يستدلون بهذا الأثر على استحسان البدع-: «وأما الدليل الثاني فلا حجة فيه من أوجه: أحدها: أن ظاهره يدل على أن ما رآه المسلمون بجملتهم حسنًا فهو حسن، والأمة لا تجتمع على باطل، فاجتماعهم على حسن شيء يدل على حسنه شرعًا، لأن الإجماع يتضمن دليلًا، فالحديث دليل عليكم لا لكم.. ثم قال: الثالث: أنه إذا لم يُرَد به أهل الإجماع وأُريد به بعضهم، فيلزم عليه استحسان العوامّ، وهو باطل بإجماع. لا يقال: إن المراد استحسان أهل الاجتهاد، لأنا نقول: هذا ترك للظاهر، فيبطل الاستدلال.

ثم إنه لا فائدة في اشتراط الاجتهاد، لأن المستحسن بالفرض لا ينحصر إلى الأدلة، فأي حاجة إلى اشتراط الاجتهاد. فإن قيل: إنما يُشترط حذرًا من مخالفة الأدلة، فإن العامي لا يعرفه. قيل: بل المراد استحسان ينشأ عن الأدلة، بدليل أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قصروا أحكامهم على اتباع الأدلة وفهم مقاصد الشرع. فالحاصل أن تعلق المبتدعة بمثل هذه الأمور تعلق بما لا يغنيهم ولا ينفعهم البتة»[1].

وقال أيضًا: «فلا اعتبار بالاحتجاج بهذا الحديث على استحسان شيء أو استقباحه بغير دليل شرعي»[2].

قال ابن القيم: «وفيه دليل على أن ما أجمع عليه المسلمون ورأوه حسنًا فهو عند اللَّه حسن، لا ما رآه بعضهم»[3].

وقال أيضًا: «فالأمة معصومة فيما تواطأت عليه من روايتها ورؤياها، ولهذا كان من سداد الرأي وإصابته أن يكون شورى بين أهله، ولا ينفرد به واحد، وقد مدح اللَّه سبحانه المؤمنين بكون أمرهم شورى بينهم، وكانت النازلة إذا نزلت بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس عنده فيها نص عن اللَّه ولا عن رسوله، جمع لها أصحاب رسول اللَّه ﷺ ثم جعلها شورى بينهم»[4].

* * *

(١) الاعتصام (٣/ ٩٤-٩٥).
(٢) الاعتصام (٣/ ٤٥٧).
(٣) الفروسية (ص: ٨٢).
(٤) إعلام الموقعين (١/ ٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

★ غريب الآية:

صرحا: الصرح هو القصر العالي المنيف الشاهق.

أسباب السموات: أبوابها. قال الشاعر:

ومَنْ هاب أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ولو رامَ أسبابَ السّماءِ بِسُلَّمِ

تباب: خسران. ويعبر به عن الهلاك لأن الهالك يخسر نفسه وماله. ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾[1].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن فرعون، وعتوه وتمرده، وافترائه في تكذيبه موسى ﷺ، أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحا، وهو: القصر العالي المنيف الشاهق. وكان اتخاذه من الآجرّ المضروب من الطين المشوي، كما قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾[2].. وقوله: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قال سعيد بن جبير، وأبو صالح: أبواب السموات. وقيل: طرق السموات ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾، وهذا من كفره وتمرده، أنه كذب موسى في أن الله ﷻ أرسله إليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: بصنيعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية

(١) المسد: الآية (١).

(٢) القصص: الآية (٣٨).

أنه يعمل شيئًا يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه السلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: يعني إلا في خسار»[١].

قال السعدي: «﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضا لموسى، ومكذبًا له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى، وعلى الخلق اعتلى: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ أي: بناء عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ في دعواه أن لنا ربًا، وأنه فوق السموات.

ولكنه يريد أن يحتاط فرعون، ويختبر الأمر بنفسه، قال اللَّه تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فزين له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسنًا ودعا إليه وناظر فيه مناظرة المحقين، وهو من أعظم المفسدين، ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زين له. ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محق، وأن موسى مبطل ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: خسار وبوار، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة»[٢].

قال شيخ الإسلام: «وهؤلاء المشبهون لفرعون الجهمية نفاة الصفات الذين وافقوا فرعون في جحده، وقالوا: إنه ليس فوق السموات، وأن اللَّه لم يكلم موسى تكليما، كما قال فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾.

وكان فرعون جاحدا للرب، فلولا أن موسى أخبره أن ربه فوق العالم لما قال: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٣٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٢٩-٥٣٠).

ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[1] ومحمد ﷺ لما عرج به إلى ربه وفرض عليه الصلوات الخمس ذكر أنه رجع إلى موسى، وأن موسى قال له: ارجع إلى ربك فسله التخفيف إلى أمتك، كما تواتر هذا في أحاديث المعراج، فموسى صدق محمدًا في أن ربه فوق، وفرعون كذب موسى في أن ربه فوق، فالمقرون بذلك متبعون لموسى ومحمد، والمكذبون بذلك موافقون لفرعون»[2].

* * *

(١) القصص: الآيات (٣٨-٤٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٧٣-١٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سبيل الرشاد: أي: طريق الهدى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن المؤمن بالله من آل فرعون ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ من قوم فرعون لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ يقول: إن اتبعتموني فقبلتم مني ما أقول لكم، بينت لكم طريق الصواب الذي ترشدون إذا أخذتم فيه وسلكتموه، وذلك هو دين الله الذي ابتعث به موسى»(١).

قال صديق حسن خان: «أي: اقتدوا بي في الدين واعملوا بنصيحتي ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: طريق الهدى والصواب، وهو الجنة، وهو ضد الغي، وفيه تعريض شبيه بالتصريح، أن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي، وقيل: هذا من قول موسى والأول أولى»(٢).

قال البقاعي: «لما كان فساد ما قاله فرعون أظهر من أن يحتاج إلى بيان، أعرض المؤمن عنه تصريحًا، ولوّح إلى ما حكاه الله عنه من أنه محيط به الهلاك تلويحًا في قوله مناديًا قومه ومستعطفًا لهم ثلاث مرات: الأولى على سبيل الإجمال في الدعوة، والأخريان على سبيل التفصيل، فقال تعالى عنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ أي مشيرًا إلى وَهْي قول فرعون بالإعراض عنه، وعبر بالفعل إشارة إلى أنه ينبغي لأدنى أهل الإيمان أن لا يحقر نفسه عن الوعظ: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أي يا من لا قيام لي إلا بهم، فأنا غير متهم في نصيحتهم ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ أي كلفوا أنفسكم اتباعي؛ لأن السعادة غالبًا

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٦٧).

(٢) فتح البيان (١٢/ ١٩٢).

تكون فيما يكره الإنسان ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ﴾ أي طريق ﴿الرَّشَادِ﴾ أي الهدى؛ لأنه مع سهولته واتساعه موصل ولا بد إلى المقصود، وأما ما قال فرعون مدعيًا أنه سبيل الرشاد لا يوصل إلا إلى الخسار، فهو تعريض به شبيه بالتصريح»[1].

* * *

(١) نظم الدرر (١٧/ ٧١-٧٢).

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

دار القرار: دار الاستقرار والخلود. والمراد: الجنة أو النار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى، وصدتهم عن التصديق برسول اللَّه موسى ﷺ، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ أي: قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتزول وتضمحل، ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ أي: الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم، ولهذا قال: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ أي: واحدة مثلها ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: لا يتقدر بجزاء؛ بل يثيبه اللَّه ثوابا كثيرًا لا انقضاء له ولا نفاد»[1].

قال السعدي: «﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ يتمتع بها ويتنعم قليلا ثم تنقطع وتضمحل، فلا تغرنكم وتخدعنكم عما خلقتم له، ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ التي هي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها عملا يسعدكم فيها.

﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ﴾ من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ أي:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٣٤).

لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه بقدر إساءته وما تستحقه؛ لأن جزاء السيئة السوء.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يعطون أجرهم بلا حد ولا عد، بل يعطيهم اللَّه ما لا تبلغه أعمالهم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن المرأة الصالحة خير متاع الدنيا

* عن عبد اللَّه بن عمرو أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: ««الدنيا متاع» هي مع دناءتها إلى فناء، وإنما خلق ما فيها لأن يستمتع به مع حقارته أمدًا قليلًا، ثم ينقضي، والمتاع ما ليس له بقاء، قال الحرالي: وعبر بلفظ المتاع إفهامًا لخستها لكونه من أسماء الجيفة التي إنما هي منال المضطر على شعورهم برفضه عن قرب من مرتجي الفناء عنها، وأصل المتاع انتفاع ممتد من قولهم: ماتِع: أي: مرتفع طويل. . قال الحرالي: فيه إيماء إلى أنها -أي: الزوجة الصالحة- أطيب حلال في الدنيا؛ أي: لأنه سبحانه زين الدنيا بسبعة أشياء ذكرها بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾[٣] الآية، وتلك السبعة هي ملاذّها وغاية آمال طلاّبها، وأعمها زينة وأعظمها شهوة النساء، لأنها تحفظ زوجها عن الحرام، وتعينه على القيام بالأمور الدنيوية والدينية. وكل لذة أعانت على لذات الآخرة فهي محبوبة مرضية لله، فصاحبها يلتذّ بها من جهة تنعّمه وقرة عينه بها، ومن جهة إيصالها له إلى مرضاة ربه، وإيصاله إلى لذة أكمل منها»[٤].

قال الطيبي: «الظاهر أنه ﷺ أخبر أن الاستمتاعات الدنيوية كلها حقيرة، لا يُعبأ بها. وكذلك أنه تعالى لما ذكر أصنافها وأنواعها وسائر ملاذها في قوله:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٣١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٨)، ومسلم (٢/ ١٠٩٠/ ١٤٦٧) واللفظ له، والنسائي (٦/ ٣٧٧/ ٣٢٣٢)، وابن ماجه (١/ ٥٩٦/ ١٨٥٥).

(٣) آل عمران: الآية (١٤).

(٤) فيض القدير (٣/ ٥٤٨-٥٤٩).

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ﴾ أتبعه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ ثم قال بعده: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[1] فنبه على أنها تضاد ما عند اللَّه تعالى من حسن الثواب، وخص منها المرأة وقيدها بالصالحة، ليُؤذن بأنها شرها لو لم تكن على هذه الصفة، ومن ثمة قدمها في الآية على سائرها»[2].

* * *

(١) آل عمران: الآية (١٤).

(٢) شرح الطيبي (٧/ ٢٢٥٩).

قوله تعالى: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل هذا المؤمن لقومه من الكفرة: ﴿مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ من عذاب اللّٰه وعقوبته بالإيمان به، واتباع رسوله موسى، وتصديقه فيما جاءكم به من عند ربه ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يقول: وتدعونني إلى عمل أهل النار..

وقوله: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ يقول: وأشرك باللّٰه في عبادته أوثانا، لست أعلم أنه يصلح لي عبادتها وإشراكها في عبادة الله؛ لأن اللّٰه لم يأذن لي في ذلك بخبر ولا عقل.

وقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ يقول: وأنا أدعوكم إلى عبادة العزيز في انتقامه ممن كفر به، الذي لا يمنعه إذا انتقم من عدوّ له شيء، الغفار لمن تاب إليه بعد معصيته إياه، لعفوه عنه، فلا يضرّه شيء مع عفوه عنه، يقول: فهذا الذي هذه الصفة صفته فاعبدوا، لا ما لا ضرّ عنده ولا نفع»[1].

قال المراغي: «كرر ذلك المؤمن دعاءهم إلى اللّٰه وصرح بإيمانه، ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامه لهم أنه منهم، وأنه إنما تصدى لتذكيرهم كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى، كما يقول الرجل المحب لقومه تحذيرا لهم من الوقوع فيما يخاف عليهم من مواضع الهُلْكة فقال: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١﴾ أي: أخبروني كيف أنتم وما حالكم، أدعوكم إلى النجاة من عذاب اللّٰه بإيمانكم باللّٰه وإجابة رسوله وتصديق ما جاء به من عند ربه،

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٦٨).

وتدعونني إلى عمل أهل النار بما تريدون مني من الشرك؟ ثم فسر الدعوتين بقول: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾ أي: تدعونني إلى الكفر بالله، والإشراك به في عبادته ما لم يقم عليه دليل على ألوهيته، وأنا أدعوكم إلى من استجمع صفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة والعلم والإرادة، والتمكن من المجازاة، والقدرة على التعذيب والغفران»[1].

* * *

(١) تفسير المراغي (٢٤/ ٧٥).

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

★ غريب الآية:

لا جرم: أي: حق.

مردنا: أي: مرجعنا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «التحقيق الذي لا شك فيه، أن هذا الكلام من كلام مؤمن آل فرعون الذي ذكر الله عنه، وليس لموسى فيه دخل.

وقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾، يعني أنهم يوم القيامة، يعلمون صحة ما كان يقول لهم، ويذكرون نصيحته، فيندمون حيث لا ينفع الندم، والآيات الدالة على مثل هذا من أن الكفار تنكشف لهم يوم القيامة حقائق ما كانوا يكذبون به في الدنيا كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾[3] وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾[4] وقوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات»[6].

---

(١) الأنعام: الآيتان (٦٦ و٦٧).

(٢) ص: الآية (٨٨).

(٣) النبأ: الآيتان (٤ و٥).

(٤) التكاثر: الآيتان (٣ و٤).

(٥) ق: الآية (٢٢).

(٦) أضواء البيان (٧/ ٣٨٧ و٣٨٨).

وقال أيضًا: وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ دليل واضح على أن التوكل الصادق، وتفويض الأمور إليه، سبب للحفظ والوقاية من كل سوء، وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل، كقولهم: سها فسجد، أي سجد لعلة سهوه، وسرق فقطعت يده، أي لعلة سرقته، كما قدمنا مرارًا.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون التوكل على اللَّه سببًا للحفظ والوقاية من السوء، جاء مبينًا في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾[2]»[3].

قال السعدي: «﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقا يقينا ﴿أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: لا يستحق من الدعوة إليه، والحث على اللجأ إليه في الدنيا ولا في الآخرة؛ لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى فسيجازي كل عامل بعمله. ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجرؤ على ربهم بمعاصيه والكفر به دون غيرهم. فلما نصحهم وحذرهم وأنذرهم ولم يطيعوه ولا وافقوه قال لهم: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ من هذه النصيحة، وسترون مغبة عدم قبولها حين يحل بكم العقاب، وتحرمون جزيل الثواب.

﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي: ألجأ إليه وأعتصم، وألقي أموري كلها لديه، وأتوكل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ يعلم أحوالهم وما يستحقون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته، فإن سلطكم علي، فبحكمة منه تعالى، وعن إرادته ومشيئته صدر ذلك»[4].

---

(١) الطلاق: الآية (٣). (٢) آل عمران: الآيتان (١٧٣-١٧٤).

(٣) أضواء البيان (٦/ ٣٨٨).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٣٢ و٥٣٣).

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حاق: حاق يحيق حيقًا وحيوقًا إذا نزل ولزم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «دلت هذه الآية الكريمة، على أن فرعون وقومه أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن الكريم، وأن اللَّه وقاه، أي حفظه ونجاه، من أضرار مكرهم وشدائده بسبب توكله على اللَّه، وتفويضه أمره إليه.

وبعض العلماء يقول: نجاه اللَّه منهم مع موسى وقومه، وبعضهم يقول: صعد جبلًا فأعجزهم اللَّه عنه ونجاه منهم، وكل هذا لا دليل عليه، وغاية ما دل عليه القرآن أن اللَّه وقاه سيئات مكرهم؛ أي: حفظه ونجاه منها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ معناه: أنهم لما أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن وقاه اللَّه مكرهم، ورد العاقبة السيئة عليهم، فرد سوء مكرهم إليهم، فكان المؤمن المذكور ناجيًا في الدنيا والآخرة، وكان فرعون وقومه هالكين في الدنيا والآخرة والبرزخ.

فقال في هلاكهم في الدنيا: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾[1] الآية، وأمثالها من الآيات. وقال في مصيرهم في البرزخ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ﴾. وقال في عذابهم في الآخرة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، من حيق المكر السيئ، بالماكر أوضحه تعالى

---

(١) الأنفال: الآية (٥٤).

في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾[(١)]»[(٢)].

قال ابن القيم: «هذا تنبيه على أن فرعون نفسه في الأشد من ذلك؛ لأنهم إنما دخلوا أشد العذاب تبعا له، فإنه هو الذي استخفهم فأطاعوه، وغرهم فاتبعوه، ولهذا يكون يوم القيامة أمامهم وفرطهم في هذا الورد قال تعالى: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾[(٣)]، والمقصود أنهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم، وصدهم عن سبيل اللَّه، وعقوبتهم من آمن باللَّه، فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم، ولهذا كان في كتاب النبي لهرقل: «**فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين**»[(٤)] والصحيح في اللفظ أنهم الأتباع، ولهذا كان عدو اللَّه إبليس أشد أهل النار عذابا، وهو أول من يكسى حلة من النار؛ لأنه إمام كل كفر وشرك وشر، فما عصي اللَّه إلا على يديه وبسببه، ثم الأمثل فالأمثل من نوابه في الأرض ودعاته، ولا ريب أن الكفر يتفاوت، فكفر أغلظ من كفر، كما أن الإيمان يتفاوت، فإيمان أفضل من إيمان، فكما أن المؤمنين ليسوا في درجة واحدة؛ بل هم درجات عند اللَّه، فكذلك الكفار ليسوا في طبقة واحدة ودرك واحد؛ بل النار دركات، كما أن الجنة درجات، ولا يظلم اللَّه من خلقه أحدا، وهو الغني الحميد»[(٥)].

قال السعدي: «﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾ أي: وقى اللَّه القوي ذلك الرجل المؤمن الموفق، عقوبات ما مكر فرعون وآله له، من إرادة إهلاكه وإتلافه؛ لأنه بدأهم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يحتملونه وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه، فأرادوا به كيدًا فحفظه اللَّه من كيدهم ومكرهم، وانقلب كيدهم ومكرهم على أنفسهم، ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أغرقهم اللَّه تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم.

وفي البرزخ ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ

---

(١) فاطر: الآية (٤٣).
(٢) أضواء البيان (٦/ ٣٨٨ و٣٨٩).
(٣) هود: الآية (٩٨).
(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣)، والبخاري (١/ ٤٢/ ٧)، ومسلم (٣/ ١٣٩٣/ ١٧٧٣)، والترمذي (٥/ ٦٥-٦٦/ ٢٧١٧)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦٥/ ٨٨٤٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٥) طريق الهجرتين (ص: ٤٠٩ و٤١٠).

أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ فهذه العقوبات الشنيعة، التي تحل بالمكذبين لرسل اللَّه، المعاندين لأمره»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات عذاب القبر

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «اطلع النبي ﷺ على أهل القليب فقال: وجدتم ما وعد ربكم حقًا، فقيل له: تدعو أمواتًا؟ فقال: ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون»[٢].

★ غريب الحديث:

القليب: البئر التي لم تطوَ، يذكر ويؤنث.

★ فوائد الحديث:

قال القسطلاني: «هذا يدل على وجود حياة في القبر يصلح معها التعذيب؛ لأنه لما ثبت سماع أهل القليب كلامه عليه الصلاة والسلام وتوبيخه لهم دل على إدراكهم الكلام بحاسة السمع، وعلى جواز إدراكهم ألم العذاب ببقية الحواس، بل بالذات»[٣].

* عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «قام رسول اللَّه ﷺ خطيبًا فذكر فتنة القبر التي يفتتن فيها المرء. فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة»[٤].

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «فيه إثبات عذاب القبر وفتنته، وهو مذهب أهل الحق»[٥].

قال العيني: «إن فتنة القبر أعم من المساءلة وغيرها من العذاب، بل عين المساءلة عذاب في حق الكفار»[٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٣٣-٥٣٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٣١)، والبخاري (٣/ ٢٩٧/ ١٣٧٠)، ومسلم (٢/ ٦٤٣/ ٩٣٢)، والنسائي (٤/ ٤١٦-٤١٧/ ٢٠٧٥).

(٣) إرشاد الساري (٣/ ٥٢٩).

(٤) أخرجه: البخاري (٣/ ٢٩٨/ ١٣٧٣)، والنسائي (٤/ ٤٠٩/ ٢٠٦١).

(٥) شرح مسلم (٦/ ١٨٢-١٨٣).

(٦) عمدة القاري (٦/ ٢٨٠-٢٨١).

* عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه -وإنه ليسمع قرع نعالهم- أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ. فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد اللَّه ورسوله. فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك اللَّه به مقعدا من الجنة، فيراهما جميعًا**». قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره. ثم رجع إلى حديث أنس قال: «**وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس. فيقال: لا دريت ولا تليت. ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين**»[1].

⋆ فوائد الحديث:

قال العيني: «فيه إثبات عذاب القبر وأنه واقع على الكفار ومن شاء اللَّه من المؤمنين، فإن قلت: المساءلة عامة على جميع الأمم أم على أمة محمد ﷺ؟ فذهب الحكيم الترمذي إلى أنها تختص بهذه الأمة، وقال: كانت الأمم قبل هذه الأمم تأتيهم الرسل، فإن أطاعوا فذاك، وإن أبوا اعتزلوهم وعوجلوا بالعذاب، فلما أرسل اللَّه محمدًا ﷺ رحمة للعالمين أمسك عنهم العذاب، وقبل الإسلام ممن أظهره سواء أسر الكفر أو لا، فلما ماتوا قيض اللَّه لهم فتاني القبر ليستخرج سرهم بالسؤال، وليميز اللَّه الخبيث من الطيب، ويثبت الذين آمنوا ويضل الظالمين.. وذهب ابن القيم إلى عموم المساءلة وقال: ليس في الأحاديث ما ينفي المساءلة عمن تقدم من الأمم، وإنما أخبر النبي ﷺ أمته بكيفية امتحانهم في القبور، لا أنه نفى ذلك عن غيرهم، قال: والذي يظهر أن كل نبي مع أمته كذلك، فيعذب كفارهم في قبورهم بعد سؤالهم وإقامة حجته عليهم كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة»[2].

قال ابن القيم: «ومما ينبغي أن يُعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قُبر أم لم يُقبر، فلو أكلته السباع أو أُحرق

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٦)، والبخاري (٣/ ٢٩٨/ ١٣٧٤) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٢٠٠-٢٢٠١/ ٢٨٧٠)، وأبو داود (٥/ ١١٢-١١٤/ ٤٧٥٠)، والنسائي (٤/ ٤٠٣/ ٢٠٥٠).

(٢) عمدة القاري (٦/ ٢٨٣).

حتى صار رمادًا ونُسف في الهواء، أو صُلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور»[1].

* عن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك اللَّه يوم القيامة**»[2].

★ فوائد الحديث:

قال أبو عمر: «وفي هذا الحديث دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان كما يقول أهل السنة في ذلك، واللَّه أعلم. ويدل على ذلك أيضًا قول اللَّه ﷻ في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾»[3].

وقال أيضًا: «وفي هذا الحديث الإقرار بالموت والبعث بعده والإقرار بالجنة والنار»[4].

قال القسطلاني: «وفي ذلك تنعيم لمن هو من أهل الجنة وتعذيب لمن هو من أهل النار بمعاينة ما أعد له، وانتظاره ذلك إلى اليوم الموعود»[5].

قال صديق حسن خان: «وفي الحديث إثبات عذاب القبر، وأن الروح لا تفنى بفناء الجسد؛ لأن المعروض لا يقع إلا على حي»[6].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فليعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا فيحصل له معها النعيم والعذاب»[7].

---

(١) الروح (ص: ٥٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٠-٥١)، والبخاري (٣/ ٣١٠-٣١١/ ١٣٧٩) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٩٩/ ٢٨٦٦)، والترمذي (٣/ ٣٨٤/ ١٠٧٢)، والنسائي (٤/ ٤١٣-٤١٤/ ٢٠٧٠-٢٠٧١)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٧/ ٤٢٧٠).

(٣) التمهيد: فتح البر (٢/ ١١١).

(٤) التمهيد: فتح البر (٢/ ١١٤).

(٥) إرشاد الساري (٣/ ٥٤١).

(٦) عون الباري لحل أدلة البخاري (٢/ ٣٧١).

(٧) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٤).

* عن عائشة ﵂ قالت: «دخل علي رسول اللَّه ﷺ وعندي امرأة من اليهود، وهي تقول: هل شعرت أنكم تفتنون في القبور؟ قالت: فارتاع رسول اللَّه ﷺ وقال: إنما تفتن يهود. قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول اللَّه ﷺ: هل شعرت أنه أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور؟ قالت عائشة: فسمعت رسول اللَّه ﷺ بعد يستعيذ من عذاب القبر»(١).

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وهذا الحديث وما في معناه يدل على صحة اعتقاد أهل السنة في عذاب القبر، وأنه حق، ويرد على المبتدعة المخالفين في ذلك»(٢).

قال أيضًا: «وارتياع النبي ﷺ عند إخبار اليهودية بعذاب القبر إنما هو على جهة استبعاد ذلك للمؤمن، إذ لم يكن أوحي إليه في ذلك شيء، ولذلك حققه على اليهود، فقال: «**إنما تُفتن يهود**»، على ما كان عنده من علم ذلك، ثم أخبر أنه أوحي إليه بوقوع ذلك، وحينئذ تعوّذ منه، ولما استعظم الأمرَ واستهوله أكثر الاستعاذة منه، وعلّمها، وأمر بها، وبإيقاعها في الصلاة؛ ليكون أنجح في الإجابة، وأسعف في الطلبة؛ إذ الصلاة من أفضل القُرَب، وأرجى للإجابة»(٣).

قال النووي: «وفيه إثبات عذاب القبر وفتنته وهو مذهب أهل الحق خلافًا للمعتزلة»(٤).

قال العيني: «وفيه أن عذاب القبر حق، وأنه ليس خاصًا بهذه الأمة. وفيه استحباب التعوّذ من عذاب القبر عقب الصلاة»(٥).

وقال أيضًا: «وفي هذا كله أن النبي ﷺ إنما علم بحكم عذاب القبر إذ هو بالمدينة في آخر الأمر. فإن قلت: الآية، أعني قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾(٦) مكية، وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾. قلت: أجيب بأن عذاب القبر يؤخذ من الآية الأولى بطريق المفهوم في حق من لم يتصف

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٤٨)، والبخاري (٣/ ٢٩٧-٢٩٨/ ١٣٧٢)، ومسلم (١/ ٤١٠-٤١١/ ٥٨٤) واللفظ له، والنسائي (٤/ ٤١٠/ ٢٠٦٣).
(٢) المفهم (٢/ ٢٠٧).
(٣) المفهم (٢/ ٢٠٧-٢٠٨).
(٤) شرح مسلم (٥/ ٧٢-٧٣).
(٥) عمدة القاري (٦/ ٢٨٠).
(٦) إبراهيم: الآية (٢٧).

بالإيمان، وكذا بالمنطوق في الآية الثانية في حق آل فرعون، والتحق بهم من كان له حكمهم من الكفار، فالذي أنكره النبي ﷺ إنما هو وقوع عذاب القبر على الموحدين، ثم أعلم ﷺ أن ذلك قد يقع على من شاء اللَّه منهم، فجزم به وحذر منه وبالغ في الاستعاذة منه، تعليمًا لأمته، وإرشادًا، فزال التعارض، واللَّه أعلم»[1].

* * *

(١) عمدة القاري (٦/ ٢٨٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ أصله يتفاعلون في الحجة؛ أي: يختصمون، ويحتج بعضهم على بعض، وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحًا في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ

---

(١) ص: الآية (٦٤).
(٢) سبأ: الآيات (٣١-٣٣).
(٣) الأعراف: الآيتان (٣٨ و٣٩).
(٤) البقرة: الآيتان (١٦٦ و١٦٧).

ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾[1] والآيات بمثل هذا كثيرة»[2].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾ ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ يقول: وإذ يتخاصمون في النار. وعنى بذلك: إذ يتخاصم الذين أمر رسول اللَّه ﷺ بإنذارهم من مشركي قومه في النار، فيقول الضعفاء منهم وهم المتبعون على الشرك باللَّه ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ تقول لرؤسائهم الذين اتبعوهم على الضلالة: إنا كنا لكم في الدنيا تبعًا على الكفر باللَّه ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ﴾ اليوم ﴿عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ يعنون حظا فتخففوه عنا، فقد كنا نسارع في محبتكم في الدنيا، ومن قبلكم أتينا، لولا أنتم لكنا في الدنيا مؤمنين، فلم يصبنا اليوم هذا البلاء.. فأجابهم المتبوعون بما أخبر عنهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ وهم الرؤساء المتبوعون على الضلالة في الدنيا: إنا أيها القوم وأنتم كلنا في هذه النار مخلدون، لا خلاص لنا منها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ بفصل قضائه، فأسكن أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فلا نحن مما نحن فيه من البلاء خارجون، ولا هم مما فيه من النعيم منتقلون»[3].

* * *

(١) إبراهيم: الآيتان (٢١و٢٢).

(٢) أضواء البيان (٦/ ٣٨٩-٣٩٠).

(٣) جامع البيان (٢٤/ ٧٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة، أن أهل النار طلبوا من خزنة جهنم أن يدعوا لهم اللَّه أن يخفف عنهم من شدة عذاب النار. وقد بين في سورة (الزخرف) أنهم نادوا مالكًا خاصة من خزنة أهل النار؛ ليقضي اللَّه عليهم؛ أي: ليميتهم فيستريحوا بالموت من عذاب النار.

وقد أوضح -جل وعلا- في آيات من كتابه أنهم لا يجابون في واحد من الأمرين.

فلا يخفف عنهم العذاب الذي سألوا تخفيفه في سورة المؤمن هذه. ولا يحصل لهم الموت الذي سألوه في سورة الزخرف، فقال تعالى في عدم تخفيف العذاب عنهم في هذه الآية: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾[1] وقال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾[2] وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾[3] وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[4] وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾[5] وقال تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[7].

(١) فاطر: الآية (٣٦).
(٢) النبأ: الآية (٣٠).
(٣) الزخرف: الآية (٧٥).
(٤) الفرقان: الآية (٦٥).
(٥) الفرقان: الآية (٧٧).
(٦) البقرة: الآية (١٦٢).
(٧) التوبة: الآية (٦٨).

وقال تعالى في عدم موتهم في النار: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾[5] ولما قالوا: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أجابهم بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾[6]»[7].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال أهل جهنم لخزنتها وقوّامها، استغاثة بهم من عظيم ما هم فيه من البلاء، ورجاء أن يجدوا من عندهم فرجا ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ لنا ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ واحدا، يعني قدر يوم واحد من أيام الدنيا ﴿مِّنَ الْعَذَابِ﴾ الذي نحن فيه. وإنما قلنا معنى ذلك: قدر يوم من أيام الدنيا؛ لأن الآخرة يوم لا ليل فيه، فيقال: خفف عنهم يوما واحدا.

وقوله: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: قالت خزنة جهنم لهم: أو لم تك تأتيكم في الدنيا رسلكم بالبيّنات من الحجج على توحيد اللَّه، فتوحدوه وتؤمنوا به، وتتبرّءوا مما دونه من الآلهة؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾، قد أتتنا رسلنا بذلك.

وقوله: ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ يقول -جل ثناؤه-: قالت الخزنة لهم: فادعوا إذن ربكم الذي أتتكم الرسل بالدعاء إلى الإيمان به.

وقوله: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ يقول: قد دعوا وما دعاؤهم إلا في ضلال؛ لأنه دعاء لا ينفعهم، ولا يستجاب لهم، بل يقال لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[8]»[9].

قال الرازي: «إن قيل: لمَ لمْ يقل: وقال الذين في النار لخزنتها بل قال: ﴿وَقَالَ

---

(١) فاطر: الآية (٣٦).
(٢) إبراهيم: الآية (١٧).
(٣) النساء: الآية (٥٦).
(٤) طه: الآية (٧٤).
(٥) الأعلى: الآيات (١١-١٣).
(٦) الزخرف: الآية (٧٧).
(٧) أضواء البيان (٦/ ٣٩٠-٣٩١).
(٨) المؤمنون: الآية (١٠٨).
(٩) جامع البيان (٢٤/ ٧٣-٧٤).

﴿ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾؟ قلنا فيه وجهان الأول: أن يكون المقصود من ذكر جهنم التهويل والتفظيع. والثاني: أن يكون جهنم اسمًا لموضع هو أبعد النار قعرًا، من قولهم: بئر جهنام؛ أي: بعيدة القعر، وفيها أعظم أقسام الكفار عقوبة، وخزنة ذلك الموضع تكون أعظم خزنة جهنم عند اللَّه درجة، فإذا عرف الكفار أن الأمر كذلك استغاثوا بهم، فأولئك الملائكة يقولون لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والمقصود أن قبل إرسال الرسل كان للقوم أن يقولوا إنه: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾[1] أما بعد مجيء الرسل فلم يبق عذر ولا علة كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2] وهذه الآية تدل على أن الواجب لا يتحقق إلا بعد مجيء الشرع، ثم إن أولئك الملائكة يقولون للكفار: ادعوا أنتم فإنا لا نجترئ على ذلك، ولا نشفع إلا بشرطين: أحدهما: كون المشفوع له مؤمنًا. والثاني: حصول الإذن في الشفاعة، ولم يوجد واحد من هذين الشرطين، فإقدامنا على هذه الشفاعة ممتنع، لكن ادعوا أنتم، وليس قولهم فادعوا لرجاء المنفعة، ولكن للدلالة على الخيبة، فإن الملك المقرب إذا لم يسمع دعاؤه، فكيف يسمع دعاء الكفار، ثم يصرحون لهم بأنه لا أثر لدعائهم فيقولون: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾»[3].

* * *

(١) المائدة: الآية (١٩).

(٢) الإسراء: الآية (١٥).

(٣) التفسير الكبير (٢٧/ ٧٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾

★ غريب الآية:

الأشهاد: جمع شاهد والمراد: الملائكة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول القائل وما معنى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ وقد علمنا أن منهم من قتله أعداؤه، ومثَّلوا به، كشعياء ويحيى بن زكريا وأشباههما. ومنهم من همّ بقتله قومه، فكان أحسن أحواله أن يخلص منهم حتى فارقهم ناجيا بنفسه، كإبراهيم الذي هاجر إلى الشام من أرضه مفارقا لقومه، وعيسى الذي رفع إلى السماء إذ أراد قومه قتله، فأين النصرة التي أخبرنا أنه ينصرها رسله، والمؤمنين به في الحياة الدنيا، وهؤلاء أنبياؤه قد نالهم من قومهم ما قد علمت، وما نصروا على من نالهم بما نالهم به؟ قيل: إن لقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ وجهين كلاهما صحيح معناه. أحدهما أن يكون معناه: إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا إما بإعلائناهم على من كذّبنا وإظفارنا بهم، حتى يقهروهم غلبة، ويذلوهم بالظفر ذلة، كالذي فعل من ذلك بداود وسليمان، فأعطاهما من المُلْك والسلطان ما قهرا به كل كافر، وكالذي فعل بمحمد ﷺ بإظهاره على من كذّبه من قومه، وإما بانتقامنا ممن حادّهم وشاقهم بإهلاكهم وإنجاء الرسل ممن كذّبهم وعاداهم، كالذي فعل -تعالى ذكره- بنوح وقومه، من تغريق قومه وإنجائه منهم، وكالذي فعل بموسى وفرعون وقومه، إذ أهلكهم غرقا، ونجى موسى ومن آمن به من بني إسرائيل وغيرهم ونحو ذلك، أو بانتقامنا في الحياة الدنيا من مكذّبيهم بعد وفاة رسولنا من بعد مهلكهم، كالذي فعلنا من نصرتنا شعياء بعد مهلكه، بتسليطنا على قتله من سلطنا حتى انتصرنا بهم من قتلته، وكفعلنا بقتلة يحيى، من تسليطنا بختنصر عليهم حتى انتصرنا به من قتله

له، وكانتصارنا لعيسى من مريدي قتله بالروم حتى أهلكناهم بهم، فهذا أحد وجهيه. وقد كان بعض أهل التأويل يوجه معنى ذلك إلى هذا الوجه. . والوجه الآخر: أن يكون هذا الكلام على وجه الخبر عن الجميع من الرسل والمؤمنين، والمراد واحد، فيكون تأويل الكلام حينئذ: إنا لننصر رسولنا محمدًا ﷺ والذين آمنوا به في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، كما بيَّنا فيما مضى أن العرب تخرج الخبر بلفظ الجميع والمراد واحد، إذا لم تنصب للخبر شخصا بعينه»[١].

وقال أيضًا: «وعنى بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ يوم يقوم الأشهاد من الملائكة والأنبياء والمؤمنين على الأمم المكذبة رسلها بالشهادة بأن الرسل قد بلغتهم رسالات ربهم، وأن الأمم كذّبتهم. والأشهاد: جمع شهيد»[٢].

قال ابن كثير بعد أن حكى قول ابن جرير السابق: «وهكذا نصر اللَّه نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارا وأعوانا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه اللَّه به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها، ودخل الناس في دين اللَّه أفواجا. ثم قبضه اللَّه تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام اللَّه أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين اللَّه، ودعوا عباد اللَّه إلى اللَّه. وفتحوا البلاد والرّساتيق[٣] والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ أي: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل، قال مجاهد: الأشهاد الملائكة»[٤].

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٧٤-٧٥).

(٢) جامع البيان (٢٤/ ٧٥).

(٣) جمع رستاق، وهي السواد والقرى.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٤٠).

قال الرازي: «حاصل الكلام أنه تعالى وعد بأنه ينصر الأنبياء والرسل، وينصر الذين ينصرونهم نصرة يظهر أثرها في الدنيا وفي الآخرة.

واعلم أن نصرة اللَّه المحقين تحصل بوجوه: أحدها: النصرة بالحجة، وقد سمى اللَّه الحجة سلطانًا في غير موضع، وهذه النصرة عامة للمحقين أجمع، ونعم ما سمى اللَّه هذه النصرة سلطانًا؛ لأن السلطنة في الدنيا قد تبطل، وقد تتبدل بالفقر والذلة والحاجة والفتور، أما السلطنة الحاصلة بالحجة فإنها تبقى أبد الآباد، ويمتنع تطرق الخلل والفتور إليها.

وثانيها: أنهم منصورون بالمدح والتعظيم، فإن الظلمة وإن قهروا شخصًا من المحقين إلا أنهم لا يقدرون على إسقاط مدحه عن ألسنة الناس.

وثالثها: أنهم منصورون بسبب أن بواطنهم مملوءة من أنوار الحجة وقوة اليقين، فإنهم إنما ينظرون إلى الظلمة والجهال كما تنظر ملائكة السموات إلى أخس الأشياء.

ورابعها: أن المبطلين وإن كان يتفق لهم أن يحصل لهم استيلاء على المحقين، ففي الغالب أن ذلك لا يدوم؛ بل يكشف للناس أن ذلك كان أمرًا وقع على خلاف الواجب ونقيض الحق.

وخامسها: أن المحق إن اتفق له أن وقع في نوع من أنواع المحذور فذلك يكون سببًا لمزيد ثوابه وتعظيم درجاته.

وسادسها: أن الظلمة والمبطلين كما يموتون تموت آثارهم، ولا يبقى لهم في الدنيا أثر ولا خبر. وأما المحقون فإن آثارهم باقية على وجه الدهر، والناس بهم يقتدون في أعمال البر والخير ولمحنهم يتركون، فهذا كله أنواع نصرة اللَّه للمحقين في الدنيا.

وسابعها: أنه تعالى قد ينتقم للأنبياء والأولياء بعد موتهم، كما نصر يحيى بن زكريا، فإنه لما قتل قتل به سبعون ألفًا، وأما نصرته تعالى إياهم في الآخرة فذلك بإعلاء درجاتهم في مراتب الثواب، وكونهم مصاحبين لأنبياء اللَّه، كما قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[(١)] .

واعلم أن في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ دقيقة معتبرة، وهي أن السلطان العظيم إذا خص بعض خواصه بالإكرام العظيم، والتشريف الكامل عند حضور الجمع العظيم من أهل المشرق والمغرب، كان ذلك ألذ وأبهج، فقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ إلى ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ المقصود منه هذه الدقيقة، واختلفوا في المراد بالأشهاد، والظاهر أن المراد كل من يشهد بأعمال العباد يوم القيامة من ملك ونبي ومؤمن، أما الملائكة فهم الكرام الكاتبون يشهدون بما شاهدوا، وأما الأنبياء فقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[(٣)]»[(٤)] .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل نصرة المؤمنين

* عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«من رد عن عرض أخيه رد اللَّه عن وجهه النار يوم القيامة»**[(٥)] .

⋆ غريب الحديث:

عِرْض: العِرْض: موضع المدح والذمّ من الإنسان، سواء كان في نفسه أو في سلفه، أو من يلزمه أمره. وقيل: هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه، ويحامي عنه أن يُنتقص ويُثلب. وقال ابن قتيبة: عِرض الرجل: نفسه وبدنه لا غير[(٦)] .

⋆ فوائد الحديث:

قال المباركفوري: «قوله: **«من ردّ عن عرض أخيه»** أي: منع غيبة عن أخيه **«ردّ اللَّه عن وجهه النار»** أي: صرف اللَّه عن وجه الرادّ نار جهنم»[(٧)] .

---

(١) النساء: الآية (٦٩).
(٢) النساء: الآية (٤١).
(٣) البقرة: الآية (١٤٣).
(٤) التفسير الكبير (٢٧/ ٧٧).
(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٤٩)، والترمذي (٤/ ٢٨٨/ ١٩٣١)، وقال: «حديث حسن» واللفظ له، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وانظر غاية المرام (ص: ٤١).
(٦) النهاية (٣/ ٢٠٨-٢٠٩).
(٧) تحفة الأحوذي (٦/ ٤٩).

قال المناوي: «**رد اللَّه عن وجهه**» أي: ذاته. وخصّه لأن تعذيبه أنكى في الإيلام وأشد في الهوان «**النار يوم القيامة**» جزاء بما فعل، وذلك لأن عرض المؤمن كدمه، فمن هتك عرضه فكأنه سفك دمه، ومن عمل على صون عرضه فكأنه صان دمه، فيجازى على ذلك بصونه عن النار يوم القيامة إن كان ممن استحق دخولها، وإلا كان زيادة رفعة في درجاته في الآخرة في الجنة»[1].

وقال الصنعاني: «في الحديث دليل على فضيلة الرد على من اغتاب أخاه عنده، وهو واجب؛ لأنه من باب الإنكار للمنكر، ولذا ورد الوعيد على تركه.. بل ورد في الحديث أن المستمع للغيبة أحد المغتابين، فمن حضر الغيبة وجب عليه أحد أمور: الرد عن عرض أخيه ولو بإخراج من اغتاب إلى حديث آخر، أو القيام عن موقف الغيبة أو الإنكار بالقلب أو الكراهة للقول، وقد عدّ بعض العلماء السكوت كبيرة لورود هذا الوعيد ولدخوله في وعيد من لم يغير المنكر، ولأنه أحد المغتابين حكمًا وإن لم يكن مغتابًا لغة وشرعًا»[2].

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن اللَّه قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**»[3]. الحديث.

★ **غريب الحديث:**

من عادى لي: أي: اتخذه عدوًا.

وليًّا: قال شيخ الإسلام[4]: الولي: مشتق من الولاء، وهو القرب كما أن العدو من العدو وهو البعد. فولي اللَّه من والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضياته، وتقرب إليه بما أمر به من طاعاته. **وقال الحافظ**[5]: المراد بولي الله: العالم باللَّه المواظب على طاعته المخلص في عبادته.

آذنتُهُ: قال الحافظ[6]: بالمدّ وفتح المعجمة بعدها نون؛ أي: أعلمتُهُ، والإيذان: الإعلام، ومنه أُخذ الأذان.

---

(١) فيض القدير (٦/ ١٣٥-١٣٦).
(٢) سبل السلام (٤/ ٣٦٣).
(٣) أخرجه: البخاري (١١/ ٤١٤/ ٦٥٠٢).
(٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٢).
(٥) فتح الباري (١١/ ٤١٦).
(٦) فتح الباري (١١/ ٤١٦).

★ **فوائد الحديث:**

قال شيخ الإسلام: «هذا أصح حديث يروى في الأولياء، فبين النبي ﷺ أنه من عادى وليًا لله فقد بارز الله بالمحاربة.. وهذا لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه، فأحبوا ما يحب وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يرضى، وسخطوا بما يسخط، وأمروا بما يأمر ونهوا عما نهى، وأعطوا لمن يحب أن يعطى، ومنعوا من يحب أن يمنع»[١].

وقال الحافظ: «قال الطوفي: لما كان ولي الله من تولى بالطاعة والتقوى تولاه الله بالحفظ والنصرة، وقد أجرى الله العادة بأن عدو العدو صديق وصديق العدو عدو فعدو ولي الله عدو الله فمن عاداه كان كمن حاربه، ومن حاربه فكأنما حارب الله»[٢].

قال ابن رجب: «يعني: أعلمته بأني محارب له، حيث كان محاربا لي بمعاداة أوليائي.. فأولياء الله تجب موالاتهم، وتحرم معاداتهم، كما أن أعداءه تجب معاداتهم، وتحرم موالاتهم، قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[٣] وقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾[٤] ووصف أحباءه الذين يحبهم ويحبونه بأنهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٥]»[٦].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ١٦٠).

(٢) فتح الباري (١١/ ٤١٦-٤١٧).

(٣) الممتحنة: الآية (١).

(٤) المائدة: الآيتان (٥٥و٥٦).

(٥) المائدة: الآية (٥٤).

(٦) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٣٤).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ذلك يوم لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم؛ لأنهم لا يعتذرون إن اعتذروا إلا بباطل، وذلك أن اللَّه قد أعذر إليهم في الدنيا، وتابع عليهم الحجج فيها، فلا حجة لهم في الآخرة إلا الاعتصام بالكذب بأن يقولوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[1].

وقوله: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ يقول: وللظالمين اللعنة، وهي البعد من رحمة اللَّه ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ يقول: ولهم مع اللعنة من اللَّه شرّ ما في الدار الآخرة، وهو العذاب الأليم»[2].

قال الرازي: «واعلم أن المقصود أيضًا من هذا شرح تعظيم ثواب أهل الثواب، وذلك لأنه تعالى بيّن أنه ينصرهم في يوم يجتمع فيه الأولون والآخرون، فحالهم في علو الدرجات في ذلك اليوم ما ذكرناه، وأما حال أعدائهم فهو أنه حصلت لهم أمور ثلاثة: أحدها: أنه لا ينفعهم شيء من المعاذير البتة. وثانيها: أن ﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ وهذا يفيد الحصر، يعني: اللعنة مقصورة عليهم، وهي الإهانة والإذلال. وثالثها: ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ وهو العقاب الشديد، فهذا اليوم إذا كان الأعداء واقعين في هذه المراتب الثلاثة من الوحشة والبلية، ثم إنه خص الأنبياء والأولياء بأنواع التشريفات الواقعة في الجمع الأعظم، فههنا يظهر أن سرور المؤمن كم يكون، وأن غموم الكافرين إلى أين تبلغ. فإن قيل: قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ يدل على أنهم يذكرون الأعذار إلا أن تلك الأعذار لا تنفعهم، فكيف الجمع بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦﴾[3] قلنا: قوله: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾

---

(١) الأنعام: الآية (٢٣).
(٢) جامع البيان (٢٤/ ٧٥).
(٣) المرسلات: الآية (٣٦).

لا يدل على أنهم ذكروا الأعذار؛ بل ليس فيه إلا أنه ليس عندهم عذر مقبول نافع، وهذا القدر لا يدل على أنهم ذكروه أم لا. وأيضًا فيقال: يوم القيامة يوم طويل، فيعتذرون في وقت، ولا يعتذرون في وقت آخر»[١].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ موطئة للقسم، وصيغة الجمع في آتينا وأورثنا للتعظيم.

والمراد بالهدى ما تضمنه التوراة من الهدى في العقائد والأعمال: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو التوراة، وقوله: ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ مفعول من أجله أي لأجل الهدى والتذكير.. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن اللَّه أنزل التوراة على موسى، وأنزل فيها الهدى لبني إسرائيل جاء موضحًا في آيات من كتاب اللَّه، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾[2] الآية. وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات»[7].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ﴾ البيان للحقّ الذي

---

(١) الإسراء: الآية (٢).
(٢) السجدة: الآية (٢٣).
(٣) المائدة: الآية (٤٤).
(٤) القصص: الآية (٤٣).
(٥) الأنعام: الآية (١٥٤).
(٦) الأعراف: الآية (١٤٥).
(٧) أضواء البيان (٦/ ٣٩٢).

بعثناه به كما آتينا ذلك محمدًا فكذّب به فرعون وقومه، كما كذّبت قريش محمدًا ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يقول: وأورثنا بني إسرائيل التوراة، فعلّمناهموها، وأنزلناها إليهم ﴿هُدًى﴾ يعني بيانا لأمر دينهم، وما ألزمناهم من فرائضها، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يقول: وتذكيرا منا لأهل الحجا والعقول منهم بها»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٤/ ٧٦).

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۝٥٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: فاصبر يا محمد لأمر ربك، وانفذ لما أرسلك به من الرسالة، وبلّغ قومك ومن أمرت بإبلاغه ما أنزل إليك، وأيقن بحقيقة وعد اللَّه الذي وعدك من نصرتك، ونصرة من صدّقك وآمن بك على من كذّبك، وأنكر ما جئته به من عند ربك، إن وعد اللَّه حقّ لا خلف له وهو منجز له ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ يقول: وسله غفران ذنوبك وعفوه لك عنه ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يقول: وصلّ بالشكر منك لربك ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ وذلك من زوال الشمس إلى الليل ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ وذلك من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس. وقد وجه قوم الإبكار إلى أنه من طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى، وخروج وقت الضحى، والمعروف عند العرب القول الأوّل»[1].

قال السعدي: «﴿فَاصْبِرْ﴾ يا أيها الرسول كما صبر من قبلك من أولي العزم المرسلين. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: ليس مشكوكًا فيه، أو فيه ريب أو كذب، حتى يعسر عليك الصبر، وإنما هو الحق المحض، والهدى الصرف، الذي يصبر عليه الصابرون، ويجتهد في التمسك به أهل البصائر.

فقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ من الأسباب التي تحث على الصبر على طاعة اللَّه، والكف عن ما يكره اللَّه.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك، فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور، وبالتسبيح بحمد اللَّه تعالى خصوصًا ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ اللذين هما أفضل الأوقات، وفيهما من

(١) جامع البيان (٢٤/ ٧٦).

الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيهما؛ لأن في ذلك عونًا على جميع الأمور»[١].

قال الرازي: «لما بيّن أن اللَّه تعالى ينصر رسله، وينصر المؤمنين في الدنيا والآخرة، وضرب المثال في ذلك بحال موسى، وخاطب بعد ذلك محمدًا ﷺ فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ فاللَّه ناصرك كما نصرهم، ومنجز وعده في حقك كما كان كذلك في حقهم، ثم أمره بأن يقبل على طاعة اللَّه النافعة في الدنيا والآخرة، فإن من كان لله كان اللَّه له.

واعلم أن مجامع الطاعات محصورة في قسمين: التوبة عما لا ينبغي، والاشتغال بما ينبغي، والأول مقدم على الثاني بحسب الرتبة الذاتية، فوجب أن يكون مقدمًا عليه في الذكر، أما التوبة عما لا ينبغي فهو قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ والطاعنون في عصمة الأنبياء ﷺ يتمسكون به، ونحن نحمله على التوبة عن ترك الأولى والأفضل، أو على ما كان قد صدر عنهم قبل النبوة، وقيل أيضًا: المقصود منه محض التعبد كما في قوله: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾[٢] فإن إيتاء ذلك الشيء واجب ثم إنه أمرنا بطلبه، وكقوله: ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾[٣] من أنا نعلم أنه لا يحكم إلا بالحق، وقيل: إضافة المصدر إلى الفاعل والمفعول فقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ من باب إضافة المصدر إلى المفعول؛ أي: واستغفر لذنب أمتك في حقك. وأما الاشتغال بما ينبغي فهو قوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ والتسبيح عبارة عن تنزيه اللَّه عن كل ما لا يليق به، والعشي والإبكار، قيل صلاة العصر وصلاة الفجر، وقيل: الإبكار عبارة عن أول النهار إلى النصف، والعشي عبارة عن النصف إلى آخر النهار، فيدخل فيه كل الأوقات، وقيل: المراد طرفا النهار، كما قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾[٤] وبالجملة فالمراد منه الأمر بالمواظبة على ذكر اللَّه، وأن لا يفتر اللسان عنه، وأن لا يغفل القلب عنه»[٥].

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٣٧-٥٣٨).

(٢) آل عمران: الآية (١٩٤). (٣) الأنبياء: الآية (١١٢).

(٤) هود: الآية (١١٤).

(٥) التفسير الكبير (٢٧/ ٧٨-٧٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾

★غريب الآية:

سلطان: حجة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الذين يخاصمونك يا محمد فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ يقول: بغير حجة جاءتهم من عند اللَّه بمخاصمتك فيها ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ يقول: ما في صدورهم إلا كبر يتكبرون من أجله عن اتباعك، وقبول الحق الذي أتيتهم به حسدا منهم على الفضل الذي آتاك اللَّه، والكرامة التي أكرمك بها من النبوّة ﴿مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ يقول: الذي حسدوك عليه أمر ليسوا بُمدركيه ولا نائليه؛ لأن ذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء، وليس بالأمر الذي يدرك بالأمانيّ، وقد قيل: إن معناه: إن في صدورهم إلا عظمة ما هم ببالغي تلك العظمة؛ لأن اللَّه مذلُّهم. .

وقوله: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فاستجر باللَّه يا محمد من شرّ هؤلاء الذين يجادلون في آيات اللَّه بغير سلطان، ومن الكبر أن يعرض في قلبك منه شيء ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ يقول: إن اللَّه هو السميع لما يقول هؤلاء المجادلون في آيات اللَّه وغيرهم من قول، البصير بما تعمله جوارحهم لا يخفى عليه شيء من ذلك»[١].

قال السعدي: «يخبر تعالى أن من جادل في آياته ليبطلها بالباطل بغير بينة من أمره ولا حجة، إن هذا صادر من كبر في صدورهم على الحق وعلى من جاء به،

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٧٦-٧٧).

يريدون الاستعلاء عليه بما معهم من الباطل، فهذا قصدهم ومرادهم.

ولكن هذا لا يتم لهم وليسوا ببالغيه، فهذا نص صريح وبشارة بأن كل من جادل الحق أنه مغلوب، وكل من تكبر عليه فهو في نهايته ذليل.

﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾ أي: اعتصم والجأ ﴿بِٱللَّهِ﴾ ولم يذكر ما يستعيذ منه، إرادة للعموم؛ أي: استعذ باللَّه من الكبر الذي يوجب التكبر على الحق، واستعذ باللَّه من شياطين الإنس والجن، واستعذ باللَّه من جميع الشرور.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات على اختلافها، ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ بجميع المرئيات بأي محل وموضع وزمان كانت»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٣٨).

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى منبها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه، يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٣﴾[1]. وقال ههنا: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾؛ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن اللَّه خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد، استبعادا وكفرا وعنادا، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا»[2].

قال السعدي: «يخبر تعالى بما تقرر في العقول، أن خلق السموات والأرض - على عظمهما وسعتهما- أعظم وأكبر من خلق الناس، فإن الناس بالنسبة إلى خلق السموات والأرض من أصغر ما يكون، فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها، قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى. وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث دلالة قاطعة، بمجرد نظر العاقل إليها يستدل بها استدلالا لا يقبل الشك والشبهة بوقوع ما أخبرت به الرسل من البعث.

وليس كل أحد يجعل فكره لذلك، ويقبل على تدبره، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولذلك لا يعتبرون بذلك، ولا يجعلونه منهم على بال»[3].

---

(١) الأحقاف: الآية (٣٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٤١-١٤٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٣٩).

قال ابن القيم: «وأما الاستدلال بقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ وأن المراد به كبر القدر والشرف لا كبر الجثة ففي غاية الفساد، فإن المراد من الخلق ههنا الفعل، لا نفس المفعول، وهذا من أبلغ الأدلة على المعاد؛ أي: أن الذي خلق السموات والأرض، وخلقها أكبر من خلقكم، كيف يعجزه خلقكم بعدما تموتون خلقا جديدا، ونظير هذا في قوله في سورة (يس): ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾[1] أي: مثل هؤلاء المنكرين، فهذا استدلال بشمول القدرة للنوعين، وأنها صالحة لهما، فلا يجوز أن يثبت تعلقها بأحد المقدورين دون الآخر، فكذلك قوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: من لم تعجز قدرته عن خلق العالم العلوي والسفلي كيف يعجز عن خلق الناس خلقا جديدا بعد ما أماتهم؟»[2].

* * *

(١) يس: الآية (٨١).

(٢) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وما يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئًا، وهو مثل الكافر الذي لا يتأمل حجج اللَّه بعينيه، فيتدبرها ويعتبر بها، فيعلم وحدانيته وقُدرته على خلق ما شاء من شيء، ويؤمن به ويصدّق، والبصير الذي يرى بعينيه ما شخص لهما ويبصره، وذلك مثل للمؤمن الذي يرى بعينيه حجج اللَّه، فيتفكَّر فيها ويتعظ، ويعلم ما دلت عليه من توحيد صانعه، وعظيم سلطانه وقُدرته على خلق ما يشاء؛ يقول -جل ثناؤه-: كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يقول -جل ثناؤه-: ولا يستوي أيضًا كذلك المؤمنون باللَّه ورسوله، المطيعون لربهم ولا المسيء، وهو الكافر بربه، العاصي له، المخالف أمره ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: قليلا ما تتذكرون أيها الناس حجج اللَّه، فتعتبرون وتتعظون؛ يقول: لو تذكرتم آياته واعتبرتم، لعرفتم خطأ ما أنتم عليه مقيمون من إنكاركم قدرة اللَّه على إحيائه من فني من خلقه من بعد الفناء، وإعادتهم لحياتهم من بعد وفاتهم، وعلمتم قبح شرككم من تشركون في عبادة ربكم»[1].

قال السعدي: أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي من آمن باللَّه وعمل الصالحات، ومن كان مستكبرًا على عبادة ربه، مقدمًا على معاصيه، ساعيًا في مساخطه، ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذكركم قليل وإلا فلو تذكرتم مراتب الأمور، ومنازل الخير والشر، والفرق بين الأبرار والفجار، وكانت لكم همة علية، لآثرتم النافع على الضار، والهدى على الضلال، والسعادة الدائمة على الدنيا الفانية»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٧٧-٧٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٤٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الساعة التي يحيي الله فيها الموتى للثواب والعقاب لجائية أيها الناس لا شكّ في مجيئها؛ يقول: فأيقنوا بمجيئها، وأنكم مبعوثون من بعد مماتكم، ومجازون بأعمالكم، فتوبوا إلى ربكم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: ولكن أكثر قريش لا يصدّقون بمجيئها»[١].

قال السعدي: «﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ قد أخبرت بها الرسل الذين هم أصدق الخلق، ونطقت بها الكتب السماوية التي جميع أخبارها أعلى مراتب الصدق، وقامت عليها الشواهد المرئية، والآيات الأفقية. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع هذه الأمور، التي توجب كمال التصديق والإذعان»[٢].

قال المراغي: «أي: إن يوم القيامة الذي يحيي فيه الله الموتى للثواب والعقاب لآت لا شك فيه، فأيقنوا بمجيئه، وأنكم مبعوثون بعد مماتكم، ومجازون بأعمالكم، فتوبوا إلى ربكم واشكروا له جزيل إنعامه؛ ليدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا، وفيها ترون ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ولكن أكثر الناس لا يصدقون بمجيئه، ومن ثم ركبوا رؤوسهم وعاثوا في الأرض فسادا، واجترحوا السيئات دون خوف الرقيب الحسيب»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أشراط الساعة

* عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ولتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان**

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٧٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٤٠).
(٣) تفسير المراغي (٢٤/ ٨٥-٨٦).

ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومنّ الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»[١].

★ غريب الحديث:

يُليط حوضه: يصلحه بالطين والمَدَر فيسدّ شقوقه ليملأه ويسقي منه دوابّه[٢].

لِقحته: بكسر اللام: القريبة العهد بالولادة والناقة الحلوب[٣].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «هذا كله إشارة إلى أن القيامة تقوم بغتة، وأسرعها رفع اللقمة إلى الفم»[٤].

وقال: «**«يتبايعان»** أي: يتساومان فيه؛ مالكه والذي يريد شراءه، فلا يتم بينهما ذلك من بغتة قيام الساعة، فلا يتبايعانه ولا يطويانه»[٥].

* * *

---

(١) جزء من حديث أخرجه: أحمد (٢/ ٥٣٠)، والبخاري (١٣/ ١٠٢/ ٧١٢٠) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٧٠١/ ١٥٧) مختصرًا.

(٢) فتح الباري (١٣/ ١٠١).

(٣) الكواكب الدراري (٢٤/ ١٨٥).

(٤) فتح الباري (١٣/ ١١١).

(٥) فتح الباري (١٣/ ١١٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

داخرين: أذلاء صاغرين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويقول ربكم أيها الناس لكم: ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾: يقول: اعبدوني وأخلصوا لي العبادة دون من تعبدون من دوني من الأوثان والأصنام وغير ذلك ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ يقول: أُجِبْ دعاءكم فأعفو عنكم وأرحمكم..

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ يقول: إن الذين يتعظمون عن إفرادي بالعبادة، وإفرادي بالألوهية لي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ بمعنى صاغرين»[١].

قال صديق حسن خان: «هذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء اللَّه، وفيه لطف بعباده عظيم، وإحسان إليهم جليل حيث توعد من ترك طلب الخير منه، واستدفاع الشر به بهذا الوعيد البالغ، وعاقبه بهذه العقوبة العظيمة، فيا عباد اللَّه وجهوا رغباتكم، وعولوا في كل طلباتكم على من أمركم بتوجيهها إليه، وأرشدكم إلى التعويل عليه، وكفل لكم الإجابة بإعطاء الطلبة فهو الكريم المطلق، الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم، وملكه الواسع ما يحتاجه من أمور الدنيا والدين»[٢].

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٧٨-٧٩).

(٢) فتح البيان (١٢/ ٢٠٦-٢٠٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في أن من الشرك أن يستغيث بغير اللَّه أو يدعو غيره

* عن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**». ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ قال: عن دعائي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾»[(١)].

★ **فوائد الحديث:**

قال خطاب السبكي: «الحصر فيه للمبالغة، فإن الدعاء في الأصل التذلل والتضرع إلى اللَّه تعالى في الحوائج كلها. والتذلل بين يدي اللَّه تعالى هو أصل العبادة وخلاصتها لدلالته على الإقبال على اللَّه تعالى والإعراض عما سواه؛ لأن الداعي وقت دعائه لا يرجو إلا اللَّه تعالى قائمًا بحقوق العبودية معترفًا بحق الربوبية»[(٢)].

قال شيخ الإسلام: «والدعاء عبادة، والعبادة مبناها على التوقيف والاتباع، لا على الهوى والابتداع، واللَّه أعلم»[(٣)].

وقال رحمه الله: «وتوحيد الإلهية أحد نوعي الدعاء، فإن الإله الحق هو المستحق لأن يدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة»[(٤)].

قال ابن القيم وهو يتحدث عن هذين النوعين من الدعاء -دعاء العبادة ودعاء المسألة-: «إن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة، ويراد به مجموعهما وهما متلازمان، فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره أو دفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقًّا، والمعبود لا بد وأن يكون مالكًا للنفع والضر، ولهذا أنكر اللَّه تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٦٧)، أبو داود (٢/ ١٦١/ ١٤٧٩)، الترمذي (٥/ ٣٤٩/ ٣٢٤٧) وقال: «حسن صحيح»، النسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٠/ ١١٤٦٤)، ابن ماجه (٢/ ١٢٥٨/ ٣٨٢٨)، الحاكم (١/ ٤٩٠-٤٩١) وصححه ووافقه الذهبي، ابن حبان (٣/ ١٧٢/ ٨٩٠) وصححه.

(٢) المنهل (٨/ ١٤٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ١٤١).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٤٤).

ضرًا ولا نفعًا، وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[١].. وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾[٢] فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدي، فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم، وهذا في القرآن كثير، بيّن أن المعبود لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة ويدعى خوفًا ورجاءً دعاء العبادة، فعُلم أن النوعين متلازمين، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فالدعاء يتضمن النوعين، وفي دعاء العبادة أظهر، ولهذا عقبه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ فسر الدعاء في الآية بهذا وهذا»[٣].

قال **الحافظ ابن رجب**: «واعلم أن سؤال اللَّه تعالى دون خلقه هو المتعين، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على دفع هذا الضرر، ونيل المطلوب، وجلب المنافع، ودرء المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده، لأنه حقيقة العبادة، وكان الإمام أحمد يدعو ويقول: اللهم كما صنتَ وجهي عن السجود لغيرك، فصُنه عن المسألة لغيرك، ولا يقدر على كشف الضر وجلب النفع سواه، كما قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[٤] وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[٥] واللَّه سبحانه يحب أن يُسأل ويُرغب إليه في الحوائج، ويُلح في سؤاله ودعائه، ويغضب على من لا يسأله، ويستدعي من عباده سؤاله، وهو قادر على إعطاء خلقه كلهم سؤلهم من غير أن ينقص من ملكه شيئًا، والمخلوق بخلاف ذلك كله: يكره أن يسأل ويحب أن لا يُسأل؛ لعجزه وفقره وحاجته، ولهذا قال وهب بن منبه لرجل كان يأتي الملوك: ويحك! تأتي من يغلق عنك بابه، ويظهر لك فقره، ويواري عنك غناه، وتدع من يفتح لك بابه بنصف الليل ونصف النهار، ويظهر لك غناه، ويقول: ادعني أستجب لك»[٦].

---

(١) يونس: الآية (١٨).
(٢) الفرقان: الآية (٥٥).
(٣) بدائع الفوائد (٣/ ٢-٣).
(٤) يونس: الآية (١٠٧).
(٥) فاطر: الآية (٢).
(٦) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٨١).

قال شيخ الإسلام: «إن سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد: مفسدة الافتقار إلى غير اللَّه، وهي من نوع الشرك، ومفسدة إيذاء المسؤول، وهي من نوع ظلم الخلق، وفيه ذل لغير اللَّه، وهو ظلم للنفس، فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة»[١].

وأما سؤال العلم والحق الواجب فلا يدخل في هذا المعنى؛ قال شيخ الإسلام: «وأما سؤال المخلوق المخلوق أن يقضي حاجة نفسه أو يدعو له فلم يؤمر به، بخلاف سؤال العلم فإن اللَّه أمر بسؤال العلم كما في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢]. وهذا لأن العلم يجب بذله، فمن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه اللَّه بلجام من نار يوم القيامة، وهو يزكو على التعليم، لا ينقص بالتعليم كما تنقص الأموال بالبذل، ولهذا يشبه بالمصباح، وكذلك من له عند غيره حق من عين أو دين كالأمانات مثل الوديعة والمضاربة، لصاحبها أن يسألها ممن هي عنده، وكذلك مال الفيء وغيره من الأموال المشتركة التي يتولى قسمتها ولي الأمر، للرجل أن يطلب حقه منه كما يطلب حقه من الوقف والميراث والوصية، لأن المستولي يجب عليه أداء الحق إلى مستحقه. ومن هذا الباب سؤال النفقة لمن تجب عليه، وسؤال المسافر الضيافة لمن تجب عليه، كما استطعم موسى والخضر أهل القرية، وكذلك الغريم له أن يطلب دينه ممن هو عليه، وكل واحد من المتعاقدين له أن يسأل الآخر أداء حقه إليه: فالبائع يسأل الثمن، والمشتري يسأل المبيع، ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾[٣]»[٤].

فصل في آداب ينبغي مراعاتها أثناء الدعاء:

قال ابن القيم: «وكثيرًا ما نجد أدعية دعا بها أقوام فاستجيب لهم، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على اللَّه، أو حسنة تقدمت منه جعل اللَّه سبحانه إجابة دعوته شكرًا لحسنته، أو صادفت وقت إجابة، ونحو ذلك، فأجيبت دعوته، فيظن الظان أن السر في لفظ ذلك الدعاء، فيأخذه مجردًا من تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي. وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعًا في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، فانتفع به، فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٩٠-١٩١).
(٢) الأنبياء: الآية (٧).
(٣) النساء: الآية (١).
(٤) مجموع الفتاوى (١/ ١٨٥-١٨٦).

كافٍ في حصول المطلوب، فإنه يكون بذلك غالطًا. وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس. ومن هذا أنه قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب، فيظن الجاهل أن السر للقبر، ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى اللَّه تعالى، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت اللَّه، كان أفضل وأحب إلى اللَّه، والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحًا تامًا لا آفة به، والساعد ساعد قوي، والمانع مفقود، حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير. فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة لم يحصل الأثر»[١].

وقال أيضًا: «ولكن ههنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الأذكار والآيات والأدعية التي يستشفى بها ويرقى بها هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المحل المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية؛ فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، وكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام، وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة؛ أثر في إزالة الداء، وكذلك الدعاء فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف عنه أثره، إما لضعف في نفسه، بأن يكون دعاءً لا يحبه اللَّه لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على اللَّه، وجمعيته عليه وقت الدعاء فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًا، فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا، وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام، والظلم، ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو وغلبتها عليها»[٢].

وقال أيضًا: والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدوّ البلاء يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه إذا نزل.. ومن أنفع الأدوية الإلحاح في الدعاء.. ومن

(١) الداء والدواء (ص: ٢١-٢٢).

(٢) الداء والدواء (ص: ٨-٩).

الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه أن يستعجل العبد ويستبطئ الإجابة فيستحسر ويدع الدعاء، وهو بمنزلة من بذر بذرًا أو غرس غرسًا فجعل يتعهده ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله»[1].

وقال: «وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة، وهي الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة.. وآخر ساعة بعد العصر؛ أي: يوم الجمعة وصادف خشوعًا في القلب وانكسارًا بين يدي الرب، وذلة له، وتضرعًا، ورقة، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى اللَّه، وبدأ بحمد اللَّه والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدّم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على اللَّه وألحّ عليه في المسألة، وتملّقه، ودعاه رغبة ورهبة، وتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده.. فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدًا، ولاسيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة، وأنها متضمنة للاسم الأعظم»[2].

بين الدعاء والقدر:

وقال أيضًا: «وههنا سؤال مشهور: وهو أن المدعو به إن كان قد قُدِّر لم يكن بدٌّ من وقوعه، دعا به العبد أو لم يدع، وإن لم يكن قد قُدِّر لم يقع، سواء سأله العبد أو لم يسأله؟ فظنت طائفة صحة هذا السؤال، فتركت الدعاء وقالت: لا فائدة فيه. وهؤلاء -مع فرط جهلهم وضلالهم- متناقضون، فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب، فيقال لأحدهم: إن كان الشبع والري قد قُدِّرا لك، فلا بد من وقوعهما، أكلتَ أو لم تأكل. وإن لم يقدرا لم يقعا، أكلتَ أو لم تأكل.

وإن كان الولد قد قدر لك فلابد منه وطئت الزوجة والأمة أو لم تطأ، وإن لم يقدر لم يكن، فلا حاجة إلى التزوج والتسري، وهلم جرًّا.

فهل يقول هذا عاقل أو آدمي؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته، فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلًا.

---

(١) الداء والدواء (ص: ١٠-١٣).

(٢) الداء والدواء (ص: ١٤-١٥).

وتكايس بعضهم وقال: الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب اللَّه عليه الداعي، من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما، ولا فرق عند هذا المتكايس بين الدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب، وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت، ولا فرق.

وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء: بل الدعاء علامة مجردة نصبها اللَّه سبحانه أمارة على قضاء الحاجة، فمتى وفق اللَّه العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد قُضيت، وهذا كما إذا رأينا غيمًا أسود باردًا في زمن الشتاء، فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر.

قالوا: وهكذا حكم الطاعات مع الثواب، والكفر والمعاصي مع العقاب، هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب، لا أنها أسباب له، وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار، والحرق مع الإحراق، والإزهاق مع القتل، ليس شيء من ذلك سببًا البتة، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه، إلا مجرد الاقتران العادي، لا التأثير السببي، وخالفوا بذلك الحس والعقل، والشرع والفطرة، وسائر طوائف العقلاء، بل أضحكوا عليهم العقلاء.

والصواب أن ههنا قسمًا ثالثًا، غير ما ذكره السائل، وهو أن هذا المقدَّر قُدّر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء، فلم يقدَّر مجردًا عن سببه، ولكن قُدِّر بسببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأتِ بالسبب انتفى المقدور. وهذا كما قُدِّر الشبع والري بالأكل والشرب، وقدر الولد بالوطء، وقدر حصول الزرع بالبذر، وقدر خروج نفس الحيوان بالذبح، وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال، ودخول النار بالأعمال. وهذا القسم هو الحق، وهذا الذي حُرمه السائل ولم يوفق له. وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب، فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال، وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء، ولا أبلغ في حصول المطلوب. ولما كان الصحابة ﷺ أعلم الأمة باللَّه ورسوله ﷺ وأفقههم في دينه، كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يستنصر به على عدوه، وكان أعظم جنده به، وكان يقول لأصحابه: لستم تنصرون بكثرة، وإنما تنصرون من السماء، وكان يقول: إني

لا أحمل هم الإجابة، ولكن هم الدعاء، فإذا أُلهمتم الدعاء فإن الإجابة معه.. فمن أُلهم الدعاء فقد أريد به الإجابة، فإن اللَّه سبحانه يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾.. ومن فقه هذه المسألة وتأملها حق التأمل، انتفع بها غاية النفع، ومن يتكل على القدر جهلًا منه، وعجزًا وتفريطًا وإضاعة، فيكون توكله عجزًا، وعجزه توكلًا، بل الفقيه كل الفقيه الذي يرد القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا بذلك، فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر.. فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ورعاها حق رعايتها، واللَّه المستعان»[1].

وهناك سؤال مشهور أيضًا، وهو قول القائل: قد دعوت كثيرًا فلم يستجب لي. قال الشيخ العثيمين في الجواب عن هذا السؤال: «والجواب على ذلك أن للإجابة شروطًا لا بد أن تتحقق، وهي:

الشرط الأول: الإخلاص لله ﷻ، بأن يخلص الإنسان في دعائه فيتجه إلى اللَّه ﷻ بقلب حاضر صادق في اللجوء إليه، عالم بأنه ﷻ قادر على إجابة الدعوة، مؤمل الإجابة من اللَّه ﷻ.

الشرط الثاني: أن يشعر الإنسان حال دعائه بأنه في أمس الحاجة، بل في أمس الضرورة إلى اللَّه ﷻ، وأن اللَّه تعالى وحده هو الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، أما أن يدعو اللَّه ﷻ وهو يشعر بأنه مستغن عن اللَّه ﷻ وليس في ضرورة إليه، وإنما يسأل هكذا عادة فقط، فإن هذا ليس بحري بالإجابة.

الشرط الثالث: أن يكون متجنبًا لأكل الحرام، فإن أكل الحرام حائل بين الإنسان والإجابة، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن اللَّه طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن اللَّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾[2] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾[3] ثم ذكر النبي ﷺ الرجل

---

(١) الداء والدواء (ص: ٢٢-٢٨) باختصار.

(٢) البقرة: الآية (١٧٢).

(٣) المؤمنون: الآية (٥١).

يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له»[١]، فاستبعد النبي ﷺ أن يستجاب لهذا الرجل الذي قام بالأسباب الظاهرة التي بها تستجلب الإجابة، وهي:

الأول: رفع اليدين إلى السماء؛ أي: إلى اللَّه ﷻ؛ لأنه تعالى في السماء فوق العرش، ومد اليد إلى اللَّه ﷻ من أسباب الإجابة..

الثاني: هذا الرجل دعا اللَّه باسم (الرب): يا رب، يا رب، والتوسل إلى اللَّه تعالى بهذا الاسم من أسباب الإجابة؛ لأن الرب هو الخالق المالك المدبر لجميع الأمور، فبيده مقاليد السموات والأرض، ولهذا تجد أكثر الدعاء الوارد في القرآن الكريم بهذا الاسم.. فالتوسل إلى اللَّه تعالى بهذا الاسم من أسباب الإجابة.

الثالث: هذا الرجل كان مسافرًا، والسفر غالبًا من أسباب الإجابة، لأن الإنسان في السفر يشعر بالحاجة إلى اللَّه ﷻ، والضرورة إليه أكثر مما إذا كان مقيمًا في أهله، وأشعث أغبر كأنه غير معني بنفسه، كأن أهم شيء عنده أن يلتجئ إلى اللَّه ويدعوه على أي حال كان هو، سواء أكان أشعث أغبر أم مترفًا، والشعث والغبر له أثر في الإجابة.. هذه الأسباب لإجابة الدعاء لم تُجْدِ شيئًا؛ لكون مطعمه حراما، وملبسه حراما، وغذي بالحرام، قال النبي ﷺ: «**فأنى يستجاب له**». فهذه الشروط لإجابة الدعاء إذا لم تتوافر فإن الإجابة تبدو بعيدة، فإذا توافرت ولم يستجب اللَّه للداعي، فإنما ذلك لحكمة يعلمها اللَّه ﷻ، ولا يعلمها هذا الداعي، فعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم، وإذا تمت هذه الشروط ولم يستجب اللَّه ﷻ فإنه إما أن يدفع عنه من السوء ما هو أعظم، وإما أن يدخرها له يوم القيامة فيوفيه الأجر أكثر وأكثر، لأن هذا الداعي الذي دعا بتوفر الشروط ولم يستجب له ولم يصرف عنه من السوء ما هو أعظم، يكون قد فعل الأسباب، ومُنع الجواب لحكمة، فيعطى الأجر مرتين: مرة على دعائه، ومرة على مصيبته بعدم الإجابة، فيدخر له عند اللَّه ﷻ ما هو أعظم وأكمل.

ثم إن المهم أن لا يستبطئ الإنسان الاستجابة، فإن هذا من أسباب منع الإجابة

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٨)، ومسلم (٢/ ٧٠٣/ ١٠١٥)، والترمذي (٥/ ٢٠٥/ ٢٩٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أيضًا، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل» قالوا كيف يعجل يا رسول الله! قال: «يقول: دعوت ودعوت ودعوت فلم يستجب لي»[١]، فلا ينبغي للإنسان أن يستبطئ الإجابة فيستحسر عن الدعاء ويدع الدعاء؛ بل يلح في الدعاء فإن كل دعوة تدعوا بها اللَّه ﷻ فإنها عبادة تقربك إلى اللَّه ﷻ وتزيدك أجرا، فعليك يا أخي بدعاء اللَّه ﷻ في كل أمورك، العامة والخاصة، الشديدة واليسيرة، ولو لم يكن من الدعاء إلا أنه عبادة لله ﷻ لكان جديرا بالمرء أن يحرص عليه، واللَّه الموفق»[٢].

وأفضل للداعي أن يراعي الإخفاء والإسرار في الدعاء، وهو الذي استظهره ابن القيم وبينه بنحو من عشرة أوجه، فقال: «وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة: أحدها: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن اللَّه يسمع دعاءه الخفي، وليس كالذي قال: إن اللَّه يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا. وثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تخفض عندهم الأصوات، ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى. فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به. ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه وذلت جوارحه وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وكسره وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق، فقلبه سائل طالب مبتهل، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت، وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلًا. ورابعها: أنه أبلغ في الإخلاص. وخامسها: أنه أبلغ في جمعية القلب على اللَّه في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته، فكلما خفض صوته كان أبلغ في صمده وتجريد همته، وقصده للمدعو ﷻ. وسادسها: وهو من النكت السرية البديعة جدًا: أنه دال على قرب صاحبه من اللَّه، وأنه لاقترابه منه، وشدة حضوره، يسأله مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب،

---

(١) أخرج نحوه: أحمد (٢/ ٤٨٧)، والبخاري (١١/ ١٦٩/ ٦٣٤٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٥/ ٢٧٣٥)، وأبو داود (٢/ ١٦٣/ ١٤٨٤)، والترمذي (٥/ ٤٣٣/ ٣٣٨٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٦/ ٣٨٥٣) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (١/ ٩٣-٩٦).

لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا بقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾[(١)] فكلما استحضر القلب قرب اللَّه تعالى منه، وأنه أقرب إليه من كل قريب، وتصور ذلك، أخفى دعاءه ما أمكنه، ولم يتأت له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن، كما أن من خاطب جليسًا له يسمع خفي كلامه فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه، ولله المثل الأعلى سبحانه.. سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته، فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه، وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعًا صوته، فإنه لا يطول له ذلك، بخلاف من يخفض صوته. وثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد، فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية والخبيثة من الجن والإنس فشوشت عليه ولا بد، ومانعته وعارضته، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته، فيضعف أثر الدعاء لكفى. ومن له تجربة يعرف هذا، فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة. وتاسعها: إن أعظم النعم الإقبال على اللَّه والتعبد له، والانقطاع إليه والتبتل إليه، ولكل نعمة حاسد على قدرها، دقت أو جلت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وأن لا يقصد إظهارها له. وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[(٢)]. وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع اللَّه قد تحدث بها وأخبر بها، فسلبه إياها الأغيار فأصبح يقلب كفيه.. وهذا باب عظيم النفع، وإنما يعرفه أهله. وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على اللَّه، فهو من أعظم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين، وهذه فائدة شريفة نافعة. وعاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه، متضمن للطلب منه، والثناء عليه بأسمائه وأوصافه.. وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾[(٣)] وفي آية الدعاء: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ﴾[(٤)] فذكر التضرع فيهما معًا،

---

(١) مريم: الآية (٣).
(٢) يوسف: الآية (٥).
(٣) الأعراف: الآية (٢٠٥).
(٤) الأعراف: الآية (٥٥).

وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولا بد، فمن أكثر من ذكر اللَّه أثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقرن بالخوف، فإنها لا تنفع صاحبها بل قد تضره»[١].

وقد تقدمت فوائد أخرى في سورة (الأعراف) الآية (٥٥).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«من لم يدع اللَّه يغضب عليه»**[٢].

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «وذلك لأن اللَّه تعالى يحب أن يُسأل من فضله، فمن لم يسأل اللَّه يبغضه، والمبغوض مغضوب عليه لا محالة»[٣].

قال المباركفوري: «لأن ترك السؤال تكبر واستغناء، وهذا لا يجوز للعبد، ونعم ما قيل:

اللَّه يغضبُ إن تركتَ سؤالهُ ... وترى ابن آدمَ حين يُسأل يغضبُ»[٤].

قال ابن القيم: «فهذا يدل على أن رضاءه في سؤاله وطاعته، وإذا رضي الرب -تبارك وتعالى-، فكل خير في رضاه، كما أن كل بلاء ومصيبة في غضبه ومعصيته»[٥].

قال فضل اللَّه الجيلاني: «فيه دليل على أن الدعاء من العبد لربه من أهم الواجبات، وأعظم المفروضات، لأن تجنب ما يغضب اللَّه منه لا خلاف في وجوبه»[٦].

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٦-١٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٤٢-٤٧٧)، البخاري في «الأدب المفرد» (ح ٦٥٨)، الترمذي (٥/ ٤٢٦/ ٣٣٧٣)، ابن ماجه (٢/ ١٢٥٨/ ٣٨٢٧)، الحاكم (١/ ٤٩١) وصححه وأقره الذهبي، وله شاهد من حديث النعمان ابن بشير وأنس وغيرهما. وانظر «السلسلة الصحيحة» للشيخ الألباني (٦/ ح ٢٦٥٤) فإن فيها بحثًا حول هذا الحديث.

(٣) شرح الطيبي (٥/ ١٧١٢).

(٤) تحفة الأحوذي (٩/ ٢٢١).

(٥) الداء والدواء (ص: ٢٤).

(٦) فضل اللَّه الصمد (١/ ١١٩).

قال ابن القيم: «إن قولكم: الدعاء لا يجب، باطل، فإن من الدعاء ما هو واجب، وهو الدعاء بالتوبة والاستغفار من الذنوب، والهداية، والعفو، وغيرها، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من لم يسأل اللَّه يغضب عليه**» والغضب لا يكون إلا على ترك واجب أو فعل محرم»[١].

* عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**قال الله: يا بن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي. يا بن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي. يا بن آدم! إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة**»[٢].

★ غريب الحديث:

بقراب الأرض: أي: ما يقارب ملئها.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ ابن رجب: «فقد تضمن حديث أنس أن هذه الأسباب الثلاثة يحصل بها المغفرة، أحدها: الدعاء مع الرجاء، فإن الدعاء مأمور به وموعود عليه بالإجابة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.. لكن الدعاء سبب مقتض للإجابة مع استكمال شرائطه، وانتفاء موانعه، وقد تتخلف الإجابة لانتفاء بعض شروطه، أو وجود بعض موانعه، ومن أعظم شرائطه حضور القلب، ورجاء الإجابة من اللَّه تعالى، ولهذا نُهي العبد أن يستعجل ويترك الدعاء لاستبطاء الإجابة، وجعل ذلك من موانع الإجابة حتى لا يقطع العبد رجاءه من إجابة دعائه، ولو طالت المدة، فإنه سبحانه يحب الملحين في الدعاء، فما دام العبد يلح في الدعاء، ويطمع في الإجابة من غير قطع الرجاء، فهو قريب من الإجابة، ومن أدمن

---

(١) جلاء الأفهام (ص: ٥٠٢)

(٢) أخرجه: الترمذي (٥/ ٥١٢/ ٣٥٤٠) وقال: «حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه» وفي الباب عن أبي ذر عند أحمد (٥/ ١٧٢)، ورواه أحمد (٢/ ٣٢٢)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن أبي ذر كذلك باختصار، ورواه الطبراني في الكبير (١٢/ ١٩/ ١٢٣٤٦)، عن ابن عباس قال الهيثمي: «رواه الطبراني في الثلاثة وفيه إبراهيم بن إسحاق الصيني وقيس بن الربيع وكلاهما مختلف في توثيقه وبقية رجاله رجال الصحيح». (انظر الصحيحة (١٢٧)).

قرع الباب يوشك أن يفتح له، ومن أهم ما يسأل العبد مغفرة ذنوبه، أو ما يستلزم ذلك كالنجاة من النار ودخول الجنة، ومن رحمة اللَّه بعبده أن العبد يدعوه لحاجة، فيصرفها عنه ويعوضه خيرًا منها، إما أن يصرف عنه بذلك سوءًا أو يدخرها له في الآخرة، أو يغفر بها ذنبًا، وبكل حال فالإلحاح بالدعاء بالمغفرة مع رجاء اللَّه تعالى موجب للمغفرة»[1].

* * *

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٠٢-٤٠٥) بتصرف.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾

⋆ غريب الآية:

مبصرا: أي: مضيئًا لتتصرفوا في طلب المعاش وقضاء الحوائج.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: اللَّه الذي لا تصلح الألوهة إلا له، ولا تنبغي العبادة لغيره، الذي صفته أنه جعل لكم أيها الناس الليل سكنا لتسكنوا فيه، فتهدؤوا من التصرّف والاضطراب للمعاش، والأسباب التي كنتم تتصرفون فيها في نهاركم ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ يقول: وجعل النهار مبصرا من اضطرب فيه لمعاشه، وطلب حاجاته، نعمة منه بذلك عليكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يقول: إن اللَّه لمتفضل عليكم أيها الناس بما لا كفء له من الفضل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ يقول: ولكن أكثرهم لا يشكرونه بالطاعة له، وإخلاص الألوهة والعبادة له، ولا يد تقدمت له عنده استوجب بها منه الشكر عليها»[1].

قال السعدي: «تدبر هذه الآيات الكريمات، الدالة على سعة رحمة اللَّه تعالى وجزيل فضله، ووجوب شكره وكمال قدرته، وعظيم سلطانه وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء، وكمال حياته، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة، وما فعله من الأفعال الحسنة، وتمام ربوبيته وانفراده فيها، وأن جميع التدبير في العالم العلوي والسفلي في ماضي الأوقات وحاضرها ومستقبلها بيد اللَّه تعالى، ليس لأحد من الأمر شيء، ولا من القدرة شيء، فينتج من ذلك أنه تعالى المألوه المعبود وحده، الذي لا يستحق أحد غيره من العبودية شيئًا، كما لم

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٧٩-٨٠).

يستحق من الربوبية شيئًا، وينتج من ذلك امتلاء القلوب بمعرفة اللَّه تعالى، ومحبته وخوفه ورجائه، وهذان الأمران -وهما معرفته وعبادته- هما اللذان خلق اللَّه الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده، وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح، وسعادة دنيوية وأخروية، وهما أشرف عطايا الكريم لعباده، وهما أشرف اللذات على الإطلاق، وهما اللذان إن فاتا فات كل خير، وحضر كل شر.

فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبته، وأن يجعل حركاتنا الباطنة والظاهرة خالصة لوجهه، تابعة لأمره، إنه لا يتعاظمه سؤال، ولا يحفيه نوال.

فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ أي: لأجلكم جعل اللَّه الليل مظلمًا، ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ من حركاتكم، التي لو استمرت لضرت، فتأوون إلى فرشكم، ويلقي اللَّه عليكم النوم الذي يستريح به القلب والبدن، وهو من ضروريات الآدمي لا يعيش بدونه، ويسكن أيضًا كل حبيب إلى حبيبه، ويجتمع الفكر، وتقل الشواغل.

وجعل تعالى ﴿ٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ منيرًا بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية، هذا لذكره وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه، وهذا لبنائه أو حدادته، أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفره برًا وبحرًا، وهذا لفلاحته، وهذا لتصليح حيواناته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: عظيم، كما يدل عليه التنكير ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها، وصرف عنهم النقم، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بسبب جهلهم وظلمهم. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[1] الذين يقرون بنعمة ربهم، ويخضعون للَّه ويحبونه، ويصرفونها في طاعة مولاهم ورضاه»[2].

قال ابن القيم: «ومن آياته ﷻ الليل والنهار، وهما من أعجب آياته، وبدائع مصنوعاته، ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن ويبديه، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ

---

(١) سبأ: الآية (١٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٤١-٥٤٣).

وَٱلنَّهَارُ﴾[١] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾[٢] وقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٣] وقوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وهذا كثير في القرآن، فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية اللَّه وحكمته كيف جعل الليل سكنا ولباسا يغشى العالم، فتسكن فيه الحركات، وتأوي الحيوانات إلى بيوتها، والطير إلى أوكارها، وتستجم فيه النفوس، وتستريح من كد السعي والتعب، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها، وتطلعت إلى معايشها وتصرفها، جاء فالق الإصباح ﷻ بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح، فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق، وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون، فانتشر الحيوان، وتصرف في معاشه ومصالحه، وخرجت الطيور من أوكارها، فياله من معاد ونشأة دال على قدرة اللَّه سبحانه على المعاد الأكبر، وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفا منعها عن الاعتبار به، والاستدلال به على النشأة الثانية، وإحياء الخلق بعد موتهم، ولا ضعف في قدرة القادر التام القدرة، ولا قصور في حكمته ولا في علمه يوجب تخلف ذلك، ولكن اللَّه يهدي من يشاء ويضل من يشاء. وهذا أيضًا من آياته الباهرة أن يعمى عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه، فلا يهتدي بها ولا يبصرها، كمن هو واقف في الماء إلى حلقه وهو يستغيث من العطش، وينكر وجود الماء، وبهذا وأمثاله يعرف اللَّه ﷻ ويشكر، ويحمد ويتضرع إليه ويسأل»[٤].

* * *

(١) فصلت: الآية (٣٧).

(٢) الفرقان: الآية (٤٧).

(٣) الأنبياء: الآية (٣٣).

(٤) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٩-٤٠).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تؤفكون: تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: الذي فعل هذه الأفعال، وأنعم عليكم هذه النعم أيها الناس، اللَّه مالككم ومصلح أموركم، وهو خالقكم وخالق كلّ شيء ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يقول: لا معبود تصلح له العبادة غيره، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ يقول: فأي وجه تأخذون، وإلى أين تذهبون عنه، فتعبدون سواه؟.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ يقول: كذهابكم عنه أيها القوم، وانصرافكم عن الحقّ إلى الباطل، والرشد إلى الضلال، ذهب عنه الذين كانوا من قبلكم من الأمم بآيات اللَّه، يعني: بحجج اللَّه وأدلته يكذّبون فلا يؤمنون؛ يقول: فسلكتم أنتم معشر قريش مسلكهم، وركبتم محجتهم في الضلال»[1].

قال السعدي: «﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي فعل ما فعل ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: المنفرد بالإلهية، والمنفرد بالربوبية؛ لأن انفراده بهذه النعم من ربوبيته، وإيجابها للشكر من ألوهيته، ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ تقرير لربوبيته، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

ثم صرح بالأمر بعبادته فقال: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف تصرفون عن عبادته وحده لا شريك له، بعد ما أبان لكم الدليل، وأنار لكم السبيل؟.

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٨٠).

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: عقوبة على جحدهم لآيات اللَّه، وتعديهم على رسله، صرفوا عن التوحيد والإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[1]»[2].

* * *

---

(١) التوبة: الآية (١٢٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٤٣-٥٤٤).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي له الألوهة خالصة أيها الناس ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أنتم على ظهرها سكان ﴿قَرَارًا﴾ تستقرون عليها، وتسكنون فوقها، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾: بناها فرفعها فوقكم بغير عمد ترونها لمصالحكم، وقوام دنياكم إلى بلوغ آجالكم ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ يقول: وخلقكم فأحسن خلقكم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يقول: ورزقكم من حلال الرزق، ولذيذات المطاعم والمشارب. وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فالذي فعل هذه الأفعال، وأنعم عليكم أيها الناس هذه النعم، هو اللَّه الذي لا تنبغي الألوهة إلا له، وربكم الذي لا تصلح الربوبية لغيره، لا الذي لا ينفع ولا يضر، ولا يخلق ولا يرزق ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول: فتبارك اللَّه مالك جميع الخلق جنهم وإنسهم، وسائر أجناس الخلق غيرهم ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ يقول: هو الحي الذي لا يموت، الدائم الحياة، وكل شيء سواه فمنقطع الحياة غير دائمها ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يقول: لا معبود بحق تجوز عبادته، وتصلح الألوهة له إلا اللَّه الذي هذه الصفات صفاته، فادعوه أيها الناس مخلصين له الدين، مخلصين له الطاعة، مفردين له الألوهة، لا تشركوا في عبادته شيئًا سواه، من وثن وصنم، ولا تجعلوا له ندًا ولا عدلًا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ يقول: الشكر لله الذي هو مالك جميع أجناس الخلق، من ملك وجن وإنس وغيرهم، لا للآلهة والأوثان التي لا تملك شيئًا، ولا تقدر على ضرّ ولا نفع، بل هو مملوك، إن ناله

نائل بسوء لم يقدر له عن نفسه دفعًا»[١].

قال ابن كثير: «ذكر أنه خلق الدار والسكان والأرزاق، فهو الخالق الرازق، كما قال في سورة البقرة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[٢] وقال ههنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ أي: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم.

ثم قال: ﴿هُوَ ٱلۡحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الحي أزلا وأبدًا، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نظير له ولا عديل له، ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ أي: موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾»[٣].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٨٠-٨١).

(٢) البقرة: الآيتان (٢٠و٢١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٤٤-١٤٥).

قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك من قريش ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ أيها القوم ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الآلهة والأوثان ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ يقول: لما جاءني الآيات الواضحات من عند ربي، وذلك آيات كتاب اللَّه الذي أنزله ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول: وأمرني ربي أن أذلّ لربّ كلّ شيء، ومالك كلّ خلق بالخضوع، وأخضع له بالطاعة دون غيره من الأشياء»[1].

قال السعدي: «لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة للّه وحده، وذكر الأدلة على ذلك والبينات، صرح بالنهي عن عبادة ما سواه فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أيها النبي ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان والأصنام، وكل ما عبد من دون اللَّه.

ولست على شك من أمري؛ بل على يقين وبصيرة، ولهذا قال: ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بقلبي ولساني وجوارحي، بحيث تكون منقادة لطاعته، مستسلمة لأمره، وهذا أعظم مأمور به على الإطلاق، كما أن النهي عن عبادة ما سواه أعظم مَنْهِيٍّ عنه على الإطلاق»[2].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٨١-٨٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٤٦).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

* **غريب الآية:**

أشدكم: كمال القوة وتمام العقل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- آمرًا نبيه محمدًا ﷺ بتنبيه مشركي قومه على حججه عليهم في وحدانيته: قل يا محمد لقومك: أمرت أن أسلم لرب العالمين الذي صفته هذه الصفات؛ وهي أنه خلق أباكم آدم ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ﴾ خلقكم ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ بعد أن كنتم نطفا ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ من بطون أمهاتكم صغارا، ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾، فتتكامل قواكم، ويتناهى شبابكم، وتمام خلقكم شيوخا ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أن يبلغ الشيخوخة ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ يقول: ولتبلغوا ميقاتا مؤقتا لحياتكم، وأجلا محدودا لا تجاوزونه، ولا تتقدمون قبله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يقول: وكي تعقلوا حجج الله عليكم بذلك، وتتدبروا آياته فتعرفوا بها أنه لا إله غيره فعل ذلك»[1].

قال ابن كثير: «وقد بين تعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ﴾ أي: هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها، وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ﴾ أي: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطا، ومنهم من يتوفى صغيرًا

(١) جامع البيان (٢٤/ ٨٢).

وشابًّا، وكهلًا قبل الشيخوخة، كقوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1] وقال ههنا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قال ابن جريج: تتذكرون البعث»[2].

* * *

(١) الحج: الآية (٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٤٥-١٤٦).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٦٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل لهم يا محمد: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ يقول: قل لهم: ومن صفته -جل ثناؤه- أنه هو الذي يحيي من يشاء بعد مماته، ويميت من يشاء من الأحياء بعد حياته ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا﴾ يقول: وإذا قضى كون أمر من الأمور التي يريد تكوينها ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ يعني للذي يريد تكوينه كن، فيكون ما أراد تكوينه موجودا بغير معاناة، ولا كلفة مؤنة»[1].

قال السعدي: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ أي: هو المنفرد بالإحياء والإماتة، فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب، إلا بإذنه. ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[2] ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا﴾ جليلا أو حقيرا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لا رد في ذلك، ولا مثنوية، ولا تمنع»[3].

* * *

(١) جامع البيان (٢٤/ ٨٢).

(٢) فاطر: الآية (١١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٤٧).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول لنبيه محمد ﷺ: ألم تر يا محمد هؤلاء المشركين من قومك، الذين يخاصمونك في حجج اللَّه وآياته ﴿أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ يقول: أي وجه يصرفون عن الحق، ويعدلون عن الرشد»[1].

ثم ذكر أقوال أهل العلم في المقصود بالمتجادلين في آيات اللَّه حيث عد منهم أهل القدر وأهل الشرك ورجح رَحِمَهُ اللَّهُ القول الثاني: فقال: «وقد بين اللَّه حقيقة ذلك بقوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾»[2].

وقال: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ الذين كذّبوا بكتاب اللَّه، وهو هذا القرآن، و﴿الَّذِينَ﴾ الثانية في موضع خفض ردًا لها على ﴿الَّذِينَ﴾ الأولى على وجه النعت ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ يقول: وكذّبوا أيضًا مع تكذيبهم بكتاب اللَّه بما أرسلنا به رسلنا من إخلاص العبادة لله، والبراءة مما يعبد دونه من الآلهة والأنداد، والإقرار بالبعث بعد الممات للثواب والعقاب»[3].

قال السعدي: «﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ الواضحة البينة متعجبا من حالهم الشنيعة ﴿أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ أي: كيف يعدلون عنها؟ وإلى أي شيء يذهبون بعد البيان التام؟ هل يجدون آيات بينات تعارض آيات الله؟ لا واللَّه. أم يجدون شبهًا توافق أهواءهم، ويصولون بها لأجل باطلهم؟ فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم، بتكذيبهم بالكتاب الذي جاءهم من اللَّه، وبما أرسل اللَّه به رسله، الذين هم خير الخلق وأصدقهم، وأعظمهم عقولا»[4].

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٨٢).
(٢) جامع البيان (٢٤/ ٨٣).
(٣) جامع البيان (٢٤/ ٨٤).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٤٨).

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾

★ **غريب الآية:**

يسحبون: أصل السحب: الجر على الأرض. يقال: سحب ذيله وسحبته على وجهه.

يسجرون: أي: يطرحون في النار وقودا لها، ويقال: سجرت التنور: إذا أوقدته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب ﷻ لهؤلاء، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾[1].

وقوله: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ أي: متصلة بالأغلال، بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾، كما قال: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ۝٤٤﴾[2]. وقال بعد ذكره أكلهم الزقوم وشربهم الحميم: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ۝٦٨﴾[3] وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ۝٥٦﴾[4]. وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۝٤٦ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ

---

(١) المرسلات: الآية (١٥).
(٢) الرحمن: الآيتان (٤٣و٤٤).
(٣) الصافات: الآية (٦٨).
(٤) الواقعة: الآيات (٤١-٥٦).

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[1] أي: يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ والتحقير والتصغير والتهكم والاستهزاء»[2].

قال السعدي: «فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية، ولهذا توعدهم اللَّه بعذابها فقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ التي لا يستطيعون معها حركة. ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ التي يقرنون بها، هم وشياطينهم ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ أي: الماء الذي اشتد غليانه وحره. ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يوقد عليهم اللهب العظيم، فيصلون بها، ثم يوبخون على شركهم وكذبهم»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة جهنم

* عن أبي ذر ﷺ قال: «كان النبي ﷺ في سفر فقال: أبرد، ثم قال: أبرد، حتى فاء الفيء -يعني: للتلول- ثم قال: أبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم»[4].

★ **غريب الحديث:**

الفيء: هو الظل العائد بعد زواله، فإن الشمس إذا طلعت كان للتلول ونحوها ظل مستطيل، ثم يقصر حتى يتناهى قصره وقت قيام الشمس بالظهيرة، ثم إذا زالت الشمس عاد الظل وأخذ في الطول، فما كان قبل الزوال، يسمى ظلًّا، وما كان بعده يسمى فيئًا، لرجوع الظل بعد ذهابه، ومنه يسمى الفيء فيئًا كأنه عاد إلى المسلمين ما كانوا أحق به ممن كان في يده[5].

للتلول: جمع تل، بفتح المثناة وتشديد اللام: كل ما اجتمع على الأرض من تراب أو رمل أو نحو ذلك، وهي في الغالب منبطحة غير شاخصة، فلا يظهر لها ظل

---

(١) الدخان: الآيات (٤٣-٥٠). (٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٤٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٤٨-٥٤٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٥)، والبخاري (٦/ ٤٠٦/ ٣٢٥٨) واللفظ له، مسلم (١/ ٤٣١/ ٦١٦)، وأبو داود (١/ ٢٨٣-٢٨٤/ ٤٠١)، والترمذي (١/ ٢٩٧-٢٩٨/ ١٥٨)

(٥) فتح الباري لابن رجب (٤/ ٢٤٨).

إلا إذا ذهب وقت الظهر[١].

إذا اشتد الحر: اشتداد الحر: قوته سطوعه وانتشاره وغليانه[٢].

أبردوا: بقطع الهمزة وكسر الراء: أي: أخّروا إلى أن يبرد الوقت، يقال: أبرد إذا دخل في البرد، كأظهر إذا دخل في الظهيرة، ومثله في المكان: أنجد إذا دخل نجدًا، وأتهم إذا دخل تهامة[٣].

من فيح جهنم: أي: من سعة انتشارها وتنفسها، ومنه مكان أفيح: أي: متسع، وهذا كناية عن شدة استعارها[٤].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «وظاهره أن مثار وهج الحر في الأرض من فيح جهنم حقيقة، وقيل: هو مجاز، وقيل: هو من مجاز التشبيه؛ أي: كأنه نار جهنم في الحر، والأول أولى، ويؤيده الحديث الآتي: «**اشتكت النار إلى ربها، فأذن لها بنفسين**»»[٥].

قال ابن رجب: «وهذا يدل على أن شدة الحر عقب الزوال من أثر سجرها، فكما تمنع الصلاة وقت الزوال، فإنه يستحب تأخرها بعد الزوال، حتى يبرد حرها، ويزول شدة وهجها، فإنه إثر وقت غضب، والمصلي يناجي ربه، فينبغي أن يتحرى بصلاته أوقات الرضى والرحمة، ويتجنب أوقات السخط والعذاب»[٦].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**اشتكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضا، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير**»[٧].

---

(١) الفتح (٢/ ٢٦).

(٢) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٣/ ٣٥٢).

(٣) الفتح (٢/ ٢٠).

(٤) الفتح (٢/ ٢٢).

(٥) الفتح (٢/ ٢٢).

(٦) فتح الباري لابن رجب (٤/ ٢٤٢).

(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٨)، والبخاري (٦/ ٤٠٦/ ٣٢٦٠) واللفظ له، ومسلم (١/ ٤٣١-٤٣٢/ ٦١٧)، والترمذي (٤/ ٦١٢-٦١٣/ ٢٥٩٢)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٤-١٤٤٥/ ٤٣١٩).

★ **غريب الحديث:**

الزمهرير: شدة البرد.

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «حمله بعضهم على ظاهره، وقال: شكواها حقيقة، إن شدة الحر من وهج جهنم حقيقة على ما جاء في الحديث، وأن اللَّه أذن لها بنفسين، نفس في الصيف، ونفس في الشتاء، وذكر أنه أشد ما يوجد من الحر والبرد. وقيل: إنه كلام خرج مخرج التشبيه والتقريب؛ أي: كأنه نار جهنم في الحر، فاحذروه واجتنبوا ضرره، كما قال: شكا إلي جملي طول السرى، وهذا يسمى التعبير بلسان الحال، وكلا الوجهين ظاهر، والأول أظهر، وحمله على الحقيقة أولى، لاسيما على قول أهل السنة بأن النار موجودة مخلوقة الآن»[(١)].

قال النووي: «قلت: والصواب الأول؛ لأنه ظاهر الحديث، ولا مانع من حمله على حقيقته، فوجب الحكم بأنه على ظاهره، واللَّه أعلم»[(٢)].

قال ابن رجب: «وأما قوله ﷺ: **«اشتكت النار إلى ربها»** فالمحققون من العلماء على أن اللَّه أنطقها بذلك نطقًا حقيقيًا كما ينطق الأيدي والأرجل والجلود يوم القيامة، وكما أنطق الجبال وغيرها من الجمادات بالتسبيح والسلام على رسول اللَّه ﷺ، وغير ذلك مما يسمع نطقه في الدنيا»[(٣)].

وقال أيضًا: «وقد جعل اللَّه تعالى ما في الدنيا من شدة الحر والبرد مذكرًا بحر جهنم وبردها، ودليلًا عليها»[(٤)].

قال الحافظ: «والمراد بالزمهرير شدة البرد، وقد استشكل وجوده في النار، ولا إشكال؛ لأن المراد بالنار محلها، وفيها طبقة زمهريرية»[(٥)].

قال العيني: «النار من أمور الآخرة، وأمور الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا»[(٦)].

وقال أيضًا: «وفيه أن جهنم مخلوقة الآن، خلافًا لمن يقول من المعتزلة: إنها

---

(١) إكمال المعلم (٢/ ٥٨٢-٥٨٣).
(٢) شرح مسلم (٥/ ١٠٢).
(٣) فتح الباري لابن رجب (٤/ ٢٤٤). وانظر التمهيد (١/ ٢٧٣-٢٧٤).
(٤) فتح الباري (٤/ ٢٤٥).
(٥) فتح الباري (٢/ ٢٤).
(٦) عمدة القاري (٤/ ٣٣).

تخلق يوم القيامة»[١].

قال أبو عمر: «هذا الحديث أبين شيء في أنها قد خلقت وأنها باقية شتاءً وصيفًا»[٢].

وقال أيضًا: «والذي عليه جماعة أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان، إحداهما رحمة اللَّه لمن شاء من خلقه، والأخرى عذابه ونقمته لمن شاء أن يعذبه من خلقه»[٣].

وقد تقدم الحديث في سورة (البقرة) الآية (٢٤).

* عن رافع بن خديج قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**الحمى من فور جهنم، فأبردوها عنكم بالماء**»[٤].

★ غريب الحديث:

من فور جهنم: أي: من شدة حرها. يقال: فار الشيءُ: إذا جاش.

أبردوها: يقال: برّدتُ الحمى أبردها بردًا بوزن: قتلتها أقتلها قتلًا؛ أي: أسكنت حرارتها.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «والحمى أنواع.. اختُلف في نسبتها إلى جهنم، فقيل: حقيقة، واللهب الحاصل في جسم المحموم قطعة من جهنم، وقدر اللَّه ظهورها بأسباب تقتضيها ليعتبر العباد بذلك، كما أن أنواع الفرح واللذة من نعيم الجنة، أظهرها في هذه الدار عبرة ودلالة.. وهذا كما تقدم في حديث الأمر بالإبراد: أن شدة الحر من فيح جهنم وأن اللَّه أذن لها بنفسين، وقيل: بل الخبر ورد مورد التشبيه، والمعنى: أن حر الحمى شبيه بحر جهنم؛ تنبيهًا للنفوس على شدة حر النار، وأن هذه الحرارة الشديدة شبيهة بفيحها، وهو ما يصيب من قرب منها من حرها، كما قيل بذلك في حديث الإبراد، والأول أولى، واللَّه أعلم»[٥].

---

(١) عمدة القاري (٤/ ٣٤).
(٢) التمهيد (١/ ٢٧٠).
(٣) التمهيد (١/ ٢٧٠).
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٤١)، والبخاري (٦/ ٤٠٦/ ٣٢٦٢) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٧٣٣/ ٢٢١٢).
(٥) فتح الباري (١٠/ ٢١٥).

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ناركم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم**. قيل: يا رسول اللَّه إن كانت لكافية، قال: **فضلت عليهن بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها**»(١).

⭑ فوائد الحديث:

قال أبو عمر: «ليس في هذا الحديث ما يحتاج إلى قول، وفيه إباحة الخبر عن القيامة والآخرة، وحال النار، أجارنا اللَّه منها، وزحزحنا عنها، وفي ما نطق به القرآن من الخبر عن الآخرة والجنة والنار ما فيه معتبر لأولي الأبصار»(٢).

قال المناوي: «لو جُمع حطب الدنيا فأوقد حتى صار نارًا كان جزءًا واحدًا من أجزاء نار جهنم، الذي هو من سبعين جزءًا أشد من حر نار الدنيا.. ومقصوده التحذير من جهنم، والإعلام بفظاعتها، وبشناعتها، فعلى العاقل المحافظة على تجنب ما يقرب إليها من الخطايا»(٣).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٣)، والبخاري (٦/ ٤٠٧/ ٣٢٦٥) واللفظ له، مسلم (٤/ ٢١٨٤/ ٢٨٤٣)، والترمذي (٤/ ٦١١/ ٢٥٨٩).
(٢) التمهيد (١٦/ ٤٣٣).
(٣) فيض القدير (٢/ ٥٤٣).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: ثم قيل أين الذين كنتم تشركون بعبادتكم من دون اللَّه من آلهتكم وأوثانكم حتى يغيثوكم فينقذوكم مما أنتم فيه من البلاء والعذاب، فإن المعبود يغيث من عبده وخدمه. وإنما يقال هذا لهم توبيخا وتقريعا على ما كان منهم في الدنيا من الكفر باللَّه وطاعة الشيطان، فأجاب المساكين عند ذلك فقالوا: ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾: يقول: عدلوا عنا، فأخذوا غير طريقنا، وتركونا في هذا البلاء، بل ما ضلوا عنا، ولكنا لم نكن ندعو من قبل في الدنيا شيئًا: أي لم نكن نعبد شيئًا، يقول اللَّه -تعالى ذكره-: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يقول: كما أضل هؤلاء الذين ضل عنهم في جهنم ما كانوا يعبدون في الدنيا من دون اللَّه من الآلهة والأوثان آلهتهم وأوثانهم، كذلك يضل اللَّه أهل الكفر به عنه، وعن رحمته وعبادته، فلا يرحمهم فينجيهم من النار، ولا يغيثهم فيخفف عنهم ما هم فيه من البلاء»[1].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: قيل لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعونا، ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: جحدوا عبادتهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣﴾[2]؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾»[3].

قال السعدي: «وقيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون اللَّه هل نفعوكم، أو

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٨٥).

(٢) الأنعام: الآية (٢٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٤٧).

دفعوا عنكم بعض العذاب؟. ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا لم ينفعوا، ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ يحتمل أن مرادهم بذلك الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم، ويحتمل وهو الأظهر- أن مرادهم بذلك الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون بعبادة معدوم الإلهية، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا، الضلال الواضح لكل أحد، حتى إنهم بأنفسهم يقرون ببطلانه يوم القيامة، ويتبين لهم معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾[1] ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ﴾[2] ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾[3] الآيات»[4].

* * *

(١) يونس: الآية (٦٦).

(٢) فاطر: الآية (١٤).

(٣) الأحقاف: الآية (٥).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٤٩).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تمرحون: المرح شدة البطر والفرح.

مثوى: مقام ومأوى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «لم يبين هنا -جل وعلا- عدد أبواب جهنم، ولكنه بين ذلك في سورة الحجر في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾[1]»[2].

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هذا الذي فعلنا اليوم بكم أيها القوم من تعذيبناكم العذاب الذي أنتم فيه، بفرحكم الذي كنتم تفرحونه في الدنيا، بغير ما أذن لكم به من الباطل والمعاصي، وبمرحكم فيها، والمرح: هو الأشر والبطر.. وقوله: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يقول -تعالى ذكره- لهم: ادخلوا أبواب جهنم السبعة من كل باب منها جزء مقسوم منكم ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ يقول: فبئس منزل المتكبرين في الدنيا على الله أن يوحدوه، ويؤمنوا برسله اليوم جهنم»[3].

قال السعدي: «يقال لأهل النار: ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب الذي نوع عليكم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي: تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه، وبالعلوم التي خالفتم بها علوم الرسل، وتمرحون على عباد الله بغيًا

---

(١) الحجر: الآيتان (٤٣ و٤٤).

(٢) أضواء البيان (٦/ ٣٩٤).

(٣) جامع البيان (٢٤/ ٨٥-٨٦).

وعدوانًا، وظلمًا وعصيانًا، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾[1] وكما قال قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[2].

وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب، بخلاف الفرح الممدوح الذي قال اللَّه فيه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾[3] وهو الفرح بالعلم النافع، والعمل الصالح.

﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كل بطبقة من طبقاتها، على قدر عمله. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها أبدًا ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ مثوى يخزون فيه ويهانون، ويحبسون ويعذبون، ويترددون بين حرها وزمهريرها»[4].

وقد تقدمت فوائد عن أبواب جهنم أعاذنا اللَّه منها في سورة الحجر الآية (٤٤).

* * *

---

(١) غافر: الآية (٨٣).

(٢) القصص: الآية (٧٦).

(٣) يونس: الآية (٥٨).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٥٠).

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٧٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: فاصبر يا محمد على ما يجادلك به هؤلاء المشركون في آيات اللَّه التي أنزلناها عليك، وعلى تكذيبهم إياك، فإن اللَّه منجز لك فيهم ما وعدك من الظفر عليهم، والعلو عليهم، وإحلال العقاب بهم، كسنتنا في موسى بن عمران ومن كذّبه ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ يقول -جل ثناؤه-: فإما نرينك يا محمد في حياتك بعض الذي نعد هؤلاء المشركين من العذاب والنقمة أن يحل بهم، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن يَحِلَّ ذلك بهم، ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يقول: فإلينا مصيرك ومصيرهم، فنحكم عند ذلك بينك وبينهم بالحقّ بتخليدناهم في النار، وإكرامناك بجوارنا في جنات النعيم»[١].

قال السعدي: «أي: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا أيها الرسول على دعوة قومك وما ينالك منهم من أذى، واستعن على صبرك بإيمانك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ سينصر دينه، ويُعْلِي كلمته، وينصر رسله في الدنيا والآخرة، واستعن على ذلك أيضًا بتوقع العقوبة بأعدائك في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ في الدنيا فذاك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل عقوبتهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فنجازيهم بأعمالهم، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾[٢]»[٣].

* * *

(١) جامع البيان (٢٤/ ٨٦).

(٢) إبراهيم: الآية (٤٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٥١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن اللَّه -تبارك وتعالى- قص على نبيه ﷺ أنباء بعض الرسل؛ أي: كنوح وهود، وصالح وإبراهيم، ولوط وشعيب وموسى، وأنه لم يقصص عليه أنباء رسل آخرين، بينه في غير هذا الموضع، كقوله في سورة (النساء): ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾[1]، وأشار إلى ذلك في سورة (إبراهيم) في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾[2] الآية. وفي سورة (الفرقان) في قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

قوله هنا: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: قامت القيامة، كما قدمنا إيضاحه في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[4] فإذا قامت القيامة، قضى بين الناس بالحق الذي لا يخالطه حيف ولا جور، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾[5] الآية. وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾[6]. والحق المذكور في هذه الآيات: هو المراد بالقسط المذكور في سورة يونس في قوله

(١) الآية (١٦٤).
(٢) الآية (٩).
(٣) الآية (٣٨).
(٤) النحل: الآية (١).
(٥) الزمر: الآية (٦٩).
(٦) الزمر: الآية (٧٥).

تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾[(١)].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه إذا قامت القيامة يخسر المبطلون، أوضحه -جل وعلا- في سورة الجاثية في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[(٢)]»[(٣)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما جعلنا لرسول ممن أرسلناه من قبلك الذين قصصناهم عليك، والذين لم نقصصهم عليك إلى أممها أن يأتي قومه بآية فاصلة بينه وبينهم، إلا بإذن اللَّه له بذلك، فيأتيهم بها. يقول -جل ثناؤه- لنبيه: فلذلك لم يجعل لك أن تأتي قومك بما يسألونك من الآيات دون إذننا لك بذلك، كما لم نجعل لمن قبلك من رسلنا إلا أن نأذن له به ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني بالعدل، وهو أن ينجي رسله والذين آمنوا معهم ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ يقول: وهلك هنالك الذين أبطلوا في قيلهم الكذب، وافترائهم على اللَّه وادعائهم له شريكًا»[(٤)].

قال الرازي: «والمعنى أنه قال لمحمد ﷺ: أنت كالرسل من قبلك، وقد ذكرنا حال بعضهم لك ولم نذكر حال الباقين، وليس فيهم أحد أعطاه اللَّه آيات ومعجزات إلا وقد جادله قومه فيها وكذبوه فيها، وجرى عليهم من الهم ما يقارب ما جرى عليك فصبروا، وكانوا أبدًا يقترحون على الأنبياء إظهار المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل العناد والتعنت، ثم إن اللَّه تعالى لما علم أن الصلاح في إظهار ما أظهره، وإلا لم يظهره ولم يكن ذلك قادحًا في نبوتهم، فكذلك الحال في اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة لما لم يكن إظهارها صلاحًا، لا جرم ما أظهرناها، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا وعيد ورد عقيب اقتراح الآيات و ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ القيامة و ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ هم المعاندون الذين يجادلون في آيات اللَّه، ويقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل التعنت»[(٥)].

---

(١) يونس: الآية (٤٧).
(٢) الجاثية: الآية (٢٧).
(٣) أضواء البيان (٦/ ٣٩٤-٣٩٥).
(٤) جامع البيان (٢٤/ ٨٧).
(٥) التفسير الكبير (٢٧/ ٨٩-٩٠).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ما ذكره اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة، من الامتنان بهذه النعم الكثيرة، التي أنعم عليهم بها بسبب خلقه لهم الأنعام، وهي الذكور والإناث من الإبل والبقر والضأن والمعز، . . بينه أيضًا في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ﴾[1] والدفء ما يتدفؤون به في الثياب المصنوعة من جلود الأنعام وأوبارها وأشعارها وأصوافها.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ﴾[6] إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ

---

(١) النحل: الآيات (٥-٧).
(٢) النحل: الآية (٨٠).
(٣) يس: الآيات (٧١-٧٣).
(٤) النحل: الآية (٦٦).
(٥) المؤمنون: الآيتان (٢١ و٢٢).
(٦) الأنعام: الآيتان (١٤٢ و١٤٣).

إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[٢] الآية. وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾[٣] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾[٤] الآية، إلى غير ذلك من الآيات»[٥].

قال السعدي: «يمتن تعالى على عباده، بما جعل لهم من الأنعام، التي بها جملة من المنافع:

منها: منافع الركوب عليها والحمل.

ومنها: منافع الأكل من لحومها، والشرب من ألبانها.

ومنها: منافع الدفء، واتخاذ الآلات والأمتعة من أصوافها، وأوبارها وأشعارها، إلى غير ذلك من المنافع.

﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ من الوصول إلى الأوطان البعيدة، وحصول السرور بها، والفرح عند أهلها. ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: على الرواحل البرية، والفلك البحرية، يحملكم اللَّه الذي سخرها، وهيأ لها ما هيأ من الأسباب التي لا تتم إلا بها»[٦].

* * *

(١) الأنعام: الآية (١٤٤).
(٢) الزمر: الآية (٦).
(٣) الشورى: الآية (١١).
(٤) الزخرف: الآية (١٢).
(٥) أضواء البيان (٦/ ٣٩٦-٣٩٧).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على وحدانيته، وأسمائه وصفاته، وهذا من أكبر نعمه، حيث أشهد عباده، آياته النفسية، وآياته الأفقية، ونعمه الباهرة، وعدَّدَها عليهم، ليعرفوه ويشكروه ويذكروه. ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ أي: أي آية من آياته لا تعترفون بها؟ فإنكم قد تقرر عندكم أن جميع الآيات والنعم منه تعالى، فلم يبق للإنكار محل، ولا للإعراض عنها موضع؛ بل أوجبت لذوي الألباب بذل الجهد، واستفراغ الوسع للاجتهاد في طاعته، والتبتل في خدمته، والانقطاع إليه»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٥٣-٥٥٤).

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أفلم يسر يا محمد هؤلاء المجادلون في آيات اللَّه من مشركي قومك في البلاد، فإنهم أهل سفر إلى الشام واليمن، رحلتهم في الشتاء والصيف، فينظروا فيما وطئوا من البلاد إلى وقائعنا بمن أوقعنا به من الأمم قبلهم، ويروا ما أحللنا بهم من بأسنا بتكذيبهم رسلنا، وجحودهم آياتنا، كيف كان عقبى تكذيبهم ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ يقول: كان أولئك الذين من قبل هؤلاء المكذبيك من قريش أكثر عددا من هؤلاء وأشد بطشا، وأقوى قوة، وأبقى في الأرض آثارا؛ لأنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا ويتخذون مصانع.. ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ يقول: فلما جاءهم بأسنا وسطوتنا، لم يغن عنهم ما كانوا يعملون من البيوت في الجبال، ولم يدفع عنهم ذلك شيئًا. ولكنهم بادوا جميعًا فهلكوا. وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ فأيّ شيء أغنى عنهم؛ وعلى هذا التأويل يجب أن يكون «ما» الأولى في موضع نصب، والثانية في موضع رفع. يقول: فلهؤلاء المجادليك من قومك يا محمد في أولئك معتبر إن اعتبروا، ومتعظ إن اتعظوا، وإن بأسنا إذا حلّ بالقوم المجرمين لم يدفعه دافع، ولم يمنعه مانع، وهو بهم إن لم ينيبوا إلى تصديقك واقع»[١].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى راعى ترتيبا لطيفًا في آخر هذه السورة، وذلك أنه ذكر فصلًا في دلائل الإلهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة، ثم أردفه بفصل في التهديد والوعيد، وهذا الفصل الذي وقع عليه ختم هذه السورة هو الفصل المشتمل

(١) جامع البيان (٢٤/ ٨٨).

على الوعيد، والمقصود أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون في آيات اللَّه، وحصل الكبر العظيم في صدورهم بهذا، والسبب في ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير في المال والجاه، فمن ترك الانقياد للحق لأجل طلب هذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا، فبين تعالى أن هذه الطريقة فاسدة؛ لأن الدنيا فانية ذاهبة، واحتج عليه بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: لو ساروا في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين المتمردين ليست إلا الهلاك والبوار، مع أنهم كانوا أكثر عددًا ومالًا وجاهًا من هؤلاء المتأخرين، فلما لم يستفيدوا من تلك المكنة العظيمة والدولة القاهرة إلا الخيبة والخسار، والحسرة والبوار، فكيف يكون حال هؤلاء الفقراء المساكين، أما بيان أنهم كانوا أكثر من هؤلاء عددًا فإنما يعرف في الأخبار، وأما أنهم كانوا أشد قوة وآثارًا في الأرض، فلأنه قد بقيت آثارهم بحصون عظيمة بعدهم، مثل الأهرام الموجودة بمصر، ومثل هذه البلاد العظيمة التي بناها الملوك المتقدمون، ومثل ما حكى اللَّه عنهم من أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا»[1].

قال السعدي: «يحث تعالى المكذبين لرسولهم على السير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم، وسؤال العالمين، ﴿فَيَنظُرُوا﴾ نظر فكر واستدلال، لا نظر غفلة وإهمال.

﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السالفة، كعاد وثمود وغيرهم، ممن كانوا أعظم منهم قوة وأكثر أموالا وأشد آثارًا في الأرض من الأبنية الحصينة، والغراس الأنيقة، والزروع الكثيرة ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ حين جاءهم أمر اللَّه، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا افتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا بحصونهم»[2].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ٩١-٩٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٥٤).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فلما جاءت هؤلاء الأمم الذين من قبل قريش المكذّبة رسلها رُسُلُهُمْ الذين أرسلهم اللَّه إليهم بالبيّنات، يعني: بالواضحات من حجج اللَّه ﷻ ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ يقول: فرحوا جهلا منهم بما عندهم من العلم وقالوا: لن نُبْعَثَ، ولن يُعذّبنا اللَّه.. وقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يقول: وحاق بهم من عذاب اللَّه ما كانوا يستعجلون رسلهم به استهزاء وسخرية»[1].

قال السعدي: «ثم ذكر تعالى جرمهم الكبير فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين للهدي من الضلال، والحق من الباطل ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ المناقض لدين الرسل.

ومن المعلوم أن فرحهم به يدل على شدة رضاهم به وتمسكهم، ومعاداة الحق الذي جاءت به الرسل، وجعل باطلهم حقًّا، وهذا عام لجميع العلوم، التي نوقض بها ما جاءت به الرسل، ومن أحقها بالدخول في هذا، علوم الفلسفة، والمنطق اليوناني، الذي رُدَّت به كثير من آيات القرآن، ونقصت قدره في القلوب، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة أدلة لفظية، لا تفيد شيئًا من اليقين، ويقدم عليها عقول أهل السفه والباطل، وهذا من أعظم الإلحاد في آيات اللَّه، والمعارضة لها، والمناقضة، فاللَّه المستعان.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل وأحاط بهم ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ به من العذاب»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٨٨-٨٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٥٤-٥٥٥).

قال ابن القيم: «هذا شأن النفوس الجاهلة الظالمة، إذا كان عندها شيء من علم قد تميزت به عمن هو أجهل منها، وحصل لها به نوع رياسة ومال، فإذا جاءها من هو أعلم منها بحيث تمحى رسوم علومها ومعارفها في علمه ومعرفته، عارضته بما عندها من العلم وطعنت فيما عنده بأنواع المطاعن، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ﴾[2].

والسلطان هو الكتاب المنزل من السماء. وقال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾[4].

وهذا كثير في القرآن يذم به سبحانه الذين عارضوا كتبه ورسله بما عندهم من الرأي والمعقول والبدع والكلام الباطل مشتق من الكفر، فمن عارض الوحي بآراء الرجال كان قوله مشتقًا من أقوال هؤلاء الضلال، قال مالك: أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل، تركنا ما جاء به جبريل إلى النبي ﷺ لجدله؟!»[5].

* * *

(١) غافر: الآيتان (٣٤و٣٥).
(٢) غافر: الآية (٥٦).
(٣) غافر: الآية (٥).
(٤) الكهف: الآية (٥٦).
(٥) الصواعق المرسلة (٣/ ٩٠١-٩٠٣).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾

* غريب الآية:

بأسنا: عذابنا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ أي: وحدوا اللَّه وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تُقَال العثرات، ولا تنفع المعذرة. وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[١]، قال اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾[٢] أي: فلم يقبل اللَّه منه؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى دعاءه عليه حين قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[٣]»[٤].

* * *

(١) يونس: الآية (٩٠).

(٢) يونس: الآية (٩١).

(٣) يونس: الآية (٨٨).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٤٩).

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فلم يك ينفعهم تصديقهم في الدنيا بتوحيد اللَّه عند معاينة عقابه قد نزل، وعذابه قد حل؛ لأنهم صدقوا حين لا ينفع التصديق مصدقا، إذ كان قد مضى حكم اللَّه في السابق من علمه، أن من تاب بعد نزول العذاب من اللَّه على تكذيبه لم تنفعه توبته. .

وقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ يقول: ترك اللَّه -تبارك وتعالى- إقالتهم، وقبول التوبة منهم، ومراجعتهم الإيمان باللَّه، وتصديق رسلهم بعد معاينتهم بأسه قد نزل بهم، سنته التي قد مضت في خلقه، فلذلك لم يقلهم ولم يقبل توبتهم في تلك الحال. .

وقوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يقول: وهلك عند مجيء بأس اللَّه، فغبنت صفقته ووضُع في بيعه الآخرة بالدنيا، والمغفرة بالعذاب، والإيمان بالكفر، الكافرون بربهم، الجاحدون توحيد خالقهم، المتخذون من دونه آلهة يعبدونهم من دون بارئهم»[1].

قال السعدي: «﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: في تلك الحال، وهذه سنة اللَّه وعادته التي قد خلت في عباده أن المكذبين حين ينزل بهم بأس اللَّه وعقابه إذا آمنوا، كان إيمانهم غير صحيح، ولا منجيًا لهم من العذاب، وذلك لأنه إيمان ضرورة، قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه هو الإيمان الاختياري، الذي يكون إيمانًا بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب.

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٨٩-٩٠).

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: وقت الإهلاك وإذاقة البأس ﴿الْكَافِرُونَ﴾ دينهم ودنياهم وأخراهم، ولا يكفي مجرد الخسارة في تلك الدار؛ بل لا بد من خسران يشقي في العذاب الشديد، والخلود فيه دائما أبدًا»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قبول توبة العبد قبل الغرغرة

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إن اللَّه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

ما لم يغرغر: أي: ما لم تبلغ روحه حلقومه، فيكون بمنزلة القيء يتغرغر به المريض. والغرغرة: أن يجعل المشروب في الفم، ويرد إلى أصل الحلق، فلا يبلع[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «قال القاضي البيضاوي: اعلم أن توبة العبد المذنب مقبولة ما لم يحضره الموت، فإذا حضره لم ينفعه، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾[٤]، وذلك لأن من شرط التوبة العزم على ترك الذنب المتوب عنه، وعدم المعاودة عليه، وذلك إنما يتحقق مع تمكن التائب منه، وبقاء أوان الاختيار»[٥].

قال النووي: «أجمع العلماء رحمهم الله على قبول التوبة ما لم يغرغر»[٦].

وانظر فوائد أخرى للحديث في سورة (النساء) الآية (١٨).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٥٥-٥٥٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٣٢-١٥٣)، والترمذي (٥/ ٥١١/ ٣٥٣٧) وقال: «حسن غريب»، واللفظ لهما، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٠/ ٤٢٥٣)، والحاكم (٤/ ٢٥٧) وصححه ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ٢/ ٣٩٤-٣٩٥/ ٦٢٨) وصححه. وتصحف اسم «عبدالله بن عمر» إلى عبد الله بن عمرو في ابن ماجه وهو وهم.

(٣) شرح سنن ابن ماجه (٢/ ٥٦٣).

(٤) النساء: الآية (١٨).

(٥) شرح الطيبي (٦/ ١٨٤٩).

(٦) شرح مسلم (٢/ ٣٩).

فهرس الموضوعات

سورة الزمر

سورة غافر

* * *